



ترجم مصرية وغربية

محمد حسين هيكل

تراجم مصرية وغربية

تأليف

محمد حسين هيكل

■ ترجم مصرية وغربية

محمد حسين هيكل

المحتويات

٧	إهداء
٩	مقدمة
٢٣	القسم الأول: ترافق مصرية
٢٥	كليوباترة
٣٧	الخديو الأول إسماعيل باشا
٥٣	الخديو توفيق باشا
٧١	محمد قدرى باشا
٧٧	بطرس باشا غالى
٩١	مصطففى كامل باشا
١٠٧	قاسم بك أمين
١١٩	إسماعيل باشا صبرى
١٢٩	محمود باشا سليمان
١٣٥	عبد الخالق ثروت باشا
١٠٠	القسم الثاني: ترافق غربية
١٥٧	بتهوفن
١٧٣	هبوليت أدولف تين
١٩١	وليم شكسبير
٢٠٣	برسي بيتش شلي

إهداء

إلى صديقي
الدكتور حافظ عفيفي باشا

تقديرًا لما كان لصداقته من فضل في إقدامي على كتابة كثير من فصول هذا الكتاب.

هيكل

مقدمة

يحتوي هذا الكتاب على نوعين من الترجم؛ فأما أولهما فيتناول ترجم مصرية لرجال هذا العصر الأخير منذ ولاية الخديو إسماعيل باشا الحكم إلى وقتنا الحاضر، خلا ترجمة لكتابات كتب قبل أن تكتب هذه الترجم جميعاً، أما سائر الترجم المصرية فنشرت في «السياسة الأسبوعية» حين كانت تنشر فيها فصول رجال التاريخ الحديث في مصر، اللهم إلا ترجمة محمود سليمان باشا فقد كتبت لمناسبة وفاته، وترجمة عبد الخالق ثروت باشا فقد كتبت ولم تنشر في غير هذا الكتاب، وربما كانت الترجمة لرجل كثروت باشا عاش بين أظهرنا وكان له دور في حياة مصر في أثناء وجودنا، مما يتعدى أداؤه بما تمضي به الدقة التاريخية وما توجبه من تمحيص ونقد، وكنت أنا شاعراً كل الشعور بهذه الدقة في أثناء كتابتي هذه الترجمة، لكنني إنما تخطيت هذه الاعتبارات لأنني أردت أن أضع أمام القارئ صورة – ولو تقريرية – لحياة مصر السياسية في هذا العصر الأخير، وما دمت قد بدأت هذه الصورة منذ عصر إسماعيل باشا الخديو فقد رأيت واجباً إتمامها إلى آخر عصرنا الحاضر، ثم ما دمت بذاتها بترجمة بعض من كان لهم في حياة مصر السياسية أثر ظاهر فمن حق ثروت باشا أن يكون خاتماً لهذه السلسلة من عظماء الرجال الذين تناولت، على أنني رأيت أن أقف في ترجمته عند الواقع الثابتة وأن أتجنب المغامرة في الفروض والظنون، حتى لا يتعرض ما أكتب عنه لنقد يفسده وإن أمكن أن يظهر فيه نقص كثير.

فأما النوع الثاني فيتناول ترجمة بتهوفن، وتين، وشكسبير، وشلي، من كبار رجال الغرب، وهولاء إنما ترجمت لهم لمناسبات خاصة، ولأنني أحبيتهم منذ زمان طويل جيًّا، فلما كانت مناسبات كمرور مائة عام على موت بتهوفن أو على مولد تين أو نحوهما من المناسبات، رأيت واجباً عليًّا لهذا الحب الذي أضمر لأولئك الرجال جيًّا يعادل ما أفت

من آثارهم وما حفظت لي من معاني السرور بها والطرب لها — أن أثبت صورة هذا الحب بإثبات صورة من حياتهم هي الصورة الممتلئة بها نفسي منهم.

ولم يكن الاسم الذي وضعته للكتاب هو الذي دار من أول الأمر بخاطري، فإن كلمة «ترجم» تقتضي تناول جوانب حياة المترجم له بتدقيق وتوسيع أكثر مما عالجت أنا في هذه الرسائل، فأنا لم أتناول — أغلب الأمر — إلا ما اعتقدته الناحية الغالبة في حياة الشخص، والتي كان لها فيه الأثر البالغ، وأنا قد تناولت هذه الناحية في إيجاز جعلني أختار في نفسي اسمًا لكتاب تؤديه الكلماتان الإنجليزيتان (Biographical Sketches)، على أنني بعد البحث مع أصحابي لم أهتم لعبارة عربية سائغة لأن تكون عنواناً لكتاب تؤدي هاتين الكلمتين أداء دقيناً، وفكرت وقتاً في أن أجعل عنوانه (من صحف التاريخ)، وأشار عليّ صديق بأن أجعل العنوان (ملامح)، ثم انتهيت إلى هذا العنوان الذي ظهر الكتاب به، فإذا كان فيه شيء من الادعاء فليس الذنب في ذلك ذنبي، وإنما هو العجز عن أن أجد المقابل الصالح للصورة المضبوطة التي تعبّر تعبيراً صادقاً عما في الكتاب.

وكم وددت لو أنني استطعت أن أجعل الكتاب كله ترجم مصرية صرفة، بل لو استطعت أن أظهره في عدة أجزاء تصل الترجم فيها بين عصور مصر المختلفة منذ عهد الفراعنة إلى وقتنا الحاضر، فما أشك في أن كتاباً كهذا يمكن أن يكشف من تاريخ مصر عن صلة عصورها بعضها ببعض وعن جهود المصريين المتصلة منذ أول التاريخ إلى عصرنا الحاضر في سبيل الحق والحرية والعرفان، على أنني أتعذر بأن عملاً كهذا مما لا يطيقه شخص وحده، وما لا أطيق أنا بنوع خاص، فإني لم أتخصص في التاريخ ولم تملّ بي حياتي العملية نحوه إلا بمقدار، ثم إن تاريخ مصر في مختلف عصورها ما يزال مبعثراً في أطواب الكتب القديمة، لم يُعن أحد، ولم تُعن الجامعة المصرية نفسها، بالكشف عنه كشفاً علمياً صحيحاً وبتدوينه على طريقة تجعله عذباً سائغ المورد لمن يشاء أن يصل إلى الحقائق فيه من غير أن تصدّه الطريقة السيئة أو اللغة المضطربة أو القصد السيء، وإذا كنت قد وقفت على تاريخ مصر بشيء من الدقة في العصور الأخيرة فذلك حين كتابة رسالتى للدكتوراه في القانون عن «دين مصر العام»، فقد اضطررني ذلك إلى الانقطاع لدراسة التاريخ الحديث منذ عهد والي مصر سعيد باشا والإكباب على هذه الدراسة شهوراً متواالية وتدوين الملاحظات، والوقوف عند الأشخاص الذين كان لهم في حياة مصر السياسية في أثناء هذا العصر الأخير دور خاص، ولا يزال كثير مما وقفت عليه في أثناء مطالعاتي ثم لم تقتض حاجة رسالتى تدوينه بها عالقاً بذهني ممثلاً أمام خيالي.

صورة مصر منذ أيام محمد علي، وصور الكثيرين ممن لعبوا دوراً خاصاً في حياتها، فاما قاسم أمين فقد عنيت بقراءة كتبه وكل ما كتب عنه مذكنت في مدرسة الحقوق بمصر، ف تكونت في نفسي منه فكرة أحسبها دقيقة غاية الدقة، وأتاح لي اشتغالى بشئون مصر السياسية في السنوات الأخيرة أن أضبط صور من ترجمت لهم من هؤلاء جهد ما واتتني به الطاقة.

وإنَّ كتاباً كالذي أشرت إليه حاوياً تراجم أكابر رجال مصر في عصورها المختلفة منذ الفراعنة إلى اليوم، يكون لا ريب جليل الآخر في تكوين صورة تاريخية لهذا الوادي الجميل الذي نعيش فيه، صورة تظهر اتصال الحياة على ضفاف نهره المبارك منذ أقدم الأزمان إلى وقتنا الحاضر، ثم إن مثل هذا الكتاب ليدل دلالة كبرى على بطلان الصورة الزائفة التي يضعها مؤرخو الغرب لتاريخ مصر، فالواقع أن تاريخ بلادنا لم يُصنِّعْ حتى اليوم مؤرخ منصف على طريقة علمية صحيحة، اللهم إلا ما تعلق ببعض جوانب العصر الفرعوني من عصوره، فاما ما بعد ذلك من عصور فقد شوهه الساسة الأجانب لماربهم الخاصة منذ القدم: شوهه العرب الذين خلفوا الرومان في مصر، كما شوهه نابليون حين قدومه بالحملة الفرنسية في آخر القرن الثامن عشر، ثم كان لكتاب الإنجليز بعد ذلك النصيب الأولي من تشوييه تشويفاً قائماً على ذلك الأساس الاستعماري من أن شعب مصر قد ظل محكوماً منذ انتهاء عهد الفراعنة بأمم أجنبية عن مصر، بالفرنس، ثم اليونان، ثم الرومان، ثم العرب، ثم الترك، ثم الإنجليز، وشعب هذا شأنه — فيما يدعون — لا يعرف لنفسه عليه كرامة يضحي في سبيلها ولا يقدر للعزيمة القومية معنى يثير من أجل تحقيقه، وما يزال هذا التاريخ هو — مع الكثير من الأسف — التاريخ الرسمي الذي دُرِّس لنا ويدرس اليوم لأبنائنا، هذا، على أن التاريخ الصحيح والتراجم الحقة تنادي بكذب هذه الصورة من حياة مصر على تعاقب الأزمان وبيطلانها.

ولست واثقاً من أن تمكنتني الفرصة من الرجوع إلى تواريخ هذه العصور القديمة وإلى تراجم الرجال الذين عاشوا فيها لأنثبت حينئذ في شيء من التفصيل أن تاريخ مصر جدير بأن يفخر المصريون به أكثر مما يفخر غيرهم من أبناء آية أمة أخرى بتاريخها؛ لذلك أسارع فأنتهز فرصة نشر هذا الكتاب المشتمل على تراجم بعض رجال مصر في العصر الأخير، وعلى ترجمة كيلوباترة خاتمة عهد البطالسة في مصر، لأبين زيف الصورة التي يصورها الساسة الاستعماريون، ولأظهر للقارئ في كلمات موجزة كيف دل ما تداول على مصر من ألوان الحكم على أن شعوبها أعرق الشعوب حرصاً على قوميته وأكثرها تضحية في سبيل الحق والحرية والعرفان.

على أنني قبل أن أعالج هذا البيان أود أن أثبت للحقيقة أن بعض الذين أرّخوا مصر من أهل الأمم المختلفة كانوا حسني النية، ولكنهم خُدعوا بتمويله الساسة، وما أشك في أنهم متى اطّلعوا على هذه المقدمة الوجيزه سيعودون إلى الحق يقررونها وسيعرفون لمصر بمكانتها التاريخية السامية.

ولعل ما خُدِع به هؤلاء المؤرخون الحسنون النيه هو ما تواضع عليه الكتاب من تبوييب تاريخ مصر عصوراً أطلقت عليها أسماء أمم غير مصرية، فمن بعد العصر الفرعوني يذكرون عصر الفرس، ثم العصر اليوناني، ثم العصر الروماني، ثم العصر الإسلامي أو عصر العرب، ثم عصر الترك، ثم العصر الأخير عصر الاحتلال الإنجليزي، وتبويب التاريخ على هذه الصورة من شأنه أن يدعوا إلى الخطأ وسوء التقدير من جانب من لا يكفلون أنفسهم مؤونة البحث في التفاصيل بشيء من الدقة، والواقع أن هذا التبوييب خاطئ في أكثر مناحيه، وإذا كان صحيحاً أن الحكماء الذين تولوا أمر مصر في عصور مختلفة لم يكونوا من أصل مصرى صميم فلن يغير ذلك من خطأ المؤرخين وادعائهم خضوع مصر لأمم أجنبية عنها، إلا إذا اعتربنا قيام ملك كملك الإنجليز على رأس أكبر إمبراطورية في الوقت الحاضر – مع أنه من أصل غير إنجليزي – دليلاً على أن إنجلترا والإمبراطورية البريطانية كلها خاضعة للأمة التي يرجع إليها دم ملوكها، وهذا لغو من القول، كما أن ادعاء خضوع مصر لأمم أجنبية عنها هي التي يرجع إليها أصل حكامها لغو مثله، وليس هذا المثل الذي ضربنا بالمثل الفرد، فنابليون إمبراطور فرنسا كان من كورسيكا، أي كان أقرب للإيطالية منه للفرنسية، وأكثر الملوك الباقيين على عروش أوروبا اليوم من دماء غير دماء الشعوب التي ملَكتهم عليها، وليس هذه الشعوب بذلك أقل حرية واستقلالاً وعظمة مما كانت مصر في أكثر العصور التي تعاقبت عليها.

ولنعد الآن إلى تاريخ مصر نفسه، فالكل يعترف لمصر الفراعنة بأنها كانت أمة عزيزة الجانب مضيئه الحضارة على نحو لا يمكن أن تتسلل إليه الشبهة مع قيام الآثار القديمة شاهدة به محدثة عنه بأقوى عباره وأفصح لهجة، مع هذا فقد منيت مصر الفراعنة بغزو الرعاة الهكسوس إليها مدة استمرت نحو تسعين سنة، حتى استرد المصريون تاج بلادهم سنة ١٥٨٠ قبل الميلاد، وظلت مصر من بعد ذلك متحكمة في البلاد المجاورة لها ممتدة السلطان على حوض البحر الأبيض المتوسط، وفيه روما واليونان، إلى أوائل القرن السابع قبل الميلاد، هنالك كانت الحضارة الإنسانية على ضفتي النيل قد بلغت من الرقي والترف ما تشهد به الآثار التي ترى أعيننا شيئاً منه.

وهنالك بدأت آشور، ومن بعدها فارس، تفكير في غزو مصر، ومع غلبهم إياها ودخولهم عاصمة ملكها غير مرة فإنهم لم يستطيعوا الاستقرار بها وتولي الحكم فيها إلا فترات قصيرة انتهت في سنة ٣٢٢ قبل الميلاد.

قبيل هذا التاريخ نشأ في شمال اليونان فليب المقدوني وخلفه من بعده الإسكندر الأكبر، وكانت الطبيعة قد وهبتهما — ووهبت الابن بنوع خاص — من المقدرة في القيادة الحربية ما يدخل في باب المعجزات، وحيث يظهر في الناس نصف إله في الحرب أو في الدين أو في السياسة ترى العالم كله يتطلع معجباً مسحوراً، وقد دوخ الإسكندر روما وأشور والفرس ووصل إلى الهند، ولم تكن أمة من الأمم تستطيع مقاومته، أما أمم أوروبا الغربية والشمالية فكانت في تلك الأيام في حال من الهمجية أشبه بحال أواسط أفريقيا اليوم مما يجعلها نكرة على التاريخ، ولا يجعل لأية مقارنة بينها وبين غيرها محل، وجاء الإسكندر إلى الشام ففتحت أمامه مصر أبوابها في سنة ٣٢٢ التي أشرنا إليها؛ لأنها رأت فيه مدوح الفرس، وكانت بينها وبين الفرس عداوة أشد العداوة، وبقيت مصر في حكم الإسكندر، وإن شئت في حكم اليونان تسع سنوات، إذ مات الإسكندر في سنة ٣٢٣ ق.م ثم اختلف قواده من بعده فيما بينهم، وكان بطليموس بن لاجوس من أقدرهم ومن أعرفهم بمصر وأشدهم حباً لها.

وإذا كانت مصر بحاجة إلى رجل ذي مواهب حربية ممتازة يستطيع أن يصد بقوتها عدوان من يحاول الاعتداء عليها، فقد أطمأنـت إلىبقاء بطليموس مستقلاً بها مستقلة هي به، وحدث ما أراد المصريون من ذلك، فإن هذا البطل من قواد الإسكندر جعل الإسكندرية قاعدة له ومنها حارب الآشوريين والفرس وحارب اليونان أنفسهم، ووطرد لمصر سلطاناً أعاد لها ولحضارتها عز الفراعنة الذي اضطرب وتزعزع خلال القرون الثلاثة التي سبقت ولايته عرش إيزيس وأوزوريس.

ومع أن بطليموس الأول هذا كان أشد حرضاً على طقوس الديانة اليونانية التي نشأ فيها فإن ابنه بطليموس الثاني كان مصرياً في دينه مصرياً في عاداته مصرياً في دمه، ولا عجب، فمصر — بعزلتها عن العالم لما يحيط بها من البحر في شمالها والصحاري في سائر جهاتها — هي عالم وحده تخلق الناس فيها خلقاً وتسكب في عروقهم دماء تجري فيها روح النيل وقوة سلطانه؛ ولذلك كان كل الذين أقاموا بمصر إما تمثلتهم مصر فأصبحوا مصريين، أو لفظتهم فلم يطيقوا ولم يطق أخلاقهم من بعدهم بها مقاماً.

وبلغ من حب بطليموس الثاني مصر وحب مصر إياه أن أصبحت الإسكندرية عاصمة العالم كله حضارة وعلماء وإيماناً، وإن اجتمعت فيها فلسفة اليونان المادية بفلسفة مصر

الروحية، ثم نشأت منها فلسفة مصرية خاصة هي فلسفة مدرسة الإسكندرية، وكانت مصر هي سيدة البحار في ذلك العصر، فكانت سياستها موضع النظر والتأويل في روما واليونان وأشور والفرس وسائر بلاد العالم المعروف حينئذ، وتعاقب البطالسة حتى كليوباترة في حكم مصر ثلاثة قرون متواتلة، تعاقب البطالسة على عرش مصر بإرادة شعب مصر مستقلين به مستقلاً هو بهم قائمين باسمه ناشرين على ربوع العالم المعروف يومئذ لواءه، فهل يكون نعت هذا العصر من تاريخ مصر بالعصر اليوناني معناه خضوع الشعب المصري لأمة أخرى؟ أو يكون ذلك التصوير باطلًا البطلان كله لأن شعوب العالم ومنها الشعب اليوناني هو الذي خضع لمصر في كل تلك القرون الثلاثة، وكان يرى في الإسكندرية عاصمة الدنيا كلها؟

وفي أواخر عهد البطالسة بدأ نجم روما يعلو في سماء السياسة العالمية، وبدأت روما تطبع في التغلب على مصر بعد أن كانت تخطب ودها وتخشى غضبها، وكما وهبت الأقدار الإسكندر المقدوني المقدرة الحربية التي استطاع بها أن يتغلب على كل شعوب العالم المعروف يومئذ، كذلك وهبت هذه الأقدار مثل تلك المقدرة يوليوس قيصر صاحب عرش روما، فلقد ظفرت جيوش قيصر بالشعوب كلها ورفت راية روما على اليونان والشام، وامتدت غزواتها إلى ناحية آشور، ثم سارت شمالاً وغرباً فأخضعت السكسون في ألمانيا والفرنسيين في بلاد (الجول) وأخضعت أهل الجزيرة البريطانية لحكم قيصر، فإذا كانت هذه الأقدار قد عصفت بمصر فلم تكن مصر لذلك متفردة بالخضوع دون غيرها من أمم العالم، وصحح أن حكم روما لمصر عن طريق حاكم تبعث به إليها ظل متابعاً قروناً عدة، لكن الصحيح كذلك أن هذا الحاكم كان يجد أكثر الأمر أشد العنت في حكم البلاد، وكان يتعرض للثورات المتواتلة تقوم عليه وتضطر روما معها للاحتماء بالإسكندرية أحياناً تاركة داخلية البلاد يحكمها أهلها، وتتمكن أحياناً أخرى من قمع هذه الثورات والتغلب عليها وإخضاع مصر لنير روما قهراً عنها.

والمؤرخون جمیعاً متفقون تمام الاتفاق على أن السكينة والأمن لم يسودا مصر طول هذا الذي يسمونه العهد الروماني، فإن روما كانت – كما كانت بيزانس من بعدها – دائمة الوجل من ناحية مصر من خشية أن ينقطع عنها مدد الغلال التي كانت مصر تبعث بها غذاء لأهل عاصمة العالم في ذلك الحين، ولم تكن أسباب الاضطراب يومئذ مقصورة على الناحية السياسية، بل خلق المصريون منها في سائر النواحي ما ارتبت روما معه وما اضطررت بسببه لارتكاب الفظائع التي لا يزال تاريخها ملطخاً بها، من هذه الأسباب

السبب الديني؛ فقد كان الدين المصري القديم بعد اختلاطه بالتعاليم اليونانية قد قصر عن أن يلهم الشعب ما يلهم كل دين من طمأنينة النفس وسعة الأمل، وكانت المسيحية الوليدة في روما قد بدأت تنتقل إلى مصر رويداً رويداً، وكان الطبيعي أن يلقي الدين الجديد في مصر قبولاً حسناً، فقد كان اليهود في مصر كثيري العدد جداً، وكانت الديانة اليهودية تتصل في كثير بالديانة الفرعونية القديمة أن كان موسى مصرياً تلقى الطقوس أيام شبابه على كهنة إيزيس، وكان الاضطهاد الروماني مما جعل الناسأشد إقبالاً على دين يدعو إلى الإباء والسلام والتسامح، و يعد الجنة المحرر والبائس والمظلوم، على أن خلافاً في الرأي الديني ما ليث أن نشأ في مصر بين المتشبعين من قبل بتعاليم الفلسفة اليونانية والآخذين بروحية الديانة المصرية القديمة، وكم أثار هذا الانقسام الديني من خلاف! وكم اتخد سبباً خطياً للثورة على روما ومحاربتها والتغلب في بعض الأحيان على ولاتها وحكامها واستقلال أهل مصر بالحكم في مختلف ولاياتها.

وكذلك نرى أن مصر قد تمثلت البطالسة وهضمتهم طبيعتها فأصبحوا مصريين كسائر المصريين وإن كانوا من أصل يوناني، فأما الرومانيون الذين أرادوا الاحتفاظ برومانيتهم وحكم مصر على غير إرادة أهلها، فقد ظلوا تناهضهم عناصر الحياة في مصر حتى انجلوا عنها كارهين، وكذلك كانت دورات التاريخ في مصر دائماً؛ فمن خضع لحكم الطبيعة المصرية القوية في تمثيلها من ينزل ربوعها كان له أن يطعم في نعيمها وأن يستريح إلى خيرها ورخائها، ومن حاول محاربة هذه الطبيعة المصرية كانت عليه حرباً عوائناً، لكنها لا تتجأ في حربها إلى العواصف الاجتماعية التي تثور فجأة مرة بعد أخرى، كلاب هي تتجأ في الناحية السياسية والاجتماعية إلى مثل ما تتجأ إليه الطبيعة المصرية من شمس وهواء ونهر وأرض ورمال، هذه الطبيعة لا تعصف بشيء أجنبي عنها ولكنها تظل حتى تبلية وتفنية.

وانتهى حكم الرومان وعقبه العصر الإسلامي لتكتب مصر خالله صحف مجد في تاريخها كأمة مستقلة ناهضة بأعباء الحضارة في العالم على نحو ما كانت مصر الفرعونية، تاركة من آثار ذلك مثل ما تركوا مما لا يزال شهيداً على العظمة والجلال وتقديم المدنية وارتقاء آثارها من علم وفن إلى أبعد حدود الارتفاع، فقد نهض العرب منذ أوائل القرن السابع الميلادي نهضة روحية بفضل الإسلام أعقبتها نهضة حربية قوية متأثرة بها لا تقل في اندفاعها اكتساحاً لغيرها من الأمم عن نهضة الإسكندر في اليونان وقيصر في روما. ولم تقف مصر في وجه تيار هذه النهضة أن شامت في الدين الجديد جدة روحية كانت تشعر بال الحاجة إليها شعوراً عميقاً، فإن المسيحية – على أنها دين فضل وجمال –

قد خالطت طقوسها صور من الزهد والتقطف والانقطاع بما لا يتفق مع طبيعة وادي النيل الدائم الصفو الدائم الابتسام، وهذا التناقض بين ابتسام الوادي وعبوس التقطف، جعل دعاء المسيحية في مصر يبالغون في ميلهم إلى جانب الانقطاع والزهد، ويفضلون العيش في صوامع خشنة فوق رمال الصحراء المحرقة، وذلك لفطر خوفهم من زخرف الوادي وغضارة نعيمه، وبالرغم من قيام طائفة من المصريين المسيحيين تحاول التوفيق بين تعاليم دين عيسى وفيض النيل ببركاته فإن دعاء الزهد والتقطف كانوا أصحاب الغلب.

فلما أذن مؤذن المسلمين بأن التقرب إلى الله لا يصد عن المتع بالدنيا ونعمتها، دخل المصريون في دين الله أفواجاً، وأوت مصر من العرب حملة هذا الدين وحماته كلًّ من تستطيع أن تؤويه، ولم يكن ذلك عجباً في أرض الأنبياء، ولا هو كان عجباً في عصر لم تكن الفكرة القومية فيه قد نمت النمو الذي نعرف اليوم، فالاماكن المقدسة في مكة والمدينة كانت معتبرة في نظر المسلمين جميعاً عاصمة المملكة الإسلامية كما كان الخلفاء الراشدون، ثم أمراء المؤمنين من بعد، معتبرين كلمة الله على الأرض تجب لهم على كل مسلم الطاعة المطلقة.

لكن غريزة القومية كانت قوية في مصر بسبب عزلة مصر عما جاورها، يفصل بينها وبين كل جار من البحار أو الصحاري ما لا يسهل اجتيازه؛ لذلك لم تثبت خلافة الراشدين أن انتهت وأن قام يزيد بن معاوية أميراً للمؤمنين خلفاً لأبيه حتى بدأت نذر الانتقاد على السلطة المركزية تبدو في مصر برغم أنها كانت حلقة وسطى في سلسلة الفتوحات الإسلامية المستمرة المتواتلة ذاهبة إلى الغرب حتى تصل إلى مراكش كي يغزو موسى بن نصیر الأندلس منها متخطياً جبل طارق، ولم يك حكم بغداد وسلطان الدولة العباسية يستقر ويطمئن حتى بدأت مصر تقوم مستقلة استقلالاً ناجزاً صحيحاً: استقلت أول أمرها حين قامت الأسرة الطولونية بالحكم فيها، ونازع الإخشيديون الطولونيين وغلبوا واستقلوا بعرش مصر، ثم جاء الفاطميون من ناحية المغرب فأجلوا الإخشيديين وأسسوا بمصر دولتهم بفضل قائدتهم جوهر الصقلي الذي أنشأ القاهرة، واعتلى الأيوبيون العرش من بعد الفاطميين.

وفي هذه القرون المتواتلة كانت مصر مستقلة بشئونها باللغة في أحياناً كثيرة المكانة الأولى بين الأمم الإسلامية صاحبة الغلب على أمم العالم جميعاً، ولن ينسى أحد من ذلك فضلها العظيم في الناحية العلمية والأدبية، فقد كان الجامع الأزهر منذ إنشائه الفاطميون

الجامعة الإسلامية الأولى، سواء كان ذلك في أول عهد الفاطميين حين كانت التعاليم الشيعية تلقى من فوق منابرها، أو كان في العهد السنوي الذي جعل له حتى عصراً الحاضر المقام الأول بين الجامعات الدينية الإسلامية.

ثم لن ينسى أحد كذلك ما كان لمصر من مجد وفخار في الحروب الصليبية حين تأبّلت أوروبا تزيد أن تغلب المسلمين على أمرهم في الأماكن المقدسة بفلسطين، وتضع يدها عليها باسم الصليب؛ فقد كانت الجيوش المصرية المظفرة هي التي صدت أكبر الغارات وأشدّها هولاً. واسم صلاح الدين الأيوبي باقٍ على الزمان بقاء الزمان كلما ذكرت تلك الحروب، وهزيمة لويس التاسع في المنصورة وسجنه بها باقٍ كذلك شهيد على مجيد فعال مصر في صد الغارة الصليبية.

وكان هذا كله والدولة العباسية ببغداد لا تزال باقية ولا يزال لها اسم دولة الخلافة مما أدى بطائفته من المؤرخين للوقوع في الخطأ واعتبارهم هذه القرون المتواتلة على مصر، وهي متمتعة باستقلالها مقيمة من صروح الحضارة والعلم ما فاق كل ما عرفت بغداد، بعض ما توالى على مصر من ظلم وما ناء به أهلها من مهانة وذل.

وليس بي حاجة إلى العود للقول بأن قيام أفراد من دم غير مصرى على عرش مصر لا يدل على أن مصر كانت تابعة لأمة أخرى؛ فالمملوك في أكثر الأمم وفي مختلف عصور التاريخ لم يكونوا أكثر الأمر من أهل تلك الأمم إذا أنت تقتصي أصل مولدهم، لكنهم وقد عظموها بها كما عظم بمصر ملوك مصر فقد نسبوا إليها على حين يصر المؤرخون على نسبة ملوك مصر لبلاد غير مصر، والغلو في ذلك إلى حد القول بأن مصر وملوكها كانوا تابعين لدولة أخرى، وهم يقولون: ألم يتولَّ أحمد بن طولون أمر مصر من قبل العباسيين وإن استقلَّ من بعد بها؟ إِذَا فمصر ولادة عباسية، والحقيقة أن الخلافة الإسلامية في تلك العصور كانت قد انحلت عنها الصبغة الزمنية وبقيت لها السلطة الروحية وحدها، فكانت تبعية كثير من الدول الإسلامية لها شبيهة كل الشبه بتبعية الدول المسيحية لبابا روما، واستقلال الأمم وسيادتها لا شأن لها بالسلطان الروحي، وإنما مرجع أمرهما إلى السلطان الزمني، فما دام في عاصمة مملكة من المالك كل أمر هذه المملكة الزمني فليكن لها من الاتصال الروحي بمكة أو بدمشق أو ببغداد أو بروما ما تشاء، فلن يغير ذلك قليلاً ولا كثيراً من أنها أمّة كاملة الاستقلال، والأمر الذي لا ريبة فيه أن الخلافة الإسلامية انحلت عنها السلطة الزمنية انحلاً فعلياً من بعد خلافة المؤمنون ومنذ بدأ المعتصم يضطرب في حكم الدولة العربية وحدها، هذا إلى أن أولئك الذين حكموا مصر من طولونيين وإخشidiين

وفاطميين وأيوبيين كان شأنهم شأن طوائف تماثلهم في أكثر بلاد أوربا حضارة ورقىً، طوائف جاءت إلى إنجلترا وفرنسا وألمانيا وغير هذه من الدول من بلد آخر في بعض الغزوات، وكانت في ر CAB الغازي ثم اندمجت من بعد ذلك في الشعب، وظل لها مع ذلك من تاريخها ما يحفظ لها في نظام الطوائف أقرب مكان من العرش، فهي أبداً تتطلع إلى مقامه وكثيراً ما تصل إلى ارتقائه.

واستمر حكم الدول الطولونية والإخشيدية والفاتمية والأيوبية بمصر من سنة ٨٦٨ إلى سنة ١٢٥٠، ومن بعد هذا التاريخ ازداد انحلال السلطان الروحي للخلافة وزالت الدولة العباسية نفسها من بغداد، واستولى التتار على أكثر ممتلكاتها الآسيوية، أما مصر فقد استمرت تخطو إلى الأمام خطوات واسعة في سبيل التقدم والحضارة، وكان المالكية هم الذين حلو محل الدولة الأيوبيية في الحكم، والماليك هم بعض هذه الطوائف التي أشرنا إليها والتي تجيء في ر CAB الغaza، ثم تصل في كثير من الأحيان إلى عرش البلاد بـاقرار أهل البلاد أنفسهم، وهؤلاء المالكية كانوا قد جاءوا إلى مصر في بلاط حكامها الذين سبقوهم والأيوبيين منهم بنوع خاص.

اشتهر هؤلاء الحكام ليكونوا في حاشياتهم وفي جيوشهم ول يكون لهم من نسائهم الجميلات سراري وموالي، ومن شأن هؤلاء أن يكونوا أكثر من كل الناس وقوفاً على أسرار ذوي العرش ومعرفة ببوطن أمرهم وأسباب قوتهم وضعفهم، فكان طبيعياً بعد إذ كثروا في مصر كثرة جعلت منهم جيشاً جراراً أن يخلفوا الأيوبيين في ملتهم، لكنهم - كالأيوبيين وأكثر من الأيوبيين - كانوا مستقلين بمصر وكانت مصر مستقلة بهم تماماً الاستقلال غير خاضعة لحكم أية دولة أخرى، بل لقد كانت في عهدهم عزيزة الجناب مرهوبة الجانب من كل دول البحر المتوسط التي كانت وحدها المعترضة ذات حضارة معترف بها في العالم كله، وبلغت من ذلك أن أصبحت القاهرة مقر الخلافة الإسلامية ممثلاً في العباسيين الذين انقرضوا ملوكاً، فلم يبق للخلافة منهم إلا شيخ ذايل أراد الظاهر بيبرس أن يخلع عليه رواء من قوة مصر ومجدها بأن يسكن الخليفة العباسي في عاصمة ملكه، ولم يكن الظاهر في هذا دعياً ولا مغروراً، فقد بلغت مصر في عهد الماليك البحري والبرجية من الرفعة شأواً عظيماً حتى كانت صاحبة الإملاء على السياسة الدولية في ذلك العصر، ولم يقف أمرها في عظمتها عند السلطان الحربي، بل كان لها أكثر من سلطان علمي وأدبي معترف به، كما كانت مركز الدائرة من حركة التجارة العالمية، وكمثل من سلطان مصر الأدبي أضع تحت نظر القارئ الفقرة الآتية من كتاب الأستاذ عبد الرحمن بك الرافعي «تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر» قال:

ظللت الآداب العربية إلى عهد السلاطين البحريه والبرجية الشراكسة حافظة مكانتها التي كانت لها من قبل، وإليهم يرجع الفضل في إنقاذ آداب العربية من غزوات المغول التي كادت تقضي على العلوم والأداب العربية في الشرق، فكانت مصر ملجاً للناطقين بالضاد ممن فروا أمام التتار في العراق وفارس وسوريا وخراسان، وبقيت لغة حكومتها عربية في عهد تينك الدولتين، واستطلعت العلوم والأداب العربية بحماية الملوك والسلطانين في مصر، ونبغ فيها طائفة من فطاحل الشعراء والأدباء والعلماء، كالبصيري صاحب البداية، والسراج الوراق، وابن نباتة المصري، والقلقشندى صاحب الأعشى، والأ بشيهي صاحب المستطرف، وابن منظور صاحب لسان العرب، وابن هشام النحوي العظيم الذي يقال فيه إنه أنسى من سيبويه، وابن عبد الظاهر، والنواجي — نسبة إلى نواج إحدى قرى مديرية الغربية — صاحب حلبة الكميت، والقسطلاني المحدث المشهور، وشمس الدين السخاوي صاحب الضوء الالمعم، وابن خلكان المؤرخ المشهور صاحب وفيات الأعيان، والصفدي صاحب الواقي، وابن حجر المؤرخ إمام الحفاظ والمحدثين في زمانه، والعيني المؤرخ والمحدث، وابن وصيف شاه، وابن دقماق، والمقرizi صاحب الخطط، وال McKinin بن العميد، وأبو الفداء المؤرخ الجغرافي المشهور صاحب تقويم البلدان، والذهبى، والنويري صاحب نهاية الأربع في فنون الأدب، وابن فضل الله العمري صاحب مسالك الأنصار في ممالك الأمصار، وابن عقيل، وابن تغري بردى صاحب النجوم الزاهرة، وجلال الدين السيوطي صاحب التأليف الشهير في التفسير والعلوم الشرعية والتاريخ والأدب واللغة وهو آخر من ظهر في ذلك العصر من كبار العلماء بمصر، والدميري صاحب حياة الحيوان، وابن إياس المؤرخ الذي أدرك الفتح العثماني، وقد استضافت مصر في ذلك العصر جماعة من أئمة العلوم والفلسفه في الشرق، كالإمام ابن تيمية وابن القيم الجوزية، وفيلسوف المؤرخين ابن خلدون.

ونضع كذلك تحت نظر القارئ هذه العبارة من كتاب «صفحات في تاريخ مصر» للأستاذ توفيق حامد المرعشلي، ليりى منها مبلغ ما وصلت إليه مصر أيام المماليك من عظمة في نواحي حياتها الاقتصادية والسياسية، قال: «إن عصر المماليك يعد من عصور الرخاء والنشاط التجاري والاقتصادي بمصر، فكانت الصلة بين مصر ودول أوروبا موطدة الدائم، عقدت المعاهدات مع فرنسا وجمهوريات إيطاليا لحماية التجار الأجانب

وترغيبهم في الإقامة بمصر، فراجت الأسواق التجارية وصارت مصر الملتقي التجاري بين الشرق والغرب سواءً أكان بمرور التجارة من مصر فالبحر الأحمر إلى الهند، أم من الشام إلى العراق فالخليج الفارسي إلى بلاد العجم والهند وبالعكس من الطريقين، بما عاد على المالك وخزانتهم وعلى المصريين ضمناً بالأموال الطائلة التي كانت تجيء من المkos والحركة التجارية.» فأما رقي الفنون، وفن العمارة منها بنوع خاص، فتشهد به الآثار الكثيرة الموجودة بمصر ومنها المساجد والمنازل الأثرية بمشرياتها وأبهائها البدعة التنسيق الرائعة الجمال.

وليس إنسان يقرأ هذا الذي بلغت إليه مصر في عصر المالكين من سُؤدد وعلم وحضارة إلا يقف ذاهلاً: ألم يكن الأثر الباقى في نقوسنا لما تعلمنا عن تاريخ مصر في هذه الفترة أنها تعتبر عصراً مظلماً في تاريخ مصر؟ فكيف يذر العصر المظلم كل هذه الآثار المضيئة؟! قد نفهم القول بأن حكومات مصر في ذلك الزمن كانت حكومات استبدادية وأن الفكرة الديمقراطية كانت معودمة يومئذ، وإنما كان يقوم نظام الطوائف مقامها، لكن هذا لا يعني شيئاً ولا يخفى ما لتاريخ مصر في أثناء عصر المالكين من سناء ساطع، هو لا يعني شيئاً لأن أمم العالم كله كانت يومئذ محكومة على نظام استبدادي تؤيده الطوائف المعزوة رياستها إلى مقام الحاكم بما يجعلها ذات مشورة، إن لم تكن ذات رأي في تصريف الشئون العامة، وما دام هذا النظام قد أنبت كل تلك الثمرات اليابعة التي تفخر بها مصر وتضعها في الغرة من تاريخها، فذلك الدليل على أنه كان النظام الصالح في العصر الذي قام فيه، فليس نظام الحكم يحمد لذاته أو يذم لذاته، ولكنه يحمد أو يذم بقدر ما يؤتي من صالح الثمرات أو من سيئها، وبقي هذا العصر الزاهر في تاريخ مصر من سنة ١٢٥٠ إلى سنة ١٥١٧.

وكما اكتسح الإسكندر الأكبر العالم فعنلت له أممه ثم فتحت مصر له آخر الأمر أبوابها، وكما أتاحت الأقدار لليوليوس قيصر أن يصنع بالعالم صنيع الإسكندر من قبل، مما جعل مصر تذعن لسلطان روما مع مداومتها الثورة عليه، كذلك اكتسح الأتراك العالم في القرن الخامس عشر وقضوا على الدولة البيزنطية باستيلائهم على القسطنطينية في سنة ١٤٥٣ وأوغلوا بعد ذلك في أوروبا حتى وصلوا إلى أسوار فيينا، وقد بقيت مصر مرهوبة مهيبة الجناب عندهم ب رغم ما كان من كل تلك القوة لهم حتى سنة ١٥١٧ حين نزلها السلطان العثماني سليم بعد حرب تم له فيها النصر على السلطان الغوري في موقعة الشام على مقربة من حلب وعلى طومان باي الذي كان قائماً مقامه بالقاهرة.

وحكم الأتراك مصر على الطريقة التي حكمتها بها روما، وكان أول ما صنعوا أن أخذوا الخليفة العباسي إلى الأستانة حيث جعله السلطان سليم يتنازل عن الخلافة التي أصبحت من يومئذ في آل عثمان حتى قضى مصطفى كمال عليها في سنة ١٩٢٣، ثم جعلوا يوفدون إلى مصر واليًا حرصوا على ألا تطول مدة بمصر من خشية أن ينظم جيشها ثم يقهر الأتراك به ويعيد إلى مصر استقلالها على نحو ما حدث في عهد البطالسة، وأوقفوا ما كان بمصر من مظاهر الحضارة بأن أخذوا إلى عاصمتهم كل رجال العلم والفن والصناعة في مصر، ولم يعوضوها شيئاً، وظل الحال على ذلك إلى أواخر القرن السابع عشر حين بدأت نذر الانحلال يدب دبيبها إلى تركيا، حينذاك بدأ المالك، الذين ظلوا طوال مدة ولاية تركيا حكام الأقاليم، يفكرون في استعادة السلطة والاستقلال بمصر، وكان هؤلاء المالك قد أصبحوا — كما أصبح اليونان والعرب من قبل — مصريين، فكانوا يقفون متكتفين مع شعب مصر في وجه الوالي الذي تبعه الأستانة كما كان أسلافهم من قبل يقفون في وجه الحاكم العسكري الذي تبعه روما، وكان هذا الوالي التركي الذي لم يندمج في مصر ولم يتمثل روحها يظل سجينًا في قلعة القاهرة لا سلطان له على أحد ولا على شيء فيها، وكان المالك والشيوخ الذين يمثلون الطبقة المتعلمة إذارأوه على غير ما يريدون بعثوا إليه رسولاً يُطلق عليه اسم (الأوده باشي) يدخل عليه ويطأطئ الرأس احتراماً له ثم يلمس طرف السجادة ويطويها ويقول منادياً للواли: «انزل يا باشا»، ويكون هذا أمراً للواли صادرًا له من المصريين لا يستطيع له مقاومة ولا تستطيع تركيا له نقضاً، وبلغ الضعف بالواли التركي أن كان طوال القرن الثامن عشر واليًا بالاسم لا سلطة له ولا عمل أكثر من إرسال الخراج إلى تركيا، ودفع هذا الضعف على بك الكبير إلى التفكير في الاستقلال بمصر وتم له من ذلك ما أراد، وظل ثلاث سنوات تلقب فيها بسلطان مصر وخاقان البحرين، على أن سوء سياسة الحكم في تركيا وما كان من تدميرها كل أسباب الحضارة في مصر في أثناء القرن الأول من استبدادها بها، نصح على هؤلاء المالك فجعلهم يسيرون مع الشعب أسوأ ما يسير مستبد جائر، مما شوه اسم أسلافهم المالك الذين ارتفع اسم مصر في عهدهم على مكان من العزة لا ينال.

وجاءت الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨ فقاومها المصريون أشد المقاومة حتى انتهت بالجلاء عن البلاد بعد ما نقلت إليها أفكار الثورة الفرنسية وأسباب الحضارة الغربية، وبعد أن فتحت عيون المصريين على حياة جديدة هي التي يدأبون اليوم لتوطيدها واتخاذها وسيلة لعود مصر إلى مجدها وقوتها.

وجاء محمد علي باشا واليًا من قبل تركيا على مصر فقضى على المالك، ثم استمال إليه علماء مصر وأعيانها ووجهاءها، وفك طوعاً لإرادتهم في الاستقلال بها، وأعلن ذلك بالفعل وغزا الدولة العثمانية في الشام وفي الأناضول ووصل حتى صار على ثلاث ساعات من الأستانة، وكان مخصوصاً سلطاناً لولا أن تحالفت معها عليه دول أوروبا جمعاً، ووقفت في وجهه برياً وبحراً، وقضت على الأسطول المصري في معركة نافارين، وهذا الوقوف من جانب الدول الأوروبية في وجه الجيوش المصرية الظافرة لم يكن القصد منه المحافظة على تركيا الضعيفة مخافة أن يهدد وجود حاكم قوي في الأستانة التوازن الدولي كما اعتاد المؤرخون أن يقولوا، فلو أن ذلك وحده كان السبب لكان أقل ما تُجزَى به مصر على انتصاراتها بقيادة محمد علي أن تقوم بنفسها دولة مستقلة غير خاضعة لأحد، لكن الدول أبْتَ على مصر هذا الاستقلال وأصرت على أن تظل ولاية تابعة لتركيا، وإن كانت ولاية ممتازة مستقلة استقلالاً داخلياً كاملاً، إنما كان السبب الصحيح تخوف أوروبا من أن تستعيد مصر قوتها التاريخية المعروفة، وأن تنضم إليها فلسطين وسوريا كما كانتا منضمتين لها في أكثر حقب التاريخ، وأن تتحكم لذلك في حوض البحرين: الأبيض والأحمر، وأن يصبح سلطانها بالفعل خاقان البحرين كما كان علي بك الكبير يدعى نفسه في الفترة القصيرة التي استقل فيها بأمر مصر، ومهمما يكن من أثر ذلك في تقوية الحضارة ورفع منار السلام فإن الفكرة الاستعمارية كانت قوية يومئذ في نفوس الساسة الأوربيين إلى حد جعلهم يضعون أساساً لسياستهم القضاء على قيام دولة في مصر لها هاته القوة والسلطان، وهذا وحده هو السر في إبائهم عن مصر أن تستقل بإزياء تركيا التي ضفت كل الضعف عن مقاومة جيوشها، والتي كانت معرضة لأن تقع هي وعاصمتها تحت سلطانها.

على أن هذا العسف من جانب أوروبا لم يوهن عزيمة مصر، وقد ظل شعبها طوال القرن التاسع عشر كله متوكلاً يريد تحقيق استقلاله على النحو الذي يستشفه القاريء من ترجمتنا لهم في هذا الكتاب، وهو هو ذا اليوم قد بلغ من مجدهاته في هذه السبيل مقاماً محموداً، وهو لا ريب سيكون في المستقبل كما كان في الماضي عاملاً من أقوى عوامل العرفان والحضارة والسلام.

القسم الأول

ترجم مصرية

كليوباترة



صورة تمثال لها في متحف الفن الحديث بروما.

كليوباترة اسم ساحر خلع عليه التاريخ وخلعت عليه الأساطير من ألوان الفتنة بهاء باهراً تضاءلت إلى جانبه أسماء الزهرة وأفرو狄ت وسميراميس وسائر آلهة الجمال، وهاتasso ونيفتر وسائر الملائكة، بل تضاءلت إلى جانبه أسماء الملوك، والشعراء، والكتاب؛ فهي ليست جميلة وكفى، وليس ملكة وكفى، وليس ساحرة الحديث وكفى، وليس ذكية وكفى، وليس أدبية وكفى، بل هي ذلك كله وهي أكثر من ذلك كله، هي الفتنة والسحر والذكاء والأدب والنشاط وقوة الإرادة في أسمى ما تصوره معاني هذه العبارات، وهي مع ذلك آخر البطالسة الذين حكموا مصر عصراً طويلاً كانت مصر فيها مهبط وحي الحكمة والشعر والجمال؛ لذلك لم يُفت مؤرخ ولا قصاص ولا شاعر أن يتحدث عن كليوباترة وأن يتغنى بحياتها، وأن يصور هذه الحياة على النحو الذي يجب أن تكون؛

ولذلك كان ما أُرِيقَ من مداد وما سُوِّدَ من صحف في الكلام عن هذه الملكة أكثر من مثله مما يمكن لأية إلهة أو ملكة أخرى أن تفخر به.

وكان حظ كلويباترة أن ولدت بالإسكندرية في عصر بلغ فيه نجم روما غاية سموه، وبدأت مصر فيه دور الترف الذي يسبق الانحلال، وكانت الإسكندرية في ذلك الحين عاصمة الدنيا ومستقر كل ما في الحياة من متع ونعمـة، فكان الناس يتكلمون فيها كل اللغات المعروفة، كما كانت الفلسفة فيها ناضرة مستقرة بكل نظرياتها المتصاربة استقرار جوار حسن ليس فيه شيء من الكفاح أو القسوة، فإلى جانب الأبيقورية الناظرة للحياة نظرة سرور بها وحرص عليها واستمتاع بكل ما فيها، المبتسمة سخراً منها وازدراء لها وإشفاقاً على أهلها، كان الرواقيون ينادون بالزهد في الحياة والأخذ بأسباب التقشف واحتقار عرض الدنيا الزائل، وبلغ بعضهم من ذلك حد الدعوة إلى تعذيب الجسد لطهارة الروح، وإلى جانب مكتبة الإسكندرية العامرة الحاوية ثمانمائة ألف مجلـد فيها ما شئت من ألوان الحكمـة والعلم والتفكير والفن، كانت تقوم المراقص والملاهـي، يهرع الناس إليها لينسوا أنفسـهم في لهوـها ولينهمـكوا في ملذـاتها ولـيمتـعوا بـأبصارـهم بـجمال سـاحراتـها الرائقـات والمـغنيـات.

وكانت هذه الحياة المقـجرـة بينـابـيعـ الحـكمـةـ والـلـهـوـ جـمـيـعاً تـمـوجـ فيـ مـحيـطـ بـلـغـ كـمـالـ العمـارـةـ الـتـيـ قـامـتـ خـلـالـ ثـلـاثـمـائـةـ سـنـةـ كـانـتـ مـنـذـ أـنـشـأـ الإـسـكـنـدـرـ الأـكـبـرـ المـدـيـنـةـ عـامـ ثـلـاثـينـ وـثـلـاثـمـائـةـ قـبـلـ المـيـلـادـ سـنـيـ نـشـاطـ وـعـظـمـةـ لـمـصـرـ وـفـلـسـفـةـهاـ وـعـمـارـتهاـ، فـقـدـ اـتـصـلـ مـاـ بـيـنـ هـذـاـ الثـغـرـ الـبـدـيـعـ الـمـوـقـعـ فـيـ اـمـتدـادـهـ عـلـىـ شـاطـئـ بـحـرـ الـرـوـمـ وـجـزـيـرـةـ فـارـوـسـ الـقـائـمـةـ وـسـطـ الـبـحـرـ تـرـقـبـ غـدوـاتـهـ وـرـوحـاتـهـ بـجـسـرـ هـفـتاـ الـبـالـغـ غـايـةـ الـعـظـمـةـ وـالـجـمـالـ، وـالـذـيـ اـنـتـهـىـ بـالـجـزـيـرـةـ إـلـىـ أـنـ أـصـبـحـ جـزـءـاـ مـنـ الـمـدـيـنـةـ، وـاتـصـلـ بـالـنـيلـ بـقـنـاةـ كـانـوبـ (ـتـرـعـةـ الـمـحـمـودـيـةـ الـحـاضـرـةـ)ـ الـتـيـ لـمـ تـكـنـ مـجـرـدـ مـجـرـىـ لـلـمـاءـ وـالـتـجـارـةـ، بـلـ كـانـتـ كـذـلـكـ مـجـرـىـ لـلـمـسـرـةـ وـالـنـعـيمـ بـمـاـ أـحـاطـ بـهـاـ عـلـىـ مـدـىـ طـولـهـاـ مـنـ حـدـائـقـ وـأـعـنـابـ وـنـخـيلـ قـامـتـ فـيـ أـثـنـائـهـ مـنـازـلـ الـلـهـوـ وـدـورـ الـمـتـاعـ تـحـيطـ بـهـاـ جـنـاتـ فـيـحـاءـ جـمـعـتـ كـلـ أـسـبـابـ النـعـمـةـ مـنـ زـهـرـ عـطـرـ وـفـاكـهـةـ نـصـرـةـ، فـأـمـاـ أـهـلـ هـذـهـ الـدـيـنـةـ فـكـانـوـ أـهـلـ ذـكـاءـ وـظـرـفـ، وـكـانـوـ حـرـيـصـينـ عـلـىـ الـمـتـاعـ بـكـلـ مـاـ فـيـ حـيـاةـ مـديـنـتـهـ الـزـاهـرـةـ مـتـاعـاـ عـرـيـضاـ، يـتـهـالـكـونـ فـيـ ذـلـكـ عـلـىـ الـلـهـوـ وـعـلـىـ الـمـسـرـةـ فـيـ مـخـتـلـفـ صـورـهـماـ وـأـلـوانـهـماـ، فـكـماـ كـانـتـ فـرـاعـنـتـهاـ تـفـتـنـ فـيـ التـرـفـ بـمـاـ يـعـجزـ خـيـالـ كـلـ مـتـرـفـ فـيـ عـصـرـنـاـ الـحـاضـرـ، كـانـ الشـعـبـ رـجـالـاـ وـنـسـاءـ مـنـغـمـسـاـ فـيـ حـمـأـةـ الـلـذـائـذـ الـدـيـنـاـ مـسـلـمـاـ نـفـسـهـ إـلـيـهـاـ مـاـ اـسـتـطـاعـ إـلـىـ ذـلـكـ سـبـيـلاـ، لـكـنـهـ كـانـوـ مـعـ ذـلـكـ أـمـيـلـ لـلـاسـتـخـافـ

بالحياة وما فيها ولو بلغوا من الحياة أعظم مكان، وأي استخفاف أشد من استخفافهم بالفراعنة الآلهة حتى لقد دعوا جد كليوباترة البطين ودعوا أبيها بطليموس أوليتا أي العازف بالناي.

وكانت كليوباترة شديدة الولع منذ صباها بالتجول في أنحاء الإسكندرية والوقوف على كل ما في هذا العالم العامر بكل ما في العالم من حياة وحضارة، وفي تجوالها هذا عرفت وتعلمت كثيراً، عرفت كل ما وقعت عليه عيناهما الواسعتان الجذاب دعجهما الساحر، وكل ما أحاط به ذهنها الحاد، وتعلمت اللغات والأدب وطرائق التعبير العزيزة على مدرسة الإسكندرية يومئذ، والتي تمتاز بالتورية والرقابة والقوة، وكان لها بالكتب ولع وغرام ليس مثهما ولع ولا غرام، وكانت أميل للشعر وأشد لذلك تفضيلاً للأوديسى على التوراة وعلى كثير من كتب الحكم.

وفي هذا الصبا الناعم عرفت وارثة عرش بطليموس الثاني عشر من ألوان الترف وتذوقت من صوره ما لم يعرفه ولم يتذوقه غيرها من ملوك ذكاءها ولا علمها باللغات والأدب، فقد كان أبوها الفرعون العازف بالناي المستغرق في ملاد الحياة بما استحق معه لقب إله الخمر ديونيزوس يدللها بكل ما يلهمه ملك متعرف معجب بابنته ليس لها في بنات حواء مثيل، فكان يطوف وإياها مدائن مصر ويركب وإياها النيل من الإسكندرية إلى طيبة ذات الأبواب المائة، يقفن عند ما يحلو لهما الوقوف عنده من المدائن العامرة باثار مصر القديمة، فإذا تركا طيبة إلى أنس الوجود أقاما فيه من الحفلات ما يجل عن الوصف، وما ليس له مثال إلا فيما أقامته كليوباترة من المآدب لأنطونيو حين غرامه بها ودلها عليه.

على أن الصبية لم تبق في هذا النعيم الملكي طويلاً، وإن كانت لم تحرم منه إلا لتعود إليه ف تكون به أكثر متابعاً، ذلك أن أبيها طرد من مصر فالتجأ إلى سوريا حتى عاد مع جند الرومان الذين أوفدهم بومبي، وكان أنطونيو على رأس فرقة من هذا الجندي تحت قيادة جاليوس، فذهب مع بطليموس الطريد حتى دخل وإياه الإسكندرية دخول الظافر. وكانت كليوباترة يومئذ في الرابعة عشرة من عمرها، فلما أقيمت بانتصار أبيها وبعودته إلى مدينة النعيم اجترأت على اختلاس شارة الملك من برنيس زوج أركايلوس خصم أبيها، وجلست مع خديناتها في شرفة القصر وقد ارتدت ثوباً رقيقاً أبيض بدا فيه جمالها الساحر أشد سحرًا برغم أنه كان في بدء ترعرعه، ولما أقبل أبوها بعد دخول أنطونيو على رأس الجندي إلى القصر أمامه شقت هي وسط الجموع طريقاً واندفعت تعانق

أباها باكية من شدة التأثر، وكانت هذه أول مرة رأت فيها عين الروماني الفاتح الطويل القامة العريض الأكتاف الشهير إلى كل لهو ومسرة، تلك الفتاة الطفلة ما تزال، والتي ببرعت برغم ذلك كل قريناتها من فتيات القصر ونسائه، ولم تننس كليوباترة في دلها وتبهها أن توجه إليه نظرة حلوة فيها أكثر من معنى الاعتراف بالجميل لرده أباها إليها وإلى ملكه. وعاد أنطونيو إلى روما وعاد بطليموس إلى الحكم وإلى الله يستمر مرعاه ويمعن فيه بعدهما حرم زمناً منه، وكانت ابنته تطوف وإياباً أنحاء البلاد ينزلان في المدائن العاشرة ويقيمان فيها من أسباب اللذة ما لا يباح لفتاة أن تعرفه، وظلا على ذلك ثلاث سنوات تباغعاً انتهت بموت الأب بعدما أوصى بالملك للكليوباترة ولأخيها بطليموس الطفل الذي لم يكن يزيد يومئذ على الثنتي عشرة سنة على شريطة أن يتزوج من أخته، وكان زواج الأخ من أخته متعارفاً في الأسرات الملكية يومئذ لحرصها على ألا يختلط دمها الفرعوني المستمد من الشمس كبيرة الآلهة بدم الرعايا، وإن كان هذا الأخ قاصراً عين له قوام ثلاثة اشتربت الملكة معهم في الحكم وإن استثارت به دونهم إلى حد عظيم.

وقد ملكت قلب المصريين في الفترة الأولى من فترات حكمها بما كانت تغدقه عليهم من صنوف المتعاب ويسحرها إياهم بفتنة جمالها، حتى دعيت إذ ذاك حبيبة الشعب وملكة كل نعيم، لكن عهدها بذلك لم يطل، فقد بعث منيلوس يطلب إليها إرجاع الجندي الرومانيين الذين ظلوا عندها، وإن كان هؤلاء الجندي قد استوطنوا الإسكندرية وتزوجوا فيها وتمتعوا بنعيمها فقد أبوا مغادرة مصر واستغاثوا بالشعب، ثم جاء من بعد ذلك ابن بومبي نفس القصد، وكان لأبيها على أبيها فضل إعادته إلى ملكه مما أجلسها هي على العرش بعده؛ لذلك رأت واجباً عليها أن تحسن وفادته، وقابلته فرأته فيه غير أخيها الطفل الذي فرضه الملك زوجاً لها، فقبلته ضيقاً في قصرها وأجابته إلى ما طلب أن كان أبوه يومئذ في حرب مع قيصر، وقد غاظ ذلك أخاه منها فانضم إلى المؤتمرين بها وعاون على انتقاض الشعب عليها ومحاولته قتلها، وإن كانت لا تملك الفرار من طريق البحر فرت في ذهبية إلى الصعيد كسيرة القلب أن لم يفعل جمالها في أولئك السكندريين فعله، ونزلت طيبة على صورة لم تعهد لها أيام زيارتها المدينة الخالدة مع أبيها المترف الملاطف، وبيدلاً من أن تجعل مقامها في طيبة الأحياء جعلت مقابر الملوك موضع نجواها كأنما كانت تريد أن ترقد بينهم تنتظر البعض وإياهم آملة في الآخرة ملكاً أكثر من ملك مصر ثباتاً، لكن أصواتاً انبعثت إليها من جوف مقابر هؤلاء الفراعنة العظام تناجيها: أن لا ملك بغير إقدام ولا جلالة من غير كبراء ولا حكم لمن لم تملك نفسه شهوة الفتح، وأيأسها دعة المصريين

من أن تجد منهم أي عون أو مدد، ففرت إلى سوريا وهي في مقدرتها على سحر أهلها أكبر أملاً وفي فتنتهم بجمالها أشد ثقة ولم يخنها حدها، فما كادت تستقر في ربوع الشام حتى سحرت أهلها بجمالها وبلاعاتها وإندامها فالتفوا حولها واجتمع منهم جيش سارت هي على رأسه ممتطية جوادها، لكن المصريين بعثوا هم الآخرين بجيوشهم ورابطوا على حدود ما بين مصر والشام، ووقف الجيشان وجهاً لوجه لا يلتقيان.

وفي هذه الأثناء هزم قيصر بومبي في موقعة فرسالا وفر المنهز إلى مصر عليه يجد موئلاً في بلد له عليه وعلى القائم على عرشه فضل سابق، لكن أوصياء بطليموس الطفل علموا أن قيصر يطارد غريميه، وخشوا إن هم حموا هذا الغريم أو الجاؤه أن يصب عليهم قيصر جام غضبه، فقتلوا اللائذ بهم، فلما نزل قيصر عليهم وعلم ما فعلوا ركباه لهم وحزن غاية الحزن وأمر أن تقام لبومبي أفال طقوس الجنائز.

وعرفت كليوباترة أمر ذلك كله، وعرفت أكثر منه أن قيصر لما علم بما بينها وبين أخيها من حرب نصب نفسه حكماً بينهما عملاً بوصية أبيها أن تحمي روما ملك أبنائه من الشتات والدمار، هنالك فكرت في أن تلجم إلى هذا الحكم ترفع إليه ظلامتها غير جاهلة ما قد يحمله لها من ضغف أن حمت ابن خصمه وأن مدت بومبي بالرجال والذخيرة، لكنها كانت واثقة من سحرها مطمئنة إلى مقدرتها وفتنتها مؤمنة بأن لا نجاح من غير إقدام، وزادها طمأنينة ما كان من بكاء قيصر حين علم بقتل بومبي، فتركت الجندي واستصاحت مؤدبها الأمين أبولو دور، واجتازا طريق البحر حتى وصلا أمام الإسكندرية، بقي أن تدبر الوسيلة للمثول في حضرة قيصر، وكليوباترة نحيفة القوام بضة لينة الملمس، فليس يعجز أبولو دور أن يحملها وأن يزعم أنها بعض المتع وأنه من رجال روما يريد إيصال ما يحمله لقيصر، فاللتقت الصبية الفتاتنة في بعض أسمال وأردية من غير أن تبدل شيئاً من زينتها الملكية وعطرها، وحملها مؤدبها على كتفه، وزعم حين سأله الحراس عن غايته أنه موصل ما يحمل إلى بعض ضباط قيصر، واجتاز معسكر الرومان حتى أنزل حمله في رفق أمام الظافر على عاشر روما، الباكى عليه حين وفاته.

وكانت هذه هي الساعة التاريخية التي اتجه فيها الزمن غير وجهته، الساعة التي وقف إزاءها القصاص والمؤرخون، أذهلهم البهر وسحرتهم الفتنة كما أذهلا قيصر وسحراء، نضت الملكة الصبية ما التفت به من أطمار وأسمال وبدت في زينة الملكة وعطرها وجلالها، أكانت طويلة أم قصيرة؟ أكان أنفها كبيراً أم صغيراً؟ لم يعرف قيصر في هذه اللحظة من ذلك شيئاً، واختلف المؤرخون فيه خلافاً كبيراً، وكأنما كان لجمال

هذه الفاتنة من الروعة ما لأشعة الشمس من قوة تحول دون التحديق بها، وكأنما بقي هذا الجمال في قوة سحره بعدما مر على صاحبته من عصور وقرون، فكل يختلف في صورته وفي قسماته، على أن كليوباترة لم تحاول فتنة قيصر بجمالها، بل ارتمت عند قدميه ضارعة مستغفرة، وجعلت تتكلّم وتشكو وتستعطف، وكان صوتها أفعى سحرًا من جمالها، وكانت عبارتها أنفذ إلى القلب من صوتها إلى شفاف الفؤاد، ومن جمالها الذاهب باللبل.

جعلت تتكلّم وتشكو وجعل قيصر ينصت ويصغي، ثم صار لا يسمع دفاعًا ولا شكوى بل أنغامًا دونها صوت البيل وعزف الناي وانتهى بكليوپاترة وبه الأمر أن وقفت وجثا هو على قدميها ضارعًا مستغفرًا، ثم حملها على كتفه كما حملها إليه أبوابلو دور وذهب بها إلى مرضجه.

وكان قيصر برغم تجاوزه الخامسة والخمسين محباً للنساء، كما كان مثار إعجابهن بقوامه ونظرته وبروحه المذهب الرقيق وعزمته الصادقة القوية؛ لذلك اتصل بينه وبين كليوباترة منذ هذه المقابلة الأولى بما سحره عن كثير مما كان اعتزم لجده ومجد روما، وجلست هي إلى جانبه في قصرها المنيف تعجب به وتثير إعجابه، وملكته حتى لم تبق في شك من حكمته بينها وبين أخيها، ودعا هو أخاهما الطفل ليصلح بينهما، فلما دخل عليهما قرأ في عيونهما ما هاج الدم في عروقه الضعيفة، وما دعاه ليلاقي التاج عن رأسه، وليخرج صائحاً في الشعب وفي جند روما داعياً إلى الثورة على أخته وعلى قيصر لعهر كليوباترة ولخيانته صاحبها، ولم يرد قيصر أن يقاتل لقلة جنده ولحرصه على استبقاء هذا الطفل مغضضاً عينه على ما يفعل الحبيبان، فاسترضاه وصالحه على تنفيذ وصية أبيه بإشراف روما، ورضي الغلام آملاً أن يطمئن له الأمر فيصير ملكاً وفرعوناً وإلهًا، وظل هو وكليوپاترة يرتشفان من كأس الحب وينهلان أذب موارد الهوى بما يتافق وروحيهما المذهبين، ولقد كانوا بذلك سعيدين كل السعادة، ولم يكن ورد سعادتهما مقصوراً على اتصال الغرام بين ابنة الملك العازف اللدنة القوام، الموسيقية الصوت والنفس، الرطبة الخلق، الندية النظرة الرشيقية رشاشة الراقصة، وبين قيصر الساحر الحلو الحديث، بل كان ورد سعادتهما الحق هو الحب، كبل كل واحد منها صاحبه بأغلال هذه العاطفة القاسية السامية في قسوتها فسعد كل باغلاته، وكانت كليوباترة أكثر سعادة لأنها استرتدت مع هذا الحب ملك مصر، ووضعت يدها على تاج روما وصرفت قاهر السكوسون والجرمان وسائر دول أوروبا عن حربه في سبيل الجمهورية ليحارب في سبيلها وليقهر

أوصياء أخيها، وليثبتت لها أركان عرশها بعدما ثبتت في قلبه، وظل كذلك ستة أشهر لا يعرف من أمر روما شيئاً ولا يبعث إلى روما بخبر، وإن عرفت روما من أمره مع ملكة مصر كثيراً، وزادت به ارتباطاً وازداد لها عبادة حين حملت منه، إذ ذاك لجأا في أسباب المسرة يلتمسانها في كل مكان ويرتجيان النعمة من كل الآلهة، فأقاما أعياداً عند الأهرام وأبي الهول، وفي أبيدوس عند قبر إيزيس وأوزوريس، وفي دندرة حيث معبد هاتور إلهة النسل الخصب وفي طيبة ذات الأبواب المائة، وفي أنس الوجود، وفي كل معبد وعند كل إله. ووضعت كليوباترة غلاماً دعته قيصر وخلعت عليه كل لقب الفراعنة آلة مصر وعواهل روما وحكامها، ثم أبحر قيصر إلى روما ولحقت هي به في أبهة الملك وجلاله، وفي حاشية ليس للروماني بها عهد، وقىصر ظافر والشعوب عباد من ظفر، وقد أقام لمناسبة عودته أعياداً أسرف خلالها فيما خلعه على الشعب من أعطيات ونعم زادت الشعب له عبادة وأنسته ما كان من انصراف قيصر عنه إلى كليوباترة عاماً كاملاً، لكن هذا الشعب لم يعجب من كليوباترة بجمالها الرائع المترفع، لأن زعماءه وقادته جعلوا يستعطفونه على كالبورينا زوجة قيصر.

ولم يعن قيصر من ذلك بشيء، بل أقام لابنة بطليموس قصراً على نهر التبر جمع فيه من ألوان النعيم ما أبدعه خيال الملكة، وجعل يزورها فيه فتقيم له من المراقص وصنوف اللهو ما ينسيه كل هموم الحكم ومتاعبه، ثم جعل يستقبل أصحابه في قصر التبر ولا يخفي عليهم من صلته بكليوباترة شيئاً، وبالغ في الحفاوة بها حتى أقام لها هيكلًا نصب فيه تمثالها على صورة الزهرة إلهة الجمال والحب، ودار في خاطره أن يتزوج منها برغم وجود كالبورينا زوجته وبطليموس الطفل زوجها، ومع أن مجلس الشيوخ لم يكن ينظر إلى هذا الزواج بعين الرضا فقد فكر في أن يعدل قوانين روما بما يبيح للرجل أن يعدد زوجاته ما دام لا عقب له، ولقد كان فاعلاً وكان قيصر ونظامه يصبح يومئذ وارثه على عرش روما ويتغير وجه التاريخ وتبقى مصر مقراً للحضارة كما كانت لو لا أن دبرت المؤامرة لقيصر وأن قتله أصحابه يوم أعياد المريخ في العام الرابع والأربعين قبل الميلاد.

بكنته كليوباترة ثم عادت إلى مصر مع حاشيتها وأبنائها، وتركت أخاه الملك زوجها فنسيه التاريخ ولم يعرف أحد عنه بعد ذلك خبراً، وأقامت بالإسكندرية متوجسة خيفة أن يوقع بها خصوم قيصر وقتلت، لكن الحرب التي قامت بين أصدقائه وقتلت انتهت بانتصار أنطونيو وأصحابه في موقعة فيليب، ولم يزل ذلك وجلاها وظلت في خشية من أن ينزل أكتاف ابن أخت قيصر مصر وهو لابنها من قيصر ألد عدو، لكن نجمها كان

ما يزال نجم سعادة، فتقاسم المنتصرون ملك روما ووقع الشرق لأنطونيو، وأنطونيو صديق قيصر ومحبه، وأنطونيو رجل شهوة لا صبر له أمام امرأة، وأنطونيو معجب بجمال كليوباترة منذ سنين، عابد إياها مذ كان يزور قيصر في قصر التبر، مع ذلك لم تر كليوباترة أن تبعث إليه وفوداً تهنهء بالملك كما بعثت سائر ممالك الشرق التي وقعت في حكمه، وهي لم تمده في حربه مع قتلة قيصر بمدد من مال أو رجال، فغاظ ذلك أنطونيو وبعث إليها رسولاً أن تحضر بنفسها لتدافع عن ذنبها، وظل الرسول في قصرها أيامًا عاد بعدها مسحوراً بها آخذًا نفسه بالدفاع عنها حتى تحضر إجابة لطلب سيده، وبقيت هي زمانًا تعذر عن عدم مسارعتها لاجتياز البحر بشتى الأعذار، وبقي رسول أنطونيو خلال ذلك يحدثه عن فتنتها بما أذهب صبره، ثم بعثت هي أنها آتية إليه في تارسيس وذكرت موعد وصولها فخف الحاكم إلى المدينة ينتظراها، وأقبل أسطولها يشق عباب البحر حول سفينتها السابحة تدفعه أشرعة من خز، ويحمل مقدمه الرفيع تمثال آلهة البحر، وتبدو في وسطه مقاصير زينت بأفخر الرياش، وقد ذهب بالشعب لمارأى كل هذا الجمال والجلال فصاح: «هذه أفروديت بل هذه الزهرة أنت تزور إله لهونا المحبوب».

وبعث أنطونيو برسوله يدعوها للعشاء عنده، فأعتذررت بأنها متعبة ودعته إلى سفينتها، فلم يغصب ولم يتردد بل طار إليها وقضى شطراً من الليل في حضرتها نسي فيه الذنب ونسى العقاب ونسى كل شيء غيرها، ثم دعته في الليلة التالية إلى وليمة عشاء في قصرها ودعت معه جمعاً من الأمراء وأرباب الدولة، وما كان أشد بهرهم حينما رأوا الليل ينقلب في ذلك القصر نهاراً ورأوا فيه من التماضيل والآنية والطنافس والخدم والألوان الطعام يتناولونها وتطربهم أنغام الموسيقى تطير في الجو مع ريح العطر والزهر، وتمتزج مع أنغام أجسام الراقصات اللدنة بما لم يحط به خيال أحد منهم من قبل، وكليوباترة وسط هذا الجمال الساحر أروع فتنة وأشد سحرًا، وأبدى أنطونيو دهشته متى نظمت الملكة هذا القصر وما فيه، فابتسمت قائلة: إنه رسولها الذي بعثت به من أسابيع ثلاثة هو الذي صنع هذا بأمرها.

ودعاهما أنطونيو إلى قصره ودعا معها الأمراء وحاول أن يجاريهما في البذخ والنعمـة ثم ابتسم آخر الوليمة أن رأى محاولته عبثاً، ودعته وأمراءه إلى وليمة ثانية قالت إنها تكفلها ثلاثة ملايين درهم فأنكر أنطونيو ذلك عليها، وراهنـته إنها فاعلة، وكـلف هو أحد الأمراء أن يحصي التـكاليف، ولـما رأى أن لم تـزد الملكة شيئاً على ما فعلـت في الـولـيمـة الأولى أبداً لها أنه قـمرـها، فاستـمهـلـته وخلـعـت من أذنـها قـرـطاً فيـه جـوـهـرـة منـقـطـعـة النـظـيرـ كان

الإسكندر أهدأها لبعض أسلافها وألقت بها في كوب به خل، فذابت وشربت هي الكوب وما فيه وقمرت أنطونيو، وظلت فعلتها هذه يقصها المؤرخون على أنها بعض العجائب. وأسرع أنطونيو بالنظر فيما لديه من شئون الملك وعاد وكليوباترة إلى مصر واندفعا في سبيل الغرام تهيج سماء مصر في نفسيهما ما انطوتا عليه من حب اللذات واستباحة كل ألوانها والافتتان فيها، على أن أنطونيو لم يكن مهذباً كقىصر، بل كان جندياً خشناً فج الذهن لا يعرف الرقة ولا يحيط من الأدب أو اللغات بشيء، وإنما حبه إلى الجندي ورفعه إلى مقام قيصر سهولة في العبارة التي كان يخطبهم بها ونزلوه منه إلى مشاركتهم في تذوق اللذات الدينية السافلة التي كانوا يتذوقونها، فلم يكن حي من أحياe الدعاارة في روما أو بغي من بغايها لا يعرفه، وكان من أسباب فخره أن أعقب من الأولاد حيثما ذهب ما لا عدد له، فألفت فيه حياة بهيمية قوية لم تكن في قيصر، ولكنها لم تجد فيه حياة العاطفة الإنسانية التي تغذى القلب، وإن قصرت عن إلهاب الدماء، على أن هذا الخلاف بينهما اضطر أنطونيو إلى أن يتعلم ويخضر من الدروس ما يخفف من شعوره بأنه دون كليوباترة، ودفعها هي لتنزل عن التقىن في رقة المتع إلى هذه البهيمية التائرة، وقد أنفت ذلك في بادئ الأمر حين كان حرصها على أنطونيو راجعاً إلى حاجتها السياسية له، لكنها تذوقته بعد ذلك وببلغت من تذوقه أن لم تكن تطيق مفارقة صاحبها حين جولاته في أحياe الدعاارة واللهو، ولم تأنف أن تدفع بكتفيها أيّاً من رجال تلك الأحياء ونسائها على طريقتهم، وبقيا غارقين في نعمتها حتى حملت، وخيل إليها أن سيربط الحمل بينها وبين صاحبها كما ربط بينها وبين يوليوس من قبل، لكنه رآها ثقلت حركتها وحمد شعاع روحها، فعاد يفكر فيما كان غافلاً عنه من شئون الدولة، ورأى أن لا مفر له من العودة إلى روما ليصالح أكتافه بعدما حزبت عليه فلفيما زوج أنطونيو وهبت لحاربته، وليس لديه على أهل فينيقيا والشام الذين انتقضوا على روما وخلعوا نيرها، ولم تُجد تسلات كليوباترة إليه كي يبقى ولو إلى حين وضعها، فلما قابل فلفيما في اليونان أنزل عليها من سخطه ما كسر قلبها، وغادرها إلى روما فماتت قبل وصوله إليها، وأصلاح موتها بينه وبين أكتافه وتزوج من أخته أكتافيا برضاء مجلس الشيوخ، وكانت أكتافيا عدل كليوباترة في سنها وجمالها، وكانت أم طفلين من زوجها الأول، محبة لحياة العائلة ونظمها بما يسر لها أن تسير زوجها وفق رأيها، فأنطونيو كلّ رجل له مثل هذه الطبيعة الحيوانية يهون على كل امرأة أن تقوده، ولقد ذهبت معه إلى اليونان وظلت معه زهاء ثلاثة أعوام أعقبت له في أنتهائها ابني شغلت بهما وبأولادها الآخرين وبأولاد أنطونيو

من فلفيما، فأخرج ذلك صدر أنطونيو منها وجعل يراها أمّا لا يعنيها منه إلا أبوته لأبنائهما، من غير أن تعير مجده ولا عظمته اهتماماً كالذى كانت تبديه كليوباترة، إذ كانت تدعوه أنطونيو الأكبر، وبلغ من حرج صدره أن اتهمها بأنها أحن على أخواتها لأكتاف منها على زوجيّتها له، ثم بعث بها إلى روما وانطلق هو إلى سوريا يجني ثمار النصر الذي أحرزه بعض قواه.

في هذه السنوات الثلاث كانت كليوباترة تعاني من الهم والألم أشدّهما تبرماً ولذعاً، علمت بما كان من زواج أنطونيو وأكتافيا على أثر وضعها تواعدين دعت أحدهما الشمس والأخرى القمر، فاضطررت للخبر وما كانت من قبل تضطرب من خشية امرأة، وزاد في مخاوفها ما قد يؤدي هذا الزواج إليه من القضاء على آمالها في قيام قيصرون مقام أبيه، هنالك غادرت الإسكندرية إلى دندرة وشغلت نفسها بأن أقامت لها تور معبداً ثم انقضت نفسها لهذه الوحدة التي أحاطت بها فعادت إلى عاصمتها وشغلت نفسها من جديد ببناء قبرها، وكان أكبر جهادها أن تنسى أنطونيو باستدامة العود إلى تذكر قيسر، ونجحت في ذلك نجاحاً سرّها، لكن هذه الذكرى وذلك الاشتغال بما بعد الموت لم يكونا ليتفقا مع ما يتحرك به الشباب في جسد اعتاد ملذات النعيم ثم قسر على عفة قاسية، فعادت إلى مثل ما عودها أنطونيو من المرح في الأنحاء التي يلهو الشعب فيها، لكن ذلك لم يطفئ من رغباتها ما كان كامناً.

ولما عاد أنطونيو إلى الشام بعث إليها رسولًا يستقدمها إليه بأنطاكية، ويل له من جريء! أيظن أن ملكة الملوك تطير إليه بعد أن نسيته، بل بعد أن أغضنته وبعد أن هجرها إلى أحضان امرأة غيرها قضى معها أكثر مما قضى مع كليوباترة؟ لكن لا! تضليل ذلك كله أمام دعوته إليها فطارت تعد عدتها للسفر واحتازت البحر إليه لائمة عاتبة، وكفاهما أن أقسم لها أن قلبه لم يعرف غيرها ولم يتعلق بسواها لتعود وإياها سيرتها الأولى، وأنطاكية كانت ثلاثة مائة بحر الروم بعد روما والإسكندرية، فكان لهما فيها من مسارح اللهو ما يسد كل شهواتهما، ولكي تؤمن بحبه إليها عقد عليها زواجه منها وخلع عليها ثلاث ولايات بدل ثلاثة السنوات التي غابها عنها.

وبعد زمن نهلا فيه ما طاب لهما من ورد النعيم جهز لحاربة خصوم روما فيما وراء الفرات، ورفض مشيئتها أن تصحبه لما في ذلك عليها من مشقة، لكنه عاد إلى سوريا محظماً جيشه، فجاءت إليه من خير مصر مالاً ورجالاً بما أنساه هزيمته، وأقامت معه فأنسنته فتنتها كل متاعبه، ثم تلقى رسالة من زوجه أكتافيها أنها آتية من روما في عدة

وعديد، فتأثر حين رأها تقابل صده لها وجفوت إياها بهذا الكرم والإخلاص والحب، لكن كليوباترة وقفت في سبيل ما أتت أكتافيا فيه، ورفض أنطونيو أن يرى أخت عاهل روما أو أن يقبل منها مددًا، فعادت إلى المدينة الخالدة ذات التلال السبعة مقهورة آسفة.

وعد الرومانيون هذه الفعلة على أنطونيو، فلما استرد قواه عاد فحارب خصوم روما وانتصر عليهم، لكنه بدلاً من أن يحتفل بانتصاره في روما ذهب يحتفل به في الإسكندرية ويعتبرها عاصمة تعادل روما، وذلك ما لا طاقة للرومانيين باحتماله، فأثار أكتاف الرومان عليه، وابتهجت كليوباترة لذلك وجهزت أسطول مصر الضخم، وسارت وأنطونيو إلى أثينا في انتظار ما ستتخض عنه الحوادث راجية الانتصار على أكتاف حتى تجلس قيصرن على عرش أبيه، لكن نجمها كان قد بدأ ينحدر نحو المغيب، فقد التقى الأسطولان في (أكسيم) وكانت الملكة في سفينتها «الأنطونياد» في مؤخرة الأسطول المصري ترقبه، وبدأت المعركة يحمي وطيسها وشعرت الملكة بأن حلمها أن تحكم روما وأن تقييم ابن قيصر مقام أبيه على عرش الغاصب أكتاف يتلاشى، عند ذلك طار صوابها وتولاها الذهول، فلما أفاقـت أـلفـتـ الـريـحـ تـهـبـ نحوـ مـصـرـ فأـمـرـتـ رـجـالـهـاـ بالـعـودـةـ،ـ وماـ يـزالـ الأـمـلـ فيـ النـصـرـ مـضـطـرـبـاـ بـيـنـ الـعـسـكـرـيـنـ،ـ وـالتـقـتـ أـنـطـوـنـيـوـ مـنـ سـفـيـنـتـهـ وأـخـذـتـهـ مـعـهـاـ «الأنطونياد»ـ وـعـادـاـ إـلـىـ مـصـرـ وـقدـ تـوـلـاهـ الأـسـيـ أـنـ رـأـيـ نـجـمـهـ يـأـفـلـ وـعـظـمـتـهـ تـذـوـيـ وـتـذـبـلـ.

فأما كليوباترة فلم تفل الهزيمة من غرب عزمتها، بل نقلت أسطولها بـراً من البحر الأبيض إلى البحر الأحمر راجية أن تغزو الهند على نحو ما كانت تفكر مع قيصر، لكن هيرود عدوها في سوريا لم يمهلها أن قتل رجالها وأحرق سفنها، هناك تحطم كل آمالها الإمبراطورية واضطررت أن تقف كل حياتها ونشاطها على الدفاع عن مصر.

أسلم أنطونيو نفسه للشراب ليه ونهاره أملاً أن ينسيه الشراب هم انكساره، وظل في شرابه حتى علم أن أكتاف آت من طريق سوريا لغزو مصر وأكبر همه أن يطفئ حياة ابن قيصر وكانت مشابهته لأبيه أكبر شهيد على اغتصاب ابن عمه عرش روما، وأخذ أنطونيو قيادة جيوش مصر لكن الحظ إذا ثغر لج به العثار، فانهزم أنطونيو فعاد إلى قصر كليوباترة وأمر أحد عبيده أن يقتله، فأمسك العبد الخنجر وتظاهر بطعن سيده ثم طعن نفسه فهو فأصغر ذلك أنطونيو في عين نفسه فقضى عليها بأن ألقى بنفسه على النصل وذهب يعالج آلام الاحتضار يسلكها سبيلاً لراحة الموت، وقضى بين ذراعي محبوبته الفاتنة، فبكـهـ أـحـرـ بـكـاءـ ثـمـ دـفـنـتـهـ فـيـ القـبـرـ الـذـيـ شـادـتـهـ حـينـ هـجـرـهـاـ،ـ وبـالـغـتـ فـيـ الحـزـنـ عـلـيـهـ لـاـ أحـسـتـ مـنـ سـوءـ مـاـ أـعـدـ لـهـاـ الـقـدـرـ مـنـ مـصـيرـ بـعـدـهـ.

ودخل أكتاف الإسكندرية ظافراً وكل همه أن يقضي على ابن عمه الذي فر من وجهه وحاولت كليوباترة أن تلعب به كما لعبت من قبله بقيصر وبأنطونيو، وفي سبيل أبنائها وفي سبيل ملك قيسرون لم تكن لتعنى بشيء أو تتورع عن شيء، وبرغم حزنها على أنطونيو وجزعها على مصيرها ومصير أبنائها ولزومها القبر تقضي فيه وقتها باكية مكتوبة فقد ظفر أكتاف منها بساعات حديث شهي، وكان كل همه أن يأخذها إلى روما وأن تسير في حفلات نصره ليرضي بذلك شهوة انتقامه وانتقام أخيه منها، ول يقدم للشعب الروماني منظراً تبتهج له قلوب الشعوب، منظر ذل العزيز، وعرفت هي هذا فثارت في عروقها كل دماء البطالسة فراعنة مصر الأعظمين، لكنها لم تكن قادرة إلا على نفسها، وكانت قدرت هذا المصير ووطنت عليه نفسها وأوصت خادماً من أتباعها أن يحضر لها ثعباناً في فاكهة طعامها يوم تشير له إلى جبينها، وأشارت على هذا الجبين المصقول يوم أيقنت أن أكتاف غريمها يريد أن يذلها، ونزعـت التين واحدة بعد واحدة ثم أمسكت الثعبان فوضعت فمه في ثديها ليبعث إليها الموت من خالله، وكم بعث هذا الذي الحياة إلى أبنائها وإلى الذين أنعمت عليهم الآلة بالموت بها.

وكان معها خادمتها إيراس وشارميون فشاركتها مصيرها بعدما حلّتـها بكل حـلـ ملكها الذي تحطم، والذي حاربت حتى المقادير في سبيل عزه ورفعته منذ مولدها إلى مماتها (من سنة ٦٩ إلى سنة ٣٠ قبل الميلاد).

ويومئذ ذهبت إلى بارتها أرواح كثرين من عشاق فاتنة التاريخ، ويومئذ انطفأ نجم كان منيراً في سماء الجمال والذكاء والقوة والنشاط، وانطفأ معه سراج أسرة البطالسة كما انطفأ من مجد مصر حظ عظيم.

الخديو الأول إسماعيل باشا



لئن صح أن كان لولية محمد علي حكم مصر أثر مباشر في تاريخها الحديث، وصح أن كان لشق قناة السويس أثر مباشر كذلك في توجيه هذا التاريخ وجهة خاصة، فالذى لا ريب فيه أن أكبر الأثر الذى خضعت وما تزال تخضع له مصر حتى الآن إنما ترتب على حكم إسماعيل باشا، فأكبر مظاهر الحضارة التى تراها اليوم في مصر يرجع إليه: إليه يرجع فضل إنشاء السكك الحديدية وتنظيم البريد، وله الفضل الأول في النظام القضائي القائم في مصر حتى اليوم، وله أكثر من ذلك كله الفضل الأكبر في شعور الأمة المصرية بقوميتها وبكيانها، ثم إن عليه تبعة الارتكاك السياسي الذي لا تزال مصر تجاهد بكل قواها للخروج منه، وتبعة الاضطراب المالي الذي شل حركة البلاد سنوات طويلة وهو ما

يزال إلى اليوم باقي الأثر، وعليه أكثر من ذلك كله تبعة تسليم البلاد مالياً واقتصادياً وسياسياً إلى أيدي الأجانب.

فهذه السنة عشر عاماً التي رأته على عرش مصر (من سنة ١٨٦٣ إلى سنة ١٨٧٩) والتي شهدت من مظاهر النشاط المعمر، ومن فضائح الظلم المخرب، ومن البذخ والإسراف اللذين لا يعرف التاريخ ولا تعرف الأقاصيص لهما نظيرًا، والتي انتهت بسقوط عاهل مصر العظيم بعد أن جاهد أمته فأجهدها، وبعد أن جاهد أوربا فأخضعته لها، وبعد أن جاهد القدر فهو بـ عن عرشه وأخرجه من مصر حسيراً ينظر إلى شواطئها تبتعد عنه بعين دامعة وقلب كسير، هذه السنة عشر عاماً هي التي جرّت إلى مصر مظاهر الحضارة الأوربية، وهي التي جرّت على مصر الخراب، وهي التي أيقظت في شعب مصر الروح الاستقلالية التي لم ينسها يوماً من الأيام، وهي التي أُججت في نفوس المصريين نيران كراهية الاستعباد والظلم والحرص على الحرية والعدل.

ولم يكن عجيباً أن تركت هذه الأعوام السنة عشر في مصر كل هذا الأثر وإسماعيل باشا كان حاكم مصر المطلق، فقد كان بشخصه بطلاً من أبطال الأقاصيص، وكانت أيام حكمه أسطورة لا يُسلّم العقل بها لو رواها التاريخ عن عصر قديم، كان إسماعيل ساحراً أعظم السحر، ذكياً أشد الذكاء، وسيم الطلعة حاد النظرة ماضي العزيمة جذاباً لكل من اتصل به، وكان مع ذلك قصير النظر شرهاً في كل مطامعه وشهواته مغامراً في سبيلها مجازفاً لا يهون منها أي حذر، وكان فيه من دم محمد علي إقدام لا يعرف التردد، وبطش لا هوادة فيه، وقصوة لا يتسرّب إليها أمل في رحمة، وكانت هذه الصفات كلها باللغة منه فوق ما تبلغه من أذكياء الناس والباطشين منهم، ثم إنه كان مولعاً أشد ولع بالظاهر الاجتماعية للحضارة الأوربية، وإن غاب عنه الجانب المعنوي منها، وهو الجانب الذي يحركها ويمدها بكل ما فيها من قوة: لذلك سخّر ذكاءه وإقدامه ليجعل لعرش مصر مظاهر العروش الأوربية، ولتكون قصره كقصر لويس الرابع عشر إن لم يكن أبهى منه وأزهراً، ولليقول عن مصر إنها أصبحت قطعة من أوربا، وفي سبيل ذلك أنشأ كثيراً وخرّب كثيراً وأنقل كاهل مصر بدين ما تزال تنوء إلى اليوم به، وما تزال تحتمل بسببه نقساً في سيادتها وذبولاً في استقلالها وعزتها.

ولد إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي بمصر في ٣١ ديسمبر سنة ١٨٣٠ وتربى في المدرسة التي أنشأها جده محمد علي باشا بالقصر العالي، ثم أوفده جده لما بلغ السادسة عشرة من عمره مع طائفة من الشبان إلى باريس حيث التحق فيها بمدرسة أركان حرب L'ecole de l'etat major ثم عاد إلى مصر بعد أن أتم بها دراسته.

وكان عباس الأول والي مصر يومئذ، وقد حدث خلاف بينه وبين أفراد العائلة ومن بينهم سعيد باشا على اقتسام التركة، فذهبوا إلى الأستانة يحتكمون إلى جلالة السلطان، وفض السلطان النزاع بأن أوفد اثنين من رجاله إلى مصر سوياً الخلاف، وعاد أفراد العائلة العلوية خلا إسماعيل الذي ظل بالأستانة وعيّن فيها عضواً بمجلس أحکام الدولة العلوية.

وفي سنة ١٨٥٤ تولى سعيد باشا أريكة مصر خلفاً لعباس الأول، فاستقدم إسماعيل وجعله على رئاسة مجلس أحکام مصر في مثل وظيفته التي كان يشغلها بالأستانة، ولم يكن إسماعيل يومئذ وليناً للعهد، بل كان أخوه أحمد أكبر رجال العائلة، وكان بذلك صاحب عرشها بعد سعيد، لكن أحمد توفي وألت ولاية العهد لإسماعيل، من يومئذ جعل سعيد يخشى وجوده على مقربة منه فجعل يوفده في مهمات خاصة إلى البابا وإلى تابليون الثالث وإلى الباب العالي بالأستانة، وفي سنة ١٨٦١ نشب فتنة بالسودان فبعث به على رأس أربعة عشر ألف مقاتل لقمعها، ونجح إسماعيل في ذلك وعاد وله في أعين الشعب مقام كريم، ولما توفي أخوه أحمد وألت إليه ولاية العهد ساءت العلاقة بينه وبين عمه الوالي إلى حد أنه لما توفي سعيد باشا في ١٨ يناير سنة ١٨٦٣ ونودي به وليناً مكانه حدد للتشريفات بالقاهرة نفس الساعة التي كانت محددة لسير جنازة سعيد بالإسكندرية، فلم يحتفل بالدفن احتفالاً رسميًّا ولم يحفل بالمشهد أحد.

وقد انتعشت النفوس بأكبر الآمال لأول ولادة إسماعيل باشا الحكم، أن كان الناس في سعة بسبب انتظام جباهية الضرائب أيام سعيد وارتفاع أسعار القطن ارتفاعاً عظيماً ترتب على حروب الانفصال بين شمال الولايات المتحدة وجنوبها، وأن أبدى إسماعيل من الحرص على حضارة مصر وإصلاحها ما جعل الرجاء في المستقبل عظيماً، وكان أول ما صنعه إسماعيل مما استراحة له النفوس أن نشر في الناس على أثر ارتقاءه العرش برنامجاً خلاباً كله المبادئ الحرة والوعود المغربية بخير الأمل والإصلاحات الواسعة على أحدث النظم الأوربية، وفي هذا البرنامج وعد بإلغاء السخرة والرقىق والاتجار به، وبإصدار قوانين خاصة بالتعليم وبتحديد مخصصات والي مصر، وتوقع الناس أن ينفذ هذا البرنامج وأن تخطو مصر الخطى الواسعة التي تترتب حتماً على تنفيذه لما بدا على إسماعيل بعد عودته من دراسته بأوروبا ومن سياحاته الكثيرة فيها من الحرص على تنمية ثروته الخاصة، وزاد الناس رجاء في ذلك ما كانت عليه حال البلاد إجمالاً من الانتظام والطمأنينة.

لكن إسماعيل حرص — إلى جانب نشر هذا البرنامج — على نشر حالة الخزانة المالية وبخاصة فيما يتعلق بالديون التي خلفها سلفه سعيد باشا، ومع أن هذه الديون لم تكن تزيد في التقديرات الرسمية التي عرفت إلى حين موت سعيد على أربعة ملايين من الجنيهات، فقد ظهرت في البيان الذي نشرته حكومة إسماعيل باشا أحد عشر مليوناً ومائة وستين ألفاً من الجنيهات، والسبب في نشر هذا البيان ليس مجرد الحرص على تحديد ما للدولة وما عليها، فمثل هذا الحرص لم يكن معروفاً في ذلك الوقت، وإنما السبب أن إسماعيل باشا كان يرى ما يقتضيه تنفيذ برنامجه العظيم من طائل النفقات مما لا سبيل إلى الحصول عليه من غير طريق الاقتراض؛ لذلك أراد أن يبين للناس وللأوربيين خاصة أن سلفه الذي لم يصنع شيئاً لحضارة مصر أكثر من هذا الجيش الذي اختاره من طوال القamaط، والذي كان يصحبه أني ذهب، هو الذي بدأ سنة الاقتراض وهو الذي اقترض هذا المبلغ العظيم من غيرفائدة للبلاد.

والواقع أن مطامع إسماعيل كانت عظيمة تتوء بها موارد مصر، فقد أراد أن يصل إلى ما رمى إليه جده محمد علي من استقلال البلاد، لكنه كان يعلم أن تحقيق ذلك بالسيف غير ميسور، وأنه على كل حال عرضة لأن يصطدم من معارضه أوربا بما اصطدمت به انتصارات مصر أيام جده، وكان يعلم كذلك ما للرشوة من أثر في وزراء الباب العالي، فإذا هو سخا بيده استطاع أن يحصل على هذا الاستقلال شيئاً فشيئاً، ثم إنه رأى من جهة ثلاثة أن لا سبيل للحصول على المال اللازم لهذه الغاية ولسداد أطماعه وشهواته إلا أن يظهر أمام أوربا حاكماً غريباً يريد الإصلاح بالفعل، فنشر البرنامج المشار إليه ونشر قائمة بديون سعيد، وأبدى من مظاهر العطف الإنساني على رعاياه ما جلب إليه أنظار أوربا، من ذلك أنه لم يوافق على الاستمرار في تنفيذ اتفاقية قناة السويس التي عقدت في عهد سلفه سعيد باشا بينه وبين المليون فردینان دلسیس، لأنه رأى شروطها قاسية بالنسبة لمصر وبالنسبة للعمال المصريين الذين كانوا يرهقون في حفر القناة أشد إرهاق، يسامون الخسف ويضربون بالكريبيج ويطعمون الزقوم، ويقادون لا يقتضون عن عملهم أجراً، ولما استحر الخلاف بين إسماعيل وشركة القناة ارتفع الطرفان تحكيم نابليون الثالث.

ولسنا نستطيع أن نفهم هذا التحكيم إلا على أنه نوع من الكبرياء والغرور، فنابليون الثالث إمبراطور فرنسا، وشركة القناة على صفتها الدولية كانت ما تزال في كل مظاهرها شركة فرنسية تعنى إمبراطور فرنسا حمايتها، فتحكيمه مع ذلك نوع من الكبرياء

والغرور معناه أنه لا يجوز لغير رأس من أكبر الرءوس المتوجة أن تتنظر في خلاف بين إسماعيل والشركة الدولية العالمية، وانتهى التحكيم بإلزام مصر بأن تدفع للشركة تعويضاً عن عدم تنفيذ شروط الاتفاق أربعة وثمانين مليوناً من الفرنكた، أي ثلاثة ملايين وثلاثمائة وستين ألفاً من الجنيهات، فإذا أضيفت نفقات الدعوى وما قامت به الحكومة المصرية من أعمال النشر والإذاعة وما كان يتقاده القائمون بهذه الأعمال من باهظ النفقات لم يكن غلوًّا تقدير ما خسرته مصر في هذه الحركة بأربعة ملايين من الجنيهات.

وبعد زمن وجيز من ولايته الحكم جاء جلالة السلطان عبد العزيز إلى مصر ومعه الصدر الأعظم فؤاد باشا، فكانت هذه أول فرصة عرضت لإسماعيل كي ينفذ ما قاله بخطره كوسيلة لبلوغ الغاية التي صبأ إليها من قبل جده محمد علي، ولم يكتبه أقامه جلالة السلطان من أعياد فاقت في الفخامة كل ما يتصوره خيال السلطان الشرقي، بل نفح الصدر الأعظم بمبلغ زهيد مقابل الخدم التي أداها أو يمكن أن يؤديها لبقاء علاقات المودة والصفاء بين والي مصر وجلالة السلطان، هذا المبلغ الزهيد هو ستون ألفاً من الجنيهات.

على أن تباشير الخير التي جعلت المصريين يستقبلون ارتقاء إسماعيل العرش بالبشر والتهليل لم تدم طويلاً، فقد انتهت حرب الانفصال بين شمال الولايات المتحدة وجنوبها وعادت أسعار القطن فانحدرت من ستة عشر جنيهاً للقطنار إلى ثلاثة جنيهات أو ثلاثة جنيهات ونصف الجنيه، وفتكت بالزراعة المصرية آفات أنقصت من دخل الضريبة العقارية واضطررت الحكومة معها لشراء الماشية والغلال لتموين الأهالي، مما خسرت معه ما يزيد على مائة وعشرين ألفاً من الجنيهات، ثم إن إسماعيل كان مغرماً أشد الغرام بملك الأطيان حتى لقد بلغت مساحة «دوائر» العائلة المالكة في سنة ١٨٦٥ ما يزيد على خمس الأطيان المزرعة في مصر الوسطى وفي الوجه البحري.

ذلك كله مضافاً إلى حاجات الميزانية العادلة، وما احتاجت إليه الإصلاحات العامة التي بدأ إسماعيل ب القيام بها تنفيذاً ل برنامجه، جعل الالتجاء إلى الاقتراض أمراً لا مفر منه، وقد بدأ إسماعيل فعلًا بالاقتراض منذ ولِي الحكم، فلما انقضت على ولايته سنة وبعض السنة كان الالتجاء إلى المرابين في مصر غير كافٍ لحاجاته، وكان لا بد من الاقتراض من بيوتات مالية كبيرة في أوروبا، ولم يجد إسماعيل عتناً في استصدار تصريح بالاقتراض من الأستانة، وبذلك استطاع في ٨ سبتمبر سنة ١٨٦٤ عقد أول قروضه وقدره ٥٧٠٤٠٠ جنية.

كيف صور إسماعيل لنفسه برنامج الإصلاحات العامة؟ وما هي الطريقة التي أراد أن ينقل بها مصر من بلد شرقي بعيد عن مظاهر الحضارة الأوروبية إلا القليل الذي جاء مع نابليون والبعثة الفرنسية، والذي دخل إلى مصر سداً لاحتاجات محمد علي الحربية؟ هي صورة غاية في البساطة، يجب أن نقيم مدنًا أوروبية النظام في طرقها وفي عمارتها وفي بساتينها، فما يلبت المقيمون بها أن يصطبغوا بالحضارة الأوروبية.

ويجب أن ندخل أحد المخترعات والنظم كالسكك الحديدية والبريد والتلغراف، مما يلبت الناس أن يفهموا هذه الاختراعات والنظم وأن يصيروا ك أصحابها، ويجب أن نعلم جماعة من النشء ليكونوا واسطة احتفاظ بمظاهر الحضارة هذه، أما الشعب فلم يكن إسماعيل يأبه له كثيراً لأنه كان كغيره من الحكام الشرقيين إلى يومئذ، وكثير من الحكام الغربيين إلى زمن غير بعيد قبله، يعتبر مصر كما اعتبرها جده من قبل مزرعة له، مركز الشعب فيها مرکز العبد أو الخادم، وقد أراد إسماعيل أن يصل لتحقيق فكرته من الحضارة والإصلاح في سنوات مما لم تصل أوروبا لتحقيقه إلا في قرون، فبدأ تنظيم القاهرة على نظام باريس وغير باريس من مدائن أوروبا الكبرى يخطط فيها الشوارع ويقيم القصور وينشيء الدوائيين ودور الحكومة ويغيرس البساتين، وجعل من جانبه يعيش عيشة بذخ لم يتھأ لخيال شاعر ولا قصاص من قبل، وطبعي أن اقتضى القيام بذلك كله من النفقات ما تلاشى معه قرض سنة ١٨٦٤ أسرع التلاشي وما كثرت معه الديون السائرة التي كان يفترضها من المرابين الأجانب المقيمين بمصر كثرة اضطرته للتفكير من جديد في الالتجاء إلى أوروبا كي يعقد قرضاً آخر.

ولم يكفه قرض واحد، بل كان وزيره نوبار باشا يتفاوض له مع كل البيوتات المالية وعقد له في ثلاثة سنوات ثلاثة قروض: قرض سنة ١٨٦٥ وقدره ٣٣٨٧٠٠٠ جنيه، وقرض سنة ١٨٦٦ وقدره ثلاثة ملايين من الجنيهات، وقرض سنة ١٨٦٧ وقدره ٢٠٨٠٠٠ جنيه، لكن هذه الملايين كلها لم تكن شيئاً مذكوراً إلى جانب النفقات الباهظة التي كان يقوم بها إسماعيل باشا.

وماذا تريد من رجل أقل أطماعه أن يصل ليكون ملكاً على بلاد مستقلة استقلالاً داخلياً على الأقل؟! وكم كلفه ذلك من باهظ الرشوة يدفعها للكثيرين من رجال الباب العالي بالأستانة! ولقد كانت أول خطوة خطاها في هذا السبيل أن حصل في سنة ١٨٦٦ على فرمان من جلالة السلطان بجعل الوراثة في أبنائه بدلاً من جعلها في أكبر العائلة كما كانت من قبل، ثم حصل كذلك على ضم سواكن ومصوع لمصر بعدما سلخا عنها من بعد حكم محمد علي.

ثم إنه من بعد أن حَكَمَ نابليون الثالث إمبراطور فرنسا في الخلاف بينه وبين شركة قناة السويس أصبح صديقاً حمِيماً للشركة، وأصبح ينتظر اليوم الذي يعلن فيه افتتاح القناة، ليُدعى العالم كله كي يشهد هذا التحوير البديع لنظام الطبيعة تحويراً من شأنه أن يغير سير الوجود الاقتصادي والتجاري تغييرًا خطيراً، وكانت سنة ١٨٦٩ هي السنة التي حددت لهذا الافتتاح، وكانت قروض السنوات الثلاث السالفة الذكر قد نفذت كلها، وتزايد الدين السائر مع ذلك تزايداً جعل إسماعيل يفكر في الحصول على المال للظهور بالملظف اللازم في حفلة الافتتاح تفكيراً جدياً استغرق كل موهبه وكل ذكائه.

وفي هذا السبيل سافر في سنة ١٨٦٧ إلى أوروبا وزار باريس ولندن واستضافه نابليون الثالث والملكة فكتوريا، وكان معه في هذه السياحة وزير نوبار باشا المطلع على دخائل مفاوضات البيوتات المالية والقدير بدهائه وخبثه على القيام بأعمال في السياسة جسام، وفي هذه الزيارة بدأ الحديث في مسألة تعديل نظام الامتيازات الأجنبية، فقد كان إلى يومئذ كما كان إلى يوم إلغائه في تركيا قائماً على القاعدة القانونية التي تقرر أن المدعي يقاضي المدعى عليه أمام قضااته، وكان من أثر ذلك أن شعر الأجانب أنفسهم بالارتباك في مقاضاة بعضهم بعضاً، فاستقر رأي إسماعيل ووزيره على إقامة نظام المحاكم المختلطة في مصر، على أن يشمل اختصاص هذه المحاكم الشئون الجنائية كذلك، ومنذ هذه الزيارة التي قام بها إسماعيل لأوروبا في سنة ١٨٦٧ فتحت مسألة تعديل النظام القضائي في شأن الأجانب، وظللت المفاوضات فيها مستمرة بعد ذلك ثمانية سنوات حتى كللت بالنجاح في سنة ١٨٧٥، لكن هذه المسألة لم تكن الجوهرية يومئذ، إنما المسألة الجوهرية كانت الحصول على المال لسداد الديون السائرة فيما أعلنه إسماعيل باشا المفترض وزير مالية إسماعيل، ولتحضير حفلة افتتاح القناة في رأي المستر كيف الذي حقق أسباب ديون إسماعيل في سنة ١٨٧٠ كما سترى، وقد نجح إسماعيل في عقد قرض تم توقيعه سنة ١٨٦٨ قيمته الاسمية مبلغ ١١٩٠٠٠٠ جنيه والمحصل الحقيقي منه مبلغ ٧١٩٣٣٤ سنوات مقبلة، مما يدل على أنه كان في أشد الحاجة إلى المال، وكان افتتاح القناة في ذلك الظرف هو شاغل إسماعيل الأكبر.

فقد حرص على أن يدعو إلى هذه الحفلة كل الرؤوس المتوجة في أوروبا وأكبر عدد من ذوي المقام والمكانة في العالم، وكان أكبر همه من هذا أن يشهد هؤلاء جميعاً كيف نقل مصر من بلاد شرقية أفريقية فجعل منها بلاً غربية متحضرة، وفي الحق أنه أعد

لهذا المظاهر خير عدته، فقد بني في القاهرة قصوراً تضارع أفحى قصور المدائن الأوروبية العظمى: ببني قصر الجيزة الذي انقلب في العهد الأخير حديقة للحيوانات، ووصل بيته وبين القاهرة بكوبري قصر النيل، وبين قصر الجزيرة الذي آل أخيراً إلى الأمراء آل لطف الله، وبين غير هذين من القصور الشاهقة ومن دواوين الحكومة ما تعترف به مدائن أوروبا، ثم أعد مسرح الأوربرا وكلف الموسيقي الإيطالي الكبير فردي فوضع أوربرا عايدة لتمثيل في أثناء حفلات الافتتاح، وأنشأ حديقة الأزبكية في وسط القاهرة أسوة بالحدائق العامة في العاصمة الكبرى.

وليتيسر للزائرين وبخاصة الإمبراطورة أوجيني زوج نابليون الثالث زيارة آثار الفراعنة اختط طريق الأهرام في أشهر معدودة، هذا إلى ما مد من خطوط السكة الحديدية، وإلى ما شيد من مدينة الإسماعيلية على ضفة القناة، كما أنه كان قد أنشأ في مختلف أنحاء القاهرة كثيراً من المدارس الجديدة، كما أعاد المدارس التي كانت قد أنشئت في عهد جده محمد علي باشا وأضحلت من بعده: فأنشأ مدارس المبتدئان والتجهيزية والمهندسة والمساحة والألسن والعمليات والإدارة واللسان القديم والتجارة ومدرسة للبنات ومدارس كثيرة أخرى في القاهرة والإسكندرية والأرياف، وكذلك كان من حقه أن يفخر بهذه المنشآت العظيمة وأن يريها لملوك أوروبا ليعلموا أنه أكثر حضارة من متبعه الأعظم سلطان تركيا، وأنه إذا طلب يوماً أن يستقل بحكم مصر فطلب لا شيء من المبالغة فيه.

وسافر من جديد إلى أوروبا سنة ١٨٦٩ وعاد بعد ما دعا كل الرؤوس المتوجة إلى حضور الاحتفال بافتتاح القناة، وقد أجاب الدعوة منهم عدد غير قليل، ثم تم افتتاح القناة في خمسة أيام، ففي ١٦ نوفمبر سنة ١٨٦٩ ركب المدعوون بواخرهم وعددها ثمان وستون ترفرف فوقها أعلام مختلفة ويقدمها (النسر) سفين الإمبراطورة أوجيني زوج نابليون الثالث التي جاءت بالنيابة عن زوجها، وقطعوا المسافة من بورسعيد إلى الإسماعيلية في ذلك اليوم، وبعد أن أقيمت في الإسماعيلية أعياد استمرت يومي ١٧ و ١٨ نوفمبر ركب المدعوون من جديد بواخرهم يوم ١٩ وبلغوا السويس يوم ٢٠ نوفمبر، ولم يكتف إسماعيل بهذا بل طاف بضيوفه العظام أنحاء مصر يظهرهم على ما جدد فيها من حضارة تضارع حضارة أوروبا، وقد كلفته هذه الأعياد الباهرة — حسب التقديرات الرسمية — أربعة ملايين من الجنيهات.

وانتهت الأعياد وأضواؤها الباهرة وابتسامتها الخلابة وأجال إسماعيل بصره يريد متابعة أعماله فإذا خزانة الدولة قفر، وإذا هو في أشد الحاجة إلى المال، ولم يكن يستطيع

أن يقترض وهو مقيد في عقد سنة ١٨٦٨ بـألا يعقد قرضاً جديداً قبل مضي سنوات خمس، فلجأ إلى المزابين من جديد ولجأ إلى وسيلة تشبه ما يسميه الفلاحون اليوم (البيع على الوجه)، فكان يبيع آلاف الأرادب من الغلال قبل زرعها ويقبض ثمنها، فإذا جاء موعد التسليم أعطى ما يجب من الضرائب غالاً ثم اشتري الباقى بأسعار أعلى بكثير من الأسعار التي باع بها، ولجأ إلى غير ذلك من الوسائل المخربة حتى اضطر جلالة سلطان تركيا برغم ما أصاب إسماعيل أن يبعث له يحظر عليه الاقتراض بغير تصريح سابق منه.

لكن ذلك كله لم يوهن من عزيمة إسماعيل الصلب ولم يثن من إرادته، يجب أن يوجد المال للقيام بمشروعاته ولضاغطة هذا البذخ الذي كان يعيش فيه، والذي اضطره لنثر الذهب من الأبواب والنوافذ نثراً، وهل تراه يرضى أن يقول لرجل من أتباعه الذين يتولون تسليته أو لجريدة من مئات الجواري اللاتي كانت تترنم بأصواتهن قصوره: إن سيدكم قد عرف أخيراً كلمة المستحيل، كلا، ليس هذا من خلق إسماعيل، فليعتقد إذا قرضاً ترهن أملاكه الخاصة لسداده، وعقد بالفعل قرضاً خاصاً في سنة ١٨٧٠ قيمته الاسمية ٧١٤٢٨٦٠ جنيه والمبلغ المتحصل منه بالفعل خمسة ملايين جنيه.

من سنة ١٨٧٠ بدأ يرمي بنظره إلى التوسيع الاستعماري، ولقد أصاب من ذلك حظاً من النجاح غير قليل، ففيما بين هذه السنة وسنة ١٨٧٥ استتصفى مصر كل الشواطئ الشرقية من السويس إلى رأس غردقوس وحاصر ببر وزيزع، وفي سنة ١٨٧٤ ضم دارفور إلى مصر واحتل هرر، وقد أدى احتلال هرر إلى حروب مع الحبشة قتل فيها ابنه، ولم يكن النصر فيها حليف جيوشه، على أن ذلك لم يصدّها عن التوغل جنوباً إلى حدود الأوغندة، وكان من أكبر رجال إسماعيل المسؤولين في السودان صمويل بيكر والكولونيال جوردون، ولعل ذلك كان أول ما دعا إنجلترا لتفكير في هذا القطر النائي، وكان السبب في السياسة التي رسمتها لنفسها فيه والتي أدت إلى مركز السودان الحاضر.^١

وكانت هذه الأعمال، وكان إسراف الحكومة في مصر، وكانت نفقات إسماعيل ومن حوله، تجعل كل مبلغ ضئيلاً لا يقوى على سدادها، لكن إسماعيل باشا بدأ يرى هول الديون التي استداناها وبدأ يشعر بأن من الواجب التفكير في السعي للتخلص منها، ولعله كان مخلصاً في سعيه، وإن كانت كل الوسائل التي ابتدعت لجلب المال لم تنجح في أكثر من أن زادت الخديو مطامع وسرفاً، وأول ما أبدع من الوسائل قانون المقابلة، وخلاصته: أن ديون مصر إلى يومئذ كانت تبلغ ستة أمثال الضريبة العقارية، فإذا دفع الملك ضعف

الضريبة المضاعفة يعفى المالك أبداً من نصف الضريبة التي عليهم، وقد دفع كثير من كبار المالك والباشوات الضريبة المضاعفة بطلبولي الأمر، وببدأ الحكومة فعلًا تسد الدين السائر، لكنها لم تمض عليها سنة واحدة حتى كانت قد استدانت من جديد بسندات أصدرتها مكفولة بضريبة المقابلة ما قيمته اثنا عشر مليوناً من الجنيهات.

ولما كان موعد الخمس السنوات المحدد في عقد قرض سنة ١٨٦٨ قارب الانتهاء رأى إسماعيل أن يستأنن الباب العالي في قرض جديد يوحد به ديونه، واتفق فعلًا مع بيت أوبنheim الذي أصدر قرض سنة ١٨٦٨ على أن يصدر قرضاً جديداً قيمته اثنان وثلاثون مليوناً من الجنيهات لهذا التوحيد، على أن كل ما حصلته الحكومة المصرية من هذا المبلغ كان ٢٠٨٤٠٧٧ جنيه، وكان الدين السائر وحده قد بلغ يومئذ ثمانية وعشرين مليوناً.

ثم إن الخديو كان قد اضطر إلى إنفاق مبلغ ضخم في الأستانة للحصول على فرمان سنة ١٨٧٣ الذي وطد الوراثة في بكر الأبناء على نحو ما صدر به فرمان سنة ١٨٦٦، والذي أتم لمصر استقلالها الداخلي حتى لم يبق لتركيا إلا أن تسك العمدة باسم سلطانها وتتقاضى الجزية آخر كل سنة، وزاد هذا المبلغ في مقدار الديون السائرة زيادة جعلتها تجاوز مقدار القرض الجديد بما يوازي نصفه؛ لذلك لم يفلح القرض في سداد الدين السائر، واستمر إسماعيل على طريقته يصدر سندات جديدة أسمها في هذه المرة سندات الرزنامة، وقد حصلت الحكومة من هذه السندات ٣٣٣٧٢١٠ جنيه فلم تتفق هي الأخرى مضافة إلى الدين الجديد لسداد الديون السائرة، ولم يبق أمام إسماعيل إلا بيع أسهم الحكومة في قنال السويس، ولقد عرضها للبيع في السوق العالمي، لكن إنجلترا جعلت المسألة ماسة بسياساتها ووقفت في وجه فرنسا واشتريت الأسهم من إسماعيل بمبلغ أربعة ملايين من الجنيهات وتمت الصفة في عام ١٨٧٥.

وفي هذا العام الذي أطل فيه الخراب محدقاً بعينيه البشعتين في وجه إسماعيل تم تنظيم المحاكم المختلطة بعد معارضة غير قليلة من جانب فرنسا، وافتتحها إسماعيل وهو ما يزال يأمل في أن أعمال الحضارة التي قام ويقوم بها في مصر تسمح له أبداً بأن يجد من الدائنين من يثق به، ناسيًا أنه كان قد رهن كل إيرادات الدولة وكل أملاكه الخاصة، وأن الثقة به تزعزعت في كل مكان؛ لذلك ما بزغت شمس سنة ١٨٧٦ حتى كان وقت الحساب قد آن، وحتى أطافت أنوار هذه الأعياد الدائمة وهذا النشاط العجيب الذي نشره إسماعيل لا في مصر وحدها بل في أرجاء كثيرة قريبة من مصر ونائية عنها: في السودان وفي تركيا وفي فرنسا وفي إنجلترا وفي كل بلد حلّت به رحاله أو كان له دائئنون فيه.

سنة ١٨٧٦، نعم هي السنة العصيبة في حياة إسماعيل لأنها السنة التي بدأ فيها الصراع العنيف بينه وبين أوربا مجتمعة، والعجيب أنه واصل هذا الصراع وما يزال واثقاً من نفسه ومن حيلته؛ لذلك كان إذا اضطر إلى الإنذار يوماً لم يكن ذلك منه حرضاً على الوفاء ولكن انتظاراً لفرصة النكث والأخذ بالثار، لكن خصومه كانوا أقوى منه أضعافاً برغم أنه كان في داره، وعلى الرغم من كل الوسائل التي لجأ إليها فقد انتهى آخر الأمر فأسلم نفسه للمقادير التي قضت بخلعه وإبعاده عن بلاده بقية حياته.

ومن عجيب سخر القدر من الناس أن إسماعيل هو الذي ألقى لأوربا بأول فكرة للتدخل في شؤون مصر تدخلًا ينتهي في أمره هو إلى الخلع، وفي أمر مصر إلى الخضوع لنير أوربا أولاً وإنجلترا أخيراً، ذلك بأنه لما ثقل حمله وأيقن أن لا وسيلة إلى الاقتراض من جديد إلا أن تثق به أوربا أجال نظره صوب صديقه الصدوق فرنسا فألفاها ما تزال مهيضة الجناح من أثر هزيمتها سنة ١٨٧٠، عند ذلك فكر في مصادقة إنجلترا وانتهز فرصة مرور ولی عهدها بمصر فطلب إليه أن يعين إنجليزيًّا مستشاراً للمالية المصرية، وكان جواب ولی العهد أن ذلك من شأن القنصل الإنجليزي، فبعث القنصل بخطاب إلى حكومته كطلب إسماعيل، وأهملت إنجلترا الخطاب حتى اشتربت أسهم القناة، يومئذ ذكرت الخطاب من جديد فأرسلت إلى مصر ببعثة لفحص شؤونها المالية وعلى رأسها المستر ستيفن كيف.

ولم يترك إسماعيل باشا وسيلة لاسترضاء المستر كيف ولجنته إلا بذلها، وقدمت اللجنة تقريرها إلى الحكومة الإنجليزية فامتنعت عن نشره بحجة أن النشر يزيد مركز الخديو حرجاً، وقد نشر التقرير من بعد فتبين أنه لا يزيد المركز سوءاً، وأنه على العكس من ذلك يبين للناس أن ما اقترضته مصر إنما أنفق أكثره في أعمال مثمرة إن لم تظهر نتائجها بعد، فهي على كل حال ضمان يمكن أن يعتمد الدائنون عليه، على أن التقرير استظهرا دقة حال مصر وأشار بأن لا بد من توحيد ديونها على قاعدة جعل الفائدة لها جميعاً ٧ في المائة، ولم يعجب إسماعيل هذا الرأي وأراد المقاومة بتأجيل الدفع ولو كان من نتيجة ذلك إشهار إفلاسه أسوة بمتبوعه الأعظم سلطان تركيا، لكن سرعان ما أدرك خطر ما اندفع إليه فتلاه بأن أصدر قانوناً في ٢ مايو سنة ١٨٧٦ بتوحيد الدين وبإنشاء صندوق خاص بعملياته، وصندوق الدين تعين الحكومة المصرية أعضاءه من الأجانب بالاتفاق مع دولهم، وهذه أول خطوة من خطى التسليم والخضوع لأوربا ولتدخلها في شؤون مصر الداخلية.

على أن الدائنين لم يرتضوا القواعد التي بُنيَ عليها توحيد الديون فضجوا بالشكوى وطلبوا تعين لجنة جيدة لفحص حالة مصر المالية، فذهب المستر جوشن والسيو جوبير مندوبي عن الدائنين لإجراء هذا الفحص، وكان من أثر فحصهم أن صدر دكريتو ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ يفرق بين ديون الحكومة المصرية وديون إسماعيل الخاصة، ويزيد في اختصاص صندوق الدين، وينشئ منصبي المراقبين العامين: أحدهما إنجلizi والآخر فرنسي، يراقب أحدهما كل إيرادات الدولة، ويراقب الآخر كل مصروفاتها، وينشئ كذلك إدارة للسكة الحديدية مكونة من إنجلزيين ومصريين وفرنسي واحد، على أن يكون الرئيس إنجلizi، وبهذا الدكريتو أصبحت الحكومة المصرية في يد صندوق الدين والمراقبين الأجانب، وأصبح إسماعيل صورة لا يطلب منها إلا أن تكف عن الأذى، وبدأت هذه النظم الجديدة بالعمل وبدأ إسماعيل يشعر بتلاشيه وانحدار سلطانه المطلق إلى هاوية الفناء.

أين كان الشعب المصري في أثناء ذلك كله؟ لم يكن في نظر إسماعيل شيئاً إلا أنه العبد المطیع الذي يفعل ما يؤمر به والبقرة الحلوب التي تدر الخراب لإقامة الميزانية، ولم تكن للحكومة ميزانية معروفة، وإنما كانت ميزانيتها ما تتطلبه شهوات عاهلها الذكي القاسي، ولتحصيل هذه الميزانية غير المحدودة كان يكفي أن يقول إسماعيل: «أريد» لتحرك كل الحكومة كي تنفذ إرادته، والناس على دين ملوکهم، فكان كل موظف في الحكومة كإسماعيل شهوةً وقسوةً، وكان ما يطلبه إسماعيل يُجبى من الناس أضعافاً مضاعفة سداً لشهواته وشهوات هؤلاء الجباء الجناء، والناس يجب أن يدفعوا أو يكوي الكراج والسطو جلودهم ويدمغ جاهم، ويجب أن يدفعوا أو يلقى بهم في غيابات السجن يذوقون فيها أشد العذاب، ولم لا؟! أليس عزيز مصر وولي أمرها يريده، و﴿أَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَئِكُمْ أَمْرٌ مِنْكُمْ﴾، فمن عصى فعليه اللعنة وله العذاب، وأي عذاب وأية لعنة! كان رجال الحكم يومئذ من غير المصريين إلا قليلاً، فلم تكن بينهم وبين مصر وشحة رحم أو عاطفة مودة أو قربى تحرك في نفوسهم بإزاء المصريين المساكين معنى من الرحمة أو الإنسانية، بل كانوا من الأكراد والجركس والأرمن والألبانيين، وكانوا قساة القلوب غلاظ الأكباد، على عقولهم أقفالها، لا يعصون إسماعيل ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

لذلك كان طبيعياً لا يتحرك الشعب لتدخل الأجنبي في شأنه، ولماذا يتحرك؟ أليس حكامه هؤلاء أجانب عنه كالذين تدخلوا في شأن الحكم سواء بسواء؟ واختلاف العقيدة

ورأى الدائتون بأعينهم هذه الحال البشعة فاتفق الرأي على تعيين لجنة جديدة لفحص جديد، وفي سنة ١٨٧٨ تعينت لجنة الفحص العليا أنشأها دكريتو ٢٧ ينابر من تلك السنة، وفي ٣٠ مارس صدر دكريتو آخر يجعل للجنة أوسع السلطة، وتشكلت من مسيو دلسبيس رئيساً ومن مستر ريفرس ولسن نائب رئيس، ومن أعضاء صندوق الدين الأربع، وببدأت اللجنة فحصها تحركها فكرة أساسية هي وضع قرار اتهام إسماعيل، وبعد انتهاءها من الفحص قدمت تقريراً مبدئياً كانت الفكرة السائدة فيه وجوب تحديد سلطة الخديو واعتباره مسؤولاً عن حرج مركز مصر، واقتصرت لذلك إجراء إصلاحات في التشريع المالي بالنسبة للضرائب، وأن تخصص إيرادات أملاك الخديو كلها ومساحتها ٩١٧٠٠ فدان لسداد ما يكون من عجز في الميزانية.

تردد إسماعيل بادئ الرأي في قبول هذه المطالبة، لكنه رأى تردد لا يفيق شيئاً بعد أن أصبح الأمر كله للمراقبين ولصندوق الدين، وأنه إذا قبل ما اقترح عليه فقد يفتح ذلك أمامه باباً جديداً للالقتصاص من جهة، ويترك له الوقت من الجهة الأخرى في تدبير وسيلة للخلاص من هذه المراقبة التي غلت يده، وتحت ضغط نوبار باشا أُعلن إلى المستر ريفرس ولسن في يوم ٢٣ أغسطس سنة ١٨٧٨ قبولة اقتراحات اللجنة، وفي ٢٨ أغسطس أصدر الأمر العالي المشهور بإنشاء وزارة (يحكم هو معها وب بواسطتها وتكون متضامنة في مسؤوليتها) وشكل نوبار باشا هذه الوزارة واستعان فيها بالمستر ريفرس ولسن.

ومنذ طلب نوبار باشا إلى المستر ريفرس ولسن معاونته في الوزارة قام الأخير بالفاوضة لعقد قرض جديد تسد منه الديون السائرة ويسد عجز الميزانية، وقبل أن يوقع عقد القرض أصدر إسماعيل دكتريتو سنة ١٨٧٨ ٢٦ أكتوبر بنزل أعضاء العائلة

الخديوية للحكومة بموجبه عن أملاكهم العقارية وقدرها ٤٢٥٧٢٩ فدانًا خلا العقارات، واعتبرت هذه الأموال ضامنة للقرض الجديد الذي دُعيَ باسم قرض الدومين أو قرض روتشيلد.

وفي شهر أكتوبر أصبح المستر ولسن وزيرًا للمالية والسيو دبلنير وزيرًا للأشغال العمومية، وألغيت بذلك المراقبة الثانية على إيرادات الدولة ومصروفاتها على أن تعود إذا عزل هذان الوزيران الأوروبيان من منصبيهما من غير موافقة إنجلترا وفرنسا، وجعلت هذه الوزارة المختلفة جل همها أن تسد الدين وأن تتفاوض عجز الميزانية، والواقع أن الدين السائرة بلغت مبلغًا ضاق دونه القرض الجديد على الرغم من أنه بلغ ثمانية ملايين، وكذلك وقفت الوزارة المختلفة بعد ثلاثة سنوات من المراقبة المالية موقف الحكومات التي سبقتها، وعجزت أن تواجه حرج المركز بخير مما واجهته غيرها من قبل، ولجأت إلى الضغط والاضطهاد اللذين لجأ إليهما أشد الحكومات عصًا واستبدادًا، وزاد الموقف حرجًا أن رأى وزير المالية الإنجليزي الاستغناء عن ألفين وخمسمائة ضابط من غير أن يدفع لهم متاخرات رواتبهم لأكثر من سنة كاملة، هنالك هاجوا وقاموا ومن بينهم أحمد عرابي في ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ بظاهرة خطيرة وأحاطوا بنوبار وولسن وأهانوهما وأوسعوهما ضربًا، ولما نمى الخبر إلى إسماعيل جاء بنفسه، فلما رأاه الضباط وأمرهم بالانصراف لم يعص أمره منهم أحد، مما دل على أن له في تدبير هذه الفتنة يدًا، وقد ثبت بعد ذلك أنه كان المدبر لها بالفعل بأن أوزع إلى أكثر الضباط إقداماً وجراة بالقيام بها.

وكان من الضباط الذين قاموا بهذه المظاهره ومن الذين استغنى عنهم ريفرس ولسون عدد غير قليل من المصريين الصميمين، ولعل ذلك هو الذي أدى إلى استمرار الحرفة في المستقبل والذي كان نواة الثورة العربية، فإن الموظفين والضباط من الشركس والأتراك والأرمي وغيرهم — من كان بيدهم الأمر فكانوا يسومون المصريين الخسف وسوء العذاب — شعروا بفشلهم وبعجزهم إذا بقيت الخصومة بينهم وبين المصريين قائمة، ثم إن ريفرس ولسن تقدم بسبب آخر أدى إلى تحرك العناصر القومية الصمية في البلاد، فقد طلب إلى الحكومة أن تعلن أن مصر مقلسة كي تعامل معاشرة المفلس في شأن ديونها، هنالك اجتمع نواب البلاد وأعيانها وكبارها وموظفوها الدينيون والمدنيون والحربيون وقدموا للخديو برنامجًا مالياً يخالف برنامج ولسن محتاجين على القول بإفلاس مصر، ولم تكن يد إسماعيل بعيدة عن وضع هذا البرنامج، ثم لم يكتفي النواب ببرنامجهم الذي تقدموا به، بل تقدموا كذلك بعرض للخديو يبينون فيه استياءهم من

الوزارة لعدم اكتراثها بآرائهم، وانضم الخديو لهذه الحركة وعضدها؛ لأنه رأى فيها الوسيلة الوحيدة لعود بعض سلطته إليه بعد أن تقلص ظلها وانتقلت إلى أيدي الأجانب، وبلغ من تعصيده إياها أن رفض النواب الارفاض لما جاء رياض باشا وزير الداخلية يعلن إليهم انتهاء الدورة، وكذلك أصبح هذا المجلس الذي خلقه إسماعيل في سنة ١٨٨٦ صورة يوهم بها الدول الأوروبية أن مصر أصبحت بالفعل جزءاً من أوروبا وقد شعر بوجوده وقدر مكانته، فقد احتج في ٢٩ مارس سنة ١٨٧٥ على الوزارة المختلطة لأنها لم تكن تعرف بوجوده وبمسئوليتها أمامه، وفي ٥ أبريل طلب إلى الخديو تعديل قانون الانتخاب وإعلان مسئولية الحكومة أمام مجلس النواب، ولم يقف عند ذلك بل احتج علىبقاء الوزارة المختلطة وبالتالي على وجود ولسن ودبليونير فيها، ولم يلبث إسماعيل أن أبلغ هذا الاحتجاج حتى عزل الوزارة وعهد إلى شريف باشا بتأليف الوزارة الجديدة، وفي الشهور الثلاثة التي انقضت بين توليها وخلع إسماعيل بدأت بوضع قانون للانتخاب، كما نشرت في ٤ يونيو لائحة مجلس شورى النواب الأساسية، وفيها تقرر الحصانة البرلانية وتحدد عدد النواب وتتصدر على المسئولية الوزارية، ومع أن هذه الوزارة كانت جادة في عملها، ومع أنها سبقت هذا التشريع النجاشي بتشريع مالي صدر به دكريتو بتاريخ ٢٢ أبريل سنة ١٨٧٩ يكفل للأجانب حقوقهم ويقر المراقبة الثانية وصادق الدين في اختصاصهما الواسع، فإن أوربا بدأت تشعر بأن مصر على وشك انتقال خطير ليس من العسير تقدير مدى نتائجه، وإن خيراً للمصالح الأوروبية الوقوف في سبيله، فبدأت ألمانيا والنمسا بالاحتجاج في ١٨ مايو على دكريتو ٢٢ أبريل بدعوى أنه مخالف لتعهدات مصر الدولية، وألقتا مسئولية هذه المخالفة على الخديو، وفي ١٨ يونيو احتنت وزارتا باريس ولندرة مثل ألمانيا والنمسا، وقد حاول إسماعيل القضاء على هذه الحركة الدولية فطلب موافقة الدول على الدكريتو، لكن حركته هذه لم تنجح.

وكانت الدول قد سئمت هذا الصراع الطويل مع إسماعيل، ولعلها كذلك خشيت بعد انضمامه للأمة وإظهاره العطف كل العطف على مطالباتها أن تقوى الحركة القومية المصرية وأن يصبح إسماعيل مثلاً كان جده محمد علي مكانة وقوة سلطان؛ لذلك رأت أفضل السياسات أن ينزل عن العرش، لكن إسماعيل لم ينظر إلى المسألة بهذه النظرة، وأراد أن يلجم إلى جلالة سلطان تركياً أملاً أن يكون لما قدمه له من طائل الأموال وعظيم التضحيات بعض الآخر، وهنا خاب فأله، فقد بعث الباب العالي في ٢٦ يونيو تغراضاً بعزل إسماعيل عن العرش وبرفع ولده توفيق مكانه، وعلى أثر ذلك أفلح إسماعيل من

الإسكندرية قاصداً إيطاليا وقلبه خافق وعيونه هامبة بالدموع، وأقام في إيطاليا زمناً ثم انتقل إلى الأستانة إذ أقام بها في قصر «أمر جيان» على شواطئ البوسفور حتى جاء أجله في ٢ مارس سنة ١٨٩٥.

وكم دار بخاطره في هذه السنوات الأربع عشرة التي انقضت بين عزله وأجله أن يعود إلى نضال يسأله به عرشه، وكان أول ما صنع من ذلك أنبعث إلى السلطان بالأستانة علىثر وصوله إلى نابولي رسالة حارة يذكر له فيها ما أجرى من عظيم الإصلاح في وادي النيل، وما قام به من فتح السودان إلى خط الاستواء حيث خفقت الرأية العثمانية من تلك الأنحاء في ربوع لم تتحقق من قبل قط عليها، لكن السلطان لم يعبأ بخطابه ولا أجابه عنه، بل نسي كل ماضي إسماعيل وما أغدقه على الأستانة ورجالها من مال وأنعم، وما باله يعبأ به وقد أصبح لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا يملك لمتابعة العظيم رشوة ولا هدية، وأصحاب العروش لا يعنون إلا بصاحب القوة ما داموا يهابون قوته ويطمعون في خيره ومعونته، ونال ذلك من نفس إسماعيل، ولكنه حملها على الصبر حتى كانت الثورة العربية في مصر، هناك حر الألم في نفسه واذْكُر أنه لم يفكر في مقاومة كالتي قاومها اليوم هؤلاء المصريون الأبطال، ولو أنه قاوم فربما كان له من الأقدار عنون يستبقي نجمه عالياً، أما ولم يفعل فليس له أن يرجو من الأقدار مددًا وهي لا تمد الضعيف أو الخائف، وإنما تحارب في صف الشجاع المقدم.

ومنذ دخل الإنجليز مصر محظيين خيّم اليأس على كل آماله في استعادة ملكه، فظل في إيطاليا حتى انتقل إلى الأستانة ليلاقي فيها منيته، ولি�كون فيها أسير عطف الأتراك الذين طالما تمعنوا بما أغدقه عليهم من مدد ومال أيام ولاليه.

هوامش

- (١) الإشارة إلى نظام الحكم الثنائي الذي ظل قائماً في السودان حتى حصل على استقلاله في سنة ١٩٥٦.

الخديو توفيق باشا



ثلاثة عشر عاماً تولى فيها توفيق أمراً مصر كان خلالها في زهرة شبابه بين السابعة والعشرين والأربعين، لكنه كان فيها كذلك بين عوامل لا يستطيع مدافعتها والتغلب عليها إلا نابغة محنك، كان فيها بين تركيا الناقمة لضعف سلطانها في مصر، وإنجلترا الطامحة إلى بسط نفوذها نهائياً على وادي النيل، وفرنسا المكتيبة لتقلص مكانتها رويداً رويداً من أرض الفراعنة، والأمة المصرية المثقلة بديون إسماعيل باشا وظلم حكامها والمتاجحة نفوس أهلها بالثورة طمعاً في الاستقلال والدستور، وهو بين هذه العوامل رجل يشعر بضعة أمواته وبحد أهله عليه، ويجد لو أنه كان في مكانة أبيه بطشاً وسلطاناً، ويختضع للأقدار التي لم تهبه من سعة الذكاء ما وهبت غيره، ولتربيته الشرقية البحتة التي اقتضت ألا يغادر مصر وألا يتصل بالمدينة الأوربية اتصال إخوته، وللظروف التي جعلت تتقاذفه

منذ ارتقى عرش أبيه فتصدمه بكل واحد من العوامل المحيطة به، لينتهي به الأمر إلى أن يكون في تاريخ مصر صورة غير محبوبة، ولا ممقوتة، صورة مرت في هذا التاريخ فكان أثراها فيه سلبياً هو أثر العاجز عن أن يقوم لبلاده أو لنفسه بخير، ولزيود العالم في الأربعين من عمره فيليقي بمصائر مصر بين يديه ولـي عهده الفتى عباس وما يزال في الثامنة عشرة من عمره.

ولد توفيق باشا في ١٥ نوفمبر سنة ١٨٥٢ ثمرة لبرهة هوى من إسماعيل مع إحدى جواريه التي لم تتنل منه إلا حظوة قصيرة ولم تكن له زوجاً، ولم يكن إسماعيل يومئذ وارثاً لعرش سعيد أن كان أحمد أكبر العائلة ما يزال حياً؛ لذلك لم يلفت مولد توفيق نظر أحد إلا ما كان من زراعة أميرات العائلة المالكة لأمه، فلما حصل إسماعيل على فرمان وراثة العرش للولد الأكبر انقلبت الزراعة للأم حقداً على الابن، وشارك إسماعيل أهله في عدم عطفهم على توفيق وإن لم يبلغ ذلك من نفسه مبلغ حقده على حليم باشا وارث عرشه على النظام القديم، وثبت عدم عطفه على توفيق وعدم رعايته إياه في عزمه على أن يكون عرشه لحسين من بعده، وقد كان يستطيع ذلك اعتماداً على أمومة توفيق أو بالتخلص منه كما كان يفعل ملوك ذلك العصر في تركيا، لكنه لم يكن يتتعجل النظر في أمر لم يكن في حسبانه وقوعه قبل زمان طويل، وكفاه وجود توفيق بمعزل عنه في قصر له مقتضراً على إدارة أراضيه.

على أن عزلة توفيق وعدم إغداق أبيه أسباب الرضا عليه جعله ينظر إلى ما صنع أبوه من استدانة ومن إرهاق للمزارعين وال فلاحين ومن بطش بالناس جميئاً نظرة مصري لا نظرة ولـي عهد؛ لذلك اتصل بطائفة من الناقمين على الحال التي آلت مصر إليها، أمثال السيد جمال الدين الأفغاني واللقاني والشيخ محمد عبده ومن كان يلوذ بهم من أمثال عربي، وانخرط في سلك الماسونية الذي انخرطوا فيه، فلما اضطر إسماعيل تحت ضغط الدائنين إلى أن يعين نوبار باشا رئيساً للوزارة المسئولة الأولى وأن يضم إليه مستر ريفرس ولسن ومسيو دبلنير، الأول وزير المالية والثاني وزيراً للأشغال، ثم لما رأى أن الحال المالية في البلاد تزداد كل يوم سوءاً برغم ما تنزل عنه من سلطته ومن أملاكه، ورأى الشعور العام ضد التدخل الأجنبي يزداد في البلاد كلها، خلع نوبار من الوزارة واتفق مع فرنسا وإنجلترا على تعيين ولـي عهده توفيق باشا رئيساً للحكومة، على أن ولـي العهد كان يعلم دقة الموقف كما يعلم بنوع خاص تهيج الشعور العام بإزاء ما كان يعتزمه

السير ريفرس ولسن كعضو في لجنة التحقيق الدولية من إعلان إفلاس مصر؛ لذلك لم يجد الوزيران الأوربيان من رئيس الوزارة الجديدة مؤيداً قوياً لهما، وعلى أثر إعلان وزير المالية تأجيل دفع الفوائد المستحقة للدائنين في شهر أبريل تقدمت عريضة من العلماء والوجهاء والنواب ورجال الجيش يحتاج فيها مقدموها على هذا التصرف ويطلبون إلى الخديو أن يلجاً إلى نوابه للخروج من المأزق، وعلى ذلك استقالت وزارة توفيق من غير أن تفعل شيئاً، وكلف إسماعيل شريف باشا بتأليف وزارة تكون مسؤولة حقيقة أمام برلمان تنظم حقوقه وطرق الانتخاب له بحيث يستطيع أن يقوم بما تقتضيه الأحوال وأن يحقق الأماني القومية.

وكان ذلك هو الانقلاب الحكومي الذي أريد به القضاء على سلطة المراقبين وعلى تدخل الأجانب في الإدارة المصرية، والذي انتهى بتركيا إلى عزل إسماعيل باشا في ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ وإلى إرسال برقية في اليوم نفسه إلى توفيق باشا تعلن فيها إسناد منصب الخديوية المصرية إلى جنابه ويختتمها وزير تركيا بقوله: «والامر والفرمان في كل حال لمن له الأمر أفندهم».

كانت هذه الخبرة الحاسمة غير المتوقعة من جانب تركيا منبهة لكل من يعندهم أمر مصر وكل من لهم مصالح فيها لكي يقفوا على حذر، ومع أن توفيق باشا فوجئ بالخبر وفزع له حتى لقد قابل موظف قصره الذي أبلغه إليه أسوأ مقابلة بأن صفعه، فإنه شعر من ذلك الحين بأن التركية التي آلت إليه أعياوها تركية مبهظة مخوفة، ترى ماذا عساه يصنع بإذاء أبيه، وبإذاء تركيا، وبإذاء الدول وتدخلها في شئون مصر، وبإذاء الأمة المصرية المتوبثة للحركة بل للثورة؟

أما إسماعيل فأيقن أن لا مفر له من الانحناء لعاصفة لم يكن يستطيع مواجهتها، وإن لم ينقطع رجاؤه في العود يوماً ما إلى هذا العرش الذي انتزع منه اغتصاباً؛ لذلك قابل الصدمة بكل ما يستطيع رجل في عظمته وفي قوته أن يواجهها به، وأظهر من العطف على ولی عهده ما لم يكن له من قبل به عهد، وفي الأيام التي انقضت ما بين تبوء توفيق عرش أبيه وسفر إسماعيل من بلاد عزيزة عليه كانت عواطف الأبوة والبنوة بينهما كخير ما يمكن أن تكون في مثل هذا الظرف العصيب.

اطمأن توفيق إنّا من هذه الناحية، ولقد أظهر من عواطف البنوة ما دفعه للتنازل عن عشرين ألف جنيه من مرتباته السنوية لأبيه كي تبلغ مرتباته خمسين ألف جنيه، ولننسابة رفع مرتبات البيت الخديو إليه أراد في نفس الوقت أن يظهر للأمة حرصه على

مصالحها ومشاركته إياها في متابعتها المالية، فأمر بإلغاء الراتب المعين لوالدته وحرمه وقدرها خمسة وخمسون ألف جنيه.

بعد ارتقاء توفيق العرش جعلت تركيا تفك في الاستفادة من الانقلاب بأن تسترد ما كسبته مصر بفرمان سنة ١٨٧٣ الذي جعلها مستقلة استقلالاً داخلياً تاماً فيما عدا سك العملة ودفع الجزية، وقد أثار هذا الخبر في مصر قلقاً غير قليل، على أن فرنسا وإنجلترا عارضتا الباب العالي فيما أظهره من عزمه وأنبأتا ممثليهما في مصر بأنهما معترضتان فيما إذا لم يكرر السلطان أحکام فرمان سنة ١٨٧٣ في الفرمان الذي يوجهه إلى الخديو توفيق أن تطلبوا الاستقلال التام لمصر، وقد اختلف في الأسباب التي دعت تركيا إلى هذا التصرف: أهي كانت تريد بالفعل إلغاء الحقوق والامتيازات التي حصلت عليها مصر في أثناء ولاية إسماعيل باشا؟ أم هي كانت تتذرع بالمطلب والتسوييف للحصول على مبلغ من المال بدليل أنها قطعت في ذلك الوقت حالة على مصر أثبتت الحكومة المصرية قبلها بسبب ارتباكها المالي، على أن هذا التسويف طوع لفرنسا وإنجلترا أن تتدخل وأن تطالبوا الباب العالي بإبلاغهما فرمان تولية الخديو كوثيقة دولية، وأن ثبتنا بذلك حقوقهما في التدخل في شؤون مصر للمحافظة على حقوقها بإزاء تركيا استناداً على ما كان من تدخلهما للمحافظة على مصالح رعاياهما الدائنين للحكومة المصرية، وكان من أثر ذلك أن شعر توفيق بما للدولتين من فضل عليه بسبب محافظتهما على حقوقه وحقوق البلاد التي ولّى عرশها.

ولم يصل الفرمان بتولية الخديو الجديد إلا بعد شهرين من ارتقائه عرش أبيه، أي في ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٩.

خلال هذين الشهرين كانت خطة توفيق غامضة ما تزال، فهو حين ارتقى العرش كان في زمرة المسؤولين الذين يناصرن الحرية والعدالة؛ لذلك وجه خطابه إلى شريف باشا لتشكيل الوزارة الأولى في عهده مقدراً للأمة معتمداً عليها ذاكراً «إنني عظيم الميل للبلادي، شديد الرغبة في تحقيق آمال الأمة التي أظهرت السرور بوليتي، عازم عزماً أكيداً على التماس أحسن الوسائل لإزالة الاحتلال المفسد لكثير من المصالح، إلا أن إدراكي لهذه الغاية التي هي موضوع آمالي يتوقف على مساعدة الأمة بحملتها».

وتحقيقاً لهذه السياسة تألفت لجان من الأوربيين غايتها تقديم العرائض إلى قناصلهم يلتمسون بها من دولهم منع تدخل الأجانب في أحوال مصر وقصر النظر فيها على الوطنيين، ثم إن توفيق باشا تحدث في ذلك الظرف إلى مكاتب التيمس، فأشار

بادئ ذي بدء إلى أنه لا يبرح مقيد اليد في العمل حتى يرد الفرمان بتعيينه، لكنه مع ذلك صرح للمكاتب بأنه لا يريد الرجوع إلى تعيين وزراء أو رببيين، بل ينبغي أن تكون الوزارة مصرية وطنية يصح أن يعاونها رجال من الأوربيين في الإدارات على أن يكونوا موظفين مصريين لا أكثر، أما سير ريفرس ولسن ومسيو دبلنير شخصياً فقد صرحت توفيق بأنه يعارض أشد المعارضة في رجوعهما أيّاً كانت صفتهم؛ لأن رجوعهما يكون مخالفًا لمصلحة مصر على خط مستقيم، وطلب الخديو إلى الدول في حديثه هذا أن تمهله بضعة أعوام «فنحن في مقام الامتحان فلا يحسن بأوربا أن تمسك على وعلى مصر طريق النجاح».

وكان من أثر هذه الخطة وتلك التصريحات أن هدأت أعصاب المصريين التي كانت متوتة في الأيام الأخيرة من عهد إسماعيل، فعلى الرغم من عزل الحكومة عشرة آلاف من الجنд المجتمعين تحت السلاح وإنقاص الجيش العامل إلى اثنى عشر ألفاً وتأخير صرف مرتبات الكثريين، أمسك الرجاء بالناس عن أن يلجأوا للهياج، لكن نيات توفيق باشا الديموقراطية لم تلبث إلى أكثر من وصول الفرمان بتثبيته على عرشه، ففي مساء اليوم الذي عاد فيه مندوب السلطان الذي كان يحمل هذا الفرمان قافلاً إلى تركيا بعد حفلة تلاوته أقيمت وزارة شريف باشا وألف توفيق باشا وزارة تحت رئاسته مباشرة، واللحجة التي روجت تبريراً لهذا التصرف إنما هي إرادة الخديو تعجيل الإصلاح، أما الحقيقة فعدم رضا توفيق عن ميول شريف باشا الدستورية، ففي الخطاب الذي أرسل به الخديو إلى كل من وزرائه الجدد معنى قصده العودة إلى حكومة الفرد، فيه تكليف لكل من النظار أن يحضر أوراق شئون وزارته ومعلوماتها عند حضوره إلى المجلس لعرضها، على أن توفيق كان يشعر بأن الأمة لا يمكن أن ترضى عن هذه الحال؛ لذلك بعث بتلغراف إلى رياض الذي كان متغرياً هو ونوبار باشا، أو قل منفيين في أوربا، يستقدمه إليه لعلمه بعدم ميل هذا الوزير إلى حياة الشورى، فلما حضر في أوائل سبتمبر عهد إليه بتشكيل الوزارة وقطع على نفسه العهد باحترام إرادة ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٩ التي قررت مبدأ مسؤولية الوزارة وتضامنها، وبعد ثلاثة أشهر من استقرار هذه الوزارة في مناصبها زار توفيق - جرياً على سنة أسلافه - أنحاء ملکه في الوجهين القبلي والبحري وقضى فيها أشهراً وعاد منها في أوائل مايو سنة ١٨٨٠.

وكان الهدوء شاملاً أنحاء مصر في هذه الفترة، لكنه كان هدوء تريص وانتظار، ذلك بأن المسألة الشائكة التي انتهت بعزل إسماعيل كانت تحت البحث منذ أول ولاية توفيق،

وكانت لا تؤذن بخير كثير، فعلى الرغم مما أعلنه الخديو لكاتب التيمس من المعارضة في عودة ولسن دبلنير بعد فشل سياستهما المالية في مصر لم تر الحكومة الفرنسية بعد اتفاقها مع حكومة مصر على إعادة المراقبين أن يعين أحد غير مسيو دبلنير، أما الحكومة البريطانية فأشارت بتعيين السير بارنوج (لورد كرومتر) وتم تعيين المراقبين في ٤ سبتمبر سنة ١٨٧٩ وباشرها عمليهما، وانتهيا بتقديم تقرير إلى الخديو في أواخر عام تعينهما يقتربان فيه تعيين لجنة تصفية للدين المصري كله، وبعد محادثات بين الدول صاحبات الشأن تعينت اللجنة في ٣١ مارس برئاسة السير ريفرس ولسن وتعهدت الدول بقبول قراراتها، وإذا فقد رأى توفيق نفسه بإزاء حالة كان يراها أول جلوسه على العرش مخالفة لمصلحة مصر على خط مستقيم من غير أن يستطيع لها نقضاً.

وقدمت لجنة التصفية تقريرها في ١٧ يوليو سنة ١٨٨٠ فأصدره الخديو فوراً وأطلق عليه اسم قانون التصفية، وعلى موجب هذا القانون بلغ دين مصر ٩٨٧٤٨٩٣٠ جنيهًا، وقد روحت في هذا القانون، كما روحت في كل تصرفات ممثلي الدول الأجنبية، صالح الدائنين الأجانب على حساب نظام الحكم في مصر، وبالرغم مما كان يعلمه المراقبون وغير المراقبين من أن أكثر من نصف هذا الدين لم يدفع إلى مصر لم يفكر أحد في إلزام الدائنين بالتنزل عن شيء من الديون الاسمية التي كانوا يقتضونها من مال المصريين ومن دمائهم، ولما كان تدخل الأجانب مثيراً لعواطف المصريين في عهد إسماعيل فقد بدأت هذه العواطف تثور من جديد بعد هدأة التربيع، وبدأت العاصفة تتکور في الجو لتؤذن بالانفجار عمما قريب.

وببدأت نذر الانفجار بما كان من تبرم رجال الجيش تبرماً سببه امتهان العنصر المصري فيه لمصلحة الأجانب من الأتراك والجراسكة، فلما سرح إسماعيل باشا في أواخر أيامه ألفين وخمسمائة من الضباط أكثرهم مصريون كان إخوانهم يشعرون بالألم من أجلهم ويخشون أن يصيبهم مثل نصيبهم، على أن ارتقاء توفيق إلى العرش واستئزاره شريف باشا هداً الحالة زماناً، فقد ظن الناس أنهم حاصلون على هيئة نيابة خير من شورى النواب القديم تراقب الحكومة وتمنع تدخل الأجانب وتعيد العدل إلى نصابه، فلما عُيِّن رياض باشا وعُيِّن معه في وزارة الحربية شركسي قُحْ هو عثمان رفقي، يمقت المصريين ويمتهنهم، ولما تكشفت نيات الخديو ووزارته عن العدول عن الحكم النيابي بل عن شورى النواب نفسه، ثم لما بدأ بتنفيذ قانون التصفية وتبين أن حال مصر المالية لم تقد منه خيراً - لَمَّا حدث ذلك كله كان المديونون وكان رجال الجيش تغلي في صدورهم مراجل الحقد وتأجج نفوسهم بنيران الثورة.

وعجيب أن يحدث ذلك كله بأعين توفيق فلا يراه ولا يقدر مداه، بل يندفع في التيار العجيب الذي اندفع فيه مخالفًا بذلك كل ما أظهره من الميل أول جلوسه على عرش أبيه، فهذا الميل الشديد لتحقيق آمال الأمة وهذا الاعتماد على معاونتها قد انقلب فجأة عقب وصول الفرمان إلى إعادة حكومة الفرد، ثم إلى إسناد الوزارة لنصير قوي من أنصار النظام المطلق، وهذا الحرص على معارضته عودة ولسن ودبليور وعلى أن تكون الوزارة مصرية وطنية، وهذه الدعوة لانتظار أوربا نجاح السياسة الوطنية الجديدة قد انقلب فجأة إلى قبول هذين الشخصين وغيرهما من الأشخاص، وإلى ترك التدخل الأجنبي يتغلب في إدارة البلاد، وهذه السياسة المالية التي فشلت على يد ولسن قد انقلبت فجأة سياسة الحكومة المصرية ليصدر على موجبهما قانون التصفية، وهذه الانقلابات كلها قبلها توفيق راضي النفس مطمئنًا.

على أن لهذا العجيب في نظرنا تفسيره الواضح: فتوفيق الضعيف قد رأى ما حل بأبيه حين عارض إنجلترا وفرنسا فيجب ألا يعارضهما، وإنجلترا وفرنسا تريدان هذا النظام فيجب أن يريده ليتخض ذلك كله عن انفجار أو عن ثورة أو عما يمكن أن يتمضخ عنه، فليس توفيق الضعيف هو الذي يطالب بالتفكير في هذا، ويكتفي أن يعتمد في بقائه في عرشه على سند الدولتين اللتين استخلصتا له من تركيا فرمان توليته.

وكان يسيراً أن يرى توفيق نذر الانفجار آتية من ناحية رجال الجيش، ذلك بأنه فضلاً عن تسريح ألف من الجندي ومئات من الضباط في آخر عهد إسماعيل وبالرغم من تسريح عشرة آلاف جندي أول ولاليته، فإن تنفيذ قانون التصفية أسفر عن عجز الميزانية اللازمة لنفقات الدولة في سنة ١٨٨١ عجزاً بلغ مقداره ١٦٠٠٠ جنيه، بينما كان متوفراً في صندوق الدين بعد دفع الفوائد مبلغ ٨١٣٠٠ جنيه أنفق في استهلاك السنادات بدلاً من أن يسدد منها ذلك العجز، وقد ترتيب على هذا أن بقي كثيرون من الموظفين — ومن بينهم رجال الجيش — لا يتقادرون مرتباتهم، أضف إلى هذا أن رفقي باشا ناظر الحرب أصدر لائحة مقتضاهما عدم ترقية المصريين إلى الدرجات التي يستحقونها، بينما يرقى الجراكسة إلى أكثر مما يستحقون، ولما كان للضباط المصريين جماعة سرية بين أعضائها أحمد عرابي وعلي فهمي وعبد العال حلمي وكانوا قد قدّموا لرياض باشا طلبات بالإصلاح منذ شهر مايو سنة ١٨٨١ لم تنظر الحكومة فيها، فقرر هؤلاء دفع أليات الجيش لللاحتجاج على تصرفات رفقي باشا وعلى المطالبة بعزله، ورفعت بالفعل عريضة للخديو متضمنة هذا الاحتجاج.

وكان محمود باشا سامي البارودي وزير الأوقاف في وزارة رياض على اتصال بهؤلاء الضباط؛ لذلك تيسر لهم أن علموا بعد احتجاج الجيش أن الحكومة تريد محاكمة ثلاثة الذين ذكرنا أسماءهم، وأنها أمرتهم بالذهاب إلى قشلاقات قصر النيل في أول فبراير سنة ١٨٨١ لتقبض بعد ذلك عليهم، فما كادوا يذهبون وما كاد يقبض عليهم ويجردون من رتبهم ويسجنون حتى كانت ألياتهم قد حضرت وأنقذتهم من سجنهم بقوة السلاح.

وسار الضباط الثلاثة على رأس ألياتهم من قصر النيل إلى عابدين وهناك وقف عربي بين الجندي خطيباً فشكرهم على إخلاصهم له وإنقاذهم إيه، ثم تقدم إلى الخديو يطلب العفو عنه وعن زملائه، وخلع عثمان رفقي من نظارة الحربية، وأردف عبارته هذه بقوله: «إنهم لا يرثون إلا بنيل بغيتهم». ولما كان توفيق قد رأى كل الأوامر التي أصدرها إلى ضباط الجندي لا تنفذ، ورأى نفسه في مأزق لا يعرف سبيلاً إلى النجاة منه سارع إلى إجابة طلب العصاة وأقال عثمان رفقي من الحربية وعين مكانه صديق الضباط المنتقضين محمود سامي البارودي.

لو أن توفيقاً كانت له سياسة معينة يومئذ لما وقع حادث قصر النيل، لكنه كان مضطرب الرأي والسياسة جميعاً لأنه كان يشعر – كما قدمنا – بأن سنه الأخير ليس تركياً وليس الأمة المصرية ما دام حليم باشا وارت العرش على النظام القديم مقيماً في الأستانة يدس لإلغاء وراثة ابنه ويعاونه أنصار من الساسة والأميرات، وما دام هو لا يريد أن يعتمد على الأمة أو ينيلها شيئاً من الحقوق التي تشعرها بكيانها، على أن حادث قصر النيل لم يكف توفيقاً درساً في وجوب تحديد سياسة يسير عليها لكيلا يكون دائماً معرضاً للتصادم مع القوى المختلفة المحبيطة به، فمع شعوره بأن أباه اضطر للاستعانة بالأمة ولو استعاناً صورية ممثلة في مجلس شورى النواب، فقد ظل حفيظاً على مبدأ الحكومة المطلقة ثم إنه إلى جانب هذا كان قد بدأ يتخوف رياضاً لقوته وشدة سلطانه على الرغم من مشاركة رياض إيه في تأييد النظام المطلق؛ لذلك بدأت الوزارة تضعف شيئاً فشيئاً على حين بدأ التمرد من رجال الجيش يزدادون قوة على أثر انتصار يوم قصر النيل، وينضم إليهم كثيرون من غير العسكريين ويجاهرون جميماً بضرورة تشكيل مجلس النواب، وكان سامي البارودي من أصحاب هذا الرأي ومن أقوى المحرkin لعربى ومن معه، بل كان هو روح الحركة ومحورها.

وبرغم ضعف الوزارة وشعور الخديو بمعارضة عنصر قوي في البلاد لها فإنه أراد أن يقاوم هذه المعارضة بالشدة؛ لذلك عمد إلى عزل سامي البارودي من وزارة الحربية

وإلى تعين صهره داود باشا يكن مكانه، وأراد داود باشا قمع الحركة، فأمر بمنع اجتماع الضباط وبث عليهم الأرصاد والعيون، ولما عاد الخديو من الإسكندرية أمر الوزير الجديد بإجراء تنقلات بين الأليات شعر معها عربي وأصحابه بأن المراد تشتيتهم للتنكيل بهم بعد ذلك، فرفضوا تنفيذ الأمر وأبلغوا الخديو بأن الجيش سيحضر بتمامه إلى عابدين لإبداء اقتراحات تتعلق بنظام الحكم في البلاد وبشئون الجيش وتحسين حاله.

ترى ماذا يفعل توفيق بإزاء هذه الحركة وهي حركة تمدد عسكري صريح؟! أتراه يترك الأمر لوزارته فيصرح أن عليها حفظ النظام والأمن؟ أتراه يدعو إليه كبار رجال الدولة وأعيانها في مجلس عام لينظر في الأمر؟ أتراه يأمر بتجريد المتربدين من رتبهم وألقابهم لكيلا يكون لوزارته ولا لغيرها من رجال البلاد عليه فضل ويقف صلباً ينتظر النتائج كائنة ما تكون؟ كلا، فهذه كلها حلول تحتاج إلى عزيمة وإلى قوة جنان وإلى شعور بالمسؤولية واستعداد لمجابهة الخطر وجهاً لوجه، وتوفيق الضعيف لا يملك شيئاً من هذا؛ لذلك عمد إلى وسيلة عجيبة لا يعمد إليها سياسي، أخذ وزراءه وتوجه بهم إلى حيث تعسكر الأليات المتربدة يحقق معهم ويستطعفهم، ثم ذهب بنفسه إلى القلعة حيث ألاي عربي ليرجوه ألا يفعل ما اعترض فعله، لكنه وجد عربي قد سبقه إلى عابدين فعاد هو الآخر أدراجه إليها.

وهناك في ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ قام عربي على رأس الجيش ممتطياً جواهه مستلّاً سيفه ووقف توفيق في شرفة عابدين يحيط به وزراؤه وقناصل الدول.

وبأمر توفيق أغمد عربي سيفه وتقدم بمقابلة، وهي إسقاط الوزارة وتشكيل مجلس النواب وزيادة عدد الجيش والتصديق على قانون العسكرية الجديد وعزل شيخ الإسلام، وربما كان التصديق على قانون العسكرية أهم مطلب الجندي، وربما اكتفتوا به لو أن الخديو أجابهم فوراً إليه وأمرهم بالانصراف لكي تنظر حكومته فيما عدا ذلك من المطالب، لكن الخديو اضطرب ل ساعته ورفض الطلبات جميعاً مواجهًا خطر النساء بعزله وإعلان الجمهورية في مصر على نحو ما كان يدور برأس عربي وأصحابه، لكن وزراءه وقناصل الدول وأشاروا على الخديو بالعود إلى داخل السراي خشية أن تعجل مواجهة ما بين الرجلين الحوادث، وصار مستر كولفن القائم بعمل المراقب الإنجليزي وقنصل إنجلترا والنمسا رسلاً بين الخديو وعربي، وتصلب عربي التصلب كله وأشار بعض الحاضرين على الخديو – ومن بينهم مستر كلفن – أن يتثبت بالرفض مؤكدين أن لن يصل رجال الجيش إلى أكثر من المظاهرة التي قاموا بها، لكن الخديو أوصله ضعفه

وعدم احتياطه إلى التسلیم فسقطت وزارة ریاض لساعتها ووعد الخديو بتنفيذ باقی المطالب بالتدريج، ودعا إليه شریف باشا کی یشكل الوزارة الجديدة، ورفض شریف بسبب ما أمامه من المصاعب وأخصها تمرد الجيش وعدم طاعته الأوامر، فلما ظهر عربی استعداده ورجاله للامتثال وللطاعة، ولما جاء عمد البلاد فکفلوا عربی فيما قاله، ثم لما استشار شریف حکومة تركیا وحكومات إنجلترا وفرنسا وكفل معاونتهم جمیعاً، بعد كل هذا شكل الوزارة وأمر الضباط الثلاثة بأن يتفرقوا في أنحاء مختلفة من القطر، وبعث عربی إلى رأس الوادی وبasher الحكم في حزم وأنة كانت البلاد يومئذ بحاجة أشد الحاجة إليهما.

وأنس توفيق نفسه في عزلة بعدها أذعن إلى الاستعانة بشریف الذي كان قد أقصاه عن الحكم يوم طمع في الحكم المطلق على أثر وصول الفرمان بتثبیته في عرشه، وأحسبه هذه المرة كان يود أن تطول عزلته وأن تظل الحكومة عاملة والأمن مستتبّاً وأن تجري الأشياء في نصابها، فلا تزعجه العسكرية ولا غير العسكرية مرة أخرى، لكنه لم يلبث إلا قليلاً حتى علم أن الباب العالی أرسل وفداً ببریاسة علی نظامی باشا، ترى ما هي مهمة الوفد؟ الخديو لا يعلم، وفرنسا وإنجلترا لا تعلمان، والوزارة العثمانية نفسها لا تعلم، لقد أرسله أمیر المؤمنین بإرادة شاهانية، فماذا عسى أن تكون هذه الإرادة؟ ونزل الوفد مصر في ۱۰ أكتوبر سنة ۱۸۸۱ بعدما احتجت إنجلترا وفرنسا على تركیا لإرسالها إیاه من غير اتفاق معهما ولا مجرد إخبار لها، وجاء الوفد واحتفل الخديو به وأقام بمصر سبعة عشر يوماً وعاد أدراجها، وكان كل ما فعل أن أكد للخديو ثقة المتبع الأعظم به، وإن أكد للجیش المصري في حدیث دار بين نظامی باشا وطلبة عصمت بمسمع من الجندي أن حکومة الباب العالی لا تلوم الجندي على ما فعلوا وأنها ترى مصر في طمأنينة وسکينة. بإزاء تصرف الوفد شعر توفيق لأن الدسائیں التي كانت تحاك له خيوطها على ضفاف البسفور بمعرفة حليم باشا تعاونه الأمریات قد آتت ثمارتها، وأنه لولا تأیید إنجلترا وفرنسا إیاه لكان معرضاً مثل ما تعرض له أبوه من قبل، ومن يدری؟ فقد يكون حليم باشا قبل أن تسترد تركیا في فرمان تولیته ما شاءت أن تسترد من الحقوق المکسوبة لمصر، فلیزد توفيق إذاً اعتماداً على فرنسا وعلى إنجلترا، وليخس في نفس الوقت تدخلهما، ولیضطرب لذلك بين مختلف العوامل، ولیترک وزارته تجاهد وحدها للخلاص من حرج الموقف.

ودعت الوزارة لانتخاب مجلس شوری النواب کی تعرض على القانون النظمی لمجلس النواب، وافتتحه توفيق بخطاب عرش ألقی في ۲۶ دیسمبر سنة ۱۸۸۱ ورد عليه

سلطان باشا رئيس المجلس، وعرضت الوزارة القانون النظامي، فاختلف المجلس معها في أمر نظر الميزانية، ذلك أن الحكومة كانت ترى احتراماً للاتفاقات التي تمت بين الحكومة المصرية والدول الأجنبية أن يكون الأمر الأخير في الميزانية للوزارة مع مراعاة إرادة النواب قدر المستطاع في حدود هذه الاتفاques، أما النواب فكانوا يريدون أن يكون رأيهم الأخير أو يُسَارُ على القاعدة الدستورية من حل المجلس أو سقوط الوزارة، ولم يمكن التوفيق بين الرأيين، فكان ذلك سبباً في استقالة وزارة شريف باشا بتاريخ ٤ فبراير سنة ١٨٨٢ وحلول وزارة محمود باشا سامي البارودي محلها مع تعين عرابي باشا وزيراً للحربية فيها.

وفي أثناء قيام الخلاف بين وزارة شريف باشا ومجلس شورى النواب أرسلت الحكومتان الفرنسية والإنجليزية مذكرة مشتركة إلى الخديو توفيق باشا تؤيدانه فيها في الخديوية وفقاً للفرمانات، وتعدان سكينة مصر مما يعنيهما لمصلحة رعاياهم، وتعلنان استعدادهما لدفع ما يطرأ على الحكومة الخديوية من الأخطار، وكان منتظراً أن تحدث هذه المذكرة من الأثر ما يضعف تمرد المتمردين، على أن تركيا احتجت على الدولتين لخططيهما إليها ومخاطبتهما الخديو مباشرة، كما علم العرابيون أن إنجلترا أبلغت فرنسا أنها برغم هذه المذكرة تعتبر نفسها حرة في الخطوة التي تتخذها تنفيذاً لمقاصدها، وقوى ذلك من ساعدهم وجعلهم أقل اكتئاناً للحوادث وتقديرًا لنتائجها، الواقع أن فكرة الثورة التي بدأها الجيش كانت قد انتشرت في أنحاء البلاد جميعاً وأن قمع تيار هذه الروح كان قد أصبح متذرراً، وبخاصة مع وجود رئيس الدولة ضعيف توفيقي.

واستمر مجلس النواب ينعقد إلى ٢٦ مارس سنة ١٨٨٢ حين صدر الأمر بانفلاض دوره العادي.

وفي أعقاب انفلاض المجلس نظر عرابي إلى ما حوله موجساً خيفة مما يدبر خصومه له، ولم تك إلا أيام حتى صدرت أوامر الحكومة بالقبض على عشرات الجراكسة ومن بينهم عثمان باشا رفقي بتهمة اتتمارهم به وبزمائنه وبالنظام الذي أقاموه، ومحاكمتهم أمام مجلس حربي والحكم عليهم بالنفي إلى أقصى السودان، وكان عرابي ومن معه مقتنيين بأن الخديو هو المحرض على هذه المؤامرة، وزادهم افتئلاً رفض الخديو التصديق على حكم المجلس الحربي، وعلى ذلك استعر الخلاف بين الخديو والوزارة، يصر الوزراء على تنفيذ حكم المجلس ويعرضه رئيس الدولة، وأدى ذلك إلى تخوف فرنسا وإنجلترا على الرعايا الأجانب في مصر، فقرروا إرسال بوارج إلى المياه

المصرية للمحافظة على حياتهم ومصالحهم، وأعلنت فرنسا وإنجلترا جمِيعاً حرصهما على تأييد الخديو في مركزه، وفي ذلك إشارة إلى ما كانت تتوقعانه من وصول عربي وأصحابه إلى استصدار قرار قل من النواب بعزله.

ولما اشتد الخلاف بين الوزارة والخديو دعت الوزارة الهيئة النيابية للجتماع وتوسط سلطان باشا رئيس المجلس وجماعة من كبار النواب معه يريدون الوصول إلى حل لهذا الخلاف، وكان من الحلول التي قبلها الخديو أن يقال سامي البارودي من رئاسة الوزارة وأن يحل محله مصطفى باشا فهمي، لكن مصطفى باشا أبي، وبينما المحادثات دائرة بين النواب والخديو والوزارة كانت البوارج الإنجليزية والفرنسية قد وصلت إلى المياه المصرية، وأعقبتها الدولتان ببلاغ وجهه قنصلاهما في ٢٥ مايو إلى الخديو يطلبان فيه سقوط الوزارة بتمامها، وخروج عربي من القطر المصري مع ضمان الدولتين رتبه ومرتباته ونياشينه، وإقامة علي فهمي وعد العال حلمي في الأرياف وإصدار الخديو بعد ذلك عفواً عاماً عن جميع من كانت لهم يد في المسألة.

وأبلغ الخديو وزراءه هذا الإنذار، فرفضوه بحجة أن ليس للدول شأن في مخابرات مصر إلا عن طريق الأستانة، على أن الخديو أظهر رضاه عن الإنذار، فاستقالت الوزارة محتجة وقيل الخديو استقالتها، ودعا شريف باشا لتشكيل وزارة جديدة، لكن شريف باشا رأى الموقف لا يطاق فاعتذر كما اعتذر عمر باشا لطفي، وفي هذه الأثناء أوفد الباب العالي درويش باشا معتمدًا سلطانيًا لينظر في الخلاف بين الخديو ووزرائه بل العربين جميعاً، فإن هؤلاء كانوا قد انتهوا إلى ضرورة خلع الخديو وتولية البرنس حليم مكانه، وكانوا يطمعون في نجاح هذه السياسة لعلمهم أن تركيا تؤيدها.

وفي انتظار حل المشاكل وتعيين وزارة جديدة وطنية تفاصم الخطب واضطرب حبل الأمان، فاضطر الخديو إلى أن يعين عربي وحده ناظراً للحربية ليتولى أمر الأمن في البلاد. ولم يشر الخديو من جانب المعتمد السلطاني بما يدل على استعداد تركيا إذا اقتضت الحال للتدخل المسلح ولتأييده في مركزه برغم العربين؛ لذلك قبل الموقف كما هو وعيّن وزارة إسماعيل راغب باشا على أن يظل عربي وزيراً للحربية، وظل توفيق ووزراؤه في العاصمة، وظلت أساطيل الدول في مياه الإسكندرية، وظل الناس يتحدثون فيما يمكن أن تؤول إليه الأمور في زمن قريب، وكان أعجب المواقف يومئذ موقف تركيا، فقد اقترحت إنجلترا وفرنسا أن ينعقد بالأستانة مؤتمر دولي للنظر في حالة مصر وإقرارها على صورة من الصور، لكن تركيا رفضت رفضاً باتاً بدعوى أن الحالة في مصر عادية وأن النظام

القائم لا خوف عليه، وفيما الحديث بين الدول في أمر المؤتمر وانعقاده دائم وقعت فتنة الإسكندرية في ١١ يونيو سنة ١٨٨٢.

وليس يسيراً معرفة الأسباب الحقيقة التي أدت إلى هذه الفتنة، وهي كانت حركة فجائية نتاج تكدس هذا التغر بالسكان وتزايد الوافدين عليه بسبب الحال غير الطبيعية التي نشأت عن وجود البارج في مياهه؟ أم هي كانت بتدبير سابق من عرابي وأنصاره كما يزعم بعض الكتاب الإنجليز مؤيدين زعمهم بأن الحكومة تباطأت في قمع الذين أثاروا الفتنة وبكثرة عدد قتلى الأجانب على قتل المصريين زيادة محسوبة؟ أم هي كانت على العكس من ذلك مدبرة من ذلك مدبرة من جانب الإنجليز على ما يذهب إليه عرابي وأنصاره مؤيدين رأيهم بأن أمير الأسطول الإنجليزي كان مأموراً بالمحافظة على أرواح الرعايا البريطانيين ومصالحهم، على خلاف أمير الأسطول الفرنسي الذي كان مكلفاً بالظاهرة البحرية لتأييد سلطة الخديو؟ ومهما يكن من هذه الفرضيات فقد وقعت مذابح ١١ يونيو وحكومة الخديو بالقاهرة، فخف توقيع عرابي والوزراء في اليوم نفسه وعقدوا مجلساً عسكرياً لتحقيق أسباب الفتنة وجعلوا على رأسه عمر باشا لطفي محافظ الإسكندرية الذي اتهمه الإنجليز بالتهاون في قمعها، وبلغوا من اتهامه أن انسحب المحامي الإنجليزي الذي حضر تحقيق المجلس العسكري بأمر القنصلية البريطانية.

وبقي الخديو وحكومته بالإسكندرية ي يريدون إعادة الأمان إلى نصبه، وكان توفيق يومئذ في مركز لا يحسد عليه، فهو لم يكن يأمن جانب تركيا، وكان يعتقد اعتقاداً جازماً أنها تعارضه وتؤيد المتمردين عليه رجاء الوصول يوماً من الأيام إلى خلعه وإقامة حليم باشا مكانه، وهو لم يكن يأمن العرابيين لما كان يعتقد من بغضهم إيه واتفاقهم مع السياسة التركية في التخلص منه، وهو مع اعتماده على تأييد فرنسا وإنجلترا كان يخشى ألا يتخطى أمرهما التأييد المعنوي، فإذا فوجئا بالأمر الواقع من عزله لم يقوما بعمل لتبنيته في عرشه، ثم هو لم يكن يثق حتى بالجراكسه من وزرائه؛ لأنه شعر بالقوة المصرية تتغلب على كل شيء في البلاد وتبتلعه.

وتجسم الشعور بهذه القوة القومية في رأس عرابي وأعوانه حتى دفعهم إلى تقوية حصن الإسكندرية استعداداً لدفع الغارة البحرية عليها، ومع أن الدول كانت قد تخطت معارضة تركيا في عقد مؤتمر الأستانة لحل المسألة المصرية وانعقد المؤتمر في العاصمة التركية فعلأ برئاسة لورد دفرين سفير إنجلترا لدى الباب العالي، وكان طبيعياً أن يكفي الجميع عن تعقيد المسائل في مصر حتى يصدر المؤتمر قراره، فإن تحصين قلاع

الإسكندرية استمر، كما أن الأмирال سيمور الإنجليزي أبلغ الخديو بأنه مضطرب إذا لم تقف التحصينات إلى ضرب قلاع الإسكندرية بالمدافع، وعلى الرغم من احتجاج ممثلي الدول على بلاغ الأмирال ومن إنكار طلبة عصمت الاستمرار في التحصينات ومن أن تسوية المسألة كانت ممكنة لو أن فرنسا شاركت في الضغط المعنوي على الحكومة المصرية كي تنتظر قرار مؤتمر الأستانة فإن الأмирال سيمور أصر على قراره، وقررت وزارة فريسينيه انسحاب الأسطول الفرنسي إلى بورسعيد.

ماذا يفعل توفيق ومقامه بسراي رأس التين يجعله معرضًا لقنابل مدافع البوارج؟ لقد طلب إليه المستر كلفن أن ينتقل إلى بارجة أمير البحر الإنجليزي لأن غرض الأسطول الإنجليزي تأييد ملكه، لكن توفيق كان يعلم أن التجاءه وهو أمير هذه البلاد التي تطلق النار عليها إلى أساطيل مهاجميها يعرضه لعزل تنفرد إنجلترا بالاعتراض عليه بينما تشترك فرنسا والدول الأخرى مع تركيا في تأييده لما كان لفرنسا من ضلع ظاهر مع العربين ومع حليم باشا؛ لذلك رأى الاستسلام للمقادير وقال لمستر كلفن ما مؤدّاه:

إنني لا أُبرح مكانني ولو وقعت الواقعة وأطلقت المدفع على الإسكندرية، فإن لي من رعيتي قوًاماً أمناء لم يخونوني بل خدموني بأمانة وصداقة، فلا يصح أن أتركهم أوان الشدة لأنجو بنفسي، ولا يليق بي كذلك أن أترك البلاد في وقت الحرب فإن في ذلك عاراً عظيماً.

واكتفى بالانتقال هو ودرويش باشا إلى قصر الرمل بعيداً عن مرمى المدفع. وفي صباح ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ أطلقت البوارج الإنجليزية مدفعها على حصون الإسكندرية فجاوبت الحصون بإطلاق مدفعها، على أن الموقعة لم تدم لأكثر من الساعة الحادية عشرة قبل الظهر، إذ صمتت نيران الحصون ودك بعضها دگاً وشعر العربين بأن ما توهموه من قوتهم على مقاومة البوارج الإنجليزية لم يكن إلا وهما، على أن ذلك لم يفت في عضدهم ولم يوهن من عزيمتهم إذ اعتقدوا أنهم يستطيعون أن يعسكروا في كفر الدوار ليعودوا بعد زمن إلى مهاجمة الإسكندرية.

وعلى ذلك قرر عربي ومن معه الانسحاب من التغر بعد أن أيقنوا من أن الخديو الذي رفض الالتجاء إلى بوارج الإنجليز قد سر لانتصارهم، وأنه لذلك قد صار خصمًا ظاهراً للثائرين عليهم، وفيما كانت المدينة تحترق بفعل الجماهير الثائرة والعساكر المقيمة مع عربي عاد الخديو من سراي الرمل حيث كان سجينًا تحت أمر رجال عربي إلى سراي

رأس التين حيث استقبله الجندي الإنجليز على بابها وحيث استقبله الأميرال سيمور وعدده من رجاله داخلها.

وكان في الوقت متسع ما يزال لإخماد نار الفتنة في مصر لو أن تركيا لم تكن متأثرة بسياسة فرنسا حريصة على تأييد الثنائيين، فقد طلب إليها لورد دفرين — بناءً على تعليمات حكومته — أن تعلن أن عربي عاصٍ وتؤيد سلطة الخديو واستعدادها لإرسال قوة لقمع العصيان وإعادة النظام، لكن تركيا أبْتَأْتْ أن تخطو هذه الخطوة، وطلبت إنجلترا إلى فرنسا أن تشارك معها في الدفاع عن قناة السويس، فأعلن الساسة الفرنسيون أن قنال السويس بِمَأْمَنْ من أن يهدده مهدد، والواقع أن عربي ومن معه لم يفك أحد منهم في تحصين بناحية القناة اعتماداً منهم على حياده وعلى تأكيد المسيو دلسبيس بأن أية قوة محاربة لن تستطيع خرق حياده، ورأى إنجلترا بإزاء ذلك كله أن الفرصة سانحة لأن تخطو خطوة جديدة في وادي النيل بعد خطوتها الأولى التي أتمها دزرائيلي في سنة ١٨٧٥ بمشترى أسهم القناة التي كانت مملوكة لإسماعيل، فقررت التدخل المسلح منفردة، ولم تعبأ بحيدة القناة بل ذهبت أساطيلها المقلة للجيش الظاهري إلى مصر قاصدة بورسعيد والإسماعيلية فاحتلتها من غير أية مقاومة ولا أي احتجاج، وعسّكت القوة الإنجليزية يوم ٢٢ أغسطس في الإسماعيلية، وفي هذا الظرف وبعد فوات الفرصة أعلنت تركيا عصيان عربي وأيدت توفيقاً في عرشه، لكن توفيقاً كان قد انضم إلى السياسة الإنجليزية وعزل عرابي من نظارة الحرب واعتبره ثائراً، وقامت في مصر إذ ذاك حكومتان: حكومة توفيق يؤيدوها فريق من المصريين وتوئيدها إنجلترا، وحكومة الثورة تخضع لها البلاد كلها، لكن هذه الحكومة الثانية لم يطأ أمرها؛ فقد انهزم عربي وجده في موقعة التل الكبير يوم ١٢ سبتمبر ودخل الإنجليز القاهرة في الخامس عشر من هذا الشهر نفسه.

وعاد توفيق إلى عاصمة ملكه في ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ يُصْبِحُ الدوق أوف كنوت والجنرال ولسي والسير إدورت مالت، وكان توفيق يظن أن قضاء إنجلترا على الثورة باسم تأييد مركزه معناه عوده للحكم وتولي أمور البلاد على ما تجيئه الفرمانات، ولعله لم يخطر بباله أن انتصار إنجلترا في التل الكبير ودخول الجيوش الإنجليزية إلى عاصمة ملكه قد قدر له أن يكون معناه القضاء على سلطته بنقلها من يده إلى يد هؤلاء الذين ثبتوه في عرشه، ولعله لم يخطر بباله أن عودته إلى مقر سلطانه محاطاً بالأمير وبالقائد وبقنصل إنجلترا سينتهي لا ريب إلى أن تكون الحوادث العربية آخر ما خُبِأَ القدر لتوفيق من نشاط، ولئن كان عربي سيخاكم وسيخنفي إلى سيلان فإن ولی عرش مصر لن يكون أعظم من عربي سلطاناً بِرَغْمِ مقامه في قصوره وسط عاصمة ملكه.

فبرغم تبليغ اللورد دوفرين الباب العالى عقب موقعة التل الكبير أن الحكومة البريطانية تفك في سحب جنودها من مصر ما دام النظام قد استتب فيها فإن حكومة جلاله الملكة رأت عقب انتصارها على الثوار أن يكون مصير الثوار بيدها لا بيد حكومة الخديو، أليست هي التي تغلبت عليهم وقهرتهم؟ وإذا كان الخديو وأنصاره يرون طبيعياً أن يُيقضى على عربي وكل من معه بالإعدام جزاء فشلهم في ثورتهم، فإن إنجلترا تنظر للأمر نظرة أخرى؛ ولذلك أبلغ القنصل الإنجليزي الخديو ألا يتصرف في أمر التائرين قبل حضور اللورد دوفرين إلى مصر، وكانت حكومته قد اندتبته «لينصح إلى حكومة الخديو بالوسائل الواجب اتباعها لإعادة سلطة سموه»، وكان أول ما صنعه لورد دوفرين أن طلب الإفراج عن المئات الذين اكتظت بهم السجون باعتبارهم تائرين عدا خمسة هم: عربي وطلبة ومحمود سامي ومحمود فهمي وعلى فهمي، ومع أن القوانين التركية للمجالس العسكرية لم تكن تبيح حضور محامٍ عن المتهمين فقد جاء محاميان إنجليزيان هما مستر نابير ومستر برودي، وبعد صدور الحكم بالإعدام استبدل الخديو عملاً بنصيحة قنصل إنجلترا – ونصيحته عند توفيق أمر محترم – بالنفي المؤبد.

وكان لا بد لانسحاب الجنود الإنجليزية من أن تستريح إنجلترا إلى انتظام الجيش المصري انتظاماً تطمئن معه إلى عدم تهديد الأمن مرة أخرى، وأن تطمئن إلى شيء آخر هو ألا تتعرض مصر لغزو دولة أخرى إليها غزواً يعرض قناة السويس إلى الخطر، وغير مرة أعلنت إنجلترا استعدادها للجلاء عن مصر وسحب جنودها منها متى اطمأنت إلى هذه الغايات، وهذه ثمان وأربعون سنة مضت منذ الاحتلال ولما تهتد الحكومة البريطانية – على الأقل – إلى ما يطمنتها على ألا تغزو مصر دولة أخرى أو أن تتعرض قناة السويس الدولية للخطر!

على أنها رأت في ذلك التاريخ وبعد مشورة اللورد دفرین أن تنظيم الحكم في البلاد على قاعدة العدل هو أقرب الوسائل لتحقيق الأغراض التي تريد أن تتحقق لتجلو عن وادي النيل، فأمرت، أستغفر الله، فنصحت أن يلغى توفيق قانون مجلس النواب ويستبدل به قانون مجلس الشورى والجمعية العمومية، وأخذت بيدها مقاييس مالية البلاد، ونحوت فرنسا قدر المستطاع عنها، ودعت إلى عقد مؤتمر لاستبدال نظام التصفية بنظام آخر، وجعلت تتغلغل في شئون الحكم شيئاً فشيئاً حتى وضعت يدها على كل شيء وعلى توفيق من بين ما وضعت يدها عليه.

وسُرّ توفيق بهذه الحال الجديدة واطمأن أشد الاطمئنان لها، بل لقد بلغ من إخلاصه لإنجلترا أن كان لا يكتم على ممثليها سراً من أسرار وزارته، روى أحد الذين حضروا ذلك

العصر أن رياض باشا اتفق مع زملائه مرة على أن يعقدوا مجلس وزارة لا يحضره المراقب الإنجليزي كلما أرادوا النظر في شئون تعني مصر وحدها، وأبلغ رئيس الوزارة توفيقاً هذا الخبر، ثم لم يكن بأكثر من دهشة رياض حين نبهه قنصل إنجلترا العام إلى أنه كان يعتقد فيه الصراحة، وروى له ما أخبر هو به الخديو من قبل.

ولم يكن يدور بخاطر توفيق شيء من أمر جلاء الجنود البريطانية عن مصر برغم إلحاح السياسة الفرنسية فيه بعد إذ رأت نفوذها في وادي النيل يتقلص، وكيف تزيد توفيقاً أن يؤيد السياسة الفرنسية وقد كانت منضمة للعربابيين ضده في ظروف كثيرة، وكانت تعطف على فكرة تعيين حليم باشا في منصب الخديوية؟! وإذا فليصنع الإنجلiz لتنظيم أمر البلاد ما يشاءون، ليقرروا ثلاثة ملايين من الجنierات تعويضاً لمن أصحابهم ضرر من جراء فتنة الإسكندرية، ولبيطدوا نظام الحكم الذي يرون توطيده في مصر، ولسيوفدوا إلى السودان ما يشاءون من الجيوش لقمع ثورة المهدى، وليرجعوا الانسحاب من السودان وإخلاءه فيأبى رئيس وزارته شريف باشا ويقبل نوبار الوزارة والانسحاب — ليصنعوا بمصر ما شاءوا وليعينوا من الوزراء من شاءوا، فلن ينسى توفيق لهم فضل تثبيته على عرشه ولن يكون لهم إلا أخلص المخلصين.

ولعل ما كتبه لورد كرومـر عن توفيق وخلقه خير ما يوضح لنا مبلغ اطمئنان توفيق للحالة الجديدة، حالة الاحتلال الإنجليزي، قال جنابه ما مؤاده:

ما أحسب خير أصدقاء توفيق يذهبون إلى أنه كان رجلاً عظيماً أو خديوياً مثالياً، فالواقع أنه لم يكن من العظمة في شيء، ولقد كان مكتفياً بزوج واحدة فضرب بذلك مثلاً صالحًا لأهل بلاده، وكان أباً صالحًا نشيطاً معيناً بحسن تربية أولاده، وقد اشتهر بالتقوى ولكنه كان خلواً من آية ظاهرة للتعصب مما يصطحب به أنقياء «المسلمين» ووصلت تقواه بينه وبين رعاياه المسلمين وكانت لذلك عاملاً سياسياً له بعض الخطر، وكان بالقياس إلى من حوله مستقيماً وفيما، وكان أكثر أهل بلاده يخاف المسئولية ويجتهد ما استطاع ليلقي كل ما يقدر على إلقاءه منها على أكتاف الآخرين، فكان يشكو من كثرة عدد الأوربيين في الحكومة المصرية، فإذا قصد إليه أوربي يلتمس منصباً أجراه بأنه يكن سعيداً لإجابة الطلب، ولكن سلطة بريطانيا تمنعه من السير بما يميله عليه قلبه، وكان عديم النشاط يعوزه الابتكار، ولكنه كان إذا اضططر إلى أن يقر قراراً أبدى في غير قليل من الأحيان ما يدل على الكرامة وحسن التقدير وبعد النظر،

وكان طيب القلب حتى يكاد في بعض الأحيان يبدي من الاعتراف بالجميل عما قدم إليه من خدمة ما يندر أن يكون من صفات حاكم شرقي، وكان يظهر أعمق المقت لكل أنواع التحكم والإلهاق والقصوة، ولم يكن أبداً مسؤولاً شخصياً عن عمل من هذه الأعمال، وإن كان تباطؤه وإهماله قد اتّاح ارتکاب كثير من الظلامات باسمه، ولم يكن متعلماً تعليماً عالياً، وقلًّا أن قرأ كتاباً، ولكنه كان يطلع على الصحف ويتحدث مع رجال من كل طراز ومكانة، وكان متوضطاً في إدراك الحوادث التي تلقي إليه وفي تتبع المناقشة التي تحدث أمامه، أما من حيث حدة الذكاء فربما كان فوق متوسط أهل بلاده.

وإذا لم يكن عظيماً في الرجال فهو لم يكن خديوياً مثلاً، فلو أنه كان رجلاً قوي الإرادة سامي الخلق حاد الذكاء لوضع نفسه على رأس حركة الإصلاح في مصر، ولظهرت سلطته، ولما توقدت غيرة الإنجليز الذين كانوا موظفين في حكومته، على أنه مع ذلك كانت له الفضيلة السلبية أنه لم يكن ملوثاً برذائل الحاكم الشرقي، وهو إذا لم يكن قد قام بالفعل بشيء في حركة إصلاح فكهاف أنه كان مغبظاً لقيام آخرين بدلله بهذه الحركة، وهو إذا لم يكن قد ساق غيره في سبيل الخير فكهاف أنه اتبع الغير في هذا السبيل، وأشهد أني اقتنعت برأيه في أحيان أكثر من التي اقتنع هو فيها برأيي عند وجود خلاف بيننا.

وهذا الحكم يبين للقارئ السبب في أنّا لم نقف بعد حوادث الثورة العربية عند شيء من حياة توفيق، فقد كانت حياة عادية لا تخلّها الحوادث لأنّه لم يكن له في الحوادث يد ولا تصريف، وبقي كذلك إلى أن توفي في سنة ١٨٩٢ غير محمود ولا مذموم.

والآن فهل على توفيق تبعة في الحوادث الجسام التي حدثت أول أيام حكمه والتي أدت بمصر إلى موقفها الحاضر؟ هذا ما لا يصعب الجواب عليه، فعلى توفيق التبعة إذا كانت على إنسان تبعة ضعف نفسه واضطراه بين قوى لا سلطان له عليها، وإنما التبعة أكبر التبعة على الحوادث التي أحاطت بتوفيق فكان لضعفه لا يملك تحويلها بما يتفق ومصلحة بلده، إنما التبعة على تركيا، وعلى فرنسا، وعلى إنجلترا، وعلى عربي، وماذا يستطيع ضعيف قصير النظر كتوفيق أن يصنع بين هذه القوى جميعاً إلا أن يترك نفسه يتلقّى موج الحوادث ليصل بملكه وببلاده إلى ما وصلا إليه!

محمد قدری باشا



نقلت هذه الصورة عن مجلة المقتطف الغراء.

من الكتب ما ينبه ذكره ويعظم أثره بمقدار يجني على ذكر المؤلف حتى ليكاد يُعْفَى
خبره، من هذا الطراز كتب ثلاثة ما يغيب اسم واحد منها عن ذاكرة محامٍ ولا قاضٍ
ولا طالب حقوق ولا رجل من رجال الشرع الإسلامي، هذه الكتب الثلاثة هي: «مرشد
الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان في المعاملات الشرعية على مذهب الإمام الأعظم أبي
حنيفة النعمان»، وكتاب «الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية»، وكتاب «قانون العدل
والإنصاف للقضاء في مشكلات الأوقاف»، بل إن معرفة هذه الكتب لا تقف عند رجال

القانون والشرع، بل تمتد كذلك إلى عدد عظيم من سواد الناس، فقد نظمت ثلاثة أحكام الشريعة على مذهب أبي حنيفة في تقنين ذي مواد يفي بحاجة كل من يهمه الوقوف على هذه الأحكام، إذ يجدها مبوبة مرتبة مدققاً في اختيار ألفاظها حتى تعني مدلولاتها على صورة من التحديد الدقيق الذي يقتضي به فن الفقه القانوني، وهذه الكتب الثلاثة هي الأولى والأخيرة في بابها؛ ولذلك نبه ذكرها وعظم اثرها وتناول الناس ما فيها بالدراسة، فإذا سألت أكثرهم عن وضعها قيل لك هو قدرى باشا، لكن أكثر الناس لا يعلمون من أمر قدرى باشا إلا اسمه، وإنما أنه واضح هذه الكتب الثلاثة، وقد يكون ذلك كافياً لتاريخه، فهذه الكتب الثلاثة هي في الحق أثر كافٍ لتخليد واضعه، وإذا كان نابليون قد جعل من قانونه المدني عنوان مجده واعتبر ما إلى جانب ذلك من مجد النصر والظفر وحكمه العالم ثانوياً، فكتب قدرى باشا في تقنين أحكام الشرع في المعاملات والأوقاف والأحوال الشخصية عنوان مجد باقٍ على الزمان.

لكن، من كان قدرى باشا؟ وماذا كان تاريخ حياته؟ لا بد أنه كان فقيهاً عظيماً من علماء الأزهر معهد دراسة الشريعة الإسلامية وموضع العناية بها، فالرجل الفذ الذي يقنن شريعة من الشرائع يجب أن يكون من أساطين رجال هذه الشريعة، فليس طبيعياً أن يخرج هذا المعهد الألوف من العلماء والفقهاء ثم يكون من يقنن الشرع غيرهم! غير أن الواقع أن قدرى باشا لم يكن منهم ولم ينخرط في سلكهم، ولم ينضم إلى زمرتهم، وكتبه الفقهية هذه ليست كل تواليفه وإن كانت أبقاها وأخلدها، فقد كانت ترببيته ودراساته مدنية بحثة، وكانت الوظائف التي تقلدها بعيدة عن أن تمس الأزهر الشريف أي مساس. وقد ولد بملوي حوالي سنة ١٨٢١ من أب أناضولي هو قدرى أغا الذي كان من أعيان بلد وزير كوبيرلي، وحين جاء إلى مصر أقطعه والي مصر بعض العزب بمركز ملوى على طريقة الالتزام التي كانت معروفة يومئذ، فتزوج من مصرية أولدها ولده محمدًا وأدخله مدرسة صغيرة بملوي، حتى إذا أتم الدراسة بها بعث به إلى القاهرة في مدرسة الألسن حيث أتم بها دراسته وعين فيها مترجماً مساعدًا.

وكانت مدرسة الألسن هي المعهد الذي أسس لبث الثقافة الحديثة في مصر، فقد أدرك أهل ذلك العصر إدراكاً تاماً أن المدنية الغربية قوية التيار جارفته، وأن الحضارة الإسلامية التي يمثلها الأزهر أصبحت غير قادرة على الوقوف في وجه هذا التيار، كما أنها كانت قد جمدت على تعاليم لا تقبل أن تُطعَّم بال تعاليم الحديثة، فلا يمكن معالجة التوفيق بين المذهبين، وكانت اللغات – أو الألسن على ما كانوا يسمونها يومئذ –

هي موضع عناية مدرسة الألسن الكبرى، فكانت تدرس فيها اللغات التركية والفارسية والفرنسية والإيطالية وإنجليزية، وكانت العناية فيها باللغة العربية عناية فائقة يدل عليها ما وضعه الذين تخرجوا منها وما ترجموه من كتب ومؤلفات كثيرة، قال قدری باشا صاحب هذه الترجمة في كتابه (معلومات جغرافية) الذي نشر في سنة ١٨٦٩ : «وقد ترجم تلاميذ هذه المدرسة أكثر من ألفي مجلد». وأتى بأسماء كثير من ترجموا والفنون التي ترجموا كتبها الغربية، وكانقصد من تعليم هذه (الألسن) والقيام من بعد ذلك بترجمة الكتب في مختلف الفنون نقل الحضارة الغالبة إلى مصر ليتمكن أهلها من السير سيرة أهل أوربا، ولعل أكثر ما ترجم إنما ترجم عن اللغة الفرنسية، فقد تأثرت مصر بالثورة الفرنسية الكبرى، كما تأثرت بها دول أوربا المختلفة، وكان من أثر ذلك أن قام محمد علي باشا فيما بعد بحركة تشبه الحركة التي قام بها نابليون في فرنسا، وكان مرجواً أن تؤتي خير الثمرات لولا أن تأليب أوربا على مصر وحرمتها يومئذ ثمرات الظفر، كما وقفت بعد ذلك عائقاً في سبيل تقدمها تقدماً يرفعها إلى الصاف الذي يجب أن تشغله بين أرقي أمم الأرض وأقواها.

عُين قدری باشا إذاً مترجماً مساعدًا بمدرسة الألسن على أثر تمام دراسته بها، وكان له ميل خاص لدراسة علوم الفقه ولمقارنة الشريعة الإسلامية بالقوانين الأوربية، فكان لذلك يحضر بعض دروس الفقه بالأزهر، وكان مكملاً على مطالعة كتب الشرع منذ حداثة سنّه، لكن آثاره في ذلك لم تظهر إلا بعد سنين طويلة، وبقيت الترجمة عمله الرسمي الذي كان يتلقنه أيمان إتقان؛ ولذلك نقل من مدرسة الألسن إلى نظارة المالية مترجماً لا مساعد متترجم.

ولما احتل إبراهيم باشا الشام عين شريف باشا والياً لها، فأخذ هذا الأخير قدری باشا (وكان ما يزال قدری أفندي) سكرتيراً له، ثم سافرا إلى الأستانة وعاذا بعد ذلك إلى مصر وظلا متلازمين حتى عُين قدری باشا أستاذًا للغتين العربية والتركية في مدرسة الأمير مصطفى فاضل باشا، ثم اختاره الخديو مربيناً لولي العهد، ثم عين بالمعية فالمعارف فمجلس التجار بالإسكندرية فرئيساً لعلم ترجمة الخارجية.

وفي أثناء اشتغاله بالتدريس وضع عدة كتب في موضوعات مختلفة، لكن أكثرها كان في اللغة العربية وأجروميتها ومفرداتها، وكان معاجم عربية-فرنسية، من ذلك (الدر النفيسي في لغتي العرب والفرنسيين) ويقع في سبع مائة صفحة، (الدر المنتخب من لغات الفرنسيين والعثمانيين والعرب)، (أجرومية في اللغة العربية)، (مختصر

الأجرمية الفرنساوية) مترجمة إلى العربية، و(المترادفات باللغة العربية والفرنساوية)، هذا عدا بعض كتب في التاريخ والجغرافيا كتاب (معلومات جغرافية مصحوبة ببعض نبذ تاريخية لأهم مدن مصر جمعت وترجمت بالعربية لفائدة الشبيبة المصرية)، وهذا الكتاب ثم طبعه في سنة ١٨٦٩.

يدل كثير من هذه الكتب على مبلغ تضلّع قدرى باشا في اللغتين العربية والفرنسية وعلى مقدراته الفائقة في الترجمة؛ لذلك كان طبيعياً أن يدعى للاشراك في التمهيد للعمل التشريعى العظيم الذي كانت الحكومة المصرية تفكّر فيه والذي كان مقدمة لانتشار المحاكم المختلطة والمحاكم الأهلية، فقد كان القضاء المصري في ذلك العهد منوطاً بالجالس الملاحة التي كانت تحكم بالعرف، وكانت تجمع من الرجال من قلت درايتهم بقواعد العدالة، وإذا كانت مبادئ الثورة الفرنسية قد تسربت إلى مصر من طريق الحملة الفرنسية في سنة ١٧٩٨ ومن طريق الشبان المصريين الذين أوفدوا إلى فرنسا ثم عادوا إلى مصر، فقد اتجهت الفكرة إلى تعريب القوانين الفرنسية التي وضعها أيام نابليون، وعهدت الحكومة إلى جماعة من أفضل المترجمين المصريين بهذه المهمة، فعرّب القانون المدني الفرنسي رفاعة بك رافع وعبد الله بك رئيس قلم الترجمة وأحمد أفندي حلمي وعبد السلام أفندي أحمد، أما قانون المرافعات فعرّبه أبو السعود أفندي وحسن أفندي فهمي أحد مترجمي وزارة الخارجية، وعرب قدرى باشا قانون العقوبات، وعرب صالح مجدى بك قانون تحقيق الجنائيات، وجمعت هذه القوانين كلها وطبعت بالمطبعة الأميرية في سنة ١٨٢٣هـ.

وإذ كان ميل قدرى باشا للفقه والتشريع يرجع إلى أيام الدراسة — على ما قدمنا — فقد صادف ذلك العمل هذا الميل ودفع بصاحبها إلى التفكير في تقيين أحكام الشريعة الإسلامية، وزاده إيماناً في هذا التفكير أن عهد إليه بالاشراك في ترجمة قوانين المحاكم المختلطة إلى اللغة العربية مع اللجنة التي أنشئت في وزارة الحقانية للقيام بهذا العمل تمهيداً لوضع تشريع جديد للمحاكم الأهلية التي أزمع إنشاؤها من يومئذ، ولما كان التشريع للمصريين يقتضي التوفيق بين أحكام القانون المختلط الجديد الذي أخذ عن القانون الفرنسي وبين أحكام الشريعة الإسلامية التي كان عليها القضاء إلى يومئذ، فقد اشتغل قدرى باشا بهذه المقارنات، فوضع كتاباً لم ينشر بعد وما تزال نسخته المخطوطة في دار الكتب المصرية عن (تطبيق ما وجد في القانون المدني — الفرنسي — مواقعاً لمذهب أبي حنيفة)، وجاء في مقدمته أنه «بيان المسائل الشرعية التي وجدت في القانون المدني مناسبة وموافقة لمذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان».

هذه الترجمة لقانون العقوبات الفرنسي ولقوانين المحاكم المختلطة وهذه البحوث المتصلة في المقارنات بين أحكام الشرع والقانون المدني الفرنسي مضافة إلى ميله الأصيل، جعل من قدرى باشا فقيهاً في القانون، ولقد نقل من رياسته قلم ترجمة الخارجية مستشاراً بمحكمة الاستئناف المختلطة، وظل في منصبه هذا إلى أن عين وزيراً للحقانية في أول عهد المغفور له محمد توفيق باشا، ثم استقال مع الوزارة وعاد بعد ذلك وزيراً للمعارف، ثم انتقل وزيرًا للحقانية من جديد، وعمل في منصبه هذا على وضع القوانين للمحاكم الأهلية التي أريد إنشاؤها، واشترك بنفسه في وضع القانون المدني وقانون تحقيق الجنایات والقانون التجاري، وفيما كان لا يزال ناظراً للحقانية صدرت لائحة ترتيب المحاكم الأهلية، ثم أحيل إلى المعاش، وصدرت القوانين التي اشتغل في وضعها أيام كان فخرى باشا ناظراً للحقانية.

كان طبيعياً إذاً أن ينصرف قدرى باشا في الشطر التالي من حياته عن الاشتغال بما شغل به في الشطر الأول — من ترجمة ونحو وصرف — إلى العمل في القانون والتشريع، وكان قدرى باشا من طراز الذين يتوازرون بكل قوتهم على العمل ولا يملونه؛ ولذلك وجه كل همه إلى تقنين مذهب أبي حنيفة بوضع الكتب الثلاثة التي ما يزال اسمه مقروراً بها: (مرشد الحيران) في المعاملات، و(الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية)، و(قانون العدل والإنصاف في القضاء على مشكلات الأوقاف)، وقد ظلت هذه الكتب كلها مخطوططة إلى حين وفاته في ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٨٦ ولم تطبع إلا بعد الوفاة بسنوات طويلة، وهي مع ذلك التي خلدت ذكره وما تزال سبب مجده، هي هذا الجهد العظيم الذي لم يضططلع به من رجال الشرع الإسلامي أحد، فاضططلع هو به وأداه على خير وجوهه، واقتراح اسمه بها دليل على أنها أثر خالد حقاً.

فلقد كان في أعماله الأخرى ما يكفي ليجعل منه واحداً من رجالات مصر وفي مقدمتهم، كان يكفي اقتراح اسمه بلائحة ترتيب المحاكم الأهلية وتصدورها، وكان يكفي أنه تقلد الوزارة ثلاثة مرات في حياته، وكانت تكفي كتبه الأخرى، لكن مناصب الحكومة واقتراح الذكر بقانون من القوانين أو عمل عام ناب فيه صاحب الذكر عن الحكومة لا يخلد اسم صاحب المنصب إلا على أنه اسم لا أكثر، اسم من هذه الأسماء التي قد تصل إلى المناصب بالرياء أو الخديعة أو غير هذين من الأسباب الكثيرة الوضيعة التي يعتبرها بعض الناس حلية لهم وسلمًا يرتكبون به درجات الحياة، اسم مكون من حروف هجائية لا من أعمال جليلة، اسم جف على نفائص الحياة يلاشيهما الموت ولا نصيب له من خير

يبقى على الحياة أثره، فاما هذه الكتب الثلاثة التي لم تظهر إلا بموت مصنفها فقد أعادت اسمه إلى الحياة متالقاً شديداً شرقاً سقطت من حوله حياة المادة وضعفها وبقيت له حياة الروح المتصلة بالكون من أزله إلى أبده.

ويقول الذين عرموا قدرى باشا أيام حياته إنه مع إكبابه على العمل أشد الإكباب لم يكن من المتجهمين للحياة العابسين في وجهها، بل كان ظريفاً غاية الظرف، وكان يتقن الضرب على العود، وكان لا يأبى أن يجلس مع إخوانه خريجي مدرسة الألسن في حفلة طرب يُسمعهم من أنغام عوده ما يهون على النفس أعباء العمل، وإنك لتجد أولئك الذين وهبتم الطبيعة من قدرتها ما يجعلهم قوة عاملة ذات أثر خالد في العالم أحقر الناس على أن ينالوا من جوانب الطبيعة الباسمة حظاً يعينهم على أداء الواجب العظيم الذي فرض الوجود عليهم أداءه، والذي يقتضيهم من الجهد ما ينوعون به لو لا هذا الحظ القليل، وما كان لأحد أن يأخذهم بذلك، وهو — أيًّا كان لونه — ليس إلا رياضة لنفسهم وأعصابهم أن يبهظها الجهد أو يأتي عليها الملل، وإذا أبهظ الجهد قوى الأفذان الذين يقيمون العالم وحضارته فقد آن للملائين الذين يعيشون في كنف مواهب هؤلاء وينعمون بعلمهم أن تتحطم سعادتهم وأن تهدم حضارتهم.

وكان من قسوة القدر على قدرى باشا أن كف بصره وأن انطفأ نور عينيه، وكانتا قبل ذلك ذواتي جمال وحدة، وقد سافر إلى النمسا أملاً في معالجة نفسه من هذا المرض، ولم يمنعه عدم نجاحه في هذا من متابعة عمله الذي أخرج للناس في تقنين الفقه الشرعي كتبه الثلاثة.

وتوفي فأحدثت وفاته فراغاً في عالم النهضة القومية، ولكن هذه النهضة كانت حين وفاته في منحدر أدى بها إلى وقوف تيار النشاط العظيم الذي قام به هو وزملاؤه، فمن قبل سنة ١٨٨٦ كانت مصر قد أصبت في مطامعها في الحرية بضربة لا تقل قسوة مما أصبت به على أثر انتصارات محمد علي باشا على تركيا، وكانت أوربا هي صاحبة الضربة الأولى وصاحبة الضربة الثانية.

ولن تزال كتب قدرى باشا الثلاثة عنوان مجد لا يقل عظمة عن قانون نابليون، ولئن ينس الناس من حياة قدرى باشا كل شيء فلن ينسوا هذه الكتب الثلاثة، وهي كافية لتقييم مجد رجال لا مجد رجال واحد.

بطرس باشا غالى



لعلك إن طلبت مثلاً أعلى بين بلاد العالم لشعب وديع هادئ لا ترى خيراً من مصر محققة لهذا المثل، ثم لعلك إن طلبت مثلاً أعلى لشعب طموح لا تفت أحساؤه تضطرب بأسباب الثورة على الحاضر تطلعاً إلى الكمال وإلى العظمة والمجد؛ لا ترى خيراً من شعب مصر محققاً لهذا المثل، فقلَّ أن عرفت مصر وسائل العنف في السعي إلى أغراضها، ولم يقع أن ذلكت مصر واستكانت وبقيت من تحقيق هذه الأغراض، وللهذا الظاهر من التناقض في صورة الحياة المصرية أثر كبير في قدر رجال مصر والآخذين بها لتحقيق مطامعها، فهي أبداً في نضال مع أمم غيرها تريد قهرها وإذلالها، وهي أبداً لا تذل لقاهر وإن

كانت ظروفها وكان تاريخها قد ألجأها إلى ستر ثورتها الدائمة تحت ظاهر من الهدوء والسكينة؛ ولذلك كان حتماً بحكم هذه الظروف أن ينشأ فيها الرجل المحرك للعواطف يستنهضها وللهدم يحفزها، ولنشاط الجماهير يدفعه إلى الغاية السامية التي تطمع مصر بحق فيها، وأن ينشأ إلى جانب هذا الرجل رجل آخر هو السياسي الذي يعمل لتلافي الاصطدام بين اندفاعات الشعب وبين القوى الغالبة في مصر اصطداماً عجز الكل حتى اليوم عن تقدير نتائجه: فهو ينتهي إلى تحطيم قوة الغالبين وقيام مصر إلى جانبهم قوية اليد كما أنها قوية النفس؟ أم هو ينتهي إلى تحطيم أمل النفس المصرية في بلوغ المكانة التي تطمع فيها؟ وإذا تحطم أمل أمّة فترت أجيالاً بعد أجيالاً عن بعضه واستعادته، حتى يكون ظرف جديد يعين على هذا البعض ويدفع إلى نفس الأمة الأمل حاراً قوياً ينبع من قلبها ثم يتدفق ثورة قوية تخلع النير وتحطم القيد.

وكان هذان الرجلان — رجل الدعوة إلى المثل الأعلى ورجل السياسة والسلم — خصمين في أكثر الظروف، وكانت الجماهير بطبيعتها نصيرة أبداً للمثل الأعلى لأنه غذاؤها في الحياة بل هو ذاته حياتها، أما السياسي الذي يزن القوى ويفاضلها ويعمل للوصول إلى خير ما يمكن أن تصل إليه بلاده فالحوادث اللاحقة هي التي تحكم عليه أو له، ولقد كان بطرس باشا غالى سياسياً، وكان من أكثر المصريين اتصالاً بحوادث عصره من ناحيتها السياسية، فلنجعل للحوادث وحدها الحكم عليه، ولتكن كلمة التاريخ كلمة حق وإنصاف.

ولد بطرس غالى بالقاهرة في ١٢ مايو سنة ١٨٤٦ وتلقى دراسته الأولى في مدرسة حارة السقاين التي أنشأها الأنبا كيرلس الرابع الملقب عند الأقباط بأبى الإصلاح، وبعد ثمانى سنوات أمضاها في هذه المدرسة انتقل إلى مدرسة مصطفى فاضل باشا، وكان له من الصلة بها أن والده غالى بك نيزوز كان يشتغل في دائرة مصطفى فاضل، فلما تخرج منها اشتغل مدرساً بمدرسة حارة السقاين وظل مع ذلك يتلقى علوم الترجمة في مدرسة الترجمة التي أنشأها المرحوم رفاعة باشا.

وكان في أثناء دراسته مثلاً للذكاء ولقوة الذاكرة المنقطعة النظير، كان يكفيه أن يقرأ ما يدرس له مرتين أو ثلاثة مرات ليستظهره استظهاراً تماماً، ويسرت له قوة ذاكرته العلم باللغات المختلفة، فقد أتقن العربية والفرنسية والتركية والفارسية، وهاتان اللغتان الأخيرتان أتقنهما على أحد تجار خان الخليلي، إذ كان يتلقى عليه مقابل دفع (شبرقته)

له، ثم إنه تعلم اللغة القبطية بعد الثلاثين من سنّه لمناسبة تدل — إلى جانب قوة الذاكرة — على قوّة في الإرادة امتاز بها، ذلك أنه سافر إلى إنجلترا فقابل أحد العلماء العارفين باللغة القبطية، ولما علم أنه قبطي كلامه بها فلم يجده، ولكنّه لم يلبي بعد أن عاد إلى مصر أن أكب على دراستها، فلم تمض ستة أشهر حتى كتب لصاحب العالم الإنجليزي خطاباً بها.

وأعانه في الحياة إلى جانب ذكائه وقوّة ذاكرته ومضاء إرادته صحة متينة كان يدل عليها طول قامته وعضله المفتول، كما كان بريق عينيه بريقاً عجيباً يدل على ذكائه وحياته؛ لذلك لم يكدر يتخطى أوليات الشباب حتى عرفه أولو الأمر يومئذ وعهدوا إليه بأعمال ذات خطر ومسؤولية، فقد دخل في مسابقة حين كان مدرساً بمدرسة حارة السقايين انتقل بها إلى وظيفة كاتب بمجلس تجار الإسكندرية الذي حلّت المحكمة المختلطة بعد ذلك محله، وجعل يرتقي من وظيفته هذه حتى صار رئيس كتاب المجلس الذي حكم سنة ١٨٧٣ في قضية ضد مصلحة أحد المحسوبين على إسماعيل باشا المفتش، وإذ كان مجلس التجار تابعاً لناظرة الداخلية؛ فقد أوصل المفتش الأمر إلى ناظرها شريف باشا وأبلغه أن بطرس غالي كان صاحب اليد في إصدار ذلك الحكم الجائر، فدعا الناظر بطرس إليه فأعجبته مناقشته كما أتعجب بمعرفته اللغات؛ ولذلك نقله من عمله وعيّنه رئيساً لكتاب ناظرة الحقانية التي كلف شريف بإنشائها استعداداً لتطبيق نظام الإصلاح القضائي الجديد.

وكانت سنة ١٨٧٤ سنة نشاط كبير في الحقانية بسبب التحضير لإنشاء المحاكم المختلطة، وكان المغفور له محمد قدرى باشا مشتغلًا بترجمة قوانين هذه المحاكم إلى اللغة العربية، فانضم إليه بطرس وعني وإياده بتعريب التشريع الذي ما يزال أكثره سارياً في مصر إلى الوقت الحاضر.

وأتاح له الاشتغال في التحضير للمحاكم المختلطة التعرف إلى رئيس النظار نobar باشا، فكان اتصاله به ذا أثر كبير في تكوينه السياسي، وما فتئ هذا الاتصال بينهما وثيقاً مستمراً داعياً إلى ثقة نobar بباشكات الحقانية، حتى كان هو أول من اختاره ليكون ناظراً للخارجية في وزارته التي ألفها سنة ١٨٩٥ بعد أن اختاره رياض باشا قبل ذلك ومنذ سنة ١٨٩٣ ليكون ناظراً للمالية.

ويرجع اختيار رياض باشا إياده لوزارة المالية إلى سبب خاص، ذلك أنه لما انتهت الحكومة المصرية من إنشاء المحاكم المختلطة في سنة ١٨٧٥ كانت على أبواب الصائفة

المالية التي جرتها إليها الاستدامة الفادحة منذ أول حكم إسماعيل باشا في سنة ١٨٦٣، ففي سنة ١٨٧٦ صدر القانون بتأليف صندوق الدين وبتعيين المراقبين الماليين، لكن هذا القانون لم يخفف من وطأة الديون شيئاً ولم يرفع من الضغط على دافعي الضرائب وإرهاقهم بأقسى وسائل الإرهاق وأبعدها عن كل معانٍ إنسانية، ثم استيلاء صندوق الدين على كل ما كان يحصل، حتى اضطرت الحكومة إلى عدم دفع مرتبات الموظفين بما جعل أحد الإنجليز الموظفين فيها يومئذ يكتب في مذكراته أنه قضى يومين لم يدخل فمه فيما طعام لإعوازه إلى كل ما يسد به رمقه، وإذا كان الدائنون الأجانب مع ذلك مصرین على اقتضاء مصر كل تعهدات ولی نعمتها، فقد انتهوا إلى الاتفاق على تشكيل لجنة للفحص ثم لتصفية ديون مصر، وعين رياض باشا نائباً عن الحكومة المصرية في اللجنة المذكورة وعين بطرس بك غالى السكرتير العام لنظرارة الحقانية مساعدًا له، ثم عين رياض رئيساً للجنة، وعهد إلى بطرس بالنيابة عن الحكومة، وفي ذلك الظرف الدقيق اضطر إلى أن يدرس من مباحثات اللجنة ومن الشؤون المالية ما مكنه من أن يضع تقريراً عن نظام الضرائب في مصر كان بعد ذلك مرجعاً ينقل عنه وحجة يعتمد عليها.

ولما انتهت الحوادث التي تلت تقرير لجنة المالية إلى إقصاء إسماعيل باشا عن العرش فخلفه توفيق فيه كانت الحكومة قد بدأت تفك في إلغاء المجالس القضائية القديمة وفي إنشاء نظام قضائي جديد هو النظام القائم الآن، وإن كان بطرس ممن عملوا في التشريع للقضاء المختلط فكان طبيعياً أن يكون على رأس الذين يعملون للتشريع للقضاء الأهلي؛ لذلك عين في سنة ١٨٨١ وكيلاً للحقانية وألقى عليه عبء تنفيذ النظام القضائي الجديد. وإلى يومئذ كانت مناصب الحكم في أعمال الدولة لا يليها إلا المسلمين، فأمام الأقباط كانوا يلون وظائف إنجاز أعمال الحكومة، وكانت المناصب الكتابية وما إليها مفتوحة وحدها أمامهم، فأمام القضاة وإدارة الأعمال فكانت وقفًا على أبناء الأغلبية الدينية في البلاد، ويسير تفسير هذا التقسيم في ذلك الظرف الذي كان الحكم فيه للأتراء والذي كان الحكم فيه تابعًا لدولة الخلافة الإسلامية، على أن بطرس غالى رأى في ذلك منافاة لروح الزمن، وبخاصة في عصر بدأت مصر تنقل فيه النظم الأوروبية بإنشاء المحاكم المختلطة وبخضوع المصريين لقضاء جماعة لا يختلفون عنهم في الدين فقط، بل في الجنسية وفي اللغة أيضًا؛ لهذا عين حين وجوده في الحقانية عدداً من الأقباط في وظائف القضاة، ولعل هذا التصرف وما إليه من مثله هو ما دعا جماعة من الدين خاصتهم في أثناء حياته لاتهامه بالتحيز لأهل طائفته.

وبقي في وكالة الحقانية حتى عين ناظراً للمالية في سنة ١٨٩٣، على أن أحوال مصر السياسية تغيرت في هذه الفترة تغييراً كبيراً كان بطرس بك غالى رأي فيه معروف، ذلك أنه لما حدثت الثورة العربية وانتهت إلى تدخل الإنجليز وهزيمة العربىين فى التل الكبير وتشاورهم في الأمر كان من رأي بطرس أن يلتمسوا عفو الخديو وأن يرکنوا إليه، وقد أوفده القوم يومئذ بعريضة إلى الخديو توفيق فيها هذا المعنى، ومع أنه لم يظهر له عمل مباشر في الثورة، مما يدل على أنه لم يكن من المطمئنين إليها، فإن التجاء العربىين إليه يدل على أنه كان موضع عنایة الخديو توفيق وعطفه كما يدل من جهة أخرى على أن ذكاءه وفطنته السياسية كانا موضع تقدير الذين التجأوا إليه ورأوا فيه خير واسطة التفاهم بينهم وبين الحاكم الذي ثاروا عليه.

وحياة بطرس باشا كانت كلها بعد ذلك حياة وساطة سياسية لم تكن الحاجة إليها ماسة أيام حكم توفيق لما كان بينه وبين الإنجليز من تمام التفاهم، ولكنها كانت ضرورية وكانت منتجة أيام حكم الخديو عباس الذي كان يثق به ويطمئن إليه في حل الخلاف الكبير الحدوث بينه وبين لورد كرومتر قنصل إنجلترا العام في مصر.

ولعل الحوادث التي مرت بمصر وشهدتها بطرس باشا قبل أن يصل إلى منصب الوزارة كانت ذات أثر كبير في توجيه سياسته وزيراً، فقد حضر نائباً عن الحكومة المصرية في لجنة التصفية ووقف على ميل الأجانب وعلى أطماعهم، ثم رأى جهود إسماعيل للوقوف في وجه تدخلهم باسم مصلحة الدائنين تنتهي إلى إقصائه عن العرش، ثم إنه حضر وشهد تطورات الثورة العربية وما آلت إليه من تشتيت الثوار والحكم على زعمائهم بالإعدام واستبدال ذلك الحكم بالنفي، وكان بعد ذلك على اتصال بالمؤتمرات والمحادثات التي حصلت بقصد جلاء الجيوش الإنجليزية عن مصر، وما كان من وعود الإنجليز في ذلك وتدخلهم برغم هذه الوعود في الشؤون المصرية ووضعهم يدهم على الإداره المصرية، ثم كانت بعد ذلك حادثة فرمان الخديو عباس ووقف إنجلترا في وجه تركيا باسم الدفاع عن حقوق مصر، كما كانت حادثة الحدود واعتذار الخديو عباس برغم اعتزازه بملكه الشاب للقائد كتشنر.

وبطرس باشا كان على ذكائه وقوته إرادته وسعة حيلته رجل سلم وعمل مطمئن؛ مما جعله بعيداً عن الحركة العربية إلى أن جاء دور السلم والوساطة، كما كان من طائفه الأقلية الدينية في وقت كانت النعمة الدينية فيه متغلبة على كل نعمة أخرى، أضف إلى هذا كله اتصاله بنويار وتكوين عقله تكوينياً سياسياً لا تكوين زعامة شعبية مقصورة غرضها

على الدعوة للمثل الأعلى، هذه الظروف كلها تفسر لك سياسته من بعد ارتقائه إلى منصب وزارة المالية في سنة ١٨٩٣ وانتقاله إلى وزارة الخارجية بعد ذلك وبقيائه فيها حتى مع تقلده رئاسة الوزارة في سنة ١٩٠٨ برغم ما جرت به سنة الوزارات المصرية من تقلد رئيس الوزراء لوزارة الداخلية.

وتشهد ظروف تقلده الوزارة بأنه كان — برغم ما قدمنا من ميله للسلم وللحيلة — موضع ثقة الخديو الشاب عباس؛ فلقد كانت أول وزارة اختير بطرس لها وزارة فخرى باشا التي أحلها عباس محل وزارة مصطفى فهمي في سنة ١٨٩٣ برغم لورد كروم، والتي لم تبق لذلك في مناصب الحكم غير يوم واحد، ثم إنه حل بعد ذلك محل ثقته أن رأى فيه خير وسيط يحل المشكلات التي كانت كثيرة الحدوث بينه وبين لورد كروم، على أن عمله في وزارة المالية وفي وزارة الخارجية ظل عمل موظف أمين كفاء حريص على بقاء المساواة في المعاملة بين المصريين جميعاً من غير تمييز بينهم بسبب الجنس أو الدين من غير أن يبرز ليكون محلّ لحكم التاريخ، حتى كانت سنة ١٨٩٩ إذ وقع مع إنجلترا في ١٩ يناير اتفاقية السودان التي كانت بعض ما حاربه به خصومه في حياته وبعض ما اتخذه قاتله إبراهيم ناصر الورداي حجة له في إقدامه على ارتكاب جريمة القتل السياسي، والتي ما تزال موضع حنق المصريين عليها ونظر كثيرين منهم لها على أنها عمل من أعمال خيانة الوطن.

وقد نجع بطرس غالى ولم يكن في سنة ١٨٩٩ إلا ناظراً للخارجية متضامناً مع سائر زملائه النظار في سياسة الدولة العامة يحمل وحده وزر هذه الاتفاقية، فإخلاء السودان في سنة ١٨٨٤ بأمر إنجلترا واستعادته فتحه بعد ذلك بأمر إنجلترا أيضاً لم يكن من عمل نظارة الخارجية وحدها، بل كان من عمل مجلس النظار كله، وقد كان بطرس وزيرًا للمالية في سنة ١٨٩٣ مع فخرى ثم مع رياض باشا الذي ألف الوزارة حلاً للإشكال بين الخديو ولورد كروم، ثم انتقل وزيرًا للخارجية لما شُكِّل نوبار الوزارة في سنة ١٨٩٤، وظل في منصبه بعد استقالة نوبار وحين شكل مصطفى باشا فهمي الوزارة من جديد، وفي هذه الأثناء كانت الأعمال لاستعادة السودان جارية حتى سقطت الخرطوم وأم درمان وتمت استعادة السودان في سنة ١٨٩٨، فهل يسأل وزير الخارجية وحده إذا هو وقعَ بعد ذلك اتفاقاً باسم حكومته؟!

كان خصومه يقولون: ولكنه المسئول الأول والمبادر، فهو الذي وقع باسمه وببيده، ثم إنه فضلاً عن ذلك كان أكثر من كل الوزراء الذين معه مسئولية لأنَّه كان أقواهم وأذكاهم

وأقدّرهم، بل لعله هو الذي أقنعهم بالقبول، وماذا تريـد من مصطفى فهمي والذين كانوا معه وهم كانوا مثل الاستماتة والضعف، لقد كان بطرس هو العنصر القوي الوحيد فيهم، فهو لذلك مسؤول دونهم، ثم لـنـقل الحق أيضـاً: إن بـطـرس قـبـطـيًّا وكان للأقباط زعيمـاً، والأقباط كانوا يومـئـدـ وفي نـظـر دـعاـةـ الحـرـكـةـ الـوطـنـيـةـ المـصـرـيـةـ متـهمـينـ بـمـمـالـةـ الإـنـجـلـيـزـ عـلـىـ بـلـادـهـ، فـبـطـرسـ إـذـاـ قدـ وـقـعـ اـتـفـاقـيـةـ السـوـدـانـ مـمـالـةـ لـلـإـنـجـلـيـزـ وـتـفـرـيـطـاـ فيـ حـقـوقـ بـلـادـهـ. كذلك كان يقول خصوم بطرس، وكذلك ما يزال البعض يحسب، ولو في دخيلة نفسه، حرصـاـ عـلـىـ وـحدـةـ الـأـمـةـ الـمـقـدـسـةـ فـيـ الـأـيـامـ الـحـاضـرـةـ، لكنـ للتـارـيخـ حـكـمـاـ آخـرـ تـجـبـ المـجاـهـرـةـ بـهـ إـحـقاـقاـ لـلـحـقـ، فـمـصـرـ يـوـمـ اـتـفـاقـيـةـ السـوـدـانـ كـانـتـ تـابـعـةـ لـتـرـكـيـاـ وـكـانـتـ لاـ تـسـتـطـعـ أـنـ تـمـضـيـ اـتـفـاقـاـ تـنـقـصـ بـهـ مـنـ سـلـطـتـهـ أـوـ سـيـادـتـهـ عـلـىـ أـيـ جـزـءـ مـنـ الـأـجـزـاءـ الـتـابـعـةـ لـهـ، أـوـ الـتـيـ كـانـتـ تـابـعـةـ لـهـ وـعـادـتـ إـلـيـهـ، وـقـدـ أـبـلـغـتـ الـحـكـمـةـ الـمـصـرـيـةـ حـكـمـةـ الـبـابـ الـعـالـيـ أـنـ إـنـجـلـيـزـ تـرـيـدـ أـنـ تـنـقـصـ مـصـرـ اـتـفـاقـاـ مـقـصـورـاـ عـلـىـ إـدـارـةـ السـوـدـانـ؛ لـتـمـكـنـ بـذـلـكـ مـنـ إـلـغـاءـ الـأـمـيـازـاتـ الـأـجـنبـيـةـ فـيـهـ، وـلـتـسـتـطـعـ بـمـاـ تـبـيـحـ لـهـ الشـرـكـةـ فـيـ إـدـارـةـ أـنـ تـسـهـلـ عـلـىـ أـمـلـاـكـهـ الـأـفـرـيقـيـةـ مـنـ غـيرـ أـنـ يـضـرـ ذـلـكـ حـقـوقـ مـصـرـ فـيـ السـوـدـانـ باـعـتـارـهـ وـلـاـيـةـ مـنـهـ تـابـعـةـ لـحـكـمـ الـخـدـيـوـ، وـبـالـرـغـمـ مـنـ تـكـرـارـ الـكـتـابـةـ فـيـ هـذـاـ الـأـمـرـ إـلـىـ الـحـكـمـةـ الـتـرـكـيـةـ فـإـنـاـ لـمـ تـحـركـ سـاكـنـاـ وـلـمـ تـشـرـ بـنـصـيـحةـ وـلـمـ تـظـهـرـ مـجـرـدـ اـسـتـعـادـهـاـ لـتـعـضـيـدـ مـصـرـ إـذـاـ هـيـ وـقـتـ بـإـزـاءـ إـنـجـلـيـزـ مـوـقـفـاـ خـاصـاـ، وـعـلـىـ ذـلـكـ أـلـفـتـ مـصـرـ نـفـسـهـ وـحـيـدةـ بـإـزـاءـ إـنـجـلـيـزـ مـضـطـرـةـ أـنـ تـحـلـ مـعـهـ هـذـهـ الـعـقـدـ بـعـدـ أـنـ كـانـتـ فـرـنـسـاـ قـدـ ضـرـبـتـ قـبـيلـ ذـلـكـ فـيـ حـادـثـةـ فـاـشـوـدـةـ بـمـاـ قـطـعـ كـلـ رـجـاءـ فـيـ مـاـ دـخـلـتـهـ كـمـاـ اـنـقـطـعـ الرـجـاءـ فـيـ مـاـ دـخـلـتـهـ غـيرـهـ مـنـ الدـوـلـ، مـعـ هـذـاـ لـمـ يـخـرـجـ اـتـفـاقـ يـنـاـيـرـ سـنـةـ ١٨٩٩ـ السـوـدـانـ مـنـ وـلـاـيـةـ صـاحـبـ عـرـشـ مـصـرـ وـلـمـ يـجـعـلـ إـنـجـلـيـزـ شـرـيـكـهـ فـيـهـ، بـلـ هـوـ اـتـفـاقـ مـقـصـورـ عـلـىـ إـدـارـةـ السـوـدـانـ بـنـصـهـ وـبـتـقـسـيـرـ لـوـردـ كـروـمـرـ وـغـيرـ لـوـردـ كـروـمـرـ مـنـ كـلـّـ كـاـبـ الـإـنـجـلـيـزـ وـسـاسـتـهـمـ إـيـاهـ وـبـتـنـفـيـدـهـ فـيـ الـمـدـدـةـ الـتـىـ تـلـتـ عـقـدهـ، فـقـدـ كـانـ حـاـكـمـ السـوـدـانـ الـعـامـ — بـرـغـمـ أـنـ حـاـكـمـ عـسـكـرـيـ فـيـ بـلـادـ خـاصـعـةـ لـلـحـكـمـ الـعـرـفـيـ — لـاـ يـنـفـذـ أـمـرـاـ وـلـاـ يـنـشـرـ قـانـونـاـ إـلـاـ بـعـدـ أـنـ يـبـعـثـ بـهـ إـلـىـ مـجـلـسـ النـظـارـ فـيـ الـقـاـهـرـةـ، وـبـعـدـ أـنـ يـرـدـ الـمـجـلـسـ إـلـيـهـ الـأـمـرـ أـوـ الـقـانـونـ أـوـ الـإـرـادـةـ الـسـنـيـةـ كـمـاـ هـيـ أـوـ مـنـقـحـةـ بـمـاـ تـرـاهـ الـوـزـارـةـ الـمـصـرـيـةـ، فـإـنـاـ كـانـ قـدـ حـدـثـ بـعـدـ ذـلـكـ أـنـ اـسـتـفـادـتـ السـلـطـةـ الـإـنـجـلـيـزـيـةـ مـنـ ضـعـفـ الـوـزـارـاتـ الـتـيـ وـلـيـتـ الـحـكـمـ فـيـ مـصـرـ وـأـنـ مـدـتـ اـدـعـاءـاتـهـاـ إـلـىـ أـكـثـرـ مـاـ يـبـيـحـ اـتـفـاقـ سـنـةـ ١٨٩٩ـ، فـلـيـسـ الـذـيـ وـقـعـ اـتـفـاقـ المـذـكـورـ فـيـ الـظـرـوفـ الـتـيـ أـشـرـنـاـ إـلـيـهـ مـسـؤـلـاـ عـنـ شـيـءـ مـنـهـ.

هـذـاـ هـوـ حـكـمـ التـارـيخـ، وـهـوـ حـقـ فـيـ أـمـرـ اـتـفـاقـيـةـ السـوـدـانـ وـمـوـقـفـ بـطـرسـ باـشـاـ غالـىـ مـنـهـ، عـلـىـ أـنـ مـاـ تـلـاـهـ مـنـ نـشـاطـ الـحـرـكـةـ الـو~طنـيـةـ بـزـعـامـةـ الـمـغـفـورـ لـهـ مـصـطـفـىـ باـشـاـ كـامـلـ

ومن طعنها على المعاهدة واتخاذها ذريعة للهجوم والمقاومة؛ جعل الوزارة المصرية أشد ميلاً للتفاهم مع الإنجليز تفاهماً يخف من حدة هذه الحركة إن كان ذلك مستطاعاً، ويقف في وجه طغيانها على النظام وعلى الأمن إذا خشي منها عليهما، ويعطي لاتفاقية السودان معنى غير معناها الأول يخول إنجلترا فيه سلطاناً لم يقصد الاتفاق تخويلها إياه.

وكانت الحركة الوطنية في ذلك الحين متوجهة إلى الاستفادة من خلاف الدول، معتمدة على ما يمكن أن يكون لتدخل فرنسا من قيمة في تحرير مصر، وبرغم فشل مرشان عند فاشودة وانسحابه وتضعضع سلطان فرنسا لهذا السبب، فقد ظلت أنظار مصطفى كامل ورجال الحزب الوطني متوجهة صوب باريس حتى سنة ١٩٠٤ حين عقد الاتفاق الودي الذي التزمت به فرنسا ألا تعترض إنجلترا في مصر، فلما تم هذا الاتفاق شعر المصريون جميعاً بازدياد مركز إنجلترا في مصر قوة، وكان الناظار المصريون المتصلون بالسلطة الإنجليزية في مصر بسبب مراكزهم أكثر من غيرهم شعوراً بهذه القوة، بل إيماناً بها واستعداداً لتقديم القرابين لتهديئة ثوابئ غضبها.

وفي هذه الظروف بلغ سلطان إنجلترا في مصر أوج قوته، فلم يكن أمر ما — باللغة ما بلغت تفاهته — يُبرأ أو يُنقض من غير إقرارهم عن طريق موظفيهم الذين احتلوا كل مناصب الدولة الرئيسية والذين كانت لهم الكلمة النافذة على الموظفين المصريين مهما يكن منصب الموظف الإنجليزي صغيراً ومنصب الموظف المصري كبيراً، كان تلغراف جرانفل — الذي يقرر أن مشورة إنجلترا واجبة الاتباع في مصر — لا يقف عند ما تبديه الدولة المحتلة عن طريق عميدتها منرأي، بل يمتد إلى المستشار الإنجليزي وإلى مفتش الداخلية وإلى ملاحظ الطرق وإلى كل إنجليزي أيّاً كانت مكانته، وبإزاء هذا السلطان الإنجليزي النافذ في مصر كانت الحركة الوطنية المصرية تنمو وتقوى، وكانت الثورة النفسية لشعب مصر الوادع الذي لا يقبل مذلة ولا خضوعاً قد ملأت النفوس حتى كادت تفيض عنها، وكمظهر لهذا التناقض بين السلطة الحاكمة من ناحية والشعب المصري من ناحية أخرى، وقعت حادثة دنشواي باصطدام جماعة من الضباط الإنجليز الذين كانوا يصيدون الحمام في أثناء ذهابهم من القاهرة على الإسكندرية مع أهل قرية دنشواي في يونيو سنة ١٩٠٦ اصطداماً انتهى إلى موت الكابتن بول الإنجليزي، وإلى تأليف المحكمة المخصوصة برئاسة بطرس باشا غالى الذي كان وزيراً للحقانية بالنيابة لغياب وزير الحقانية بالإجازة، وإلى صدور وتنفيذ ذلك الحكم الجائر الذي يعتبر مثلاً من أمثلة البربرية والوحشية في أشد

صور الإنسانية ظلاماً، والذي أعد بموجبه أربعة وجلد ثمانية أمام أنظار أهل دنشواي المفجوعين في أهلهم وعائذهم، عدا الذين زجوا منهم في غيابات السجون.

وكانت رياضة بطرس باشا للمحكمة المخصوصة التي أصدرت الحكم مما أخذ به وليم عليه، ولكن دون لومه ومؤاخذته على اتفاقية السودان، ويقول المدافعون عن بطرس باشا في هذه المسألة: إن حكم دنشواي كان حكماً سياسياً أملته السلطة الإنجليزية التي أمرت بإرسال المشانق قبل أن يصدر، إذ أرادت أن تضرب بكل صرامة وحزم، وإنه كان صادراً من أغلبية إنجليزية لأعضاء المحكمة، فلم يكن للأقلية الموجودة فيها – بحكم القانون – بُعدٌ من إقراره وتوقيعه، وبطرس باشا كان رئيساً للمحكمة المخصوصة بحكم القانون الذي ألقى بهذه الرئاسة إلى ناظر الحقانية، فكان لا مفر له من الخضوع لرأي أغلبية الهيئة التي يرأسها والتي أصدرت ذلك الحكم الجائر.

وهذا الدفاع على ظاهره من الوجهة لا ينبع حجة لتبرير عمل بطرس باشا إلا إذا كان هو معتقداً عدالة الحكم الذي أصدره وإنسانية تنفيذه مما لا يصدق على رجل كان له من عواطف الخير والإنسانية ما كان لبطرس، ذلك بأن الرجل الذي يجلس رئيساً لهيئة قضائية يعهد إليها بتطبيق العدل يجب ألا يخضع لصوت غير صوت الضمير ولاعتبار غير اعتبار العدل مجرد من كل هوى، فأماماً أن كانت المحكمة المخصوصة ليست هيئه قضائية وكانت صورة هزلية لعدل لا وجود له وإنما تمثل السياسة أحکامه، فكان حرّياً برجل له ما كان لبطرس من دهاء ومقدرة أن يصل من تخفيف الجور إلى أقل حدوده وألا يرضي هذا التنفيذ الذي بعث إلى قلب الإنسانية جماعه رعشة اشمئزاز وتقرّز واستفز في نفسها أشد المقت لعمل لا يمكن أن يكون من الإنسانية المذهبة ولا من الإنسانية المت渥ّحة في شيء.

وكان حكم دنشواي خاتمة سيئة لحياة سياسي ماهر هو لورد كروم، فعل أثر صدوره وتنفيذه بدأت مكانة إنجلترا – كأمة مدنية ونظام – تتزعزع في نفوس المصريين على اختلاف طبقاتهم، وبعد أن كانت الوكالة البريطانية معتبرة ملجاً للعدالة في مصر، وكانت ألف العرائض والشكوى ترفع إليها طلباً للنصفة من ظلم الحكم بل من حيف القضاء؛ تراجع المظلومون مذعورين أن فتحت أشباح المشانق والمشنوقين والمجالد والمجلودين عيونهم على منظر بشع يتردد الإنسان في التحديق به، بل يولي منه فراراً ويمتلئ منه رعباً؛ لذلك لم تطق الوزارة الإنجليزية أن تؤيد عمدها في مصر فاضطر إلى الاستقالة في مارس سنة ١٩٠٧ كما اضطرت الحكومة البريطانية إلى الموافقة على العفو – بفضل جهاد مصطفى كامل – عن مسجوني الدنشوبيين.

وخلف السير الدون غورست لورد كرومك عميد لإنجلترا في مصر، وأراد أن يسلك فيها سياسة أخرى هي التقرب إلى الخديو الذي كان مؤيداً حتى يومئذ لمصطفى كامل للحركة الوطنية، وربما خيل إلى السير غورست يومئذ أن الخديو كان قديراً على توجيه حركة مصطفى كامل وجهة أخرى ما دام هو الذي خلق هذه الحركة وغذيها، متناسياً أن الرعيم الشعبي مرتبط دائماً بالمبادئ والمثل العليا التي نادى بها ولو اعتقد عدم إمكان تنفيذها، أو لعله قصد بسياسة الاتفاق مع الخديو إلى ما حدث بعدها من انقسام الحزب الوطني عن عباس الثاني ووقفه منه موقف العداوة الصريحة في بعض الظروف، على كل حال فقد خلقت سياسة غورست في مصر جواً جديداً ووجهت الأنظار إلى نواحٍ لم تكن تتجه إليها طويلاً من قبل.

ومما اتجهت إليه الأنظار يومئذ اتجاهًا خاصاً المطالبة بالدستور وتقرير سيادة الأمة، فقد تألف حزب الأمة وجعلت «الجريدة» — وعلى رأسها الأستاذ لطفي بك السيد يدعون إلى الدستور بكل ما لديهم من قوة، ويدللون على فساد نظام مجلس الشورى فساداً بيناً، وإن كان حزب الأمة يعبر عن الرأي المعتمد في مصر فلم يكن في مقدور الحكومة ألا تستمع له في هذا الشأن، لكن وزارة مصطفى فهمي كانت قد سلخت في دست الأحكام ثلاثة عشرة سنة منفذة لسياسة خاصة لا تتفق مع السياسة الجديدة التي جاء بها السير غورست ولا تتفق مع تطور المطامع المصرية؛ لذلك استقالت في سنة ١٩٠٨ وعهد الخديو إلى بطرس باشا بتشكيل الوزارة الجديدة فشكلها، وكانت فاتحة أعماله فيها أن قررت الحكومة علنية جلسات مجلس الشورى وحضور الوزارة المجلس لمناقشة أعماله وللإجابة عما يوجه إليها من الأسئلة، وأن عينت البرنس حسين كامل (السلطان حسين) رئيساً للمجلس زيادة لهيبته واحترامه، لكن هذه الخطوة الأولى كانت دون ما تطلب الأمة بمراحل، فلم تخفف لذلك من المطالبة بالدستور بل زادتها قوة واندفاعاً، وإن كان بطرس يميل إلى تحقيق هذا المطلب فقد سعى سعيه لدى معتمد إنجلترا كي يضع نظاماً يقرب مصر من الحكم الذاتي.

وكان السير غورست لما يصل أمام الرأي العام البريطاني إلى شيء من مثل مكانة لورد كرومك؛ لذلك رأى أن حركة الصحافة حركة عنيفة في مصر قد تحول بينه وبين موافقة الحكومة البريطانية على طلب الحكومة المصرية، كما رأى أن حالة الأمن ليست كذلك مما يؤيده عند وزارة خارجيته؛ لذلك طلب أن يبعث قانون الصحافة الذي سن في سنة ١٨٨٢ مبيحاً للإدارة حق إنذار الصحف وتعطيلها، وأن يوضع قانون النفي الإداري

لإرهاب الجناء، والظاهر أن حرص بطرس باشا على تحقيق خطوة جديدة في سبيل الحكم الذاتي كان شديداً، وكثيراً ما يلجأ السياسي الشديد للحرص على تحقيق غاية معينة يراها ذات خطر في حياة أمته إلى قبول أشياء لا يقبلها غيره ما دام يعتقد أنها أشياء مؤقتة قليلاً ضررها إلى جانب الغاية العظيمة المرجوة؛ لذلك لجأ بطرس بازاء رفض زميليه سعد زغلول ومحمد سعيد لطلب المعتمد البريطاني بعث قانون الصحافة وإصدار قانون التفوي الإداري إلى وساطة الخديو عندهما، فأوفد سموه من رجاله من أقتعوهما، فصدر القانونان في سنة ١٩٠٩ فأحدث صدورهما في البلاد دوياً هائلاً ووقفت الصحافة ووقف الرأي العام يندبان الحرية المضاعة بغير ثمن إلا إرضاء المطامع الإنجليزية في حرصها على قهر مصر وإذلالها.

وامتدت هذه الضجة إلى تناول مسألة كانت تتناول الوقت بعد الوقت في الصحف، ولكنها تُنَوَّلت هذه المرة بحدة لم يسبق لها نظير؛ ذلك أن الصحافة القبطية في مصر كانت تدافع دائماً عن بطرس باشا وكانت تتهم الصحافة الإسلامية بالتعصب الديني في مهاجمتها إياه، وكانت النعرة الدينية قوية في ذلك الحين كما قدمنا؛ لذلك كانت العصبية الدينية تدفع الكُتاب إلى حدود غير معقوله ولكن لها نظائرها حتى في أشد الأمم تحضراً، وأقرب هذه النظائر ما لا يزال يbedo الوقت بعد الوقت في صحف الأمم المسيحية خاصاً باليهود، وكانت بعض الصحف الإسلامية من جانبها لا تتنى عن مجاراة الصحف القبطية في هذا المضمار وسبقها، على أن ما وقفنا عليه من مصادر مختلفة أكثرها إسلامي يقنعنا بأن بطرس باشا لم يكن متuchباً لأبناء طائفته تعصب عداوة لأغلبية البلاد الدينية، يؤيد ذلك أنه لما أنشأ الجمعية الخيرية القبطية في سنة ١٨٨١ كان من بين الخطباء يوم افتتاحها الأستاذ الشيخ محمد عبده والشيخ محمد النجار وعبد الله نديم وغيرهم، وأنه كان بعد ذلك عظيم الوفاء لكثير من أصدقائه المسلمين متصل البر بكثير من العائلات الإسلامية.

من ذلك أنه كان أول من ذهب إلى المغفور له الشيخ سليم البشري على أثر إقالة الخديو إياه من مشيخة الأزهر يسأله ما يستطيع أن يقدمه له من خدمة، وكان كثيراً ما يقضي حاجات أفراد من المسلمين من غير أن تكون له بهم كبير معرفة، كما كان يصلهم صلة أبناء طائفته، على أن بره بأبناء طائفته أمر طبيعي، وخير ما سمعنا عنه في هذا أنه كان يتواافق للأقباط جميعاً كما كان يتواافق لأفراد من المسلمين، وأنه هو الذي صنع الطائفة القبطية فرفعها من مستواها الضعيف الذي كانت فيه إلى مستوى أسمى منه

بكثير، فالجمعيات القبطية والمدارس القبطية والمنشآت الخيرية القبطية يرجع الفضل في أكثرها له هو أكثر مما يرجع لأي شخص آخر، كما يرجع الفضل له في فتح أبواب الوظائف العامة للأقباط أسوة بال المسلمين.

واستمر يتبع — بالاتفاق مع المعتمد الإنجليزي — وضع النظام الجديد للهيئة النيابية المصرية، وقبل أن يتمه كي يصدر القانون به طلب شركة قناة السويس من الحكومة المصرية مد امتيازها أربعين سنة أخرى بعد سنة ١٩٦٩، وكانت الحكومة المصرية يومئذ مستعدة لقبول الطلب، لكن حركة الرأي العام المصري في هذا الشأن كانت قوية أضطر أول الأمر معها أن يعرضوا المشروع على الجمعية العمومية المصرية وأن يعدوا بأن يكون رأيها فيه قطعياً، وفي أثناء نظر هذا المشروع بالجمعية وفي فرصة هياج الرأي العام وتوتر أحصابه، فكر إبراهيم ناصف الورداوي في قتل بطرس معتبراً إياه خائناً لوطنه بسبب توقيعه اتفاقية السودان ورياسته محكمة دنشواي، روت «الجريدة» الصادرة في ٢١ فبراير سنة ١٩١٠ وصفاً للحادث ما نصه: «بقي — البasha — كذلك حتى كان يوم أمس نزل كعادته في جماعة من الموظفين، وعند باب نظارة الحقانية صافحهم وانصرف ومعه النائب العمومي، فما كاد يضع رجله على سلم عربته حتى أصابه الرصاص المتعاقب من غدارة شاب لعب الشباب برأسه وتصور ما تصور وتجسمت في نفسه الخيالات، فلم ترُّقه هيبة الوزير ولا وقار الشيخ ولا خوف العقاب ... أصابه الرصاص في العنق والكتف والبطن فخرّ صريعاً، فحمل إلى أودية ناظر الحقانية ثم إلى مستشفى الدكتور ملدون، وهناك زاره سمو الخديو وجميع الوزراء والسيير غورست والأمراء وأعيان الأمة وكلهم يرجون له الشفاء العاجل، فلما كانت الساعة السادسة عملت له عملية جراحية لإخراج الرصاص الباقية، ولكن كانت — مع الأسف — قد نسفت الأمعاء ونفذت في صدر المعدة». وقضى — رحمة الله — في الساعة الثامنة والرابع من صبيحة يوم ٢١ فبراير سنة ١٩١٠ ودفن في اليوم التالي في مشهد مهيب، والليوم ترقد رفاته في كنيسته القائمة على جانب شارع الملكة نازلي الذي كان من قبل شارع عباس.^١

هذه حياة بطرس غالى، والقارئ يرى كيف كانت حياة سياسى عظيم ومحسن كبير، ولئن كان قد أخطأ التقدير في بعض مواقفه فهو لم يقصد يوماً إلى غير خدمة بلاده؛ ولذلك كانت آخر كلمة فاه بها حين احتضاره «يعلم الله أنى ما أردت غير الخير لبلادي». وكانت كلمة حق.

بطرس باشا غالى

هوامش

(١) شارع رمسيس الآن.

مصطفى كامل باشا



في عصر يوم ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ بينما أنا جالس مع أحد زملائي طلبة مدرسة الحقوق الخديوية إذ ذاك على باب داره، جاز الطريق أمامنا رجل ممتطِّ جواداً، فلما كان بإذئنا وقف ببرهة فحيانا وقال: «أبقي الله حياتكم، البشا توفي». وكان زميلاً من المتشيعين للحزب الوطني المتطرفين في تشيعهم، فلما سمع قول الناعي سأله في لهفة: مصطفى باشا كامل؟ فأجابه الرجل منطلقاً جواده: نعم، ولكن طول البقاء، وتركنا أنا وصاحبِي وأجمنِي من هول الخبر وإن كان حديث البشا ومرضه والخوف على حياته بعض ما تواتر في ذلك الحين، وبعد زمن قصير تركت صاحبي عائداً إلى بيتي فالفيت على الناس في

الشوارع والحوانيت من أثر الذهول ما يدل على أن نعي الباشا إليهم مس من قلوبهم أدق أوتار الحزن والألم، ولم يستقر بي المقام في البيت دقائق حتى جاء زميل يبلغني الخبر، ويعلن إلى ما قررته المدارس كلها من الاشتراك في تشيع جنازة الزعيم العظيم، وكان يوم ١١ فبراير يوم حداد عام في العاصمة، وفي مصر كلها لم يشغل الناس شيء فيه غير جنازة الزعيم الشاب، فالمدارس والهيئات الوطنية كلها كانت تفكّر في تنظيم الجنازة، وأهل الريف كانوا يفدون من أطراف البلاد للاشتراك فيها، والحكومة كانت تعدّ وسائل الأمان والنظام، والأجانب الذين رأوا العاصمة جللت بالسوداء ورأوا أهلها اتشحوا بأسباب الحداد كانوا يفكرون في العمق الذي تغلغل إليه الروح الوطني من سويدة نفس هذه الأمة، فلما سار النعش يحمله على عناقهم أهل دنشواي الذين حكمت المحكمة المخصصة عليهم، ثم كان لسعى مصطفى كامل أكبر الأثر في العفو عنهم؛ صمت كل ما في المدينة ولم يبق بها أثر لحياة إلا في مشهد وداع هذا الراحل رحلة الأبد، قال المرحوم قاسم أمين في كلماته التي نشرت بعد موته، أي بعد شهرين اثنين من وفاة مصطفى كامل:

١١ فبراير سنة ١٩٠٨ يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل هي المرة الثانية التي رأيت فيها قلب مصر يخفق، المرة الأولى كانت يوم تنفيذ حكم دنشواي. رأيت عند كل شخص تقابلت معه قليلاً مجرحاً وزوراً مخنوقاً ودهشة عصبية بادية في الأيدي وفي الأصوات، كان الحزن على جميع الوجوه، حزن ساكن مستسلم للقوة، مختلط بشيء من الدهشة والذهول، ترى الناس يتكلمون بصوت خافت وعبارات متقطعة وهيئة بائسة، منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين في دار ميت كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف في كل مكان من المدينة.

ولكن هذا الإلقاء في الشعور بقي مكتوماً في النفوس لم يجد سبيلاً يخرج منه فلم يبرز بروزاً واضحاً حتى يراه كل إنسان. أما في يوم الاحتفال بجنازة صاحب (اللواء) فقد ظهر ذلك الشعور ساطعاً في قوة جماله وانفجار بفرقة هائلة سمع دويها في العاصمة ووصل صدى دويها إلى جميع أنحاء القطر.

هذا الإحساس الجديد، هذا المولود الحديث الذي خرج من أحشاء الأمة، من دمها وأعصابها، هو الأمل الذي يبتسم في وجوهنا البائسة، هو الشعاع الذي يرسل حرارته إلى قلوبنا الجامدة الباردة، هو المستقبل.

ولم يكن عجيباً أن يكتب قاسم أمين على هدوء نفسه وحسن تقديره هذا الذي كتب، ولم يكن عجيباً أن يحرك مصر من أقصاها إلى أقصاها الحزن لوفاة الزعيم الشاب، فقد جاء به القدر في فترة من فترات حياة هذا الوطن حين بدأت الأمة تنسى مظالم الماضي أيام حكم إسماعيل وتشعر بشدة وطأة الحكم البريطاني الذي قام على أساس من المصالح الماديه وحدها، فلم يُعنَ إلا بتحفيض الأعباء المالية ناسياً كل اعتبار غير تخفيض الضرائب؛ ليختيم على البلاد الجهل، ول يكن الغرض الأسماي من التعليم خلق الموظفين، وليشعر المصريون بافتقارهم للحاكم البريطاني وبضعفهم أمامه، فذلك كله هين ويسير ما دامت الضرائب المرهقة وما دامت السخرة والكرياج قد ألغيت، في هذه الفترة التي شعرت فيها الأمة بالحاجة المعنوية للعزّة القومية وللكرامة الإنسانية، بعث القدر مصطفى بشيراً بهذه الحاجات السامية رفيع الصوت، عالي الكلمة، طلق اللسان، قوي الجنان، حلو الأسلوب، يتغنى لقومه بما تشعر به نفوسهم في غور أعماقها، فكان طبيعياً أن يلتف الظماء حول هذا الورد من الكلام السائغ يسمعون عنده الأنashiid التي تطرب لها نفوسهم وتهتز لها قلوبهم ويجد فيها شعورهم الحبيس منفداً ومتنفساً، ليكن ذلك الكلام غير ذي غناء، ولتبقى القوة الغاشمة قديرة على أن تسير في طريقها، ترفع من شأن المصالح المادية على حساب حاجات النفس المعنوية، فلن يغير ذلك من قيمة هذا الذي يشدو باسم الوطن ومن محبة الناس له شيئاً، ألسنت ترى إلى الجمع الحافل من العمال يسد جوعه على مائدة ذي المال جزاء كدحه طول نهاره، ثم ما يلبث أن يذهب لسماع الشاعر أو المغني يروي عنده ظلماً روحه؟ وهو لهذا المغني أشد حباً منه لمن يمسك عليه حياته المادية؛ لأنّه يحس في الشاعر معنى إنسانياً، في حين أن سعيه لدى المالك وجزاءه من سعيه لا يجزيه إلا الإبقاء على حياته الحيوانية البحتة.

لذلك كان جزاء وفاقاً أن تحزن مصر على شاعر الوطنية العظيم مصطفى كامل، وكان حقاً أن يرى قاسم أمين في وحدة هذا الشعور بفقد الزعيم الشاب الذي كرس حياته ليتغنى باسم مصر وليعلن أنه وهبها حياته، وحدة في الأمل الكبير بمستقبل زاهر.

ولد مصطفى كامل في سنة ١٨٧٤، أي في السنة التي ولد فيها الخديو عباس حلمي الثاني، وقد بعث به أبوه علي أفندي محمد – وكان مهندساً – إلى مدرسة أم عباس، فمدرسة القرية الابتدائية حيث تلقى دراسته الأولى، وفي أواخر أيامه بهما توفي أبوه وكفله أخوه حسين واصف باشا وزير الأشغال السابق، وبعد الدراسة الابتدائية التحق بالمدرسة

التجهيزية — الخديوية الآن — لتلقي دراسته الثانوية، وفيها ظهر جريئاً أكثر من زملائه جميعاً، وجرأته هي التي جعلته دون سائر إخوانه يذهب بنفسه فيقابل ناظر المعارف إذ ذاك علي باشا مبارك يشكوا له حيف نظام الامتحان حيث أدى إلى رسوبيه ورسوب زملائه، وإعجاب ناظر المعارف بهذه الجرأة هو الذي جعله يعدل عن هذا النظام فيؤدي ذلك إلى نجاح مصطفى وكثيرين من زملائه، فلما أتم دراسته الثانوية التحق بمدرسة الحقوق الخديوية في العام المدرسي ١٨٩٢-١٨٩١، ومن ذلك التاريخ بدأ ينشر رسائل ومقالات في الصحف، كما أنه — على ما يذكر مؤرخوه ومن بينهم مدام جوليت آدم — ارتبط بالخديو السابق عباس حلمي الثاني برابطة كانت ذات أثر مباشر في حياته كلها بعد ذلك.

ولم يكن مصطفى كامل هو وحده الشاب الذي اصطفاه عباس الثاني، ولا كان هو وحده الذي أثر ارتباطه به في حياته، بل لقد اصطفى كثيرين من الشبان يومئذٍ من توسم فيهم الذكاء والإقدام فعاونهم في دراساتهم وعاونهم بعد الدراسة، وأوفدهم إلى أوروبا لمهماز سياسية يؤيد بها سلطنته ومركزه كحاكم مصر الشرعي، وسياسة عباس الثاني كانت معارضة تمام المعارضة لسياسة الإنجليز، فإنه ما لبث أن تبُوا عرش أبيه وجده حتى وجد ندّا له في قصر الدوبارة، لورد كرومِر معتمد بريطانيا صاحبة السلطان الفعلي في البلاد بقوتها وبجيشه احتلالها وباستئثارها بكل المناصب الرئيسية في الحكومة، وهو ما لبث أن تبُوا عرش أبيه وجده وأراد — مدفوعاً بحماس الشباب — أن يظهر للناس حقه وسلطانه حتى صدمته حادثة الحدود التي اضطر معها إلى الاعتذار عن ملاحظته التي أبداها للقائد كتشنر حين استعراضه الجيش المصري بالسودان، وكان المتقدمون في السن من المصريين الذين شهدوا عهد إسماعيل ومظالم حكومته والذين رأوا حركة عربي واشتراكوا أو لم يشتركون فيها وشهدوا فشلها وتغلب سلطان الإنجليز عليها وعلى فرنسا وانفرادهم دونها بأمر مصر — كان هؤلاء المتقدمون في السن أشد الناس ترددًا في مشاركة الأمير الشاب الذي اعتلى العرش في الثامنة عشرة من عمره مطامعه ومطامحه، فلم يكن يستطيع الاعتماد إلا على الذين لم يهُون عليهم ظلم إسماعيل استبداد الإنجليز والذين لم يضعف الجهل أو البليه في نفوسهم معنى الحرية، وكان مصطفى كامل بين هؤلاء بل كان في مقدمتهم، فقد جمع إلى الشباب إقداماً جاوز حدود الإقدام مع نشاط عصبي لا يهدأ إلا أن يهد المرض صاحبه ويقعده عن حركته الدائمة، وهو لذلك لم يقنع بدراسة الحقوق وبكتابة المقالات في الصحف بل أنشأ — وما يزال في أول سنٍ طلب

الحقوق — مجلة أسماءها «المدرسة»، صدر أول أعدادها في ١٨ فبراير سنة ١٨٩٢ وجعل نفسه بها زعيماً لزملائه في الدرس يلقى عليهم النصائح ويرشدهم إلى الواجب ويقدم لهم مختلف المعلومات التي يرشده إلية اختباره الشاب في بطون الكتب والنشرات الدورية. وفي يونيو سنة ١٨٩٢ سافر لأول مرة إلى فرنسا ليؤدي امتحان الحقوق الأول بباريس، وكان طبيعياً أن تأخذ بلبه الغض حضارة الغرب وأن تؤثر في أعصابه الحساسة مظاهر الحياة الناشطة والحرية المنظمة، وكانت فرنسا يومئذ قد أفادت من كبوة سنة ١٨٧٠ حين قهرتها ألمانيا، وجعلت تذكر في حسرة تدليها من الصف الأول في تصريف سياسة العالم، والشعور بالألم يحفز الإحساس ويفيض على اللسان الشكوى والطموح والأمل، وقد تأثر مصطفى كامل بهذا أيضاً كما تأثر بالحضارة وبالحرية، وزاده تأثراً معاودته الحضور للامتحان في سنة ١٨٩٤ بباريس، وفي أواخر هذه السنة بتولوز حيث نال إجازة الحقوق، ومن ذلك اليوم انفتحت أمام خياله الشاب آفاق الحياة وأمالها، ولعل مما وجه هذه الآمال وجهتها ما وقع له مصادفة من مقابلة الكولونييل بارنج شقيق لورد كرومرو وما دار بينهما من حديث كان له في العالم السياسي قيمة وترتبت عليه حملة صحافية اشتراك هو فيها فحالفة الفوز، فاتجهت إليه الأنظار، فرسم له القدر بذلك طريق حياته، فقد نشرت جريدة الأهرام الصادرة في ٢٨ يناير سنة ١٨٩٥ مقالاً عنوانه (حديث ذو شأن) موقعاً بإمضاء مصطفى كامل حاوياً لما دار بين المصري الشاب وبين الضابط الإنجليزي من مناقشة أفضى فيها الضابط بكل سياسة إنجلترا في مصر مؤيدة بالدليل القاطع الذي لا يعرف حجة ولا جدلاً: دليل قوة السيف والمدفع، وأفضى فيها المصري الشاب بحجة مصر وحقها وباعتراضها لنيل هذا الحق على قوته في ذاته وعلى أوربا التي لا تنظر إلى إنجلترا في وادي النيل بعين مطمئنة، ولعل هذه الفقرة من أقوال مصطفى كامل تفسر نشاطه في المستقبل وتفسر السياسة التي اتبعها إلى سنة ١٩٠٤ حين تم الاتفاق الودي بين فرنسا وإنجلترا اتفاقاً انضمت إليه ألمانيا والنمسا، قال مصطفى: «إن مصر أن تأمل من أوربا نجاتها وخلاصها، ولنا أوربا بأسرها التي تناديها صوالحها العدة بأن تنصرنا نصرة لتلك الصوالح التي سعيتم من يوم احتلالكم البلاد في تقويض أركانها». وربما كان للخديو ومصطفى كامل ولكثير من المصريين يومئذ العذر في اعتمادهم على أوربا والتجائهم إلى بعض دولها لنهاية البعض الآخر، فلم تكن سياسة أوربا الاستعمارية قد استقرت يومئذ على أساس ارتضته دولها الكبرى، واطمأنت معه كل واحدة منها إلى أنها نالت من الغنية الحظ الذي يكفيها، والتي تكفي قواها للدفاع عنه

ولاستغلاله وامتصاص دمه، بل كانت المنافسات ما تزال على أشدّها بين إنجلترا وفرنسا، وكانت ألمانيا الناشئة متطلعة إلى مثل الإمبراطورية البريطانية، وكانت النمسا تنظر إلى ماضيها بعين الوجل إذ تراه يرتجف، وكانت سياسة الباب العالي في الأستانة قائمة على الاستفادة من هذه المنافسات الدولية، فلم لا تقوم سياسة مصر على الاستفادة من هذه المنافسات الدولية، فلم لا تقوم سياسة مصر على هذه القاعدة أيضًا؟ ولم لا تستفيد مصر من تطلع هذه الدول جميعًا إليها للتخلص منها جمیعاً ولتصل إلى نوع من الحيدة يكفل لها ولو الاستقلال الداخلي الواسع النطاق الذي وصل إليه إسماعيل باشا؟

والواقع أن فرنسا كانت ما تزال دامية الجرح لفشل سياستها بمصر بعد إحجامها عن الاشتراك مع إنجلترا في التدخل المسلح سنة ١٨٨٢، وكان أنها أشد لأن هذه الضربة كانت في حكم القاضية على ما نالته في وادي النيل من نفوذ منذ حملة نابليون في سنة ١٧٩٨، ومنذ اصطفائها محمد علي وسعيد من بعده، ومنذ قيامتها بحفر قناة السويس ونشر الثقافة الفرنسية في بلاد الفراعنة، وزاد الجرح إيلاماً أن الفشل لم يقف عند مصر، بل تناول نفوذ فرنسا في الشرق الأقصى بسبب تغلب إنجلترا عليها في الهند وفي غير الهند من الممتلكات.

وقد أراد الخديو مسترًا وأراد مصطفى كامل أن يستفيد من هذه السياسة غاية الاستفادة، وكانت القاعدة التي رسمت أن تطالب الدول الأوروبية إنجلترا بتنفيذ وعدها بالجلاء عن مصر، وأن تدفع الدول الأوروبية إلى هذه المطالبة ببيان ما تقوم به إنجلترا في وادي النيل من أعمال تدل على قصدها البقاء فيه، وكان حديث مصطفى كامل مع الكولونييل بارننج خطوة أولى وخطوة قوية في هذا السبيل، ولم تمض على هذه الخطوة أسبوع حتى استصدرت إنجلترا من الحكومة المصرية دكريتو بتأليف محكمة مخصوصة تحاكم المصريين الذين يعتدون على جنود جيش الاحتلال أو ضباطه، وانتهز مصطفى كامل الفرصة للاستفادة من هذا الحادث أيضًا، ثم كان أن جاء مسيو دلونكل عضو مجلس النواب الفرنسي إلى مصر في ٢١ مارس سنة ١٨٩٥، ولعله وحده، بل لعل الحكومة الفرنسية وحدها لم يكونوا كل السبب في حضوره، وقد استقبله مصطفى كامل بالإسكندرية وظل معه يصل بينه وبين المصريين من الطبقات المختلفة حتى غادر مصر عائدًا إلى بلاده في ١٣ أبريل من ذلك العام، وفي يوم ١١ أبريل أولم دلنكل للصحفيين بالإسكندرية وخطبهم فرد عليه مصطفى كامل شاكراً إيه وشاكرًا فرنسا منتظرًا منها معونة مصر وتأييدها.

ويذكر المرحوم علي بك فهمي كامل في السيرة التي وضعها لأخيه أنه بعد أيام من ذلك وساعة سفر علي مع الأورطة البيادة الأولى أسرَ إلية مصطفى بأنه مسافر إلى باريس، وقد دهش علي لهذا السفر المفاجئ على غير ميعاد وبلا سبب، وربما دهش له لسبب آخر حين ذكر له أخوه أن سفره إنما تدعو إليه «المسألة المصرية» لما يقتضيه هذا السفر وهذه المسألة والدعوة لها من طائل النفقه.

واسفر مصطفى إلى باريس، والحق أنه قام بالدعوة فيها بطريقة تدل على مهارة لا تتح لفرد، بل تدبرها جماعة، وعلى نشاط لا يؤتاه كثيون، فذكر بدأة أنه موعد من قبل الحزب الوطني المصري، والحزب الوطني على ما نعرفه نحن اليوم وعلى ما خلفه مصطفى كامل في سنة ١٩٠٨ لم يكن له وجود في سنة ١٨٩٥، لكن الحزب الوطني هو الاسم الذي كان يطلق على العرابيين، وإنما فهو يذكر الفرنسيين بهذا الحزب الذي تغلب عليه الإنجليز وحدهم حين تنحى الفرنسيون عن وادي النيل.

ثم إنه جعل أساس دعوته فضلاً عن نلاقة لسانه لوحة فنية بديعة لم يذكر لنا مؤرخوه من الذي نقشها ومن الذي أمر بنقشها، وتمثل هذه اللوحة فرنسا واقفة في قوس نصر قام على نصب رفيع يجري النيل من تحته، وقد قامت مصر على شاطئه مقيدة يحرسها جندي بريطاني، وتقدم جماعة من المصريين إلى فرنسا يستجدونها لتفك إسار وطنهم، ونقش على اللوحة بالعربية وبالفرنسية هذه الأبيات:

أفرنسا يا من رفعت البلايا انصرى مصر إن مصر بسوء وانشرى في الورى الحقائق حتى	عن شعوب تهزها ذكرراك واحفظى النيل من مهاوى ال�لاك تجتلى الخير أمة تهواك
---	---

ومن هذه اللوحة طبعت ألف وُزُّعت في أنحاء العالم ونشرت في كل صحفة بعد أن قدمها مصطفى كامل بعرضة إلى رئيس مجلس النواب الفرنسي نيابة عن المجلس، ومما جاء في هذه العريضة قوله:

جاءت الأمة المصرية تستغيث بهذه الأمة الكريمة – فرنسا – التي حررت عدة من الأمم، فهل تجاب إلى استغاثتها وتضرعها؟ وهل لفرنسا أن تؤيد بهذا العمل الجليل مكانتها في العالم الإسلامي الواقع بها؟ على أن ذكر اسم مصر عندما تكون حرة مستقلة بجانب الأمم العديدة التي حررتها فرنسا ليس بالفخار القليل لها، فلتتحيا فرنسا محرة الأمم.

كان لهذا العمل الذي قام به مصطفى كامل نيابة عما سماه الحزب الوطني ضجة كبيرة في العالم لفتت إليه الأنظار من كل صوب وجعلت الصحف في مختلف الدول تهتف باسمه، خلا الصحف الإنجليزية التي تناولت هذا العمل بالتقريع وعزته إلى مقامات خاصة في مصر، وشد هذا النجاح الأول من عزيمة مصطفى كامل، ومكن له من الاتصال بكتاب الساسة وما يزال في مقبل شبابه، وزاده جرأة وإقداماً فجعل يطوف عواصم أوروبا يتحدث فيها إلى الصحفيين والساسة مذكراً إياهم بوعود إنجلترا بالجلاء عن مصر وبمصالح دولهم في أن يتم هذا الجلاء، ثم عاد إلى باريس فنشر فيها رسالة عن آخر الاحتلال الإنجليزي لمصر، وفي ١٣ نوفمبر سنة ١٨٩٥ كتب إلى لورد سالسبري رداً على خطاب كان الوزير الإنجليزي قد ألقاه في جلد هول عن سياسة أوروبا نحو تركيا، وفي خطابه دافع مصطفى كامل عن المسلمين وعن دولة الخلافة، وفي ٣ يناير سنة ١٨٩٦ كتب إلى المستر جلادستون يطلب إليه — برغم وجوده بعيداً عن الحكم — تصريحاً في شأن مصر؛ فأجابه جلادستون بخطاب وردت فيه العبارة المأثورة: «وافي زمن الجلاء فيما أعلم منذ سنين». وعاد بعد ذلك إلى مصر حيث أقام بها حتى أغسطس إذ شد رحاله إلى أوروبا من جديد، وفي أثناء مقامه بمصر ألقى خطابه الأول بالإسكندرية كما كثر المتصالون به من المصريين، وفي هذه الفترة أيضاً نشرت له جريدة الإكلير الفرنسيّة التي تصدر بباريس حديثاً عن الحملة المصرية الإنجليزية إلى السودان معتبراً إياها وسيلة إلى إطالة أمد الاحتلال الإنجليزي إطالة لا نهاية لها، وفي هذه الفترة أيضاً اتصل علينا بالخديو اتصالاً زاد العلاقات بين لورد كرومرو وعباس توتراً، ثم سافر في أول أغسطس إلى باريس حيث استمر هناك في نشر الدعوة لمصر علىأمل أن يحمل فرنسا وغيرها من دول أوروبا على التدخل لصلحتها، وفي هذه المرة كان يذكر الخديو عباس ويموله نحو مصر وأن «خطته هي انتظار الظروف ليستعد أحسن استعداد للوثوب والنزال لاسترداد حقوق البلاد المهدومة»، ولم يغفل ذكر المسلمين والخليفة، وبعد أن قام بنشر الدعوة في باريس سافر إلى برلين ومنها إلى فيينا فالأسنطة حيث وصلها في أواخر أكتوبر وقابل فيها جلالة السلطان، قال في كتاب له إلى أخيه علي فهمي كامل: «وكان جلالته — كما أبلغني الباشكاتب — يود الإنعام على برتبة أو نيشان ولكنني أظهرت عدم رغبتي في شيء من ذلك حتى لا تزوج بضاعة الأعداء ضدي ويتهمني أبناء الوطن العزيز بالعمل حباً في الظهور وفي مثل هذه الألقاب الكاذبة».

وذلك جعل من أوروبا ميدان نشاطه السياسي فكان يقضى فيها معظم شهور السنة متنقلًا بين عواصمها متحدثاً إلى رجال الصحافة والسياسة فيها داعياً إياهم

ليستوفوا إنجلترا وعودها بالجلاء عن مصر متحدثاً عن المصريين تارة وعن المسلمين طوراً، كل ذلك في لهجة أدنى إلى الاعتدال وإن وصفها الإنجليز بالطرف، وقد بقيت من أساليبه في الدعاية السياسية إذ ذاك تغرفات الاحتجاج على ضرب الإسكندرية وغير ضرب الإسكندرية من الحوادث التي أدت إلى الاحتلال البريطاني لمصر، لكن السياسة الإنجليزية من جانبها كانت جادة في السعي لتحقيق ما أفضى به الكولونيل بارنج إلى مصطفى كامل مما نشره في يناير سنة ١٨٩٥.

فكانَتَ الحملة لاسترداد السودان واسترداده بالفعل وعقد اتفاقية ١٩١٩ يناير سنة ١٨٩٩ وفتور الدول وفي مقدمتها فرنسا عن القيام بأي سعي جدي لمناؤة إنجلترا في مصر، ولكن ذلك لم يفت في عضد مصطفى كامل، ولم يضعف من نشاطه وإنقاده، وإن يكن قد دعاه أو دعا الذين يعمل معهم للتفكير في وسائل أخرى، وكان الالتجاء إلى الباب العالي بعض هذه الوسائل.

ولعل التفكير في هذا الالتجاء كان من أثر انتصار الدولة العلية في الحرب البلقانية، وفي هذه الأثناء كثُر تردد مصطفى كامل على الأستانة وازداد إعجاب السلطان عبد الحميد به، فأنعم عليه في سنة ١٨٩٩ برتبة المتمايز ثم بالرتبة الأولى، وذلك في ظرف شهرین اثنین كما أنعم عليه برتبة الباشوية بعد ذلك بسنین قلائل.

ولم يكن في مقدور تركيا أن تقاوم إنجلترا في مصر أكثر مما تقاومها أية دولة من الدول الأوربية، وهذه الظروف مجتمعة دعت مصطفى كامل والذين يعمل معهم ليروا عقم سياسة الاقتصار على نشر الدعوة في أوربا وحدها والاعتماد على الدول لإجلاء إنجلترا عن مصر، وليفكروا في استنهاض الشعب المصري نفسه بالتعليم وبدعوته لتقدير عزته القومية وكرامته الوطنية، وبهذه الفكرة تأسست مدرسة مصطفى كامل في سنة ١٨٩٩ وصدرت جريدة اللواء في ٢ يناير سنة ١٩٠٠، ومن ذلك الحين قامت سياسة مصطفى على أساس من توثيق عرى روابط مصر بتركيا باعتبارها الدولة المتبوعة من جهة والدولة الإسلامية القوية التي يمكن أن تتجه الشعوب الإسلامية لها بالرجاء من جهة أخرى، أما فيما يتعلق بسائر الدول الأوربية فقد ضعف رجاؤه فيها، وإن ظل مستمسقاً منه بخيوط لعلها كانت بقية ذلك الأمل القوي القديم الذي جعله يرفع صوته عالياً خمس سنوات تباعاً في عواصم أوربا، أو لعلها الحرصن الطبيعي في الإنسان على الألا ينكر شيئاً من ماضيه، أما سياسته في استنهاض الشعب المصري فكانت تقوم على غرس الكراهية في نفوس المصريين للإنجليز وحكمهم مصر وملء النفوس المصرية بالإيمان بحق الوطن وبالفاناني في محبته والإخلاص له وبالأمل دائمًا في ثمرة السعي الصالح لفائدته.

وعجيب مع ذلك كله، ومع أن مصطفى كامل كان ذكياً جريئاً، ومع أنه أمضى ما أمضى من السنين في أوروبا، ومع إعجابه بالمدنية الأوروبية إعجاباً تكرر ذكره في كتبه ورسائله؛ عجيب مع ذلك أنه كان رجعياً في دعوته الاجتماعية، فلقد ظهر كتاب المرحوم قاسم أمين عن تحرير المرأة في سنة ١٨٩٩، وكان منطقياً أن يلقى التأييد الحار من جريدة الزعيم الشاب أول ظهورها في يناير سنة ١٩٠٠، لكن الأمر كان على نقىض ذلك، فقد كان اللواء خصماً لدوداً لقاسم أمين وأفكاره وكان ميداناً لأشد المطاعن عليه، وظل اللواء كذلك في شأن الإصلاحات الاجتماعية كلها محافظاً بل رجعياً مستمسقاً بالقديم أشد الاستمساك، ولئن جاز لنا أن نعمل خصومته لقاسم أمين بما لقيه قاسم من تجهم الخديو له تجاهماً حرم عليه وهو مستشار بمحكمة الاستئناف أن يدخل القصر، فإن تعليل رجعية اللواء في الشؤون الاجتماعية قد يبدو عسيراً إلا إذا كانت العلة هي بعينها التي دعت الأمير ورجاله للوقوف في وجه قاسم وأفكاره، هذه العلة في رأينا هي تمليق الشعب فيما هو عزيز عليه من عادات وأوهام لاستغلاله في الغايات السياسية التي يريد الأمراء والملوك استغلاله فيها، وتلك هي علة تمليق الأمراء والملوك والدعاة السياسيين لرجال الدين لأنهم حفظوا هذه العادات والأوهام، فلو أن عباساً أو لو أن مصطفى كامل عضد قاسماً في رأيه في تحرير المرأة لأدى ذلك لفتور الشعب عنهم وتردده في اتباعهم، ولو أن عباساً أو لو أن مصطفى كامل أراد أن يهز أوهام السوداد في الناحية التي تعرض الشيخ محمد عبد لهزها لفتر الشعب كذلك وتردد، والداعية السياسي تاجر يزن الأمور والحقائق بنتائجها لا بقيمتها الصحيحة ولا بما تحتويه، وما دام غرس كراهية الاحتلال البريطاني في نفوس المصريين وملء قلوبهم بالإيمان الوطني يعوق سبيلاً الدعوة للإصلاح الاجتماعي فليكن الداعية السياسي، ول يكن الأمير محافظاً بل رجعياً بل عدواً ظاهراً محارباً لكل فكرة حرية.

ونجحت دعوة مصطفى كامل أعظم نجاح، ذلك بأن نفوس الشباب في مصر كانت متعطشة إلى نغمة جديدة تحفي فيها الأمل بحياة عزيزة، وكانت هذه النغمة قد اختفت منذ الحوادث العربية إلى أن جاء مصطفى كامل، وبرغم وجود كثرين ذوي مقدرة لا تقل عن مقدرته وذوي تفكير أنضج من تفكيره، فلم يكن أحد منهم في إقدامه ولم تكن حمية الشباب ملتئبة في نفس هؤلاء التهابها في نفسه، وعاون على نجاحه أسلوب جديد في الخطابة لم يكن مألوفاً من قبل، هو الأسلوب الوج다كي الذي امتازت به خطابات الثورة الفرنسية، هذا الأسلوب المعتمد على الجمل الضخمة التي تندفع بها المجاميع

من غير رؤية عادة إلى الغاية التي يريدها الزعماء، «لا معنى للحياة مع اليأس، ولا معنى للإيأس مع الحياة»، «بلادي بلادي، لك حبي وفؤادي، لك حياتي وجودي، لك دمي ونفسي، لك عقلي ولسانني، لك لبى وجناني، فأنت أنت الحياة، ولا حياة إلا بك يا مصر»، «لو انتقل قلبي من الشمال إلى اليمين ... إلخ»، بهذا الأسلوب الوجданى وبقوته الخطابية النادرة المثال وبمخاطبته شعور الشبيبة وباستهاضه همتها وبأناشيده عن الوطن ومحبته وارتقاءه، بذلك كله استطاع الزعيم الشاب أن ينهض بأعباء دعوته مؤيداً من الخديو عباس وأصدقائه بادئ الأمر، شاعراً بقوته بعد ذلك، ممليناً إرادته على الذين كانوا يملون من قبل عليه إرادتهم، مستأثراً بكل أمر وبكل رأي، مطاعاً من كل أنصاره وأتباعه الذين لم يتساموا واحد منهم ليتطلع إلى مثل مكانته، متقدماً دائماً إلى الأمام يتبعه شباب الأمة كلها، رافعاً بذلك علم النهضة مردداً نشيد الأمل في المجد والعظمة بصوت تهتز له الأفئدة وتحتفق له الجوانح فلا تعرف الخطر ولا تأبه له ولا تشعر باقتراه بل بوقوعه.

بإزاء هذه الحركة الوطنية المتدفعه حرارة وإيماناً لم يكن لإنجلترا إلا أن تضاعف الجهود لبلوغ غاياتها السياسية في مصر، ولم يكن لورد كروم ممثلاً في مصر يومئذ بالرجل الذي يستهان به، فحارب هذه الحركة وطعنها من جانبين: اتهمها بالتعصب الإسلامي ليستثير أوربا المسيحية، واتهمها بالعداوة للأجانب ليؤلب الدول في صف إنجلترا، وما أيسر ما تصدق الأذن الأوروبية كلمة التعصب الإسلامي وعداوة المصريين المسلمين للأجانب المسيحيين؛ لذلك أنفق مصطفى كامل كثيراً من جهوده في مصر وفي أوروبا لنفي التهمتين، وكان من ذلك أن أنشأ جريدين في مصر إحداهما فرنسيه والأخرى إنجليزية، على أن إنجلترا لم تقف من مجدهاتهما عند هذا الحد، بل واصلت المسعي السياسي حتى عقدت الاتفاق الودي مع فرنسا في ٨ يناير سنة ١٩٠٤ وبه حصلت على إطلاق يدها في مصر على لا تغير نظام مصر السياسي، وأقرت ألمانيا والنمسا هذا الاتفاق، فأقرت الدول الثلاث بذلك معاهدة السودان التي عقدت في سنة ١٨٩٩، وبهذا الاتفاق الودي انهار ركن من أهم أركان سياسة مصطفى كامل، بل انهار مجده منذ سنة ١٨٩٥ إلى سنة ١٩٠٠ حين كان كل عمله التجوال في عواصم أوروبا لاستفزاز دولها كي يقتضوا إنجلترا تنفيذ وعودها بالجلاء عن وادي النيل.

والواقع أن هذا الحادث صدم المصريين يومئذ صدمة قوية، ففرنسا هذه التي طالما علقت مصر عليها الآمال، فرنسا التي رفعت البلايا عن شعوب تهزها ذاكرها، فرنسا

محررة الأمم ومعلنة حقوق الإنسان والمنادية بالحرية والإخاء والمساواة، هي التي تمضي الاتفاق الودي تؤيد به سياسة الاستعمار، فترك إنجلترا تطلق يدها في مصر مقابل ترك إنجلترا إليها تطلق يدها في مراكش! يا لخيبة الأمل! وأين إذًا محل الرجاء؟!

لكن «لا معنى للحياة مع اليأس، ولا معنى للیأس مع الحياة» فلنجاحد، واستمر مصطفى كامل في جهاده، وما يزال له في دولة الخلافة بعض الرجاء وما تزال دعوة الشعوب الإسلامية للاتفاق حول دولة الخلافة كوسيلة لتحريرها محور دعوته، فلما كانت أوائل سنة ١٩٠٦ حدث ما زعزع من رجاء مصر في الدولة العلوية هي الأخرى، ذلك أن أعادت تركيا الخلاف الذي أحدثته حين تبأ عباس عرش أبيه في سنة ١٨٩٢ بأن أرادت أن تخرج شبه جزيرة سينا من الأراضي المصرية، فوقفت إنجلترا وأصرت على أن تكون حدود مصر هي المبينة في الفرمان الذي أصدره السلطان لإسماعيل باشا في سنة ١٨٧٣، وقد قبلت تركيا ذلك في تلغراف أرسله الباب العالي في ٨ يناير سنة ١٨٩٥ لكنها أرادت أن تفسر هذا التلغراف في سنة ١٩٠٦ تفسيرًا خاصًا فتجعل حدود مصر تنحدر من رفح إلى السويس فإلى العقبة، فوقفت إنجلترا مرة أخرى، ولما احتلت القوة التركية طيبة، وهي قرية على مقربة من العقبة داخلة ضمن الحدود المصرية، خاطب السير إدوارد جراي وزير الخارجية البريطانية إذ ذاك سفير تركيا في لندرة بما معناه: أن قوات الإمبراطورية على استعداد لتأييد مركز إنجلترا في مصر. وقد استمرت المشادة في هذا الموضوع بين تركيا وإنجلترا زمنًا وقف في أثنائه مصطفى كامل بجانب تركيا يدافع عن مطالب دولة الخلافة جهد طاقته، على أن تركيا انتهت آخر الأمر بالتسليم بطلب إنجلترا، فكانت هزيمة مسقطة لكل أمل في معونة تركيا، وكذلك تداعى الركن الثاني من أركان الدعوة التي كان مصطفى كامل قائماً بها.

ولقد كان من شأن تداعي هذه الأركان واحداً بعد واحد أن يكشف عما تستره هذه السياسة من الخيال، على أن حادثاً جديداً وقف فيه مصطفى كامل موقف المدافع عن العدالة والإنسانية بمعناها الصحيح ستر ما انكشف من فساد الاعتماد على أوربا وعلى الباب العالي، ذلك هو حادث دنشواي، فقد خرج جماعة من الضباط والعساكر الإنجليز من القاهرة قاصدين الإسكندرية فمروا في طريقهم بقرية دنشواي فنزلوا لصيد الحمام بأجرانها، واعترضهم الأهالي وحدث تصدام انتهى بجرح أربعة من المصريين بينهم امرأة وبإصابة بعض الضباط الإنجليز إصابة فر من جرائها أحدهم الكابتن بول فأصابته ضربة شمس مات متاثراً بها.

وعلى أثر هذا الحادث عقدت المحكمة المخصصة التي شُكلت بديكريتو سنة ١٨٩٥ لتنظر في هذه القضية وحكمت على أربعة من الأهالي بالإعدام وثمانية بالجلد وأخرين بالأشغال الشاقة، ونفَّذَ هذا الحكم بطريقة همجية لا عهد للإنسانية بها منذ عصورها المظلمة، فقد نصب الماشنق التي أرسلت إلى قرية دنشواي قبل صدور حكم المحكمة أمام منازل الأهالي مباشرة ونصبت إلى جانبها آلات الجلد، وغداة صدور الحكم نفذ على صورة يقشعر من هولها البدن، فكان كل محكوم عليه بالإعدام يعلق في المشنقة ويبيقى معلقاً أمام أنظار أهله وأبنائه إلى أن يجلدو اثنين من المحكوم عليهم بالجلد، وكان هؤلاء يجلدون بكرايبج ذات ثمانية ألسن معقود طرف كل لسان منها بقطعة من الرصاص، ومن حول المشائق والمجالد فوق أسطح المنازل وقف الناس من أهل هؤلاء التعساء وذويهم يشهدون جلودهم تشوئ بالكرايبج وجثثهم فارقتها أرواحها معلقة في المشائق، ومستشار الداخلية الإنجليزي واقف يحافظ على النظام لهذا المشهد الذي أبدعته إنجلترا في مطلع القرن العشرين، ما أشدتها وحشية! وما أتعسها حضارة!

هنا يجب أن يرتفع الصوت عالياً دفاعاً عن الرحمة وعن الإنسانية وعن العدالة وعن كل المعاني التي جاهدت الإنسانية أجيالاً وقرعواً لتثبيتها في النفوس، وأي صوت أرفع من صوت مصطفى كامل، وأي أسلوب وجداً كأسلوبه! وهذه الدعاية السياسية التي فشلت بإزاء قوة إنجلترا في أوروبا وفي مصر لا بد أن تنجح إذا استغلت لكشف هذا الظلم وللاستفادة منه لتحريك النفوس، وقد نجح مصطفى كامل في هذا أكبر نجاح، والحق أنه لم يرتكب في التاريخ الحديث فظاعة تعذل فظاعة تنفيذ حكم دنشواي، ولم تُثُر حادثة منحوتات الشعور القومي في مصر ما أثارته هذه الحادثة، ولقد صدق مصطفى كامل إذ قال: إن عشرات السنين كانت أقصر من أن تحيي شعور الشعب كما أحياه هذا الحادث؛ لذلك ظل يكتب ويخطب في مصر وفي إنجلترا بياناً لبياناً ل بشاعة هذا الظلم الذي بلغ من بشاعته أن اضطر لورد كروم إلى اعتزال منصبه في مصر مع اعتراف الكل له بأنه من أقدر الساسة البريطانيين وأعظمهم أثراً في حياة الإمبراطورية.

على أن المصريين كانوا قد رأوا فشل السياسة الأولى التي جروا عليها: سياسة الاعتماد على فرنسا ثم على أوروبا ثم على الباب العالي، وقدر جماعة منهم أن لا بد من الأخذ بسياسة أخرى هي إعداد الأمة بأدوات الاستقلال من علم وخلق وغرس الإيمان بنفسها في نفسها لا مجرد كراهية الإنجليز ولا حباً في الباب العالي ومقام الخلافة السامي، ولكن حباً في الاستقلال والحرية لذاتها، وكان لطفي بك السيد وزير المعارف السابق لسان

الذين فكروا هذا التفكير والذين اعتزموا لبث دعوتهم إصدار جريدة «الجريدة»، على أن نفس مصطفى كامل لم طاوعه ليり في ميدان الخدمة السياسية العامة من يرى غير رأيه؛ لذلك هاجم «الجريدة» قبل صدورها وهو من أعرف الناس بصدقه لطفي السيد وبالذين كانوا على رأيه، ولعل هذا الخلق في الزعيم الشاب هو الذي دعاه أن يبعث من أوروبا على أثر إعلان المرحومين سعد زغلول باشا وقاسم بك أمين تشكيل لجنة لتأسيس جامعة مصرية أهلية متحجاً على سباقهم بأنه سبقهم إلى الفكرة فيجب أن يكون تنفيذها تحت رعايته.

وخلف سير الدون غورست لورد كرومك معتمد إنجلترا في مصر، فجرى مع الخديو على سياسة غير سياسة المشادة والنزاع التي كانت سائدة بين عابدين وقصر الديوبارة إلى ذلك التاريخ، وطبع الخديو في أن ينال من وراء هذا الاتفاق مع معتمد بريطانيا سلطة لعل السعي لها هو الذي دفع به لاصطفائه من اصطفى من الشبان ليعلموا باسم مصر كي يخليها الإنجليز فتبقى السلطة فيها محصورة في يد حفيد إسماعيل، وغير ذلك من الخديو على مصطفى كامل، وذلك شأن الملوك، يصطافون من يصطافون ما دام لهم في ذلك مأرب خاص، فإذا انقضى المأرب انصرفوا عنه وأنكروه، ثم إن مصطفى رأى دعوة لطفي السيد إلى الاستقلال التام أبعد مدى من الدعوة إلى جلاء إنجلترا وبقاء مصر تابعة لتركيا؛ لذلك قال في الخطبة البديعة التي ألف بها الحزب الوطني وألقاها في تياترو زيزينيا بالإسكندرية ما نصه: «فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال، ونطلب لها ذلك الاستقلال بأعلى أصواتنا وعلى مسمع من أمم الأرض كلها، وأننا إذا خطبنا الود لأمة أو لدولة فإنما نعمل كخينا ونتبع ناموس الطبيعة القاضي بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون». ومع هذه الكلمة الصريحة في المطالبة بالاستقلال والحرص عليه كانت الفقرة الأولى من برنامج الحزب الوطني هي استقلال مصر الداخلي وفاقاً لمعاهدة لندرة في سنة ١٨٤٠، ولعل ذلك إنما نص عليه تفادياً من معارضته القانون والتعرض لتهمة التآمر لقلب النظام الذي كان موجوداً.

ولم يوهن فتور العلاقات بين مصطفى كامل والخديو ولا الخلاف بينه وبين الأحزاب المصرية الأخرى من همته العالية في الدفاع عن منكوبى دنشوابي، وقد كل مسعاه بالنجاح فصدر الأمر العالى بالعفو عنهم في عيد جلوس الخديو الذى تلا هذه الحوادث أى في ٨ يناير سنة ١٩٠٨.

بعد ذلك بشهر واحد كان مصطفى كامل على سرير المرض ينتظر الموت في ثبات وصبر، والأمة من حوله يخفق قلبه فرقاً على هذا الابن البار الذي أذكى ضرامة الوطنية في شبيتها، فلما كان يوم ١٠ فبراير أطبق الموت جفني الزعيم الشاب وما يزال في مقبل عمره، ولما يبلغ الخامسة والثلاثين، لكن هذه السنوات الثلاث عشرة التي جاهد فيها مصطفى (من ١٨٩٥-١٩٠٨) هي في الواقع حياة طويلة؛ لأنها حياة جليلة بنشاطها وبأعمالها، جليلة بإيمانها وسعيها، وفي عصر ذلك اليوم بينما أنا جالس مع زميل لي من طيبة الحقوق من بنا من نعى الزعيم لنا، وفي اليوم التالي خفق قلب مصر من أقصاها إلى أقصاها حزناً عليه وجزعاً لا يخلفه من يكون مثله ذكاء ومقدرة وقوة إيمان. وودع مصطفى هذا العالم وقد عمل لوطنه في عشر سنوات ما لم يعمله غيره في عشرات السنين، بل ما لم تعمله أجيال بأسرها؛ لذلك بقيت ذكراه تحياها مصر كل عام، ومن حيث ذكراتهم فأولئك لهم الخلد في ضمير الدهر وكفى بذلك جزاء موفوراً.

قاسم بك أمين



كلما ذكر اسم قاسم أمين¹ ذكر معه تحرير المرأة في مصر، فأول صيحة ارتفعت لهذا التحرير هي صيحة قاسم في كتابيه «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة»، وعلى أثر هذه الصيحة قام جدل عظيم في الموضوع ما تزال حواشيه باقية إلى يومنا هذا، مع ذلك، ومع أن قاسماً لم يمت إلا من عشرين سنة، فلو أنه بعث اليوم ورأى من آثار دعوته هذا التعليم الإجباري للبنين والبنات، وهذه النهضة النسوية العظيمة في مختلف جوانب الحياة، وهذه الحرية النسبية التي تتمتع بها المرأة، وهذا الإصلاح في التشريع للأحوال الشخصية ما تم منه وما يوشك أن يتم، إذاً لأخذته الدهشة، ثم لانقلب دهشته اغتباطاً أيًّا اغتباط بهذه الآثار، ثم لعقب سروره أسف على ما اضطر إليه في كتبه من محافظة

ألزمه إياها روح عصره الجامد، ثم لترك ميدان المرأة وتحريرها يسير في طريقه الطبيعي، ولفكر في ميدان آخر من ميادين الإصلاح الاجتماعي الخطير الذي تحتاج مصراليوم إليه أشد الحاجة، ولعل الأدب القومي وخلقه وتوطديه والارتفاع به إلى سماوات الإنتاج الذاتي الخصيب يكون بعض الميادين التي يصرف إليها بطل الجامعة المصرية منذ تأسيسها وأحد وأضعي أسس هذا الأدب القومي في كتبه الثلاثة كل ما يكون لديه بعد بعثه من نشاط وجهد.

ذلك بأن روح قاسم كانت روح أديب، كانت الروح العصبية الحساسة الثائرة التي لا تعرف الطمأنينة ولا تستريح إلى السكون، وكانت الروح المشوقة التي لا تعرف الانزواء في كن للبحث والتنقيب حيث تنسى نفسها وتستبدل بكنها ما في حياة الكون وحركته من نشاط وجمال، بل كانت عيونه الواسعة تريد أن ترى جدة الوجود الدائمة تتكرر مناظرها فتطبع على صفحات نفسه وحيًا وإلهامًا أكثر مما تؤدي إليهما المباحث الجافة منطقًا وجداً، وكانت هذه المناظر تذكّي شعوره الحساس بجمال الحياة، وتدعوه إلى الحرص على متعاه بها وعلى دعوته غيره لهذا المتع، وذلك لا يؤتاه إلا رجل فن جميل لا يقف عند التلذذ لنفسه بنعيم الحياة، بل يعبر لغيره عن معاني هذه النعم، وكما يعبر الموسيقي بالنغم والمصور بالنقش والمثال بالنحت والشاعر بالوزن، كذلك الكاتب الأديب يجد في وصف ما في الحياة من مختلف ألوان الجمال ما يعبر عن شعوره به وما يدعو غيره إليه، وحياة قاسم كانت كلها متوجهة إلى هذه الدعوة، وكانت متوجهة إليها بقوة آخذة بنفسه متغلبة عليه حالة منه محل الإيمان بها إيمانًا صادقًا.

ولد قاسم مصریاً يجري في عروقه دم كردي، أورثه إياه جده الأمير الكردي، وولد في أسرة متوسطة اليسار لم يفسدتها ترف الإكثار ولم تجنّ عليها آثار الحاجة، وتربيه منذ نشأته تربية أمثاله، ثم سافر إلى فرنسا حيث درس الحقوق وعاد في سنة ١٨٨٥، وليس في ظروف صباح شيء غير عادي إلا أنه كان جم الحظ من الحياة مما ألزمه العكوف على نفسه وعلى درسه، وليس في حياته بعد ذلك شيء من المجازفات التي تجذب لأصحابها أنظار الجماهير، بل ظل منذ أتم دراسته إلى أن عاجلته منيته سنة ١٩٠٨ وهو في ريعان قوته قاضياً ثم مستشاراً بمحكمة الاستئناف.

لكنه كان مع حياته الجم عيوفاً يحترم نفسه وكرامته كما يحترم الغير وحرفيته، فلم يجرب عليه أحد ضعة ولا ضعفًا، ولعل أقدس ما كان يجله من مظاهر الحرية حرية الرأي، وتلك ظاهرة كثيراً ما تلقاها في ذوي الحياة، فهم مع احترامهم لغيرهم

ولحربيه ومع مبالغتهم في هذا الاحترام إلى حد يهون معه عليهم أحياناً أن يتحملوا سوء استعمال الغير لهذه الحرية إلى حد يضايقهم، تراهم إذا أراد مرید حبس رأيهم أو محاربته توترت كل أعصابهم وانتفضوا انتفاضة الليث تبدو أنيابه ومخالبه ووقفوا مستميتين يذودون عن رأيهم ويستهينون في سبيل ذلك بالمال والجاه وبالحرية والحياة وذلك سر نجاحهم دائمًا، على أنهم لذلك لا يصدرون عن الرأي إلا بعد تمحصه وتقليله على مختلف وجوهه والاقتناع به اقتناعاً يحل منهم مكان الإيمان، وهذا ما عبر عنه قاسم في مقدمة كتابه «تحرير المرأة» حين قال: «هذه الحقيقة التي أنشرهااليوم شغلت فكري مدة طويلة كنت في خلالها أقلبها وأمتحنها وأحللها، حتى إذا تجردت من كل ما كان يخالط بها من الخطأ استولت على مكان عظيم من موضع الفكر مني، وصارت تشغلي بورودها وتنبهني إلى مزاياها وتنبهني بالحاجة إليها، فرأيت أن لا مناص من إبرازها من مكان الفكر إلى فضاء الدعوة والذكر».

وهذا الخلق فيه هو الذي جعله منذ عودته من دراسة الحقوق بفرنسا إلى خاتمة حياته قاضياً ممتازاً، فهو لم يقض يوماً لينال حظوة عند أحد أو ليصفق الجمهور له، ولم يكن من بين القضاة الذين قال عنهم: «أعرف قضاء حكموا بالظلم ليشتهروا بين الناس بالعدل». ولم يتقييد في قضائه بآراء الفقهاء أو أحكام المحاكم مما يعتبره أكثر القضاة حجة لا محيد عنها، بل لم يتقييد بنص القانون إذا لم يصادف هذا النص مكان الاقتناع منه، وهذا هو ما جعله ميالاً للرأفة في قضائه نافراً أشد النفور من حكم الإعدام، فقد كان يرى «أن العفو هو الوسيلة الوحيدة التي ربما تنفع لإصلاح الذنب»، وأن «معاقبة الشر بالشر إضافة شر إلى شر»، وأن «التسامح والعفو عن كل شيء وعن كل شخص هما أحسن ما يعالج به السوء ويفيد في إصلاح فاعله»، وأن «الخطيئة هي الشيء المعتاد الذي لا محل للاستغراب منه، والحال الطبيعية الملزمة لغريزة الإنسان»، فإذا كانت الجماعة لم توقف بعد لإدراك هذه الأفكار وكانت قوانينها التي وُكّل إليها تطبيقها كفاض ما تزال تجري على سنة القصاص والانتقام وما تزال دموية مت渥حة، فلا أقل من أن يتحاشى الإعدام وهو أشد ما فيها وحشية، وهو العقوبة الوحيدة التي لا سبيل لعلاجها إذا ظهر خطأ القاضي أو ثابت الجماعة إلى رشدها ورأت تعديل أساس عقوباتها بجعل العقوبة للإصلاح لا للقصاص أو أخذت بمذهب العفو والتسامح.

وكذلك كان رأيه في قضائه المدني، لم يكن يتقييد بالإجراءات إذا رأى العدالة توشك أن تهدى لأن واحداً من هذه الإجراءات لم يراع المراقبة الواجبة، ثم كان أشد القضاة

ميلاً لصالحة المتخاصلين وإحلال التسامح محل النضال والحسنى مكان الشر والسوء، وهو في هذا كثير من القضاة والمفكرين الذين أحدثوا بأحكامهم جديداً في العدالة وفي التشريع، والذين خطوا بنصوص القوانين إلى معانٍ تتفق مع الرقي الإنساني الذي يصبون إليه ويودون لو يتحقق، وأنت إذ تقرأ أحکامه تشعر فيها بهذه المعانى التي ربما خيل إلى رجال القضاء بالمهنة أنها إلى الأدب والخيال أقرب منها إلى النصوص المقدسة، والتي كانت مع ذلك وسيلة التطور التشريعي في سبيل بلوغ العدالة منازل الكمال.

وهذه الآراء المتقدمة التي اعتقدتها قاسم في نظره إلى الإنسان وفي تحليله نفسيته، وهذه الأعصاب الثائرة التي تهتز لكل ما في الحياة من جمال وترجو لو يستمتع الناس به، وترتبية قاسم في وسط فرنسا الحر الذي كان متأثراً بالثورة الكبرى وبثورات سنة ١٨٣٠ وسنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٧٠، ذلك كله هو الذي دفعه ليعلن رأيه في تحرير المرأة مع علمه بما يثيره إعلان هذا الرأي عليه من حملات شعواء، فقد شعر قاسم بما شعر به كثيرون من الشبان الذين درسوا في أوروبا من ألم لما يرونـه حين مقارنة الوسط الذي كانوا فيه بالوسط الذي عادوا إليه، بل لعل هذه الحال على حد تعبير الأستاذ لطفي السيد «اعترته على نوع أشد مناسب لقدر أطماعه الواسعة ومداركه القوية ومشاعره الرقيقة، وربما استحالـت هذه الحال بمساعدة ما به من الوقار الجنسي إلى ملكة ينم عنها سكونه وإطراقه ويفسرها كثـير من كلماته إلى حد يجعلـه يراه متـطـيراً أكثر منه متفـائـلاً»، وكثـيـرون مـنـ تـعـريـهمـ هـذـهـ الـحـالـ يـثـورـونـ ثـمـ ماـ يـلـبـشـونـ أـنـ يـهـدـعـواـ إـذـ يـرـونـ أـنـفـسـهـمـ عـاجـزـينـ عـنـ أـنـ يـهـزـوـ الـوـسـطـ الـذـيـ هـمـ فـيـهـ أوـ يـبـدـعـواـ فـيـهـ جـديـداـ،ـ ولـعلـ قـاسـمـاـ حدـثـتـهـ نـفـسـهـ غـيرـ مـرـةـ بـالـسـكـوتـ وـالـاـكـتـفـاءـ بـجـاهـهـ الـعـرـيـضـ وـبـمـنـصـبـهـ الـعـظـيمـ،ـ وـلـعـلـهـ كـانـ يـصـفـ نـفـسـهـ أـيـضـاـ حـينـ كـانـ يـقـولـ عـنـ الشـيـخـ مـحـمـدـ عـبـدـهـ:ـ «ـكـمـ مـرـةـ سـمـعـتـهـ يـؤـكـدـ أـنـهـ صـمـمـ عـلـىـ أـلـاـ يـتـدـاـخـلـ فـيـ شـيـءـ مـنـ هـذـاـ الـقـبـيلـ،ـ ثـمـ رـأـيـتـهـ فـيـ الـغـدـ مـنـفـعـمـاـ فـيـهـ أـكـثـرـ مـاـ كـانـ،ـ ذـلـكـ لـأـنـهـ بـعـكـسـ مـاـ يـرـاهـ عـمـومـ الـمـصـرـيـنـ فـيـ أـنـفـسـهـمــ،ـ كـانـ عـنـدـهـ أـمـلـ لـاـ يـزـعـزـعـهـ شـيـءـ فـيـ إـصـلاحـ أـمـتـهـ،ـ كـانـ عـنـدـهـ اـعـتـقـادـ مـتـيـنـ بـأـنـ الـبـذـرـةـ الطـيـبـةـ مـتـىـ الـقـيـتـ فـيـ أـرـضـ بـلـادـنـاـ الـخـصـبـةـ نـبـتـ وـأـزـهـرـتـ كـمـ نـبـتـ وـأـزـهـرـتـ وـأـثـمـرـتـ بـذـورـ الـفـسـادـ فـيـهـ؛ـ لـهـذـاـ كـانـ يـلـقـيـ بـمـلـءـ يـدـيـهـ كـلـ مـاـ جـمـعـهـ فـيـ حـيـاتـهـ مـنـ الـأـفـكـارـ الصـالـحةـ وـالـعـوـاـطـفـ الـشـرـيفـةـ وـالـتـعـالـيمـ الـمـفـيـدةـ،ـ كـأـنـهـ كـانـ يـشـعـرـ أـنـ حـيـاتـهـ لـيـسـ طـوـيـلـةـ فـكـانـ يـعـجلـ بـبـذـلـ جـمـيعـ مـاـ كـانـ عـنـدـهـ.ـ»^٢ـ وـكـذـلـكـ لـمـ يـسـتـطـعـ هـوـ أـنـ يـسـمـعـ لـدـاعـيـ الـطـمـائـنـيـةـ إـلـىـ مـنـصـبـهـ وـجـاهـهـ بـعـدـمـ رـأـيـ أـنـ لـأـ مـنـاصـ مـنـ إـبـرـازـ دـعـوـتـهـ مـنـ مـكـانـ الـفـكـرـ إـلـىـ فـضـاءـ الدـعـوـةـ وـالـذـكـرـ.

وفي ظننا أن الدعوة إلى تحرير المرأة من رق الجهل ورق الحجاب لم تكن كل برنامج قاسم الاجتماعي، وإنما كانت حلقة منه هي أسر حلقاته وأعقدها، ذلك بأنه لم يقصر عليها كل جهد حياته، بل اشتغل منذ سنة ١٩٠٦ بالدعوة لإنشاء الجامعة مع صديقه سعد زغلول وشغل بهذه الجامعة وبتوظيف أركانها إلى أن وافته منيته بعدما أعد كل العدة لافتتاحها وقبيل هذا الافتتاح بأشهر معدودة، وتدل كلماته على أن برنامجه كان أوسع من مجرد تأسيس الجامعة وتركها تسير حسب ما توجهها الرياح، وعلى أنه كان يريد أن يجعل من الجامعة خطوة لبرنامج أوسع نطاقاً يتناول ثورة في اللغة والأدب كالثورة التي أحدثها كتاباه في تعليم المرأة وفي رفع الحجاب.

ومن نافلة القول تكرار الكلام عن برنامجه في تحرير المرأة، فقد تناول الكتاب هذا البرنامج بالشرح والتحليل منذ أكثر من عشرين سنة، وكل ما يمكن لقارئ كتابيه «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة» أن يقف عنده اليوم في شأن برنامجه ما اضطر إليه من تحفظ يجعل أهل هذا الجيل يرون صيحة قاسم التي كانت يوم ظهرت قوية مرعبة أن هزت أركان عادات أهل عصره لا تزيد اليوم على أنها صورة للأراء والعادات المتدالة، ونسخة من آلاف ما يكتب من نوعها وما يزيد أكثر الأحيان في تقدمها وسبقها.

ومعنى هذا أن دعوة قاسم آتت كل ثمرها فصارت بعض عقائد الناس وأرائهم، وإذا كان شيء مما دعا إليه كتنظيم تعدد الأزواج وكجعل الطلاق بإذن القاضي ما يزال موضع النظر، فإن الرجاء منعقد بتمامه عما قريب، كما أنه لم يبق من يعرضه إلا الجامدون والذين في قلوبهم مرض.

على أن كتابي «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة» ليسا مقصورين على الدعوة إلى تعليم المرأة وإزالة الحجاب، بل فيهما مذهب جديد في التفكير والكتابة لم يكن معروفاً من قبل قاسم ولم يسبقه إليه أحد، فيهما شيء من «الرومانتسم» الغربي ومن تحليل الطبيعة الإنسانية في أرق عواطفها وأدق وجداناتها، فقد كان قاسم ينظر إلى عاطفة الحب نظرة عبادة وتقديس، وكان يقول: «إن العارف يعبر العثور على الحب الشريف أكبر السعادات في هذه الدنيا، وإذا كان المال زينة الحياة فالحب هو الحياة بعينها».٢ وكان يراه غذاء روحيًا لا غنى لنفس عنه في جميع أدوار حياته، وعنده أن: «كل عشق شريف، فإن كان بين شريفين زاد في قيمتها ورفع من قدرهما، وإن كان بينوضيعين أكسبهما شرفاً وقتياً حتى إذا زال العشق سقطت قيمتها وانحطت مرتبتها ورجعاً إلى أصلهما»، ورجل ذلك نظره للحياة أدنى إلى تغليب حكم العاطفة وإلى اعتبارها الهدادي والمرشد الأول في الحياة.

وإنك إذ تقرأ في كتابيه ما كان صادراً عنه هو غير متأثر بجدله مع غيره أو ببحثه الفقهية التي التجأ إليها لتبرير مذهبها بآراء الشريعة الإسلامية، إذ ذاك ترى العاطفة الحية الحساسة، عاطفة المحبة والرحمة والتسامح والسلام هي السائدة في كل نواحي الكتاب، وهي مقدمة كل أسبابه ونتائجها، وهل الحياة إلا محبة ورحمة وتسامح وسلام؟! وهل في الحياة أجمل من المحبة والرحمة والتسامح والسلام؟!

وقاسم ي يريد بالناس أن يستمتعوا بجمال الحياة وبالحياة كلها استمتاعاً كاملاً، وهو لا يريد هذا على أنه مجرد دعوة لمثل أسمى قد تصل الإنسانية إليه وقد لا تصل، ولكنه يريد حقيقة تتم، وهو يريد لنفسه بمقدار ما يريد للناس، وأكثر مما يريد للناس، وأنت ترى هذا في كلماته التي لم تنشر للناس إلا بعد موته والتي كان يرصد فيها أفكاره الخاصة لنفسه، ترى في هذه الكلمات مبلغ إيمانه بالجمال وبالحب وبالفن الجميل، وترى مبلغ ألمه لعدم تقديربني وطنه بداعي الطبيعة وتصوير رجال الفن لهذه البدائع، قال: «وصلنا قصر اللوفر وكنا أربعة من المصريين لن tumult النظر بأبدع ما جادت به قرائح أعاظم الرجال في العالم، وبعد أن تجولنا في غرفتين جلس أحدهنا على أحد الكراسي قائلاً: أنا اكتفيت بما رأيت وهذا ما منتظركم هنا، وقال الثاني: أتبعكما لأنني أحب المشي وأعتبر هذه الزيارة رياضة لجسي، وسار معنا شاحصاً أمامه لا يلتفت إلى اليمين ولا إلى اليسار وما زال كذلك حتى وصلنا قاعة المصاغ والحلي، وحينئذ تنبهت حواسه وصار ينظر إلى الذهب ثم صاح: «هذا ألطاف ما في هذه الدار»، ووصلنا إلى تمثال إلهة الجمال الفريدة في العالم أجمع فسألت دلياناً: ماذا تساوي هذه الصورة إذا بيعت؟ فقال إنها تساوي ثروة أغنى رجل في العالم، تساوي كل ما يملكه الإنسان، تساوي ما يقدرها لها حائزها ويطلبها ثمناً لها إذ لا حد لقيمتها».

ومثال الجمال عند قاسم مجسم في المرأة، وإذا كانت الموسيقى وكان التصوير وكان التمثيل وكان كل مظاهر من مظاهر الفنون الجميلة محبباً إليه فإن مصدر الوحي الذي تصدر عنه هذه الآثار جميعاً هو المرأة، هي التي تجعل للطبيعة وما فيها جمالاً لأن عيونها تقع عليها، وهي تلهم الرجل هذا الجمال لأنها تحب الزهر وعطره والنسيم وأرجبه والممربي وشدوه ولأنها تحب كل جميل.

وقد لا ترى ذلك واضحاً صريحاً في كتب قاسم، ولكنك تراه واضحاً في عباراته الملتهبة عن العشق والحب، وفيما قدمنا من عباراته في تحرير المرأة وفي الكلمات ما

ينهض دليلاً على رأينا، وأكثر منه في الدلالة قوله: «كلما أردت أن تخيل السعادة تمثلت أمامي في صورة امرأة حائزة لجمال المرأة وعقل الرجل». قوله: «الحب إحساس عميق يستولي على النفس كلها ويجعلها محتاجة إلى الاختلاط بنفس أخرى احتياجاً ضروريًا كاحتياج العليل إلى الشمس والغريق إلى الهواء، نار تلهب القلب لا يطفئها البعد ولا يبردها القرب بل يزيدها اشتعالاً، نظرة في عيون محبوته تملأ قلبه فرحاً وتجعله يتخيّل أنه ماشٍ في طريق مفروش بالورد أو راكب سحابة وطائر في المرتفعات العالية، فوق فوق قريب السماء».

وهو — وذلك إيمانه الصحيح — قد رأى أن المرأة التي تستطيع أن تلهم الرجل كل هذه المعاني السامية وأن تفيض على الفنان بالوحى وعلى غير الفنان بأسباب السعادة التي تحبب إليه الحياة والعمل فيها ليست هي المرأة الجاهلة المحجوبة؛ لذلك دعا دعوته لتحرير المرأة من رق الجهل ورق الحجاب لتكون مبعث السعادة للناس جميعاً.

لكن هذا الوحي والإلهام لا يكون إلا إذا استعد الرجال لتلقيه، وإذا كان لدعوة قاسم أن تنجح في ميدان تحرير المرأة وأن تجعل من المصرية مثلما كانت أخت رينان أو زوجة جون ستواتر ميل أو شبيهاتها من النساء اللواتي أوحين إلى النوازع ما غير وجه التاريخ، فلا بد من إعداد الرجال لتلقي هذا الإلهام السامي والإبرازه فيما يجب أن يبرز فيه من قوة، وذلك لم يكن ممكناً والتعليم العالي — كما كان يومئذ — مقصور على أن يعد موظفين للحكومة وللأعمال الحرة منن لا يرون العلم إلا وسيلة للكسب «ويعملون على مبدأ (اكتسب كثيراً واتعب قليلاً) وليس فيهم العامل المحب لعمله أو فنه والعاشق الذي تحتل شهوة العمل كل قلبه وتمدد فيه وتملؤه برمته»، أمثال هؤلاء لا يوحى إليهم جمال العالم فكرة جديدة ولا يرتجون من الحياة إلا اعزازاً بمنصب أو بمال طائل يحصلونه، وهؤلاء لا يمكن أن تنهض أمة بهم لترقى إلى سبيل الكمال، فأمام الفتاة التي «تطلب العلم حباً للحقيقة وشوقاً إلى اكتشاف المجهول، الفتاة التي يكون مبدؤها التعليم للتعلم» والتي تحس جمال الحياة في مختلف مظاهره، الفتاة التي ترى في المرأة الجميلة المهدبة معاوناً على النهوض بالجماعة، هذه الفتاة لا تكون إلا حين توجد الجامعية وحين يوجد التعليم الجامعي، وهذه الفكرة هي الأساس الذي دعا قاسماً للتعاون مع صديقه سعد زغلول ومع أركان نهضة مصر ليؤسسوا الجامعة المصرية التي استطلت لجنتها برئاسة سعد باشا زغلول حتى ترك منصبه كمستشار في الاستئناف وعين وزيراً للمعارف فحل محله قاسم أمين في رئاسة اللجنة إلى أن عاجلته المنية.

وقد ظل قاسم عاملاً مع أصحابه مجدًا يستنهض الهم ويجمع الأموال وييهي كل أسباب نجاح الجامعة، وقد بين فكرته عنها في خطاب القah بمنزل المغفور له حسن باشا زايد بالمنوفية لمناسبة وقفه خمسين فدانًا للجامعة قال فيه: «إن الوطنية الصحيحة لا تتكلم كثيراً ولا تعلن عن نفسها، عاش آباؤنا وعملوا على قدر طاقاتهم وخدموا بلادهم وحاربوا الأمم وفتحوا البلد ولم نسمع أنهم كانوا يفتخرن بحب وطنهم، فيحسن بنا أن نقتدي بهم فنهجر القول ونعتمد على العمل».

نحن لا يمكننا أن نكتفي الآن بأن يكون طلب العلم في مصر وسيلة لازولة صناعة أو الالتحاق بوظيفة، بل نطمع في أن نرى بين أبناء وطننا طائفة تطلب العلم حباً للحقيقة وشوقاً إلى اكتشاف المجهول، فئة يكون مبدأها التعلم للتعلم، نود أن نرى من أبناء مصر – كما نرى في البلاد الأخرى – عالماً يحيط بكل العلم الإنساني وختصاصياً أتقن فرعاً مخصوصاً من العلم ووقف نفسه على الإمام بجميع ما يتعلق به، وفيلسوفاً اكتسب شهرة عامة، وكاتباً ذاع صيته في العالم، وعالماً يرجع إليه في حل المشكلات ويحتاج برأيه، أمثال هؤلاء هم قادة الرأي العام عند الأمم الأخرى والمرشدون إلى طرق نجاحها والمدربون لحركة تقدمها، فإذا عدمتهم أمة حل محلهم الناصحون الجاهلون والمرشدون الدجالون.

إن عدم استعداد طلبة العلم لحب العلم ذاته هو عيب عظيم فينا يجب أن نفك في إزالته، وهو نتيجة من نتائج التربية المنزلية التي غفلت عن تربية إحساسنا وأهملت تربية قلوبنا فأصبحنا ماديين لا نهتم إلا بالنتائج في جميع أمورنا، حتى في الأشياء التي يجب بطبيعتها أن تكون بعيدة عن الفوائد كعلاقة الأقارب والأصحاب.

إن الارتفاع في الإنسان تابع على الخصوص لإحساسه، وإن أكثر الناس استعداداً للكمال هم أصحاب الإحساس الذين تهتز أحاسيبهم المتواترة بملامسة الحوادث وتبلغ منهم الانفعالات النفسية مبلغاً عظيماً فيظهر أثرها فيهم بكثرة وشدة، أولئك هم السعداء الأشقياء الذين يتمتعون ويتألون، أولئك هم السابقون في ميدان الحياة، تراهم في الصف الأول مخاطرين بأنفسهم يتنافسون في مُصادمة كل صعوبة، من بينهم تنتخب القدرة الحكيمية خيرهم وتوحي إليه أسرارها فيصير شاعراً بليغاً أو عالماً حكيمًا أو ولیاً طاهراً أو نبياً كريماً.

وليأمل عظيم أن يكون إنشاء الجامعة المصرية سبباً في ظهور شبيهة هذا الجيل وما يليه على أحسن مثال.»

كان أول أمل لقاسِم من إنشاء الجامعة إذاً هو الأمل العلمي البحث، هو تكوين فئة للبحث وراء الحقيقة شوقاً إليها وحرضاً على كشف ما يحيط بهذا العالم من الأسرار، وهذه الحقيقة لا يصل إليها أولئك المشغولون بأسباب الرزق العاكفون على السعي لها والدأب في سبيلها، وإنما تصل إليها بيئة علمية يتصل الطالب فيها بالأستاذ اتصال دراسة واتصال بحث، اتصال تعليم واتصال تضامن في زيادة ثروة الإنسانية العلمية، هذه الثروة النورانية التي تضيء ما حولها لتهتك حُجُب الجهل وما يجره وراءه من جمود وتعصب ونفاق، والتي تهدي الإنسانية سبيل السعادة بما تكشف لها من جمال الوجود، ولعل أكبر رجاء قاسم كان أن يتناول هذا البحث آداب مصر بغية الوصول إلى تركيز أدب قومي صالح يجدد الأدب العربي الذي كان متداولاً إلى عصره، وقد كانت لقاسِم في تجديد اللغة والأدب آراء لا تقل تقدماً عن آرائه في مسألة المرأة وتحريرها، وكان يرى «أن اللغة العربية مرت عليها القرون الطويلة وهي واقفة في مكانها لا تتقدم خطوة إلى الأمام، بينما أخذت اللغات الأوربية تحول وترتقي كلما تقدم أهلها في الآداب والعلوم حتى أصبحت النموذج المطلوب في السهولة والإيضاح والدقة والحركة والرشاقة، وصارت أنفس جوهرة في تاج التمدن الحديث»، وفي كلماته كثير مما كان يراه من أوجه النقص في اللغة ووسائل علاج هذا النقص قال: «لم أر بين جميع من عرفتهم شخصاً يقرأ كل ما يقع تحت نظره من غير لحن، أليس هذا برهاناً كافياً على وجوب إصلاح اللغة العربية، لي رأي في الإعراب أذكره هنا بوجه الإجمال وهو أن تبقى أواخر الكلمات ساكنة لا تتحرك بأي عامل من العوامل، بهذه الطريقة – وهي طريقة جميع اللغات الإنگلية واللغة التركية أيضاً – يمكن حذف قواعد النواصب والجوازم والحال والاشتغال ... إلخ، بدون أن يتربّ عليه إخلال باللغة إذ تبقى مفرداتها كما هي».

ولم يكن جزءه على الأدب بأقل من نفوذه من جمود اللغة، فكم نعى على الكتاب والشعراء اقتصارهم على «تكرار أفكار الغير التي حفظوها كما يحفظ الأطفال القرآن»، وكم أسف على الفتور العقلي الذي يجعلك «إذا اجتمعت في اليوم بعشرين رجلاً من معارفك تسمع من التسعة عشر الآخرين ما سمعته من الأول، ولا تجد في الجريدة التي تقرؤها أو تسمع من الصاحب الذي تقابله فكرة غريبة أو تعبيراً جديداً أو أسلوباً مبتداعاً، لا تجد النابغة الذي يدهشك ويذبك بعجائبه جنونه»، وكم استهجن الأساليب التي تقتصر على المحسنات اللفظية ودعا إلى جدة تخرج بالكتابين من ذلك النوع البالى الذي لا يعرف البحث والتحليل والتسمّع على النفس والمشاعر ووصف بدائع الطبيعة

مكتفيًا بالعبارات المحفوظة التي توارثوها عن كتاب العرب أيام مجدهم، وإنك لتجد فيما خلف قاسم صورة من هذا الأدب الجديد الذي يدعوه هو إليه والذي غزا ميدان التحرير والكتابة فأصبح أدب هذا العصر الحاضر، ولئن كان ما نزال نرجو للأساليب الجديدة ثروة وقوة فإن فضلًا كبيرًا يرجع لقاسم في هذه الجدة التي دعا إليها، والتي كان يرجو أن تبدع فيها الجامعة التي جاهد في إنشائها، والتي قامت بعد موته قوة تقربها من المثل الأعلى الذي يرجوه.

واختطف الموت فجأةً قاسماً وما يزال في ربيع قوته، مات بالسكتة القلبية بعد أمسية قدم فيها طالبات رومانيات في نادي المدارس العليا، مات وهو في ميدان هذا الجهاد الشاق الذي خاض غماره وحمل أعباءه بقوه وعزيمته لم يتطرق إليهما كلام، فقد وقف الرأي العام في وجهه على أثر نشر كتاب تحرير المرأة، ولم يكن هذا الرأي العام مقصوراً على السواد ولا على الجامدين، بل ساير هؤلاء كثيرون من يزعمون أنهم يفهمون الرأي واحترامه والحرية وقداستها، بل من كانوا مقتنعين بصواب رأي قاسم، وبلغ الأمر أن حرم قصر عابدين عليه، ولم يتبطه شيء من هذا ولم يبال بذم الناس «بل وجد فيه نوعاً من حماسة الغضب منها لأعصابه منشطاً لقواه مغرياً إياه بالاستمرار والثبات»، ورد على خصوصه بكتاب «المرأة الجديدة» ثم قام بالجهود العظيم الذي قام به في إنشاء الجامعة، وكان في إبان ذلك كله ساكن النفس مطمئن الضمير محباً للحياة وجمالها غير بخيل على نفسه بحظ من ذلك يناله في رفق ما كان بعيداً عن مصر، فإذا عاد إليها اقتصر على أصدقائه القليلين الذين كانوا يخففون عليه حمل الحياة ويرغبونه في بقائهما».

مات فجأةً في ليل ٢٣ أبريل سنة ١٩٠٨ فأثار خبر وفاته في نفوس الناس جميعاً، أصدقائه وخصوصه، رنة حزن وأسى، واجتمع لتشييع رفاته كل ذوي الرأي في مصر، وكانت جنازته مظهراً صامتاً لإجلال الوطن وتقديره العاملين من رجاله، وغادر هذا العالم تاركاً وراءه ذكرًا باقياً هو ذكر الصدق والإخلاص لبلاده لم يبلغ عليهم في حياته أجرًا من جاه أو نشب، فكان أجره عليهم الخلود بعد موته في ضمير الأجيال المتعاقبة، ذلك بأنه رفع لواء الحرية الصحيحة والعدل في أسمى معانيه، وبعث إلى الروح المصرية حياة جديدة تكفل لها بلوغ ما ترجوه بين جماعة الأمم المتحضرة.

وفي يقيننا أن مجهد قاسم من أبقى المجهودات على الحياة، وأن الصحائف المعدودة التي كتبها ستظل أبداً موضع إجلال العصور واحترامها.

هوامش

- (١) اقرأ من قاسم أمين أيضًا في «في أوقات الفراغ» طبعة ١٩٦٨ ص ٩١-١٤٣.
- (٢) تأبين الشيخ محمد عبده.
- (٣) تحرير المرأة.

إسماعيل باشا صبري



لم تمض على وفاة المغفور له إسماعيل صبري باشا غير سنوات قليلة ومع ذلك فقد بدأ الناس لا يذكرون عنه إلا أنه كان شاعرًا مجيدًا، فأما أنه كان وكيلاً للحقانية في آخر أيامه، وأنه درج قبل ذلك في وظائف الحكومة المختلفة حتى بلغ هذا المنصب، فهذا ما يسحب النسيان عليه ذيله رويداً رويداً، وهذا ما يعتبر الجانب القليل الخطر من حياته، ولا عجب في ذلك؛ فلقد كان الشعر هو الجانب المنير من روح إسماعيل صبري والذي يجعله أحد رجال التاريخ الحديث، والناس لا يذكرون من الكبار إلا مواضع عظمتهم

الحقة، الموضع التي تتصل فيها نفوسهم بنفس الإنسانية كلها اتصالاً تتأثر به النفس الإنسانية تأثراً باقياً على الأجيال في تعاقبها، فأما هذا العمل اليومي الذي يقوم به كل منا ويستطيع غيره أن يحل محله فيه، فأما هذا الجانب من الحياة الذي يتكرر فيه الفرد من غير أن تظهر له شخصية خاصة ممتازة، فأما النيابة والقضاء ووكالة محكمة الاستئناف ومنصب النائب العمومي ووكالة الحقانية مما تقلب فيه إسماعيل صبري؛ فتلك المراكز على خطرها وجلالها وما تخلعه على صاحبها في حياته من جاه ومقام عظيم، إنما يتصل صاحبها بالجيل الذي يعيش فيه، إلا أن يمتاز في أعمال هذه المناصب امتيازاً يترك أثراً تتناقله الأجيال، ولم يترك إسماعيل صبري في هذه الناحية من حياته ذلك الآخر؛ لذلك كان له من جاهها مدى حياته ما يكون لغيره، فأما ما بقي له فذلك الضياء النفسي الذي يتجلى في شعره القليل، والذي يعتبر على قلته آية في الجمال تهتز لها نفوس كل الأجيال، والذي يبقى من أجله اسم إسماعيل صبري على الزمان؛ لأنه — على حد قول الأستاذ علي الجارم في مرثيته إيهاد:

لم يمت من يزول من عالم الحس وتأبى آثاره أن يزولا

ولد المرحوم إسماعيل صبري في ١٦ فبراير سنة ١٨٥٤ ودخل مدرسة المبتديان التجهيزية فمدرسة الإدارة، وفي سنة ١٨٧٣ التحق بالإرسالية المصرية لفرنسا فنان إجازة الحقوق في سنة ١٨٧٨، وهذه الإجازة هي التي فتحت أمامه أبواب السلك القضائي من مساعد نيابة لدى المحاكم المختلفة إلى وكيل وزارة الحقانية، على أن الجانب النفسي الأقوى منه لم يكن الجانب التشريعي أو الجانب القضائي، بل كان جانب تجاوب الأوزان والأنغام والشعر، وكثيراً ما رأيت رجالاً يكونون دون غيرهم من أهل حرفهم في الكفاية والمقدرة، ولكنهم يمتازون بجانب آخر لهم فيه نبوغ، هؤلاء يحجب فيهم جانب النبوغ الجانب الآخر و يجعله يبدو ضعيفاً، بل كثيراً ما يجني جانب النبوغ على الجانب العملي للحياة، لما يكره النبوغ عليه من وهبته الطبيعة إيهاد من مجهود مستمر وحياة خاصة، فإذا الجانب العملي يكاد يُنسى إلا ما تملئه عليه الملكات الممتازة من قوة واقتدار.

ولم يكن لجانب النبوغ الشعري في إسماعيل صبري تاريخ قديم معروف، وقد عبر شوقي في رثائه إيهاد عن ذلك بقوله:

إن فاته نسب الرضى فربما
شرف العظامين صنع نفوهم
من ذا يقيس بهم بني الأشراف
أعلمت للقمررين من أسلاف
جرياً لغاية سؤدد وطراف

وكثيراً ما كانت المواهب الممتازة لا ترجع إلى تاريخ قديم معروف، بل كثيراً ما رأيت هذه المواهب الممتازة تتجلّى في أشخاص لا تلمح في تاريخهم أية مقدمة لها، وهي قد تجلّت في نفس إسماعيل صبري منذ كان في السادسة عشرة من عمره، وقبل أن يخطط طريقه إلى السلك القضائي، فقد نشرت له مجلة روضة المدارس وما يزال في هذه السن مقاطيع شعرية تلمح خاللها روح الشاعر، وإن كانت في تلك الحين قد كانت متاثرة أشد التأثر بأغراض الشعر في عصر إسماعيل من مدح الأمراء وذوي السلطان، وروضة المدارس كانت يومئذ مجلة أدبية تعمل لإحياء اللغة العربية والشعر العربي.

ولما سافر في الإرسالية وأقام بمدينة اكس أتيح له الاطلاع على الأدب والشعر الفرنسي، ويدل شعره في السنوات الأخيرة على أنه تأثر بهذا الشعر كثيراً وأنه انطبع منه في نفسه حظ غير قليل، على أنه لم يستطع في أول أمره أن ينقل إلى الشعر العربي روحاً غربية مثلما فعل شوقي مثلاً، فأمنت ترى في شعر صبا شوقي الشيء الكثير المتأثر تأثراً باديأً بحياة شوقي في أوروبا، أما إسماعيل فكان منذ أول حياته شاعراً مقللاً، وكان على ما يظهر من شعره - لا يتأثر سريعاً، ولكن ما يؤثر فيه يبقى عالقاً بنفسه حتى يكون له مظهراً ولو بعد حين.

والظاهر أن التقاء الحياتين الشرقية والغربية والشعرتين الشرقي والغربي في نفس إسماعيل صبري أحدث أثراً عميقاً امتزج مع غريزة حياته، فقد كان رجلاً رقيقاً كل الرقة دمت الأخلاق حاضر البديهة، اجتمع له كل ما يعرف من صفات «ابن البلد» وظرفه، وإنك لتسمع ما يرويه عنه أصحابه من ذلك الشيء الكثير، فكان إذا سئم إنساناً من الناس ولم تطاوه نفسه الرقيقة على الإغلاظ له في القول؛ طلب إلى صديقه حافظ إبراهيم أن يوقع بينه وبين هذا الثقل حتى لا يضطر لمقابلته أو التحدث إليه، وكان كثير التندر، حتى لقد تحكم عليه النكتة فلا يرى بأساً من أن يقول إنه لو نزل كتاب مقدس في القطب الشمالي لوعد الله عياده النار أعدها للمتقين، وكان ظرفه وخفة روحه وسرعة بديهته يلهمنه في كثير من المواقف ما لا يلهم المنطق، اعترف أمامه متهم بجريمة القتل فلما خلا مع زملائه للمداولة ورأى أن العقوبة هي الإعدام؛ ذكر لهم أنه يشك في اعتراف هذا الرجل لأنه لا يرى في سيماه معنى شجاعة يمتاز به على سواه من أمثاله،

وجيء بالرجل إلى غرفة المداولة وقال هو له: أتدرى أن اعترافك هذا يجعلنا نحكم عليك بالإعدام، فكان جواب الرجل: لكن العدمة لم يقل هذا، بل قال لي حين دفع لي الجنيهين: إني سيعفَّ عنِي لأنني كنت في السجن حين ارتكاب الحادثة، وتبين فعلًا أن الرجل كان في السجن فلم يكن له في الحادثة يد، وقضى ببراءته.

إلى جانب هذه الصفات التي يمتاز بها « ابن البلد» المصري مما تأثرت به نفس إسماعيل صبري الشاعرة بمخالطتها الوسط المصري، كان رجل اجتماع بالمعنى الإفرنجي الصرف، أبي رجل دنيا إذا أردت ترجمة العبارة الفرنسية *Homme du monde* ترجمة حرافية، وكان له أصدقاء كثيرون جدًّا من الجاليات الأوروبية المقيمة بالقاهرة، وكان يغشى اجتماعات الظرفاء وأولاد البلد.

على أنه مع كل هذه الوداعة والظرف ومع ما كان يسيل به خلقه من رقة، كان أبًّا لا يقيم على ضيم، ذكر لي أصدقاؤه الذين عرفوه طوال حياته أنه برغم ما تقلب فيه من كبرى مناصب الحكومة كان المصري الوحيد الذي لم يقابل لورد كرومتر ولم يدخل الوكالة البريطانية في مصر، وأنه حدث بيته وبين رياض باشا — وكان رئيس النظار — جاءه حكم أصدره ماسًّا ببعض المحسوبين على رياض باشا، فلما جاء في أحد المواسم إلى عابدين ومثل بين يدي الخديو توفيق ثم خرج من لدنـه إلى رياض باشا مهـنـاً إـيـاهـ كـرـئـيـسـ حـكـوـمـةـ أـوـقـفـهـ رـيـاضـ باـشـاـ وـلـمـ يـأـذـنـ لـهـ بـالـجـلوـسـ،ـ وـكـانـ اـبـنـ رـيـاضـ باـشـاـ وـاقـفـاـ عندـ بـابـ الـحـجـرـ التـيـ يـجـلـسـ فـيـهاـ أـبـوـهـ،ـ فـقـالـ إـسـمـاعـيـلـ صـبـريـ مـخـاطـبـاـ الـابـنـ بـمـسـمـعـ منـ الـأـبـ:ـ قـلـ لـأـبـيكـ يـحـتـمـوـهـ،ـ وـرـوـىـ عـثـمـانـ باـشـاـ مـرـتـضـيـ فـيـ حـفـلـةـ تـأـبـيـنـ إـسـمـاعـيـلـ صـبـريـ أـنـ أـحـدـ قـنـاـصـ الدـوـلـ الـأـجـنبـيـةـ طـلـبـ إـلـيـهـ —ـ وـكـانـ مـحـافـظـاـ لـلـإـسـكـنـدـرـيـةـ —ـ أـنـ يـشـيـعـ جـنـازـةـ غـنـيـ منـ أـهـلـ جـالـيـتـهـ تـرـكـ ثـرـوـةـ طـائـلـةـ كـسـبـهـاـ فـيـ مـصـرـ وـأـوـصـيـ بـهـاـ كـلـهـ لـبـلـادـهـ،ـ فـكـانـ جـوابـ الـحـافـظـ أـنـ اـعـتـذـرـ؛ـ لـأـنـ الـمـحـتـفـ بـجـنـازـتـهـ لـمـ يـفـكـرـ فـيـ مـصـرـ التـيـ أـثـرـتـ فـيـهـ،ـ فـلـيـسـ يـطـلـبـ مـنـ مـصـرـيـ أـنـ يـفـكـرـ فـيـ مـجاـملـتـهـ حـيـاـ أوـ مـيـتاـ.

دعة وظرف ورقة وحسن معاشرة وإباء، اجتمعت كلها في نفس شاعر التقت فيه حياتهان الشرقية والغربية وألهمتها الطبيعة ذوق الجمال، وبخاصة ما كان منه متعلقاً بالنغم الشعري، فماذا ترى يكون أثر ذلك كله في شعره؟ فأمام الرقة فقد تنفست في شعر صبري غزلًا بالمرأة وهياماً بجمالها أيًّا كانت هذا المرأة، وأنت ترى من ذلك شيئاً غير قليل حين تذهب إلى مراجعة شعر صبري الغنائي، لكنك تراه ماثلاً بصورة حلوة جميلة

آخذه باللب في قصيده البديعة (تمثال جمال) وبخاصة في هذه الأبيات منها يخاطب المرأة الجميلة أو كما سماها «لواء الحسن»:

فيه للأنفس رى وشفاء
دون بعض، واعدلني بين الظماء
بقبول من سجاياك رخاء
تحت عرش الشمس بالحكم سواء
ضمنته من معدات الهناء
لتوارى بلثام أو خباء
أن روضاً راح في النادي وجاء
ناثر الدر علينا ما نشاء
أن هذا الحسن من طين وماء
للملا تكوين سكان السماء
خلف تمثال مصوغ من سناء

إن هذا الحسن كالماء الذي
لا تردي بعضاً عن ورده
ساعفِي آمال أنداء الهوى
وتجلّي واجعلي قوم الهوى
أقبلني نستقبل الدنيا وما
واسفري تلك حلٍ ما خلقت
واخطري بين الندامى يحلفووا
وانطقي ينثر إذا حدثتنا
وابسمى، روحانية لا تدعى
وانزعى عن جسمك الثوب بين
وأري الدنيا جناحي ملكٍ

وتراه كذلك في هذه الأبيات يخاطب بها امرأة لا تدري أية واحدة هي من ألوية الحسن التي تزدحم عادة في نفس ذوي الظرف والرقعة ومن لا تحتمل نفوسهم طغيان الحب المستبد يذعن له الفؤاد والقلب والنفس والجوارح جميعاً إذعان خضوع وإيمان واستسلام، وهو مع ذلك بإذعانه راضٍ وبذله سعيد:

لطفاً يعم رعايا اللطف رياه
من الرياحين حياناً بها الله
هذا جمالك يغنينا مُحياناً

زياني النديّ وسيلي في جوانبه
ريحانة أنت في صحراء مجدة
إن غاب ساقى الطلا أو صد لا حرج

لعلك تلمح فيما نقلنا من هاتين القصيدين – أو المقطوعتين إن شئت – شيئاً غير الغزل بجمال المرأة من غير تقييد بامرأة معينة، ولعلك تلمح فيها من الموسيقى أكثر مما اعتدت أن تلمح فيما تستمع إليه من شعر غير إسماعيل صبري، وإنك لواجد هذه النغمة الموسيقية الحلوة الرقيقة في أكثر شعره وإن لم يكن في شعره جميعاً، بل إنك لواجدتها حتى في القصائد التي يكلف الشاعر نفسه أن يكون حماسياً فيها كقصيدة

فرعون وقومه، بل إنك لواجدها حتى فيما يتتكلف فيه الحكمة كقصيدة الساعة وما نظمه عن نجم هالي، وذلك طبيعي وقد كان إسماعيل صبري مشغوفاً بالغناء طول حياته إلى غير حد حتى كانت الحياة عنده قطعة من الموسيقى، أو قل كان خير ما في الحياة عنده قطعة من الموسيقى، وكان سمعه أكرم حواسه عليه، أليس في رثائه يقول حافظ إبراهيم:

لقد كنت أغشانه في داره
وناديه فيها زها وازدهر
وأعرض شعري على مسمع
لطيف يحس نبو الوتر

والحق أن إسماعيل صبري لم يولع في حياته بشيء ولעה بالغناء، ولم يجاهد وهو في مناصب القضاء لترقية شيء في مصر أكثر من جهاده لترقية الغناء، كان ذلك شأنه منذ عهد الخديو إسماعيل باشا، أي منذ أن نشأ يقول الشعر إلى أن مات، وكان لا يقف من شعره الغنائي عند الشعر العربي بل كان يختلط باللغتين ورجال الموسيقى وكان يضع لهم أدواراً باللغة المصرية، وكان لذلك موضع محبة رجال الفن الموسيقيين والمغنيين واحترامهم.

ولقد كان له في هذا الباب فضل كبير: رفع الأدوار الغنائية من درك كانت فيه، فجعلها ذات معانٍ رقيقة تمثل عواطف طاهرة وميولاً سامية، وأدواره (قدك أمير الأغصان) و(الفجر لاح قوموا يا تجار النوم) وغيرهما لا تزال من أفضل الأدوار المصرية التي تُغنى إلى وقتنا الحاضر، وقد عرفه الناس جميعاً بذلك حتى كان حجة يرجع إليه، روى لي أحمد شوقي بك حادثة غاية في اللطف، تلك أنه كان عنده وهو يشغل منصب النائب العمومي يوماً وكانت مصر تموج أفكار أهلها بحادث سياسي وقع فيها، وفيما هما جالسان يتحدثان دخل حاجب ومعه مظروف حكومي كبير فقطع ذلك حديثهما وانتظرا أن يجدا فيه إشارة إلى الحادث السياسي وما يجب اتخاذه من الإجراءات بإزائه، فلما فض إسماعيل باشا المظروف وقرأ ما بداخله هز رأسه مبتسمًا، ذلك أن علي باشا شريف رئيس مجلس الشورى يومئذ قد بعث في هذا المظروف بدور غنائي وهو يطلب إلى النائب العمومي إصلاحه، ولهذه المناسبة قص إسماعيل باشا صبري حادثاً وقع في قرطبة حين كانت الدولة الإسلامية على وشك الزوال منها، وكانت طرقها تجري دمًا لاقتتال الناس فيها؛ ذلك أن فتاة أطلت من نافذتها منادية صديقة لها في نافذة مقابلة

تطلب إليها وتراً تصلح به عودها، وكذلك يطلب رئيس مجلس الشورى إلى النائب العام أن يصلح له دوراً غنائياً بينما تمواج البلاد بحادث سياسي لا تعرف نتائجه. ولهذا الولع بالنعمة وبالغناء ترى الكثير من شعر إسماعيل صبري صالحًا لأن يكون صوتاً يغنى فيه، اسمع إلى قوله يخاطب سيدة تدعى ألكسندرا:

دَرَ لَا فُضَّ عِقْدُهُ مِنْ فِيكِ
جَبْ عَنَا جَمَالَهَا مِنْ شَكُوكِ
انثري الدر يا سَمِيَّةً إِسْكَنْ
وأَمْيَطِي عَنِ الْحَقِيقَةِ مَا يَحِ

وقوله:

ولا بشافعة في رد ما كانا
حمل الصباية فاختفى وحدك الآنا
من قبل أن تصبح الأشواق أشجانا
في الوصل ناراً وفي الهجران نيرانا

أقصر فؤادي فما الذكرى بنافعة
سلا الفؤاد الذي شاطرته زماناً
هلاً أخذت لهذا اليوم أهْبَتْه
لهفي عليك قضيت العمر مقتحماً

وغير ذلك مما يغنى فيه من شعر إسماعيل صبري كثير.
أنت لا تستطيع أن تطلب إلى شاعر بلغ من الرقة ما بلغ إسماعيل صبري وشغف
بالغناء شغفه أن يكون ممن يجاهدون الحياة ويحاولون إخضاعها لرأيه أو أن يكون
قوى الإيمان مما في الحياة بشيء، فالمرأة وجمالها والغناء والحانه والموسيقي وأنغامها
صور يطرب لها الحس وينطبع طربه في النفس فيدعوها إلى الطمأنينة للحياة والاستهثار
بما يشغل الناس أنفسهم فيها من شئون، والتوافر على المتعاب بهذا الطرف والحرص على
استدامته والفوز بذلك من الموت، ويدرك الذين عرفوا إسماعيل صبري معرفة صحيحة
أنه كان كذلك، لكن مع ذلك ترى في شعره نزعات تكاد تكون صوفية، وترى إلى جانب
ذلك شيئاً من التبرم بالحياة ومن إيثار الموت واستعجاله، أليس يذكّر بتغزل عمر بن
الفارض شيخ الصوفية في الذات الإلهية قول إسماعيل صبري:

شطط العقول وفتنة الأفكار
غضب اللطيف ورحمة الجبار
علمي بأنك عالم الأسرار
يا رب أهلني بفضلك واكفني
ومُر الوجود يشف عنك لكي أرى
يا عالم الأسرار حسبي مهنة

أُخْلَقْ بِرَحْمَتِكَ الَّتِي تَسْعُ الْوَرَى أَلَا تَضْيِيقْ بِأَعْظَمِ الْأَوْزَارِ
أَوْ لَيْسَ الْحُكْمَ كُلَّ الْحُكْمَ فِي قَوْلِهِ:

أَوَاهْ لَوْ عَقْلَ الشَّابِ وَاهْ لَوْ قَدْرَ الْمُشَبِّ

أَوْ لَمْ يَقُلْ الْفَلَكِيُونَ إِنْ نَجْمَ هَالِيَ الْمَذْنَبُ الَّذِي مَرَ بِالْأَرْضِ فِي سَنَةِ ١٩١٠ كَانَ
سِيرْقَ الْأَرْضِ وَيَقِيمُ الْقِيَامَةَ فَابْتَهَجَ إِسْمَاعِيلُ لِذَلِكَ وَقَالَ:

زَلْزَلُ السَّهْلِ وَالرَّوَاسِيِّ ذَعْرًا	أَنْتَ نَعْمَ النَّذِيرِ يَا نَجْمَ هَالِي
هُ شَوَاظًا عَلَى الْخَلَائِقِ طُرَّا	إِنْ يَكُنْ فِي يَمِينِكَ الْمَوْتُ فَاقْدَفْ
ظَرَ قَوْمٌ قَوْمًا عَلَى الْأَرْضِ شَرْرًا	أَغَدًا تَسْتَوِي الْأَنْوَافُ فَلَا يَنْ
فِي الْهَيْوَلِيِّ وَيَصْبِحُ الْعَبْدُ حَرًّا	أَغَدًا يَصْبِحُ الْصَّرَاعُ عَنَّاً
بِالَّذِي قَدْ أَمْرَتْ حَيَّتِ عَشْرًا	إِنْ يَكُنْ كُلُّ مَا يَقُولُونَ فَاصْدِعْ

بَلْ أَلْمَ يَدْعُ صَبْرِيَ الْمَوْتَ كَمَا دَعَاهُ فَوْسَتْ مُسْتَعْجَلًا إِيَاهُ كَيْ يَنْقَذَهُ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا
حِينَ قَالَ:

يَا مَوْتَ خَذْ مَا أَبْقَتَ إِلَيْهِ
بَيْنِي وَبَيْنِكَ خَطْوَةً

فَكِيفَ مَعَ هَذَا كَلَهُ يَكُونُ بِشَا لِلْحَيَاةِ طَرْوِيًّا بِمَا فِيهَا فَزْعًا مِنَ الْمَوْتِ وَمِنَ الْعَدْمِ؟!
وَكِيفَ مَعَ هَذِهِ الْحُكْمِ الَّتِي نَرَاهَا فِي شِعْرِهِ يَكُونُ كُلُّ شَغْلِهِ بِجَمَالِ الْمَحْسُوسَاتِ مِنْ
مَنْظُورِ وَمَسْمَوْعِ؟! هَذَا اعْتِرَاضٌ يَرِدُ لِلْذَّهَنِ لَأَوْلَى وَهَلَّةً، لَكِنَّ الشَّاعِرَ لَا يَكُونُ شَاعِرَ
حَكْمَةٍ وَلَا شَاعِرًا نَفْسَانِيًّا لِمَجْرِ ذِكْرِهِ خَوَاطِرَ فَلْسَفِيَّةَ وَعَتْهَا ذَاكِرَتِهِ أَكْثَرُ مَا اهْتَرَتْ
لَهَا نَفْسَهُ، ثُمَّ هُوَ لَا يَكُونُ بِرَمَّا بِالْحَيَاةِ مُؤْثِرًا لِلْمَوْتِ لِبَعْضِ أَبْيَاتٍ قَدْ تَدْفَعُهُ إِلَى قَوْلِهَا
شَئُونَ خَاصَّة، فَالْبَيْتَانِ الْأَخْيَرَانِ الَّذَّانِ رَوَيْنَاهُمَا لِإِسْمَاعِيلِ صَبْرِيِّ — فِي رَوَايَةِ بَعْضِ مِنْ
عَرْفَوْهُ — لَمَا كَانَ يَلْقَى فِي حَيَاةِ الْعَائِلَيَّةِ مِنْ أَسْبَابِ الشُّكُورِ، وَأَمَّا ذَلِكَ التَّصُوفُ الَّذِي
نَرَاهُ فِي الْأَبْيَاتِ الْأُولَى فَلِيُسْ إِلَّا مَظْهَرًا لِمَا وَعَتِ الْذَّاكِرَةُ رَاجِعًا نَفْسَ الشَّاعِرِ فِي سَاعَاتِ
تَغْصَبِ فِيهِمَا النَّفْسُ بِنَعِيمِ الْحَيَاةِ حِينَ يَفِيَضُ عَنْهَا فَيَضْأَ يَجْعَلُهَا تَسْتَغْفِرُ وَتَتَوبُ بِرَهْةٍ

لتعود إلى نعيم الحياة وفيضه بعد ذلك مباشرة، فأما الشاعر النفسي فهو الذي يحس في أعماق نفسه بمعانٍ قوية تظهر في شعره، ولو تحدث عن ظواهر تُدْهَا أنت وأعدها أنا تافهة في الحياة، من ذلك كثير من شعر أبي العلاء المعري، ومنه كثير من شعر الإفرنج، كنت أعيده منذ بضعة أيام قراءة قصيدة (موت الذئب) لألفرد دُفِيني وأستعيد منها المعاني القوية التي تجيش في نفس الشاعر الفرنسي وتتجلى في كل قصائده، مثل هذا الشاعر النفسي إن كان دينياً يرى في جمال المرأة وفي تجاوب الموسيقى وفي ألحان الغناء معانٍ دينية، وهو يرى هذه المعاني الدينية في موت طفل وفي موت ذئب كما يراه في الحب وفي كل صورة من صور الحياة ولون من ألوانها، وإن كان شاعر عاطفة أو شاعر فلسفة تجلت العاطفة والفلسفة في شعره كله، فإذا رأيت له شعراً لا يعمره الجانب النفسي القوي من جوانب حسه أو شعوره أو تفكيره كان لك أن تحكم بأن ما اختزنته الذاكرة مما لم يؤثر في النفس أثراً عميقاً هو مبعث هذا الشعر، وما تخزننه الذاكرة مما ينظمه الشاعر ليس هو المعبر عن نظرته للحياة وتقديره لما فيها.

كان إسماعيل صبري إذا متأثراً بما تتأثر به العين والأذن من صور الحياة وألوانها، وكان هذا هو الذي يوقع على وتر عاطفته أنغام شعره، وكان شعره لذلك جميل اللفظ غاية الجمال، وكان تأثره هذا يجعله معنىًّا بالجمال اللغطي أكثر من كل شاعر سواه، وإنك لتجد أمامك فيما نقلنا لك هنا من شعره مظهر ذلك واضحًا جليًّا، فرب فكرة عادلة أو صورة تمر أمامك كل يوم تجدها في هذا الشعر فإذا بها قد اكتست رونقاً وبهاءً ما كان لها أن تكتسيهما لو أن شاعراً آخر هو الذي صاغها، والظاهر أن هذه النزعة القوية عند إسماعيل صبري كانت ذات أثر كبير في الشعر العربي في هذا العصر، فحافظ إبراهيم لا يأبه أن يدعو إسماعيل صبري أستاذه وأستاذ شوقي، وشوقي لا يأبه أن يعترف بأن هذه النظرة التي كان ينظر بها إسماعيل إلى الشعر أثرت فيه هو تأثيراً غير قليل، ولم ينشأ من الشعراء في العهد الأخير من كانت له في الشعر نفسية خاصة

تخالف نفسية إسماعيل صبري لطبع الجيل الجديد كما طبع هو جيله بطابعه.

ولا أستطيع أن أختتم هذا البحث العجل عن إسماعيل صبري من غير أن أضع أمام القارئ أبياتاً ارتجلها تسيل رقة وتعبر أرق تعبير عن هذه النفسية التي كانت ترى العاطفة كما كانت ترى كل ما في الحياة حسًّا منظوراً أو مسموعاً، ارتجلها يوم دفن ابن صغير المرحوم الشيخ علي يوسف فقال:

والبيت أنساً تمهل أيها القمر
والزم مكانك لا يحلل به المدر
وفيهما إذ قضيت النار تستعر
ومن بكاء الثكالي السيل والمطر
يروح فيه ويغدو نفحها العطر
إلا كما عاش في أكمامه الزهر
في ذمة الله بعد القبر يا عمر

يا مالئ العين نوراً والفؤاد هو
لا تخلِّ أفقك يخلفك الظلام به
في الحي قلبان باتا يا نعيمهما
وأعين أربع تبكي عليك أسى
قد كنت ريحانة في البيت واحدة
ما كان عيشك في الأحياء مختصرًا
فارحل تشييك الأرواح جازعة

لعل وقد رأيت من إسماعيل صبري وشعره هذه النفسية المشغوفة بالألوان تشعر
— إلى جانب هذا — بما يشعر به كل من يقرأ شعر إسماعيل صبري من أنه كان شاعرًا
مصريًا حقًا، ومن أن النزعة البدوية كانت لا تعرف سبيلاً إلى نفسه، وأن الرقة التي
تسيل بها جوانب وادي النيل والصفو الذي يظل سماءه والخضرة النضرة التي تزين
جباته وأغاريد الطير في هواءه الرقيق، كل ذلك كان ينعكس في نفس إسماعيل صبري
بقوة لا تراها في كثيرين غيره من الشعراء، ولعل لذلك تقر له باللقب الذي لقبه به
معاصروه: لقب شيخ الشعراء.

وقضى حياته مغطياً بالحياة، حتى إذا كان في آخريات أيامه أصابته نوبة صدرية
قعدت به عن أن ينعم بشيء من الحياة خمس سنوات تباعاً، ولعل بيته يخاطب الموت:

بيني وبينك خطوة إن تخطها فرجت عنِّي

كان يصدق عليه خلال هذه السنوات الخمس الصدق كله.
وقد خطا إليه الموت هذه الخطوة في منتصف ليل ٢٠ مارس سنة ١٩٢٣، وقضى
يومئذ متحملاً معه مدرسة حافلة من مدارس الشعر ومذهبًا جليلاً من مذاهب تقدير
الجمال، قضى وخلف بعده من أثره مجموعة أشعار لم تطبع بعد لأنه كان يقول إنه
وهب شعره للنسىان، وتلك هبة لن تتم، فالنسىان لا يتطرق إلى الكمال ولا يعود على
الجمال؛ لذلك نشر من شعره الشيء الكثير وحفظ أصحابه ما لم ينشر، ولعلنا نسعد
برؤية مجموعة شعره مطبوعة عما قريب.

محمود باشا سليمان



... وهذا أيضًا محمود سليمان باشا قد مات، فأضاف حلقة إلى سلسلة عظماء مصر الذين ودعوا عالمنا في السنتين الماضيتين.^١ لكنه ودعا على صورة غير تلك التي ودعوه عليها، هم كانوا بين مجاهد تحفظه قوى الشباب للجهاد، وأخر بعض طبعه الكفاح، وثالث اضطر لاعتزال الناس اضطراراً، أما هو فمجاهد لخير وطنه في شبابه، ثم مجاهد له في كهولته، ثم مجاهد له وقد نيف على التسعين، وبعد اعتزامه الانقطاع إلى الله وعبادته، فلما دب الخلاف بين المصريين واندلع لهيب الفتنة في البلاد نأى عن الفتنة مختاراً وعكف على ما اعتاد من عبادة وتقوى، وظل في تقواه وفي عبادته ينتظر بقلب مطمئن نفسه هادئة اليوم الذي يختاره الله فيه إلى جواره، فلما كان عصر يوم الثلاثاء الماضي

أغمض عينه عن عالمنا هذا ليفتحها هناك في العالم الذي قضى سنين الطويلة يرجوه،
عالم أجر وسعادة لا يعرفان الزمان ولا المكان لأنهما يسموان على كل زمان ومكان.

وليس كثيرين من أبناء هذا الجيل مَنْ يذكرون شخص محمود باشا سليمان، وإن كانت أجيال مصر المتعاقبة، وكان تاريخ مصر يذكره أطيب الذكر، وليس كثيرون من يذكرون هذا الرجل المهيِّب في وقاره النحيف في جسمه الطويل القامة في اعتدال، الحاد النظارات الأسمُر اللون الجليل المشيب، ولئن كانت قد مضت سنوات لم أره فيها، فإني ما أزال أذكر أول مرة رأيته، وكانت ما أزال طالباً بالحقوق، وكانت أتردد على دار «الجريدة» عند أستاذنا لطفي بك السيد، فيينا أنا هناك في أحد أيام ربيع سنة ١٩٠٨ دخل محمود باشا سليمان فحياه الحاضرون في إجلال واحترام وقدمني له لطفي بك، وأشهد لقد جلست وفي نفسي شيء من الرهبة أمام هذا الشيخ الذي يحمل طي تجاعيد وجهه صحفاً مجيدة من تاريخ مصر، جلست وجعلت أحابُل أن أختلس – في نظرات يداخلها الحياة والخوف – صورة رئيس حزب الأمة آتياً يتحدث إلى كاتب حزب الأمة، وانتظرت أن يتكلم، فمضت لحظات خلتها طويلة وخلت معها أن وجودي قد يحول دون الشيخ والكلام، فاستأنست وانصرفت، ولم أره بعد ذلك غير مرات قليلة كانت الأخيرة منها حين كان رئيساً للجنة الوفد المركزية وحين كانت تتعلق باسمه آمال الوفد المصري في أوروبا، وأمال المصريين في مصر.

هذا الرجل قد غادرنا بعد أن طوى رحلة الحياة في أناة وتوءدة ووقار، وانتقل منها في مثل هذه التؤدة والأئنة والوقار إلى جوار ربه وما يرجو من حسن ثوابه، غادرنا بعد إذ خلف وراءه تاريخاً حافلاً جليلاً وذكراً لا تشوب سواطع نوره شارة من ظلام؛ فلقد وهب هذا الرجل حياته كلها لله ولولنه ولأبنائه، كان في عهد إسماعيل باشا الخديوي رجلاً كاملاً مسحوم الرأي نافذ الكلمة، ترك عمدية بده ساحل سليم ونظارة القسم التي تتبعه إلى وظائف وكيل مديرية في جرجا وفي أسيوط، فلما صدر القانون النظماني بعقد مجلس النواب في عهد توفيق باشا تقدم للنيابة عن الأمة وانتخب عضواً بمجلس النواب وألقى عليه أن يلقي خطاب العرش، وكان له في هذا المجلس موافق يذكرها له التاريخ.

فلما شبَّت نار الثورة العربية كان من بعيدِ النظر الذين قدروا ما يمكن أن يصيب البلاد من جرائتها، فتنحى عن الاشتراك فيها كما تنحى بعد ذلك عن الاشتراك في النظام الذي أعقبها، فمع هذه المكانة الكبيرة التي كانت له، ومع ما أظهره من مقدرة في

مجلس النواب الذي سبق الثورة، ومع أنه لم يكن من أنصار الثورة وأعوانها، فإنه لم ير بعد فشل الثورة واحتلال الإنجليز مصر أن يتقدم للعمل العام تحت النظام الجديد الذي سنه الإنجليز لمصر حين استصدروا من الخديو قانون مجلس الشورى والجمعية العمومية، بل تناهى عن العمل العام وترك القاهرة إلى الصعيد، وعكف على عمله الخاص وعلى البر بالفقراء، وظل كذلك من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٥ حين أخرجه ظرف محلي خاص من هذه العزلة وجعله يتقدم لعضوية مجلس الشورى، وما لبث أن عاد إلى القاهرة وإلى العمل العام حتى انتخب وكيلًا للمجلس وحتى كانت له فيه مواقف مشهودة.

إذا كان للتاريخ أن يذكر السابقين إلى مطالبة الإنجليز بأن يخلوا بين مصر ووضع نظام الحكم فيها؛ فلقد كان المغفور له محمود باشا في مقدمة هؤلاء، كان في مقدمتهم منذ كان عضواً في مجلس الشورى وحين ترأس بعد ذلك حزب الأمة.

إذا كان للتاريخ أن يذكر السابقين إلى الأحزاب المنظمة، فإن محمود سليمان باشا هو أول من ترأس حزباً ذا برنامج ونظام في مصر؛ فلقد كانت الأحزاب المصرية إلى يوم تشكيل حزب الأمة تقوم على فكرة الدعوة لعمل واحد معين، فالحزب الوطني أيام عربي باشا كانت مطالبه محصورة في الدستور وفي التسوية بين المصريين والأتراك من رجال الجيش، والأحزاب والهيئات التي جاءت بعد ذلك كانت تطلب مطلبًا واحدًا كجلاء إنجلترا عن مصر أو ما هو من ذلك بسيط، أما حزب الأمة فكان أول الأحزاب التي وضع لها برنامجاً مفصلاً يتناول مرافق البلاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية جميعاً، وعلى نهجه سلكت الأحزاب الأخرى بعد ذلك.

ولقد تألف حزب الأمة على هذه الصورة في آخريات سنة ١٩٠٧ وبسبقه الجريدة التي كانت بعد ذلك لسان حاله بشهور، وكان رئيس شركة الجريدة ورئيس حزب الأمة هو المغفور له محمود باشا سليمان، فلما حدثت بعد ذلك بسنوات أسباب للخلاف بين المسلمين والأقباط وكان من أثرها أن عقد الأخيرون مؤتمر أسيوط يتهمون فيه حكومات ذلك العصر بأنها تُنْهِي الأقباط عن مناصب الحكم ولا تعطيهم حظهم الكامل منها، وكانت هذه الحركة خطيرة النتائج، كان محمود سليمان باشا من الذين تقدموا للقضاء عليها وإعادة الألفة بين العنصرين؛ ولذلك تألف المؤتمر المصري بهليوبوليis واختار رياض باشا رئيساً له ومحمد سليمان باشا وكيلًا له، وفند مزاعم الأقباط يومئذ وأظهر الناس على أن لهم من مناصب الحكم أكثر من نسبتهم العددية بكثير، ودعاهم إلى أن يكونوا في وحدة الأمة صفاً.

وجاءت الحرب الكبرى وكان محمود باشا قد جاوز الثمانين وحق له أن يستريح من عناء العمل وأن يخلص كل نفسه الله في انتظار لقائه إياه، والحق أن صفحات الجهاد التي كانت له في ماضيه وما قام به كأب من حسن العناية وجميل البر بأبنائه كان كافياً وفوق الكفاية ليكتب لهذا الرجل صحفة مجد باقية، وصحت عزيمته على الاعتزال والانقطاع الله حتى لقد خرج من ماله لأبنائه في سنة ١٩١٦ واعتمز عيش الزهادة والنسك وتمام الانقطاع الله، وما أجمل هذه الشيخوخة الطاهرة المتزهدة عن شوائب الهوى، والتي قامت فيما سبق لها من سني الحياة بما يطلب إلى الرجل من جد وبر وتقوى، تقضى في حساب النفس والقربي إلى الله ورجاء مغفرته وثوابه، ما أجمل الشيخ يصل إلى قمة الحكمة بعد أن يطوف من الحياة بشهواتها وأهوائها ومطامعها وممالها ومجدها فدعوه الحكمة إلى أن ينظر إلى الأهواء والمطامع والشهوات جميعاً نظرة إصغر أن كانت لا بقاء لها ولا مatum للنفس بها، وإنما المatum بإمعان النظر في الكون واستكناه ما فيه من خير وحق وجمال.

على أن الأقدار كانت قد احتفظت لمصر بصفحة أخرى من صفحات المجد يخطها محمود سليمان باشا، ليكُنْ لشيخوخته عليه حق، ولتكن خير خاتمة المرء أياماً تُقضى في العبادة والتقوى، ول يكن محمود سليمان قد خرج من دنياه تاركاً إياها إلى أولاده وانقطع لنفسه ولربه، ليكن ذلك كله فإن للوطن مع ذلك عليه حَقّاً، وهو لم ينسَ يوماً حق الوطن عليه؛ لذلك ما كادت الحرب العامة تضع أوزارها، ثم ما كادت الحركة الوطنية المصرية تبدأ، حتى إذا هذا الشيخ خرج مرة أخرى من عزلته وجاء ينضم إلى صفوف المجاهدين لإعلاء شأن الوطن ورفع مناره ورفع تقديس كلّمة، ولئن كان قد نَيَّفَ على الثمانين فلن تزيده سِنُّه ولن يزيده مجده ومقامه وعظمته إلا حرضاً على الوقوف في الصف الأول من صفوف المجاهدين، وأن يكون في مقدمة من يتعرض لما يصاد به من يتعرض للدفاع عن عظمة هذا الوطن واستقلاله، وكان منظراً يبهر النفس ما فيه من مهابة وإجلال، فقد جلس محمود باشا في رئاسة لجنة الوفد المركزية يوم كانت البلاد تتضطرب أحشاؤها من أقصاها إلى أقصاها ويومن كانت الأحكام العرفية باللغة قسوتها أعظم مبلغ، جلس في رئاسة لجنة الوفد المركزية وجعل من داره كعبة قصاد خدمة الوطن وأقسم لا يتزحزح إلا أن تزحزحه القوة، وأرادت القوة يوماً أن تبتلي ثباته وعزمها فأصدرت له الأمر أن يبرح القاهرة، فإذا به لا يبرحها حتى ذهبوا إلى ذهبيته وأبعدوها عن ميدان العمل السياسي على كره منه، ولقد كان في ذلك - كما كان في غيره - سباقاً

إلى مثل التضحية والمكانة العالية، وكان في هذا مثلاً عالياً من النزاهة والتضحية لخير الوطن.

ولما آن للبلاد أن ينقسم بعضها على بعض وأن تقوم بين أهلها الفتنة، اعتزل الميدان نهائياً وإن لم ينس قد يم صلاته بأصدقائه سواء منهم من كان في فريقه السياسي أو من كان في فريق مخاصم له، وعلى اشتداد الخصومة في وقت من الأوقات بين الأحرار الدستوريين وسعد زغلول باشا فإن محمود باشا سليمان كان أسبق من أرسل إلى سعد باشا على أثر عودته من جبل طارق يهنهئ بسلامة مقدمه، وكذلك كان في هذه كما كان في غيرها عظيماً سامياً فوق شهوات الساعة، كبيراً عن أن يتأثر بالأهواء الطارئة.

ومن يوم اختلفت الأحزاب في مصر عرف هو على ما كان قد اعترض منذ سنوات من الانقطاع لله ولعبادته، وظل كذلك حتى ارتضاه الله إلى جواره يوم الثلاثاء ٢٢ يناير سنة ١٩٢٩، ارتضاه إلى جواره فخلف هذه الدنيا في أناة وتؤدة وحكمة كما عاش فيها في أناة وتأدة وحكمة.

هوا مش

(١) كتبت هذه الرسالة لمناسبة وفاته في ٢٢ يناير سنة ١٩٢٩.

عبد الخالق ثروت باشا



ما أحسب فجيعة من الفجائع التي مُنيت بها الأمم كانت أشد وقعاً على النفوس من فجيعة مصر في المغفور له عبد الخالق ثروت باشا، وما أحسب رجلاً وجل خصومه كما وجل أصدقاؤه لفقدده، كما اشتراك أصدقاء هذا الفقيد العظيم وخصومه في وجدهم لرحلته رحلة الأبد، ثم ما أحسب العقل والعاطفة والحواس جميعاً اهتزت بالحسرة وبالأسى اهتزازها لهذا الحادث الذي رجَّ نفوس الناس رجًّا بل دكها دكًّا، ولن أنسى ما حبيت تلك اللحظة الأسيفة التي عرفت فيها الخبر إثر الوفاة بسوييعات حين دخلت إلى صالون السيدة المحترمة هدى هانم شعراوي بباريس، فألفيتها وألفيتها الأستاذ الكبير هلباوي بك وألفيتها زائريهما وكلهم باكون العين والرؤاد، وكلهم في شبه ذهول لما أصاب مصر في مصرع هذا الرجل الذي كانت تعتبره مصر كلها ملادها إذا حزب الخطب وضلت

بساسة مصر وساستة إنجلترا السبل، ثم لن أنسى ما حبّيت إسراع المصريين وأصدقاء مصر الأجانب إلى سكنه في باريس بشارع أناتيل دلافرج Anatole de la Forge وليس منهم من يقف فزعاً لوفاة رجل كان له بعد في الحياة سعة، بل كلهم أشد فزعاً لمصر وما أصابها بفقد هذا الربان الذي اختاره القدر ليسيّر بدفة سفينتها حين الزعزع الهوجاء فينقذها من أدق المواقف، لن أنسى هذا، ولن أنسى صاحب الدولة عدي باشا يكن في منزله الفقير وفي مشهد جنازته بباريس وهو يتتسائل عن الوفاة وكيف كانت في جزء دونه جزء الأخ لفقد أعزّ أخ له عليه، وهو يحاول حبس عبرته فتخونه كما تخون جميع الذين شهدوا صندوق جثمان الفقير ينقل من عربة الجنازة إلى عربة السكة الحديدية، وكيف ينسى إنسان هذا وما أحاط بالفاجعة وكل إنسان من هذه الفاجعة الأليمة نصيب لأنها فاجعة مصر وفاجعة السلام؟!

ويأتي القدر إلا أن يحيط هذه الفاجعة بما يزيدوها هولاً، إذ يختطف الرجل في بلاد نائية عن وطنه ويختطفه على عجل، كأن للقدر عند مصر ثأراً لا تهدأ ثائرته إلا إذا أشعّرها أمّا موجعاً ينقض الضلوع بعضها على بعض؛ فلقد كان ثروت في صحته حين جاء إلى باريس من سان مورتزي يوم الاثنين السابع عشر من شهر سبتمبر سنة ١٩٢٨، أي قبل وفاته بخمسة أيام، فلما كان يوم الجمعة الحادي والعشرين من سبتمبر خرج في الصباح كعادته وعاد بعد الظهر بقليل يشكو أمّا في الكتف وفي الظهر، واستدعي طبيب الحي ففحص الحالة ورأى أنها بسيطة لا تزيد على روماتزم يزول في زمن قصير، لكن الآلام تزايدت في أثناء الليل، فلما جاء محمد علي دولار بك في الصباح ليعود صديقه رأى معه ضرورة استدعاء أستاذ أخصائي أجباهم أنه سيكون هناك في الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر؛ لأنه لا يستطيع ترك المستشفى الذي يعمل فيه قبل هذا الموعد، وحضر الأستاذ الطبيب في الموعد، فلما فحص المريض في سريره وخرج إلى قاعة الاستقبال خرج دولار بك في أثره يسأله رأيه، وكان رأياً مروعاً، فالباشا اعتبرته ذبحة صدرية إن استطاع احتمالها ساعتين كان في نجاة حياته شيء من الأمل، لكن الطبيب في شك من استطاعة احتماله إليها وهو ما كاد يغادر غرفة الاستقبال إلى سلم الدار حتى إذا ثرّوت باشا قد شعر بالتنفس يضيق ثم يضيق، فيؤله ذلك ويوجعه، ولكن تخفّف من هذا الألم رفعت السيدة المحترمة زوجته إياه إلى صدرها، ثم لم تك إلا لحظة حتى شعر الباشا بشيء أطلقه في دهشة وعجب بلفظ «الله» وكانت هي آخر كلمة قالها، فإن شرياناً متصلًا بالقلب انفجر في هذه اللحظة أشعره الخطر حين لم يك إلى دفع

الخطر سبيل ولا إلى اتقاء الكارثة التي تفجر لها فؤاد مصر وسيلة، ونودي بالطبيب فعاد فإذا به أمام جلال الموت وكان من برهة أمام رجل ألبسته الحياة وألبسها كل حل الجلال.

وكأنما أراد القدر إذ كتب لوح أجل ثروت في باريس بعيداً عن بلاده وكتب على زوجه أن تكون في هذه الساعة العصبية إلى جانبه، وأن يحيط الفجيعة المفزعية بما يخفف من هول وقوعها، فجمع بباريس في هذه الفترة جماعة من أخصاء ثروت وأصدقائه ومحبيه وعارفي فضله في خدمة بلاده، جمعهم ليكونوا إلى جانب جثمانه وليحاولوا عزاء زوجته وولده مصطفى المقيمين معه، وقام المصريون المقيمون في باريس وطائفة كبيرة من الفرنسيين وغير الفرنسيين في اليومين اللذين انقضيا بين الوفاة وتشييع الرفات في سفرها ل تستقر في ثرى الوطن بكل ما يجب لثروت من إكرام وإجلال.

وفي هذين اليومين اللذين انقضيا بين الوفاة والتشييع إلى ثرى الوطن كنت تسمع من المصريين جميعاً عبارة ملكت عليهم ألبابهم: من ذا يحل عقد المشاكل إذا انعقدت بعد ثروت؟! كنت تسمع هذه العبارة تصدر منهم جميعاً على اختلاف نحالم وأحزابهم، أولم يكن هو دائمًا المؤئل الذي يلجمأ إليه المصريون مهما علت أقدارهم، والذي يلجمأ إليه الإنجليز حين يحزب الأمر ولا يكاد إنسان من الناس يرى له من طريق السلام فرجاً ولا حلاً؟! لذلك كان الكل ينظرون إليه كأنه الربان الذي ينقذ السفينة كما ارتبطت على الصخر وخيف عليها أن تتحطم، فطبعي أن يتساءل الكل عنمن يحل عقد المشاكل إذا تعقدت بعد موته.

ولعل أحداً لم يذكر في وفاة ثروت مصاب زوجه وأبنائه فيه؛ لأن الناس نسوا في هذه الوفاة كل مصاب غير مصاب الوطن، مع هذا فمصاب بنى ثروت ومصاب أصدقائه فيه كأب وكصديق فادح فاجع كمصاب الوطن سواء بسواء؛ فلقد كان أباً أباً بأبنائه وأوّل صديق لأصدقائه، بل إن الذين عرفوه أباً ليذكرونكم كان بره عظيمًا وكم كان حنانه أعظم من بره، وكم كان صديقاً لأبنائه بمقدار ما كان أباً لهم، وكم كان يجد في صداقتهم له ما يزيد في عواطف الأبوة والبنوة سمواً ورقه، وإن الذين عرفوه صديقاً ليعرفون له من الوفاء لهم ما قل أن يكون له في صديق مثل، ثم هو إلى جانب ذلك كان حصافة الرأي ونبيل الشمائـل والشهامة والذكاء صورت كلها رجلاً.

ولد محمد عبد الخالق ثروت سنة ١٨٧٣ وفي بيت جاه ونعمـة، كان أبوه المغفور له إسماعيل عبد الخالق باشا ابن المرحوم عبد الخالق أفندي من أصل أناضولي، وكان من

كبار الحكم في عهد محمد علي الكبير، وكانت أمه من بيت تركي هي الأخرى، وقد أرسل به أبوه إلى مدرسة عابدين وهو في الثامنة من عمره، ثم تابع دراسته في مدرسة التورمال حتى إذا نال شهادة الدراسة الثانوية التحق بمدرسة الحقوق ثم كان أول الناجحين في إجازة الليسانس سنة ١٨٩٣.

وكان ثروت الطالب — على ما ذكر الأستاذ لطفي بك السيد زمليه في مدرسة الحقوق — شاباً حسن الطلعة، تعلوه سيماء الجد في غير عبوس، مترفعاً في غير كبر، سهل الأخلاق دون فناء في الأغيار، وكان في ألمه وفرحه معتدلاً محتفظاً في كل حال بكرامته، نافذ الرأي في بيته، ودوداً من غير إلحاح، ومتحفظاً من غير انقباض، محظوظ العشرة في رقته، وكان في جاذبيته وحلوته حديثه متفوقاً كما كان في ذكائه واجتهاده، نعم، فقد كان ذكيّاً حاد الذكاء مواتي البديهة كثير الاشتغال — فوق درس الحقوق — بمناهي الثقافة يلتمسها في الآداب الفرنسية والعربية، وأكثر ميله في هذا الباب إلى التاريخ على العموم والتراجم على الشخصوص، ميل كبر معه حتى صار في السنين الأخيرة من حياته نوعاً من الشغف، وكان لشغفه هذا مظهر عرفة عنه كل أصحابه وعرفه عنه باعة الكتب في مصر وفي باريس بنوع خاص، فقد كان كثير التردد عليهم والبحث في مخازنهم عن كتب قديمة نفت طبعاتها، وكان لا يأبه أن ينفق في هذا البحث أياماً متتالية حتى يقع على طلبتها، فإذا وقع عليها أمعن فيها بحثاً وتقليلياً حتى يقف منها على غاية البحث الذي يدور بخاطره.

ولما نال إجازة الحقوق التحق موظفاً بوزارة الحقانية سكرتيراً للمستشار القضائي بها، وكان المستشار القضائي يومئذ جون سكوت من أحسن من عرفت الحكومة المصرية مقدرة ونزاهة، وسرعان ما قدر مواهب ثروت حتى اختصه بكل ثقته وحتى وضع في يده كل نفوذه، ونفوذ المستشار الإنجليزي يومئذ كان أقوى من نفوذ الوزير المصري، بل كان نفوذ أي موظف إنجليزي أقوى من نفوذ أكبر كبير من ولاة الحكم في مصر؛ لذلك كان ما استولى عليه ثروت من نفوذ ومن ثقة بحيث طوع له أن يقوم في وزارة الحقانية مقام صاحب الأمر والنهي فيها وما يزال شاباً لم يبلغ الخامسة والعشرين من سن، وعاونت هذه الحرية في السلطة ما وهب من مقدرة وذكاء، فلم يلبث إلا قليلاً حتى تقدم في وظائف القضاء وحتى عين مستشاراً بمحكمة الاستئناف ثم نقل مديرًا لأسيوط ثم عاد إلى الحقانية نائباً عاماً واختير وزيراً لها في سنة ١٩١٤.

على أنه لم يقصر نشاطه في هذه الفترة من حياته على المناصب التي تولاها والتي أسرع به الزمن فيها إلى حد لم يعرفه غيره، ثم كان بثقافته وذكائه واقتداره مثلًا

عالياً للموظف الكفاء القدير، بل لقد أسلس من نشاطه على أعمال عامة لا اتصال لها بالحكومة، بل كانت الحكومة تنظر إليها في كثير من الأحيان بشيء من الريبة والحذر، انتخب عضواً في إدارة الجمعية الخيرية الإسلامية، وعضواً في إدارة الجامعة المصرية، وكان يومئذ ما يزال يشغل منصب النائب العام، وكانت له في الجامعة وفي الجمعية سلطة نافذة وإرادة قوية، ثم كان لنفوذه بعد أن علا في العالم السياسي نجمه ما زاد الهيئتين قوة واقتداراً على القيام بالأعمال الجليلة في البر وفي الثقافة مما أنشئت من أجله.

وقد ظل اقتداره وظل نفوذه معروفاً في الدوائر الخاصة بالقضاء وعند المسؤولين عن شؤون مصر العامة، حتى عين في منصب النائب العام، وكان المسؤولون وكانت دائرة القضاء تقدر فيه إلى جانب فضله حرصه على تنشئة من يتوصّم فيهم الكفاية والمقدرة من الشبان وممّن يطمع في أن يقوموا ببلادهم بمثل الدور الذي قام به هو بلاده، فلما كان صاحب الدعوى العمومية أتاحت له حادث خطير أن يتصل بالجمهور اتصالاً مباشراً، فقد اعتدى إبراهيم ناصف الورداوي على حياة المرحوم بطرس باشا غالى في سنة ١٩١٠ بأن أطلق عليه الرصاص ساعة خروجه مع ثروت باشا النائب العام من وزارة الحقانية وتولى ثروت بنفسه تحقيق هذا الاعتداء والمرافعة في الدعوى، هنالك اطلع الجمهور منه على اقتدار خاص، وهنالك بدأ الجانب السياسي من حياة الرجل تظهر نواته وتکاد تتحدد سياسته، فالعبارة التي نقلها من تلك المرافعة تلخص إلى حد كبير ما جرى عليه ثروت كوزير وكرجل سياسي بقية حياته، قال:

نحن أول من يجل الاشتغال بالمسائل العامة ويرى أن السعي بالطرق المشروعة فيما ترقى به البلاد وأهلها من فروض العين على المصري، وأن كل مصري مطالب بتضحية شيء من وقته وماليه وهمته في خدمة بلاده، نحن أول من يرحب بتنمية الوطنية ورياضة النفوس على احتمال أشق المشقات في إلاء اسم مصر وزيادة شرفها ورفعتها، كذلك نرى أن من مricsيات الأمم الدارجة في رقيها النظر في أعمال القابضين على أزمة الأمور فيها ونقدتها، ولكننا لا نسلم بحال من الأحوال أن يتطلع إلى مقام ناقد الحكم إلا رجل جمع إلى العلم الغزير والحكمة البالغة الاتزان في القول والفعل حتى يقدر الأعمال قدرها وينظر في الأمور بفكر صحيح، فلا يتعدى حد المشروعية وإنقلبت الخدمة وبالاً وإرادة الخير شرعاً.

هذه العبارة من مرافعة ثروت تنم من حياته السياسية المستقبلة عن جانبيه: الأول تقديره السعي لتقديم البلاد واستقلالها على أنه فرض من فروض العين على كل مصرى، والثانى أن يكون ذلك السعي بالطرق المشروعة لا بالفوضى ولا بالاعتداء، ولئن كان هذا التعبير — بالطرق المشروعة — هو الذى اتخذته مصر من بعد شعراً لها في المطالبة بحقوق كان ثروت بطل تحقيق النصيب الأولى منها؛ فإن هذا التعبير بالذات قد جعل ثروت كنائس عام يقف من كثرة شباب مصر يومئذ موقف الريبة، فالشباب — وإن قدر بعقله ما للحق في ذاته من قوة تتغلب على كل قوة سواها — متوجل ي يريد أن يرى الحق في قبضة يده أو هو يصفق وإن في أطواء قلبه لم يعتد على من يحسبه الحال دون هذا الحق؛ لذلك كان الوردايى موضع عطف الكثرين من الشباب وإن لم يكن موضع عطف الذين يقدرون الأشياء بنتائجها من المسئولين، ولذلك كان ثروت بمعرفته موضع إعجاب المسئولين وتقديرهم وموضع حنق الشباب عليه مع إعجابهم بمقدرتة كالمسئولين سواء بسواء.

ولم يحرك حنق الجمهور ولا متابعته الشباب في غضبة أي عصب من أعصاب ثروت؛ ذلك بأن جانباً ثالثاً من جوانب حياته السياسية كان الاعتداد برأيه هو وبعقيدته لا برأي الجمهور وعقيدته فيه، فهو ما اطمأن ضميره ورضيت نفسه مقدم على عمله غير عابئ برأى الناس في إقدامه، وهو مقدم في جرأة عجيبة لا يسهل تصديقها إلا على الذين عرفوا قدر دماثة الخلق ووداعة الطبع وحب الخير والميل العظيم إلى البر والرحمة. وحرك الحكم بالإعدام على قاتل بطرس غالى النفوس بشيء من مثل ما تحركت له على أثر الحكم في قضية دنشواى، وكان بطرس رئيساً لمحكمة المخصوصة، تحركت النفوس ذاكراً دنشواى واتفاقية السودان، ملتهبةً غيره بما سمعت في الدعوى من مرافعات الدفاع عن الوردايى مرافعات حارة تفيض تقديرًا لوطنيته التي دفعته إلى جريمة ارتكبها مدفوعاً بعوامل لا قبل له بمقاومتها، والحق أن هذا الحادث الذي عقب حكم دنشواى في سنة ١٩٠٦ ثم صدور العفو عن المحكوم عليهم من الدنشواينيين في سنة ١٩٠٨ ثم وفاة مصطفى كامل، الذي جاهد حتى استصدر العفو، بعد صدوره بشهر واحد — نقول إن هذا الحادث حرك النفوس في مصر إلى المزيد من السعي في المطالبة بحرية كان الشعور ما يفتأً متزايداً بأن الاحتلال الإنجليزى القاپض على أزمة الأمور في مصر يحاول القضاء عليها قضاء أخيراً، وكان من أثر هذا الشعور الذي ازداد التهاباً حين أحس بتخلّي أوروبا عنه بالاتفاق الودي الذي عقد بين فرنسا وإنجلترا في سنة

١٩٠٤ وبعجز الباب العالي الذي انهزم أمام إنجلترا في حادث طابه في سنة ١٩٠٦، أن بدأت في البلاد حركة اعتماد على النفس وتقدير لما يجب من جهود المصريين لوطنهما بما جعل الحكومة المصرية التي تقوم لتسير الحكومة الفعلية – حكومة المستشارين الإنجليز – تحس بغضاضة على نفسها وخرج في مركبها، وكان ذلك شأن حكومة محمد سعيد باشا التي تولت مناصبها بعد وفاة بطرس، على أنها حرصت على أن تظهر في مظاهر الحكومة الوطنية فيما كان يقع من مناقشات في مجلس الشورى، ثم ظهرت كذلك في مظاهر الحكومة الوطنية حين استصدرت – بموافقة إنجلترا وعميدها في مصر لورد كتشنر الذي خلف سيرالدون غورست بعد وفاته – قانوناً جديداً لنظام الحكومة المصرية، هو قانون الجمعية التشريعية.

وتمت الانتخابات لهذه الجمعية في أواخر سنة ١٩١٣، وبدأت عقد جلساتها منذ أوائل سنة ١٩١٤ بعدها انتخب فيها من أقوىاء الحجة في مصر وذوي المكانة منها ما جعل الحكومة لا تستطيع متابعة طول مناقشة الجمعية إياها، فاستقالت وإن لم يكن من ثم نص في القانون النظمي بمسئوليتها أمام هذه الهيئة النيابية، وشكل حسين رشدي باشا الوزارة الجديدة واختار ثروت باشا وزيراً للحقانية فيها.

على أن الحرب العظمى لم تلبث أن أعلنت في أغسطس سنة ١٩١٤ فلم يكن بد من إرجاء عقد جلسات الجمعية التشريعية حتى انتهائهما، ويدرك الذين عاشوا هذا الظرف الدقيق من حياة مصر والحكومة المصرية كم كان مركز مصر حرجاً، وكم كان مركز الحكومة المصرية أشد حرجاً، فمصر كانت ولاية عثمانية ممتازة تدين بالولاء لتركيا، وخديو مصر عباس حلمي الثاني كان غالباً عن مصر مقيماً بالأستانة متهمًا في نظر الإنجليز بالتأمر مع تركيا ومع ألمانيا على إنجلترا وعلى الحلفاء، ورشدي باشا رئيس الحكومة والقائم مقام الخديو مدين هو وحكومته لتركيا وللخديو بالإخلاص والولاء، وإنجلترا صاحبة اليد العليا في مصر والجيوش الجرار على أرضها تملك بكلمة أن تضمها إلى أملاكها من غير أن يستطيع الخديو أو تستطيع تركيا دفاعاً عنها، وهيئات إذا ضمت مصر إلى أملاك إنجلترا أول الحرب أن يكون أمل في أن تخرج من هذا المركز بعد الحرب إذا انتهت هذه الحرب بانتصار إنجلترا وحلفائها، أو أن يكون أمل حتى في مركزها كولاية عثمانية ممتازة إذا انتهت الحرب بانكسار إنجلترا وانتصار الألمان عليها، فما عسى تصنع حكومة حسين رشدي في هذا المركز الدقيق؟!

وزاد مركز تلك الحكومة دقة وحرجاً أن الشعور العام في مصر كان ميلاً إلى جانب ألمانيا آمالاً في فوزها طاماً في أن تحرر من نير إنجلترا، وكأنما تجدت يومئذ في نفوس

المصريين الذين كانوا يعتمدون من قبل على فرنسا لتجلي لهم جنود إنجلترا عن أرضهم — آمال في الاعتماد على ألمانيا لتحقيق لهم هذه الغاية، وكان هؤلاء المصريون المولون لألمانيا بعواطفهم يدورون في الأندية والأماكن العامة وفي قطارات السكة الحديد وببيتهم خرائط الحرب مؤشراً عليها بموقع القتال وبما كسب الألمان واندحر الحلفاء، ودعاهية كهذه من شأنها أن تعد البلاد للثورة إذا لم تكن حكومتها مستعدة لقمع كل حركة من الحركات الطائشة فيها، لكن هذا الاستعداد من جانب حكومة رشدي باشا لم يكن له تأويل إلا الدفع بمصر إلى أحضان إنجلترا والخروج بذلك على ما كان معروفاً يومئذٍ من ميل تركيا ميلاً انتهت بخوضها غمار الحرب إلى جانب ألمانيا، فوافت تلك الحكومة محاولة أن تصل إلى خير الوعود من إنجلترا بالنسبة لمصر يوم تنتهي الحرب لصالحة الحلفاء، عاملة على أن يصيب مصر أقل ضير ممكן من جراء الحرب، نافضة يدها بعد ذلك من شئون الدفاع عن مصر بعدما أعلنت إنجلترا الأحكام العرفية فيها وأخذت هذه المهمة على عاتقها، منتظرة تطور الحوادث وما يمكن أن يجيء القدر به.

وأعلنت تركيا الحرب منضمة إلى ألمانيا، فألفت إنجلترا الفرصة سانحة لتغيير موقف مصر السياسي، وقد دار بخاطر أولي الأمر في لندن — على ما ذكر لورد جراري وزير الخارجية الإنجليزية في ذلك الحين — أن يعلنوا ضد مصر إلى أملاك التاج، لكن اعترافات قامت في هذا الصدد: أولوها وأتواها أن الحلفاء الذين تحارب إنجلترا وإياهم كتفاً لكتف يؤمنون هذا التصرف من جانبها بأنها أرادت أن تقرر لنفسها غنائم الحرب قبل أن تضع الحرب أوزارها وقبل أن تتفق وإياهم على شيء في هذا الصدد، ثم إن إعلان الضم ربما كان من شأنه أن يهيج الشعور في مصر إلى حد ربما كانت عواقبه غير مأمونة، على ذلك فكرت حكومة لندن في إعلان الحماية على مصر، وانتهت — بعد شيء من التردد — إلى اختيار السلطان حسين كامل سلطاناً في القاهرة بدل ابن أخيه عباس الذي قررت إنجلترا أنه انضم انضماماً ظاهراً إلى أعدائها، فلا يمكن أن يعتلي عرشاً تحت حمايتها، ودارت محادثات طويلة في هذا الشأن بين الوكالة البريطانية والحكومة المصرية انتهت إلى قبول رشدي باشا وزملائه الأمر الواقع والبقاء في مناصبهم كوزراء تحت نظام الحماية آملين متى انتهت الحرب أن تجد إنجلترا في تصرفهم ما يجعلهم منها يمكنهم يستطيعون معه الوصول إلى خير نظام سياسي لبلاد ألق المقادير على عواتفهم أعباء مصيرها في ظرف دقيق لم يكونوا يتوقعونه، وظلت حكومة رشدي باشا — وفيها ثروت باشا وزيراً للحقانية — حتى وضعت الحرب أوزارها وأعلنت الهدنة في

١١ نوفمبر سنة ١٩١٨، قائمة بكل ما أخذت به نفسها من ولاء للحلفاء وحرص على مصالح مصر ورجاء في لا يسوء مركزها بسبب ظروف احتملوها ولم تكن لهم يد فيها. ولما كانت الشروط الأربعة عشر التي وضعها الرئيس ولسن رئيس جمهورية الولايات المتحدة معتبراً إياها أساساً للهدنة والصلح قد أعلنت قبل الهدنة بأشهر مشتملة على شرط يجعل للشعوب حق تقرير مصيرها، فقد انتهز جماعة من أعضاء حزب الأمة - نذكر من بينهم علي باشا شعراوي، ولطفي بك السيد، ومحمد باشا محمود، وعبد العزيز باشا فهمي - هذه الفرصة، ففكروا في تكوين هيئة تطالب مصر بحقها في تقرير مصيرها، وأفضى هؤلاء بفكرتهم إلى حكومة رشدي باشا فوجدوا منها ارتياحاً لها، ففاتحوا سعد زغلول باشا على أن يكون رئيساً لهيئتهم باعتباره وكيل الجمعية التشريعية المنتخب كما فاتحوا عبد اللطيف المكتابي بك ومحمد علي باشا من أعضاء الحزب الوطني، وعلى ذلك تألفت هيئة أطلقت على نفسها اسم الوفد المصري، ووضعت صيغة توكيلاً من الأمة لها بالسعى لاستقلال مصر أينما وجدت إليه سبيلاً، ووزعت هذه التوكيلات في طول مصر وعرضها بعلم حكومة رشدي باشا، وكان من رأي السير رجنالد ونجت مندوب إنجلترا السامي في مصر يومئذ أن يترك لهذا الوفد حرية السفر إلى إنجلترا أو إلى حيث شاء من ممالك أوروبا، وأن يسافر حسين رشدي باشا وعدلي يكن باشا ليعبر في لندن عن مطالب المصريين، ولو أن نصيحة السير ونجت يومئذ لتغيّر على الأغلب وجه المسألة المصرية ولسارت في طريق غير التي سارت فيها بسبب رفض إنجلترا للوفد وللوزيرين المصريين بالسفر.

ورفضت حكومة لندن سفر أحد من الوزراء المصريين وسفر رجال الوفد إلى إنجلترا أو إلى مؤتمر السلام، ولم تنجح محاولات الحكومة المصرية والمندوب السامي البريطاني في تحويل الحكومة الإنجليزية عن رأيها، هنالك استقال رشدي باشا وعدلي يكن باشا واستقالت وزارتهما في ٦ فبراير سنة ١٩١٩، ولقد خيل إلى المراجع العليا يومئذ أنهم واجدون في ثروت باشا - وله من الكفاية والمقدرة ما له - الرجل الذي يستطيع التغلب على الموقف بإقناع رجال الوفد كي يعدلوا عن خطتهم، كما خيل إليهم أن ثروت باشا لن يرفض رئاسة الوزارة حين تعرض عليه، وما يزال يومئذ في الخامسة والأربعين من عمره، لكن تقديرهم أخطأ، فقد كان ثروت باشا مشتركاً بقلبه وبعقله مع الحركة الوطنية ومع زميليه عدلي ورشدي، ثم هو كان يقدر التبعية الكبرى التي احتملها مع زميليه بقبول البقاء في الوزارة بعد إعلان إنجلترا حمايتها على مصر، فإذا كانت المقادير

قد أتاحت النصر لإنجلترا، وكانت مصر — والحكومة المصرية بنوع خاص — عاملًا من عوامل هذا النصر اعترف به الفيكونت مارشاللنبي قائد جيوش الحلفاء في الشرق، فإن من خطط الرأي وسوء التدبير الذي لا يليق بسياسي حنكته تجارب الحرب ما حنكت ثروت باشا أن يرضي العاجلة من رئاسة الوزارة بدليلاً لما كان يرى حقاً لأمته أن تبلغه من نظام يتافق مع مكانتها ويعادل بعض الجهد التي بذلتها أثناء الحرب الكبرى، وإذا كانت بعض دول أوروبا التي خاضت غمار الحرب إلى جانب الحلفاء قد حصلت على عوائد بالتوسيع وضمان الاستقلال، وإذا كانت بلاد العرب قد اعتبر لها استقلالها، فلن يكون ثروت هو الذي يقبل وزارة يعتبر قبولها حيلولة دون مصر وما تطعم فيه من استقلال وعزّة مكان بين دول العالم.

ورفض أن يشكل الوزارة في هذا الظرف الدقيق مقدراً أن سيحسب عليه رفضه عند ذوي الكلمة والمراجع العليا في مصر، بل لقد أبلغ يومئذ أن رفضه هذا يحول بينه وبين الوزارة بقية حياته، فلم يعبأ بما أبلغ إليه وأصر على الوقوف إلى جانب أمته إصراراً دعا الوفد — وعلى رأسه سعد زغلول باشا — كي يسعى بكلام هيئتته إلى دار ثروت باشا مقدمًا إلى التهنئة على إباءه الوطني وأيات الشكر على تضامنه مع الوفد في حركته القومية، وكانت كلمات سعد باشا له أن تضامنه مع الحركة القومية العامة يكسب الوفد قوة والبلاد أملًا في النجاح، وترتب على هذه الزيارة لبيت ثروت باشا أن أندرت السلطة العسكرية الوفد بأنهم بحركاتهم يعرقلون سير الحكومة، على أن هذا الإنذار لم يزد على أن ثبت ثروت باشا في إصراره على رفض تشكيل الوزارة وعلى وضع حجر الأساس برفضه هذا لنجاح القضية القومية.

من ذلك التاريخ بدأ ثروت باشا نشاطه السياسي في السعي لاستقلال بلاده بالطرق المشروعة التي أشار إليها في مرافعته في قضية قاتل بطرس باشا غالى، ومن ذلك التاريخ أخلص لغايته كل نفسه وكل جهده وازدرى إلى جانبها كل ما يطمع فيه غيره، على أن ثقته المطلقة بنفسه كانت تدعوه إلى أن يتبع في سياساته خطة غير التي يتبعها كثيرون من الساسة غيره، فهو لم يكن يبدأ بأن يعلن للناس مطالبته مستعيناً في تحقيقها بالقوة أو بالواقعية أو بالمساومة، بل كان يحدد في نفسه غاياته ويعتمد قبل كل شيء على البحث المقتن بالحكمة والمنطق وحكم العقل، وقوته ومهاراته وصبره كانت تكفل له النجاح دائمًا في بلوغ ما يريد، وكان يكفل له هذا النجاح كذلك ما تعوده من الاضطلاع بال婷عات وحمل المسؤوليات منذ أول شبابه وحين كان سكرتيرًا لمستشار الحقانية الذي

ألقي بين يديه بواسع سلطته، بهذه القوى عنده استعان حين جاءت لجنة ملنر سنة ١٩٢٠ لتنظر في وضع نظام مصر تحت الحماية البريطانية فاشترك مع أصدقائه السياسيين — رشدي باشا وعلی باشا وإسماعيل صدقی باشا — في إقناع اللجنة بضرورة التفاهم مع هيئة الوفد المصري في أمر القضية المصرية، وكان ثروت باشا من بين زملائه هو الذي ينقل آراء اللجنة ووجهات نظرها إلى رجال الوفد بباريس كي يمهد لهم الوقوف على آرائها وخططها، حتى إذا اتصلوا بها كان اتصالهم مثمرًا، فلما انتهت اللجنة من محادثاتها مع الوفد وأعلن مشروع ملنر في صيف ١٩٢٠ ثم قدمت اللجنة تقريرها وأعلنت الحكومة البريطانية اعترافها بأن الحماية علاقة غير مرضية بين مصر وإنجلترا وطلبت إلى عظمة سلطان مصر إيفاد هيئة تتفاوض مع الحكومة البريطانية في استبدالها بعلاقة أوجب للرضا، شكل علی باشا وزارته الأولى في مارس سنة ١٩٢٠ وكان ثروت باشا وزير الداخلية فيها.

وعاد سعد زغلول باشا من باريس في أوائل أبريل ودارت محادثات بينه وبين الوزارة انتهت إلى اختلافه وإياها في طريقة تشكيل الوفد الذي يقوم بالتفاوضة وإعلانه الحرب عليها في خطبة ألقاها في ٢٨ أبريل بحى شبرا، ثم سافر علی باشا على رأس الوفد الرسمي الذي تألف بأمر عظمة السلطان ليقوم بالتفاوضة، واستصحب معه من أعضاء وزارته حسين رشدي باشا وإسماعيل صدقی باشا ومحمد شفيق باشا، كما استصحب غيرهم مفاوضين ومستشارين، وقام ثروت باشا في مصر رئيساً للوزارة بالنيابة، وكوزير للداخلية مسؤول عن حفظ الأمن والنظام اللذين كانوا مهددين بحركات أنصار سعد باشا زغلول لم يتردد في احتمال التبعات التي رأها واجبة في هذا الظرف، دالاً بذلك على جرأة وحزم لا يعرفان ترددًا ولا هوادة، وبرغم الجهود التي بذلها علی باشا والوفد الذي كان معه في سبيل إقناع الإنجليز بوجهة نظر مصر، وبرغم تناولهم كل مسألة من المسائل الخلافية بين الدولتين ابتعاد الوصول إلى حلها حلًا يقنعهما، فقد جنى الخلاف بين سعد باشا والحكومة على هذه المفاوضات فلم تؤت الثمرة التي كانت مرجوة منها؛ ولذلك قطع علی باشا المفاوضة بعد أن أعلن إليه لورد كرزون وزير الخارجية البريطانية مشروع حكومته، واستقال علی باشا على أثر وصوله، ونشرت السلطات البريطانية المشروع المذكور مرفقاً بمذكرة مهينة لمصر أشد الإهانة.

تخرج الموقف السياسي بين مصر وإنجلترا على أثر هذه الاستقالة، ثم زاده حرجاً أن قبضت السلطة العسكرية البريطانية على سعد زغلول باشا وخمسة من أنصاره وقررت

نفيهم عن مصر، هنالك عادت البلاد كلها كلمة واحدة تنادي بعدم التعاون مع إنجلترا وتدعى كل مصري ألا يقبل تأليف وزارة تضطلع بمسؤولية الأمر في مصر حتى تظل إنجلترا وأحكامها العرفية مسئولة مباشرة عن كل ما يقع فيها.

في هذا الظرف ظهرت مهارة ثروت باشا السياسية وظاهر اقتداره، إن المشروع الذي أعلنته إنجلترا ولم تقبله مصر يقضي باعتراف إنجلترا باستقلال مصر استقلالاً مقيداً في مسائل معينة، وهذه القيد هي التي لا ترضاهما مصر، فإذا أرجأنا النظر في هذه القيد إلى ظرف مقبل أكثر ملائمة من ظرف المفاوضات وما كان يشوبه من خلاف بين سعد باشا زغلول والحكومة المصرية وأعلنت إنجلترا من جانبها التخلي لمصر عمما ارتفت أن تتخلى عنه في أثناء مفاوضات عدلي باشا ووفده، كانت هذه خطوة جديدة من جانب إنجلترا تدل بها على حسن نيتها بإزاء مصر وتزيل الحرج الذي أدى إليه كتابها المرفق به المشروع، ثم لا تكون قد خسرت شيئاً لأنها إنما تتنزل عمما كانت معتمزة من قبل التنزل عنه، على أنه حين بدأ محادثاته مع معتمد إنجلترا للوصول إلى هذه الغاية لم يبدأها بطلب إلغاء الحماية والاعتراف باستقلال مصر؛ لما كان يعلم من أن هذا الطلب يلاقى من جانب حكومة لندن بالرفض، بل تقدم بطلبات لا يبدو أول الأمر أن لها بوجود الحماية البريطانية لمصر أو برفعها اتصالاً، ولم يكن بد أمام العقل من قبول إنجلترا هذه الطلبات، وبعد قبولها وتحديد المسائل التي تتعلق لمفاوضات حرة مستقبلة بين مصر وإنجلترا؛ وصل ثروت باشا من بحثه إلى نقطة تبين معها لمثل إنجلترا نفسه أنبقاء الحماية الإنجليزية مفروضة على مصر لم يبق له أية فائدة لإنجلترا نفسها، وحكم العقل يقضي بأن التشتبث بأمر لا فائدة من ورائه سخف لا يليق بذوي الفطنة السياسية، وقد بلغ من اقتناع لورد النبي معتمد إنجلترا واقتناع المستشارين الإنجليز في الوزارات المصرية برأي ثروت باشا أن هددوا جميعاً بالاستقالة إذا وقفت لندن فلم تجب مطالبهم، وعجبت حكومة لندن لهذا الموقف فاستدعت معتمدتها ومستشاريه فذهبوا إليها، ولم يكن إلا أيام حتى أقنعت حجج ثروت الحكومة الإنجليزية أيضاً، وعاد لورد النبي في يوم ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ فأعلن في مصر تصريحًا من جانب إنجلترا بأنها تعترف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة، وتنهي لذلك حمايتها عليها محتفظة لمفاوضات مستقبلة بمسائل أربع: الدفاع عن مصر، وحماية مواصلات الإمبراطورية، وحماية الأجانب والأقليات، ومسألة السودان، وعلى أثر ذلك أجاب ثروت باشا دعوة جلالة الملك فشكل وزارته الأول في أول مارس سنة ١٩٢٢.

على أن هذا العمل العظيم الذي قام به ثروت باشا من حمل إنجلترا على الاعتراف باستقلال مصر كان سبباً لأن تدبر ضد في الخفاء مؤامرة لاغتيال حياته، وقد دبر هذا الاغتيال قبل إعلان التصريح بيومين، على أن إدارة الأمن العام علمت بالمؤامرة وأحبطتها بأن أبلغت ثروت باشا الخبر وتفاصيله، وأن المؤتمرين يكمنون له عند كوبري الأعمى حتى إذا مر في (أوتوموبيله) ذاهباً إلى نادي محمد علي فتكوا به، وقد طلب ذلك اليوم إلى مقابلة عظمة السلطان في عابدين في الوقت الذي كانت المؤامرة فيه تزيد إتمام جريمتها، فدعا إليه صديقه وزميله في محادثات الإنجليز بشأن الاعتراف باستقلال مصر حضرة صاحب المعالي إسماعيل صدقي باشا وطلب إليه أن ينوب عنه في مقابلة جلالة الملك على أن يركب سيارة بالأجرة، وكذلك نجا ثروت وبقى على المتأمرين، ومن يدري ماذا كان يصيب مصر لو أن الجناية تمت على ما يشتته المدبرون؟!

وإعلان إنجلترا اعترافها بمصر دولة ذات سيادة بفضل مجهودات ثروت باشا السلمية ومقدرته على الاستفادة من الظروف بتقديره قوة بلاده ومطالب إنجلترا – هذا الإعلان رفع مقامه فجعله سياسياً فذاً في نظر العالم بأسره، وجعل أبناء أمته يتطلعون إليه معجبين به وبمهاراته، على أنهم انقسموا مرة أخرى، لا في تقديرهم المجهود لذاته، ولكن في الخطة السياسية، أو بالأحرى في الخطة الحزبية التي يسلكونها بإزاء التصريح بالاستقلال وبإزاء الرجل الذي فاز به، أما الطوائف الحكيمية التي تقدر الأشياء بقيمتها الحقيقة فأعتبرت التصريح خطوة جدية في سبيل استكمال الاستقلال وعاهدت ثروت باشا على مؤازرته في خطته، ووقفت طوائف أخرى حريصة من ناحية على لا يمس التصريح أذى، عاملة في نفس الوقت على مناؤة ثروت باشا وحكومته مناؤة دفعتهم للطعن على التصريح والانتقاد من قيمته، وقد كان من مظاهر هذا الموقف أن أمسك هؤلاء عن إبداء رأيهم في التصريح حين أعلن البرلمان الإنجليزي أنه يريد بحثه في جلسة حدد لها يوم ١٤ مارس سنة ١٩٢٢، وظلوا في وجل أي وجل لا تزال حكومة لويد جورج ثقة البرلمان بسبب إعلانها إيه، فلما فازت هذه الحكومة البريطانية بالثقة وأعلن جلالة ملك مصر استقلالها في ١٥ مارس واطمأن هؤلاء المتحفرون إلى أنه أصبح حُقاً لمصر لا ينazuها فيه أحد؛ بدعوا حملتهم عليه حملة منظمة غايتها الحملة على حكومة ثروت باشا، على أن ثروت لم يتردد في هذا الظرف لحظة، بل ظهر بكل ما يجب من قوة وحزم وبدأ ينفذ ما ينطوي عليه التصريح من حقوق مصر بإنشاء وزارة الخارجية التي كانت ألغيت منذ أعلنت الحماية البريطانية على مصر في ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤، وبإقالة

المستشارين البريطانيين من مختلف الوزارات عدا وزارتي الحقانية والمالية، وبتشكيل لجنة من خيرة رجال مصر لتضع للبلاد نظاماً دستورياً على أحد المبادئ العصرية، وبالضرب على يد الفوضى في كل صورها ومظاهرها، وإظهار الحكومة المصرية الأهلية بمظهر الاحترام الواجب لها.

وليوطد في النفوس الإيمان بحق مصر دعا في ٢٦ مارس سنة ١٩٢٢ — لمناسبة عيد ميلاد جلالة الملك — إلى حفلة كبيرة بفندق الكونتننتال حيث ألقى خطاباً يبين فيه مزايا العمل الجليل الذي قام به ويرسم فيه الخطة الواجب اتباعها لاستكمال الاستقلال، وقد يبدو عجيباً أن تكون الفكرة السائدة في هذا الخطاب هي بعينها الفكرة التي وردت في مرافعة عبد الخالق ثروت النائب العام في قضية الورданى، والتي أوردت نصها من قبل، فقد جاء في هذا الخطاب السياسي ما نصه:

لم يبق علينا إلا أن نقنع إنجلترا أن ليس بها حاجة إلى التمسك بالضمادات التي تريد الاحتفاظ بها فتخطو بريطانيا العظمى خطوة أخرى بالاكتفاء بما لا يتنافى منها مع استقلالنا الشرعي، وليس لدينا وسيلة لتأييد ما نذهب إليه أكثر من تعلقنا بأهداب السكينة والتزامنا المhood وأخذنا بأسباب النظام، فإن حجتهم الكبرى فيما يبدونه من رغبة في الضمادات هي شدة حذرهم على مصالحهم وخوفهم عليها وعدم اطمئنانهم إلى تركها لعهدهم، فإذا قضينا على عوامل الفتنة والاضطراب وجعلنا التزام السكينة رائداً فإنا ننثم هذا السلاح بأيديهم وندفع حجتهم علينا، ولا مشاحة في أن كل من يعمل على تعكير السلام أو إثارة الاضطراب مجرم في حق وطنه عامل على هدم كيانه.

ثم جاء فيه أيضاً:

إنني لا أكره المعارضة، بل إذا انعدمت هذه المعارضة فإنني أعمل على خلقها لما لها من نفع وفائدة في الوصول إلى الحقيقة وتمحيص كل أمر على أكمل وجه، ولكنني أريد المعارضة الشريفة التي تترفع عن الاعتبارات الشخصية ولا تنزل إلى اختلاق الأكاذيب، إنني أريد الخصومة الشريفة التي لا تنتظر إلا مصلحة الوطن وخير البلد وتدرس كل أمر لذاته مجردًا عن كل اعتبار شخصي.

وهذه الخطة التي رسمها ثروت باشا في خطاب يوم عيد ميلاد جلالة الملك هي التي كررها من بعد في خطب ألقاها في افتتاح لجنة الدستور ولوفود ذهبت إليه في شؤون سياسية مختلفة، ولقد كان لهذه الخطة الحكيمية أن تؤتي ثمرها كاملاً بفضل مهارة ثروت وحنكته وقوه منطقه لو أن مناؤاته لم تنتقل من الميدان الوطني الصحيح إلى ميادين أخرى، فبینا هو يعلم جاداً في تطبيق مزايا الاستقلال التي حصلت عليه مصر مقيداً بالتحفظات التي أشرنا إليها؛ وقعت على جماعة من البريطانيين – ضباطاً وجندواً ومدنيين – سلسلة اعتداءات شنيعة أودت بحياة ثمانية عشر منهم على التعاقب، على أن هذه الاعتداءات وحدها ما كانت لتجني على خطته لو لم يقترن بها ما جعل مركز وزارته حرجاً غاية الحرج بعد زمن وجيزة من بدء لجنة الدستور عملها، فقد عمدة هذه اللجنة إلى وضع مبادئ تتفق مع المبادئ العصرية التي كلفت بوضع الدستور المصري على أساسها، وشاركتها ثروت باشا الرأي في مبادئها، وفي رأي البعض أن مصر بلاد شرقية يجب أن تسود فيها وسائل السياسة الشرقية وخطتها؛ لذلك ألفى ثروت باشا نفسه في موقف لا يستطيع معه القيام بأعباء الحكم على الوجه الذي يرضاه ضميره. وبرغم المحاولات الكثيرة التي بذلها لتهيئة العواصف الكمينة في ثورتها حوله، فإنه شعر بدقة المركز فجعل يستعجل لجنة الدستور حتى وضعت مشروعه وتعجلت بعد ذلك في وضع مشروع لقانون الانتخاب، ورفعت اللجنة مشروعها إليه في جلسة تاريخية ألقى فيها كلمة ذكر في أثنائها أنه سيعمل على صدور الدستور كما وضع مشروعه، وكان ذلك في ١٨ أكتوبر سنة ١٩٢٢، ولما كان جماعة أصدقائه السياسيين يؤلفون في هذا الوقت حزب الأحرار الدستوريين؛ انتظر من معونتهم ما يكفل اقتداره على السير بسياسته خطوة أو خطوات أخرى، لكن الحزب ما كاد يتتألف في ٣٠ أكتوبر ثم ما كاد يمضي أسبوعاً على تأليفه حتى أطلق جماعة من الشبان الرصاص على باب دار جريدة «السياسة» فأصابوا حسن باشا عبد الرزاق وإسماعيل بك زهدي من أعضاء مجلس إدارتها، وأبدت الصحف المناوئة لهذا الحزب أن الرجلين ذهبا ضحية خطأ يؤسف عليه لأنهما لم يكونا مقصودين بالذات.

وكثرت الأقاويل حول المصادر الحقيقة التي تشجع هذه الجرائم، ورأى وزارة ثروت باشا بعد أن رفعت الدستور إلى جلالة الملك أنها خطت بالبلاد خطوات يمكن الوقوف عندها فترة ريثما تطمئن النفوس وتهدأ أسباب الجريمة، وعلى ذلك رفع ثروت باشا استقالته في يوم ٣٠ نوفمبر منها فيها بما أتمت وزارته وبما مهدت له من صدور الدستور وغير الدستور مما نص في تصريح ٢٨ فبراير على وجوب صدوره.

واعتكف ثروت منتظرًا ظرفاً خيراً من الظرف الذي كان فيه في الحكم ليعود إلى الميدان فيعمل لإتمام ما بدأه بتصريح الاستقلال، على أنه في اعتكافه لم يتوانَ يوماً عن بذل كل ما لديه من نفوذ كي يصدر الدستور، فلما صدر في ١٩ أبريل سنة ١٩٢٣ أيام قيام وزارة يحيى باشا إبراهيم وانتظرت البلاد الانتخابات؛ أخذ يتوقع في ظروفها ما يطوع له العود لتنفيذ سياساته، وسياسته – كمارأيت – تقوم على الإخلاص الصحيح والعزم الوطيد على إتمام اتفاق بين إنجلترا ومصر تحل به المسائل المعلقة في التصريح، وعسير الوصول إلى هذا وفي البلد من آثار الانقسام ما يخشى أن يجني على أية مفاوضات جديدة جنائية الانقسام على المفاوضات التي تولتها عدلي باشا يكن سنة ١٩٢١.

فلما عاد سعد زغلول باشا من منفاه فكر ثروت في إمكان التفاهم معه اجتناباً لكل انقسام مستقبل، لكن علاقات الرجلين كانت متواترة منذ سنة ١٩٢١ أشد التوتر، وقد ألقى المحيطون بسعد في روعه أن ثروت هو الذي نصح بنفيه، ثم إن سعداً كان قد طعن على ثروت أشد المطاعن وأقساها، بل لقد ذهب في الطعن عليه إلى اتهامه في إخلاصه لوطنه، فكيف يستطيع ثروت أن ينسى هذا كله وأن يتقدم إلى ناحية سعد خطوة من الخطى؟! على أنه رأى كرامة الوطن فوق كرامة أي فرد من أبنائه، فبعث إلى سعد بخطاب يذكر له فيه أنه في حرصه على مصلحة الوطن يريد أن يحتمكم وإياه في أسباب الخلاف بينهما إلى الأمراء وذوي الرأي والمكانة في البلاد.

وكان يرجو من احتكامه أن تزول أسباب الانقسام وأن تعود وحدة الأمة ليعود هو – معتقداً على هذه الوحدة – إلى استكمال استقلال بلاده بإتمام الاتفاق بين مصر وإنجلترا، لكن مسعاه هذا لم ينجح لأن رفض سعد باشا التحكيم، وبقي ثروت باشا بعد ذلك بين كتبه ومكتبه وفي عمله المتصل بالجمعية الخيرية الإسلامية وبالجامعة المصرية وبغيرهما من الهيئات التي كانت أبداً في حاجة إلى ثأقب رأيه.

فلما كانت سنة ١٩٢٥ أدت الظروف السياسية إلى التفاهم والائتلاف بين سعد زغلول باشا وخصومه السياسيين، ذلك أن سعد باشا حصل حزبه على الأغلبية الكبرى في انتخابات سنة ١٩٢٤ فتولى الوزارة وظل فيها حتى اعتدت جماعة ينسب بعضهم إلى حزبه على حياة السيري ستاك باشا حاكم السودان العام، فأبلغت إنجلترا حكومته إنذاراً قاسياً اضطررت بعده إلى التخلي عن المناصب، وخلفه أحمد زبور باشا في رئاسة الحكومة، فاستعلن بالأحرار الدستوريين بعد أن حل مجلس النواب وأجرى انتخابات أسفرت عنأغلبية لحزب سعد باشا كذلك، فحل المجلس الجديد أيضاً وأجلت الانتخابات إلى أجل غير مسمى.

على أن الحل الأول وهذا التأجيل الثاني خلق في البلاد حزبًا جديًّا كان أعضاؤه كثيري التردد على القصر الملكي، وكانت رغبتهم عن الدستور والحياة النيابية أكثر من رغبتهم فيهما، وخيل لأعضاء هذا الحزب يومًا أنهم يستطيعون القيام وحدهم فأقيل رئيس حزب الأحرار الدستوريين من الوزارة واستقال زميلاه الوزيران اللذان كانا من أعضاء حزبه تضامنًا وإيهاد، وسُنحت بذلك فرصة التفاهم والاتفاق مع حزب سعد زغلول باشا ضد الخصم المشترك والعمل معًا لعود الحياة النيابية، وكذلك قربت الظروف بين ثروت باشا وسعد باشا، وكان يخلي للكثيرين أنفسهم لن يتلقيا.

وأجرت الانتخابات وألف عدلي باشا يكن الوزارة الائتلافية الأولى وجلس سعد باشا في رئاسة مجلس النواب، وفي أوائل أبريل سنة ١٩٢٧ استقال عدلي باشا فألف ثروت باشا وزارته الثانية، وبقي سعد باشا في منصبه رئيسًا للنواب، وكانت إنجلترا يومئذ قد أرادت — متأثرة بآراء مندوبيها السامي اللورد جورج لويد — التحرش بالحكومة المصرية؛ فخلقت ما سمي أزمة الجيش، وبعثت بأساطيلها إلى الإسكندرية ولم يعرف أحد قط مطالبها على وجه التحديد، فاستطاع ثروت باشا بمهارته وكياسته أن يقضي على هذه الأزمة من غير أن تصل إنجلترا من مطالبها إلى أكثر من منح أحد الموظفين الإنجليز بوزارة الحرب المصرية رتبة الباشوية.

حدث بعد ذلك أن سافر جلالة الملك فؤاد إلى أوروبا مدعواً إلى زيارات رسمية بإإنجلترا وإيطاليا وفرنسا وبلجيكا، وبعد شيء من التردد استصحب جلالته رئيس وزارته ثروت باشا في رحلته، فانتهز ثروت فرصة وجوده بإإنجلترا وفاتح وزير خارجيتها السير أوستن تشمبرلن في أمر أزمة الجيش وتحدث إليه فيما إذا كان مستطاعًا الوصول إلى حل المسائل المعلقة بين الدولتين انتهاءً أزمات أخرى.

وقد انتهت هذه المحادثات إلى مشروع لم يقبل في مصر ولكنه مهد السبيل الصحيح إلى الاتفاق النهائي، وربما كان ممكناً تعديله بما يمهد لقبوله لو أن سعد باشا زغلول بقي حيًّا إلى حين انتهاء ثروت من محادثاته، لكنه توفي في أثناءها في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧، ولم يخلفه من حنكته التجارب السياسية ما حنكت هذا الزعيم، وطلب إلى ثروت باشا أن يحل مجلس النواب وأن يجري انتخابات يعرض فيها المشروع الذي وصل إليه على البلاد، فأبى لأنه رأى أحزاب مصر كلها لا تقبل المشروع، ولأنه من ناحية أخرى خشي إذا حل المجلس ألا يعود، واستقال من الوزارة ونشر يوم استقالته كتاباً أخضر عن مفاوضاته.

ويدل هذا الكتاب والمذكرات التي اشتمل عليها على ضخامة المجهود الذي بذله ثروت في أثناء قيامه بالمفاوضات منفرداً ضخاماً لم يعرف لها حتى اليوم في حياة سياسي مصري نظير، ويدل كذلك على مقدرة وذكاء وكفاية وتطلع بالسياسة العالمية قل أن يكون لها مثيل، ثم يدل على صحة ما رواه عنه السير أوستن تشمبلن لأحد أصدقائه إذ قال: «أتاح لي اتصالٍ في جمعية الأمم بأكثر وزراء الخارجية في الدول المختلفة أن أقدرهم جميعاً، وما أحسب واحداً منهم يفوق ثروت مهارةً وقوة حجة وحسن بيان». وفي الكتاب الأخضر المذكور – إلى جانب هذا كله – اتجاه جديد في سياسة ثروت يرمي إلى ربط الاتفاق بين مصر وإنجلترا بقضية السلام في العالم، ويجعل لذلك من الرجل سياسياً عالمياً لا سياسياً قومياً وكفى، فقد أبدى وزير الخارجية البريطانية من التشدد في بعض الأمور ما رأى ثروت باشا معه أن المناقشة أصبحت غير مجده، وأن مقامه في لندرة للوصول إلى الغاية التي ينشدتها لم يبق له محل.

وكان أمامه إذ ذاك أن يعلن ذلك إلى قومه في عبارة قوية أخاذة، وأن يعود محاطاً بهالة من الجلال والإعجاب، لكن ذلك ليس يتفق مع طريقته في التفكير ولا هو يقرب الغاية التي ينشدتها ولا يؤيد السلام الذي يسعى لتأييده؛ لذلك لجأ إلى الحكمة ينادي داعيها في نفس الوزير الإنجليزي، حتى إذا لم يجب هذا الداعي وأصر على تشدده كان مسؤولاً أمام العالم كله وكان مخالفًا في خطته مع مصر كمفتاح بلاد الشرق الخطة التي اتبعتها الدول الأوروبية فيما بينها لتأييد السلام، فبعث بخطاب فيه من البراعة السياسية، ومن الحرص على كرامته وكرامة بلاده، ومن تحمل مناظره تبعة عدم النجاح، ما يشهد به نصه إذ قال:

عزيزي صاحب السعادة

من أطيب الأشياء إلى نفسي أن أعرب لسعادتكم قبل مغادرتي لندرة عن عظيم شكري لما لقيته لديكم من حسن الاستقبال، وإن أنس لا أنس نزعة الود التي ما برحتم تصدرون عنها في محادثتنا ولا ما أبديتموه على الدوام من صادق الرغبة في التماس أسباب التوفيق بين البلدين.

ولقد كان يسعدني أن أرى مساعديك المجيدة في تثبيت أركان الصداقة بين القطرين تكلل بالنجاح، كما أنه يؤلمني أن يخفق كل ما بذل من الجهد في هذا السبيل، تلك الجهود التي لم تجعل – حتى اللحظة الأخيرة – مجالاً للشك في حسن ختام محادثتنا في هذا الشأن.

ولا أزال أرجو — إذ أنا داعي الحكم وألتجل إلى صادق شعوركم
وصحح إنصافكم — أن تدركوا الغاية التي تعملون لها، وأن تضمنوا إلى إكليل
«لوكارنو» إكليل الاتفاق بين إنجلترا ومصر.

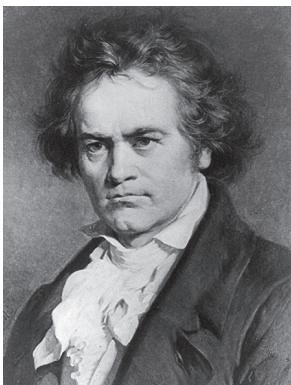
ولم تضعف استقالته من الوزارة من إيمانه بإمكان الاتفاق بين مصر وإنجلترا، بل
كان يرجو في ظروف سياسية جديدة ما يمكنه من العود لمعالجة المفاوضات من جديد
مع عظيم الرجاء في نجاحها، لكن المجهود العظيم الذي أنفقه والمقابلة السيئة المنطوية
على إنكار الجميل التي قوبل بها، ومحاولته نسيان ذلك بالإكباب على العمل في مجلس
الشيوخ كعضو من أعضائه، كل ذلك هز أعصابه وأضعف قوته؛ فسافر مستشفياً في
صيف سنة ١٩٢٨ وذهب إلى سان مورتز ثم عاد منها إلى باريس في ١٨ سبتمبر، ولم
يكن يدرى أن أجله يتربص به فيها ليختتم كتاب حياته في الساعة الثانية من بعد ظهر
٢٢ سبتمبر، أي بعد وصوله إليها بخمسة أيام.

وبكت مصر ثروت، وتقدمت دول العالم كلها تعزيتها فيه، وتناولت الصحفة في
 مختلف الأمم أعماله فشاردت بها ورفعتها إلى المكان الجديرة به، بكته مصر مُقدّرة جميل
 صنيعه، وعظيم نزاهته، وعلو همته، آسفة على ما فرط منها أيام حياته في حفة، مؤمنة
 بأن سيبقى اسم ثروت علمًا في تاريخ مصر على الاقتدار السياسي المنقطع النظير.

القسم الثاني

ترجم غربية

بتهوفن



اليوم — ٢٦ مارس سنة ١٩٢٧ — يحتفل العالم بمرور مائة عام على وفاة بتهوفن، إجلالاً لتلك الألحان القدسية التي أورثها إياه هذا النابغة الشقي، والتي ما تزال برغم ما أحدث كبار رجال الموسيقى آيات خالدة في عالم النغم، فما يزال لحن الريف وألحان بتهوفن التسعة الأخرى وسائر أناشيده الغنائية تموج في جو الوجود فتربيه بالحياة نعمة، وتشدو في أغوار نفوس عارفيها والمعجبين بها كلما أعزتهم اللحن العذب ليرفع من همهم وليريقوي عزائمهم، وما يزال اسم بتهوفن ولن يزال مقترباً بكل لحن من هذه الألحان، بل بكل نغمة من نغماتها، وذكر العالم اليوم له لمرور مائة عام على وفاته ليس إلا أداء لدين الشكر الواجب على العالم لكل من زاد حياته جمالاً وفضلاً وقوة.

يذكر العالم كله اليوم بتهوفن فيذكر ذلك الألماني المولد، الفلمنكي الأصل، المتقارب أجزاء الجسم في قصر يكاد يجعله قرمداً، الحاد النظرة، العبوس، المتجمم للحياة بعدما تجهمت الحياة له، فأورثته المرض وانتهت به إلى الصمم، الجاصل مع ذلك من الألم سبيل المسرة، المفني نفسه في سبيل فنه، المؤمن برسالته وبقوته، يذكر العالم هذا الرجل الذي لم يجد في غير العمل سبيلاً للسعادة، أو بالأحرى لحسن احتمال الشقاء، والذي توافر على عمله في الموسيقى توافراً جعله ينتج هذه الثروة الفنية، والذي لم يعرف غير الموسيقى ولم يؤمن بشيء إيمانه بها أن كانت أعصابه أو تاراً تهتز بالنغم لكل ما في الحياة.

فقد كان كل ما في الحياة عنده نغماً، كان الجمال نغماً والعواطف نغماً والأفكار نغماً والنور والظلمة والحزن والمسرة والزهر والشجر والسحب والجبال وكل ما في الطبيعة وما في الحياة أنغاماً تشدوا بها أوتار هذه النفس العصبية الحساسة الشديدة التأثر بكل ما يلامسها.

بهذه الأنغام وبما تعبّر عنه من جليل المعاني وبنذكرى واضعها يحتفل العالم إذًا اليوم.

وعجيب أن كانت حياة واضع هذه الأنغام السماوية نشازاً كُلُّها؛ فلم ينشأ بتهوفن نشأة غيره ولم تتسلق حياته مع نبوغه، ولم يذق من الهباء ما يذوقه أمثاله، بل كان — وهو على حد قوله: «باكسون الذي يستتصفي للإنسانية الرحيم العذب ويجل على الناس أقدس ما في الروح من جلال» — معدباً في نشأته، معدباً جل حياته، معدباً كذلك في مותו، ولعل ما مرت به ذكراه بعدما استراح من عناء الحياة ونشانها الدائم معه قد أفاء على روحه من الطمأنينة ما لم يسترح إليه يوماً طوال عيشه.

ولد لدفج فان بتهوفن بمدينة بون على مقربة من كولونيا في 16 ديسمبر سنة 1770، وكان أبوه مغنياً سكيراً، وكانت أمه خادماً وابنة طباخ وأرمل فراش، وهذه بداية في الحياة لا تبشر بخير ولا بنعمة، بل هي نذير صراع للوجود قاسٍ قاتل، ولم يمهله أبوه إلى أكثر من الرابعة من عمره حتى تبين منه ميلاً للموسيقى، فأراد أن يستغلّه بعرضه على الناس وحبسه ومعه كمنجا صغيرة، وأرهقه بالعمل حتى كاد يُكِرّه إليه فناً خلق له، لكن كسب الأب كان تافهاً، فكان لا بد للطفل أن يجني من عمله عيشه، فما بلغ الحادية عشرة حتى كان عازفاً في أوركسترا أحد المسارح، وقد أمه وهو في السابعة

عشرة من عمره فحزن لفقدانها أشد الحزن أن ألقى ذلك عليه أعباء العناية بأمر أسرته وتربيه أخيه بسبب ما انحط من قوى أبيه.

وفي نوفمبر سنة ١٧٩٢ ارتحل الموسيقي إلى فيينا عاصمة ألمانيا الموسيقية على أثر موت أبيه، وكان يومئذ كما كان طوال حياته ميلًا للعزلة محباً للعمل حباً جمًا، وكان لذلك قد جعل من البيانة^١ خير أصدقائه، فإليها كان يبت شجنه حين اضطر لهجرة دار أهله وقد جعلتها عربدة أبيه حبيماً، وإياها كان يستودع الأفكار الطريفة التي يفيض بها قلبه، وعليها كان يرتجل هذه الأفكار ارتجالاً، ومعها كان يتناجي بما يجول في نفسه من خلجان وما يجيشه به صدره من عواطف، وبها كان يعبر للنساء اللواتي أحبهما يغمر قلبه من هيات وما يحز فيه من غيرة، بل لقد كان يتحدث بها إلى أصدقائه، ولم يكن أكثر منها بلاغة للتعبير بما في نفسه، فقدت سيدة من معارفه ولدها وجزعت لفقدانه أي جزع، فلما ذهب بتهوفن يواسيها أمسك بيدها ووضعها على قلبه وقال لها: «إن ما أشعر به هنا لا سبيل إلى بيانيه، لكن البيانة ستقوله عنني». ثم جلس إلى الآلة الموسيقية وارتجل قطعة يحكي في صدرها ألمه، ثم كانت للسيدة نعم العزاء، وكذلك كانت البيانة صديقته كما كانت موضع قوته في الموسيقى وسلطانه في الارتجال، بلغ من السلطان عليها حتى قال عنه موزار — الذي ملأ ألحانه آذان ذلك العصر وما تزال إلى اليوم من مفاخر الموسيقى — وقد سمعه وهو في السابعة عشرة من عمره يرتجل وحده في غرفة مجاورة للغرفة التي كان فيها موزار وجماعة من أصدقائه: «تبهوا إلى هذا الشاب فسيكون موضع حديث الناس يوماً من الأيام».

ذهب إلى فيينا على أثر وفاة أبيه بدعوة من أعضاده وفي مقدمتهم الكونت دوالشتين، وكان أكبر همه من ذهابه إليها أن يدرس على هايدن أكبر المؤلفين الموسيقيين الألمان يومئذ، لكن هايدن كان مشغولاً بتواлиفة جد الاشتغال، فلم يجد الشاب من وقته ما يفيده، فتركه بل قاطعه وعمد ليدرس على البرختبرجي، وكانت أخلاق هذا الأستاذ على علمه يشوبها كثير من الغرور والجفوة بما لا يتفق وأخلاق بتهوفن الحرة الثائرة، وعلى ذلك أكمل دراساته الموسيقية وحده فظل فيها من آثار النبو عن متعارف القواعد ما لم يعُّ به نبوغه الخالق وقوته الخارقة للعادة وسلطانه الذي حق في السماء فخضعت له كل القواعد.

وعضده يومئذ البرنس لخنفסקי وأواه في داره وفرض له ستمائة فلورين سنويًا، وألْفَت بينهما صداقة متينة لم تكن تخلو من أسباب لسوء التفاهم قضت دائمًا عليها الأميرة لخنف斯基 التي كانت موسيقية تقدر فضل النابغة الذي يقيم معهم حق قدره.

ويومئذٍ كانت الثورة الفرنسية تغزو العالم كله بمبادرتها، وكان بتهوفن خصماً لها أول أمره، لكن مداومته قراءة هوميروس وأفلاطون وفرجيل وتأسیت وتبنيه المبادئ الجمهورية التي قامت عليها الثورة؛ جعل منه نصيراً من أكبر أنصارها، ولذلك لم يتردد حين جاء إليه الجنرال الفرنسي برنادوت يطلب إليه أن يضع لحناً symphonie لمجلس الثورة بونابارت، وأنم بتدهوفن اللحن وكان على أهبة إرساله إلى باريس إذ علم أن نابليون توج نفسه إمبراطوراً، فما لبث أن عاد إلى بيته ساخطاً ومزقاً لحنه وقال: «هذا رجل مطامع كفierre من الرجال». ولم يُردْ أن يسمع بعد ذلك عنه خبراً، ثم ألح عليه أصدقاؤه بعد سنوات من ذلك كي يعيد هذا اللحن إلى الحياة فغير فيه القطعة الثانية وكانت نشيد النصر ووضع بدلها نشيد الأسى، كأنما ينبع ما كان من انهيار آماله، وسمى اللحن لحن البطولة، وأضاف إلى عنوانه هذه العبارة: «إحياء لذكرى رجل عظيم».

ومن يومئذٍ بدأت تواليفه ومصنفاته تفيض فيضاً، فكتب عدة ألحان من خير الألحان كما كتب أوبيرا فدليو، ويومئذٍ أحـس بسلطانه وأمن بقوته وفاض عنه الرضا بالحياة والسكينة لها، وتدل الصور التي صورته في ذلك العصر على مبلغ طمأنينته وعظيم أمله في المستقبل، ففي سنة ١٧٩٦ كتب في مذكراته الخاصة يقول: «إقداماً! وبرغم أسباب ضعف الجسد فالنصر لعقريتي هـا أـنـذا بلـغـتـ الخامـسـةـ والعـشـرـينـ،ـ فيـجبـ فيـ هـذـاـ العـامـ أـنـ يـظـهـرـ الرـجـلـ كـامـلـاـ».ـ وـذـلـكـ عـلـىـ أـنـهـ كـانـ مـاـ يـزاـلـ فـيـ بـداـيـةـ حـيـاتـهـ الـعـامـةـ،ـ فـأـوـلـ حـفـلـةـ عـامـةـ لـهـ كـبـيـانـيـ وـقـعـتـ فـيـ ٢٠ـ مـارـسـ سـنـةـ ١٧٩٥ـ،ـ لـكـنـهـ لـمـ يـبقـ لـدـيهـ رـيبـ فـيـ قـوـتـهـ وـلـمـ يـخـفـ ذـلـكـ عـلـىـ أـحـدـ مـنـ أـصـحـابـهـ،ـ بـلـ كـانـ يـبـاهـيـ بـهـ عـلـىـ صـورـةـ قـدـ لاـ يـرـضـاهـاـ مـنـ لـمـ يـكـنـ لـهـ مـثـلـ مـوـلـدـهـ،ـ كـتـبـ إـلـىـ الدـكـتـورـ وجـلـرـ -ـ صـدـيقـ صـبـاـhـ فـيـ مـسـقـطـ رـأسـهـ -ـ يـخـبـرـهـ بـنـجـاحـهـ الـعـظـيمـ،ـ فـكـانـ الـفـكـرـةـ الـأـوـلـىـ عـنـهـ ظـاهـرـةـ فـيـ قـوـلـهـ:ـ «أـرـىـ مـثـلـاـ صـدـيقـاـ مـحـتـاجـاـ فـإـذـاـ لـمـ يـسـمـحـ لـيـ جـيـبـيـ بـالـإـسـرـاعـ إـلـىـ مـعـونـتـهـ لـمـ يـكـنـ عـلـىـ إـلـاـ أـنـ جـلـسـ إـلـىـ مـنـضـدـةـ الـعـلـمـ فـإـذـاـ بـيـ فـيـ وـقـتـ قـصـيرـ قـدـ سـدـدـتـ حاجـتـهـ،ـ أـلـستـ تـرـىـ هـذـاـ غـايـةـ فـيـ الـجـمـالـ ...ـ وـيـجـبـ أـنـ أـقـفـ فـنـيـ عـلـىـ مـعـونـةـ الـفـقـراءـ».ـ

لكن يا لقسوة القدر! فما كاد هذا النابغة القوي يتربع على دست عظمته حتى بدأت مقدمات الهم واليأس تسلك إليه مساربها، بدأت هذه الآفة التي نفست عليه عيشه بقية أيامه منذ سنة ١٧٩٦، فلما تمض على هذه السكينة للقوة العظيمة شهور حتى بدأ وجه الحياة يتوجه وببدأت نذر الشقاء تتقى، وببدأت مقدمات الصمم بطنين

الآذان ليل نهار طنيناً مزعجاً، وقد ظل سنوات يخفي مرضه حتى على أعز أصدقائه، وكيف تزيد موسيقىً على أن يقول للناس إنه أصم؟! لكن ذلك لم يقدر به عن مداومة العمل، ولئن ظهرت بعض آثار الحزن الناشئة عن آلامه في عدد من الألحان التي وضعها في ذلك الحين فقد بقي أكثرها بساماً طروبياً، غير أنه لم يطق كتمان علته بعد أن احتملها خمس سنوات تباعاً، فكتب في سنة ١٨٠١ يشكو هذه العلة إلى كثير من أصدقائه ومن بينهم صديقه أمندا إذ كتب يقول له:

عزيزي الطيب الرفيق أمندا

كم كنت أرجوك بجانبي، فصديقك بتهوفن بإنس غاية البؤس، ذلك أن سمعي وهو أكرم أجزاء نفسي علىَّ قد ضعف كثيراً، وكانتأشعر منذ كنا معًا بأعراض المرض وكانت أخفية، لكنه اطرد سوءه من بعد، فهل أشفى؟ أرجو ذلك بالطبع، ولكن رجائي فيه قليل، فمثل هذا المرض أشد مما سواه استعصاء على البرء، وسأضطر لقضاء العيش في بؤس فأتجنب كل ما أحب وكل ما هو عزيز علىَّ، وذلك بين عالم شقة وأنانية، يا لشقاء الاستسلام الذي يجب أن الجأ إليه، لا ريب أنني فرحت على نفسي السمو فوق كل هذه الآلام، فهل ترى أستطيع تحقيق ما فرحت؟

هل من سبيل إلى عزاء لبهوفن عن هذا الألم؟ هل من وسيلة لتخفيض مضنه ومرارته؟ الوسيلة الممكنة هي المرأة والسبيل هو الحب، فلو أن بتهوفن وجد يومئذٍ من يتعلق بها قلبها ويؤمن به وبعظمته قبلها؛ لكان له من ذلك ما يهون عليه بعض همه، ولقد كان منذ نشأته طيب القلب عطوفاً، لكن حبه كان قاسياً كالفضيلة التي امتلأ بها قلبه، وكان لذلك يرى عاراً أن تتدلى الموسيقى للتعبير عن حب تشويه الشهوة؛ ولذلك عاب على موزار قطعته «دون جوان»، على أن فضيلته القاسية هذه هي التي كانت سبب فشل علاقته الغرامية جميعاً، ففي سنة ١٨٠١ تعلق بجوليتا جوكشياردي وأهدأها لحنه المعروف «ضوء القمر»، وكتب إلى صديقه وجлер يقول له: «الآن أعيش أكثر سكينة وأختلط الناس أكثر من ذي قبل، ولقد أبدع هذا التطور في حياتي سحر فتاة عزيزة تحبني وأحبها، وهذه هي اللحظات السعيدة الأولى التي تذوقت منذ عامين» لكن هذا الحب زاده شعوراً بمرضه كما أن جوليتا كانت لعواً شديدة الأنانية لا تعبأ بالألم بتهوفن، ولم تغفِ في سنة ١٨٠٢ — أي بعد سنة واحدة من حبها — عن أن

تتزوج من الكومنت جالنبرج، وكان حب بتهوفن إياها ظاهراً مخلصاً، فكانت خيانتها طعنة قاسية أصابت بها شغاف قلبه، على أنها لم تكتفِ بما فعلت بل جعلت تستغله لفائدة زوجها وجعل بتهوفن يذعن باسم الطيبة ويقول: «إنه عدوى، وذلك هو السبب في إسدائي إياه كل خير أستطيع إسداءه».

وأدلى به الصمم والمرض والانقطاع عن الناس وخيانة جوليتا إلى اليأس من الحياة وإلى اليقين باقتراب ختامها، وزاد به اليأس حين ذهب إلى «هيلجنستات» إحدى ضاحيّات فيينا مستشفياً، ومكث بها ستة أشهر لم يفده سمعه خلالها شيئاً، هنالك كتب وصيته التي نسبتها هنا، وإن كان قد عاش بعدها خمساً وعشرين سنة، لأنها تدل على عظيم ألم هذا الرجل العظيم كما تدل على عظيم نبوغه وعظيم إيمانه بفنه وعلى طهارة نفسه وطبيّة قلبه وحبه الناس، وتدل على أن هذه العواطف كانت في حاجة دائمة كهذه الموسيقى القوية الثائرة التي نسمعها له في كثير من ألحانه وحتى في ألحانه الرقيقة اللحمة والسوداء، قال:

يا أيها الذين ينظرون إليَّ أو يحسبونني حقوداً أو برمًا بالناس أو متطرِّباً بالحياة، لشد ما تظلمونني، إنكم لا تعرفون السبب الخفي الذي يظهرني بهذا المظاهر، فقد كان عقلي وقلبي متوجهين منذ طفولتي إلى عاطفة رقيقة هي الطيبة، وكانت دائمًا مستعدًا لأقوم حتى بعظام الأعمال، لكن صوروا لأنفسكم بؤس حالي منذ ست سنين، هذه الحال التي زادها الأطباء الأغرار سوءًا والتي ما أزال أخدع في أمرها عاماً بعد عام آملاً في تحسنها، ثم أضطر آخر الأمر لأحسبها حالاً مزمنة يقتضي البرء منها — إن كان فيه أمل — سنتين عدّة، وقد يكون هذا البراء محالاً.

لقد ولدت ذا مزاج حاد نشيط مستعد لذوق مسرات المجتمع ثم اضطررت وما أزال في أول عمري إلى عيش العزلة، وحاوت التغلب على ذلك فصدّمتني التجربة الأليمية القاسية غير مرة وجددت عندي الإحساس بمرضى، ثم إنني كنت مستطاعاً أن أقول للناس: ارفعوا الصوت وصيحوا فإنني أصم، وكيف أستطيع أن أذيع ضعف حاسة كان يجب أن تكون عندي أدنى إلى الكمال منها عند الآخرين، حاسة كانت في الملاهي باللغة من الكمال حداً لم يُتح لقليل من أبناء فني أن يبلغوه، كلا! لا أستطيع، فاعذروني إذاً إن رأيتّموني أعيش عيش العزلة بينما أريد أن أكون معكم وفي صحبتكم

وشقائي مضاعف له ألمي أن كان سبباً للحكم على حكمًا قاسياً، وقد منعت من أن أجد الراحة والطمأنينة في الاجتماع بالناس وفي المحادثات الظرفية وفي العطف المتبادل، فأنا وحيد منقطع، لا أستطيع أن أجاذف بنفسي في الجماعة، وما لم تكرهني على ذلك حاجة فيجب أن أعيش منفيًا، فإذا اقتربت من جماعة ملأ على الاضطراب مجموع حواسِي من خشية أن أتعرض لوقوف الناس على بيّنة أمري.

ومن ثم أمضيت هذه الستة الأشهر في الريف، وقد طلب إلى طيببي الفاضل أن يُعنَى بسمعي جهد الطاقة، وبلغ من ذلك أكثر مما كنت أرجو، ولقد شعرت غير مرة بالمليل للجتماع بالناس وتركت نفسي تنال منها، ولكن أي مذلة أن أرى رجلاً على مقربة مني يسمع قيثارة من بعيد ولا أسمع أنا شيئاً، أو يسمع غناء الراعي ولا أسمع أنا شيئاً؟! ولقد قربت هذه التجارب بياني وبين اليأس حتى كدت أقضي بيدي على حياتي، لكنه الفن — نعم هو الفن وحده الذي استبقاني — أواه! لقد بدا لي أن من المحال أن أترك هذا العالم قبل أن أتم كل ما أحسست أنني مطالب بأدائٍ، وكذلك أطلت في هذه الحياة البائسة، والبائسة حقاً، لجسد سريع التهيج حتى لينقله أقل تغيير من خير الحالات إلى أسوئها ... صبراً، كذلك يقولون! وهو الصبر الذي يجب أن أختاره الآن مرشدًا وقد اخترت، وإنني لأرجو أن تظل عزيزتي على المقاومة ثابتة حتى ترضى الآلهة بالقضاء على بقية حياتي، وإن يصلح الحال أو يسوء فإني لصابر، ألا ليس يسيراً أن يُركِّه الإنسان — وما يزال في الثامنة والعشرين من العمر — على أن يكون فيلسوفاً، وذلك أشد قسوة برجل الفن منه بأيِّ رجل آخر.

اللهم إنك ل تستشف من سمائك حجب قلبي وتعْرِفه وتعلم أنه عامر بحب الناس والرغبة في عمل الخير، وأنتم إليها الناس إذا قرأت يوماً هذا الذي أكتب فاذكرواكم كتم ظالمين إياي، وإن الشقي ليتعزى إذا رأى شقياً مثله قام برمي كل ما ألقى الطبيعة في سبيله من عقبات بكل ما في جهده أن يقوم به كي يكون في صف رجال الفن والصفوة المختارين.

هيلجنستات في ١٠ أكتوبر سنة ١٨٠٢ — والآن وداعاً، وداعاً أسيفاً — إن الأمل العزيز الذي جئت به إلى هنا، هذا الأمل في أن أشفى ولو إلى حد

يجب أن أبأس منه كل اليأس، وكما تتناثر أوراق الخريف وتذوي، كذلك هذا الأمل جف في نفسي وذوى، كما جئت إلى هنا أعود وقد فقدت حتى الهمة التي كثيراً ما استندت إليها أيام الصيف الجميلة، أواه أيها القدر! هب لي أن أرى مرة واحدة يوم مسرة صفو، فما أطول الزمن الذي حبس عنى فيه رنين المسرة الصادقة العميق! أواه متى يا رب؟ متى أستطيع أن أحس بها في معبد الطبيعة والناس ... أبداً، كلا، فذلك يكون أبلغ القسوة.

هيلجنستات في ٦ أكتوبر سنة ١٨٠٢
لدج فان بتهوفن

لم تنشر هذه الوصية إلا بعد وفاة بتهوفن، لكنها تدل على مبلغ ما كانت تضطرب به نفسه حين كتبها من الآلام، وعلى شديد إيمانه مع ذلك بالفن، هذا الإيمان الذي جعله يستأثر الموت وإن كان في الموت راحة من شقوته وأوصابه، ويستأثره ليتم رسالته وإن عانى في سبيل إتمامها من الآلام ما لا قبل لغيره باحتماله، وكذلك ترى النوايحة حقاً يستهينون في سبيل إبراز مواهبهم بكل ما يحرض الناس عليه وبكل ما يجرعون منه ويفرون، فيينا كان بتهوفن يكتم هذه الصيحات الفاجعة مكتفياً بترجيعها في صدره بينه وبين نفسه، وإثباتها على القرطاس لتكون سبيلاً إلى سلامه بعد موته، كان أخواه يستغلان ألحانه استغلالاً مادياً ما كان بتهوفن ليعني به لولا حبه لأخويه حباً يتفق مع عظمة الفضيلة التي تفيض بها نفسه أناشيد وألحاناً قدسية سامية، وكثيراً ما خاطبه أصحابه فيما يجني عليه أخواه من مساءات، فكان جوابه وهو يبكي: «لکنهما أخواي»، وما لأخويه وبكائه؟ إنه لهما مزرعة تستغل ومورد رزق فياض، كتب أحد أخويه لناشر طلب بعض قطع أصلية من ألحان بتهوفن وأناشيد: «ليس لدينا من ذلك الآن إلا لحن وعزيف كبير للبيانة وثمن كلّ ثلاثة فلورين، أفتريد ثلاثة سونات للبيانة؟ نحن لا نستطيع أن نقبل فيها أقل من تسعمائة فلورين، على أن تسلم بعد خمسة أسابيع أو ستة؛ لأن أخي أصبح لا يعني الآن بأمثال هذه التفاهات ولدينا ...» وذكر بقية «البضائع»، وبتهوفن لا يفيد من ذلك المال كله إلا ما يقيم حياته المليئة بالألام، فأماماً هذه الحياة التي يحتفظ هو بها للفن فليست في ملكه، لأنها هبة القدر للوجود كله في حاضره ومستقبله، هي قيثارة قدسية بعثتها يد العناية إلى هذا العالم لتنشد الناس كل ما أبدعت العناية في الخلق من نغمات، وإلى أن تُتم هذه الرسالة

الواجبة عليها يجب أن يبقى صاحبها معدباً شيئاً، ويجب أن يستريح لعذابه ولشقوته، أو على الأقل يجب أن ينسيه إيمانه برسالته وانصرافه بكل وجوده لإبلاغها هذا الشقاء وهذا العذاب.

لكن المرأة هي البسم والشفاء لعذابه أو لتسكينه، وقد عبّثت جوليتا ببتهوفن عبّاثاً قاسياً برغم ما كان من شديد تعلقه بها، فهل جفاه الحب بعدما جفته هذه اللعب الأثرة المحبة لترف الحياة التافه أكثر من حبها لمجد العظمة الخالد؟ كلا! فما تزال ببتهوفن ساعات سعادة في الحياة ينعم بها برغم همه، وملأك هذه الساعات المخلص الطاهر هي ترزيز برسوويك.

وكان بتهوفن قد عرف تريز منذ أيامه الأولى في فيينا أن كان يعلمها البيانة، لكنه لم يتعلّق بها يومئذ ولم يسر إلى قلبه خاطر الحب منها وإن اتصل بأخيها الكونت فرنسوا بصدقة متينة، فلما كانت سنة ١٨٠٦ وكانت جوليتا قد تزوجت منذ ثلاث سنين زار بتهوفن صديقه القديم في مارتنفاسار بال مجر، قالت تريز: «وبعد العشاء ذات مساء أحد جلس بتهوفن في ضوء القمر إلى البيانة ومر بيده على ملامسها، وكنت أعرف أنا وأخي ذلك منه، فكذلك كان بيبدأ دائمًا، ولعب بعض تقسيم على طبقات القرار، ثم انتقل من ذلك إلى لعب أغنية سbastian باخ: إن شئت أن تهبني قلب فليكن ذلك أول الأمر في خفية حتى لا يستطيع أحد أن يحس مساح أفكارنا المشتركة، ولعب هذا اللحن في وقار وهيبة، وكانت أمي وكان القسيس قد ناما، ونظر أخي إلى ما أمامه ذاهلاً، أما أنا فأخذتني نظرته وأخذني غناوه وأحسست بالحياة كاملة، وفي صباح الغد تقابلنا في الحديقة فقال لي: أكتب الآن أوبرا أرى بطلتها في دخيلة نفسي وأراها أمامي حيثما ذهبت وأينما أقمت، وما أحسبني سموت يوماً هذا السمو، فكل ما أمامي ضياء وطهر ونور، وفي شهر مايو أصبحت مخطوبته بإقرار أخي فرنسوا وحده». وظلت هذه الخطبة حتى سنة ١٨١٠ حين انفصمت عروتها وإن لم تنفص عروة الحب بين الخطيبين اللذين عاشا به سعيدين حتى مات هو في سنة ١٨٢٧ وماتت هي وما تزال على عهده في سنة ١٨٦١.

وكان لهذا الحب في نفس بتهوفن وفي حياته الموسيقية أثر أي أثر، فاللحن الرابع الذي كتب في أول أعوام الخطبة زهرة تتضوّع بشذى السكينة والخلود إلى صفو العيش مع الناس، وكذلك كانت الألحان التي كتبت في هذه السنوات أقل ثورة وأكثر تربّناً بنعمة الحب والحياة، ومنها لحن الريف بأغاريد بلائه وأطياده وأغانيات شيانه

وعذاراه، ولم يقف أثر الحب عند موسيقى بتهوفن بل تعودى إلى حياته فجعله محباً للتألق في ملبيه ميالاً للاختلاط الناس والتحدث إليهم حاضر النكتة ظريفاً، وبلغ من ذلك أن الناس نسوا صممه ولم يلاحظوا عليه إلا ضعف بصره الحاد النظرة، ومن ذلك العهد السعيد في حياة بتهوفن يحفظ التاريخ خطاباً يبث فيه لترizin ما يبعثه الحب المضطرب في النفس الثائرة من عواطف مضطربة متلاطمة، قال فيه:

يا ملاكي وكلي ونفسي، انظري في بدايع الطبيعة واطمئني إلى ما هو محظوم، فالحب يلح عدلاً في أن يكون له كل شيء، ذلك شأنه معنوي في أمرك، وهو شأنه معك في أمري، إن قلبي لم يفعم بما أريد أن أبثك إيه، أينما كنت فأنت معنوي، إني لأبكي حين أذكر أنك لن تقفي على أول أخباري قبل يوم الأحد على الغالب، إني أحبك كما تحببني بل أقوى وأشد، إلهي، أيام حياة هذه من غيرك! فأنت قريبة بعيدة، وأفكاري تتدافع نحوك يا محبوبتي الخالدة وهي سعيدة طوراً حزينة تارة تسائل القدر هل هو سيراعنا؟

أنا لا أستطيع العيش إلا معك وإنما فلا عيش لي، ولن ينال غيرك قلبي أبداً، أبداً! لم يجب يا رب أن يبتعد متحابان كل عن صاحبه، على أن حياتي إنما هي الآن حياة أحزان، ولقد جعلني حبك في نفس الوقت أسعد الناس وأشقاهم، اطمئني، وأحببني اليوم وبالأمس، ما أعظم تطلعـي إليك! وما أكثر دموعي من أجلك أنت! أنت أنت يا حياتي، يا كلي وداعاً، وأقيمـي على حبي ولا تنسي أبداً قلب حبيبـك بتهوفن، لك إلى الأبد، لي إلى الأبد، لنا إلى الأبد.

وهذا الخطاب كوصيته وجد في أوراقه بعد موته، ولعله كتبه في آخر سنوات خطبة تريز له، ففيه من اليأس أكثر مما فيه من الرجاء، وهذه العبارة التي يسائل فيها القدر هل هو سيرعاهم تنبئ عن بداية انحلال الخطبة، على أن قلبه وقلبها ظلا عامرين بهذا الحب إلى آخر حياتهما، فمن كلمات بتهوفن في سنة ١٨١٦: «يدق قلبي كلما ذكرتها بنفس القوة التي دق بها حين رأيتها لأول مرة».

وفي هذه السنة عينها، سنة ١٨١٦، وضع الأنعام الأربع البدعة: «إلى العزيزة المحبوبة الناثئة» وكتب في مذكراته: «يفيض قلبي لمشهد هذه الطبيعة البدعة وهي مع ذلك ليست هنا إلى جانبي». وكانت تريز قد أهدت إليه صورتها وكتبت عليها هذا

الإهداء: «إلى النابغة الفذ والفنان العظيم والرجل الطيب». وقد دخل صديق على بتهوفن في آخر سنة من سني حياته فألفاه يقبل الصورة ويبكي ويناجي نفسه بصوت رفيع: «لقد كنت جميلة، وكنت عظيمة، وكانت كالملائكة الأطهار». وبلغ من شدة تأثره لفراق تريز أن كتب يوماً إلى أحد أصدقائه: «أيها المسكين بتهوفن — محدثاً عن نفسه — ليس لك في هذا العالم حظ من السعادة، إنما حظك منها في رحاب المثل الأعلى، فلك فيه أصدقاء». وكتب في مذكراته «إسلاماً! وإسلاماً تاماً لحظك، أنت لم تعد تستطيع أن تعيش لنفسك وإنما تعيش لغيرك، ولم يبق لك من نعيم في غير فنك، اللهم هبني قوة الانتصار على نفسي». هذا ولم تفت أرضاً تذكر بتهوفن إلى آخر حياتها، فكيف انفصمت الخطبة ولم يجمع بينهما الزواج؟ ذلك ما لم يقف عليه أحد، ولعله كان لفقر بتهوفن واختلاف مكانته مع مكانة تريز الاجتماعية، ولعله كان لطبع بتهوفن الحاد القاسي السريع إلى التطير والذي لا تهون الحياة البittersame معه.

على أنه كان قد وصل في سنة ١٨١٠ إلى أوج قوته وجلس على عرش مجده، وكان يحس هذه القوة ولا يتواضع بسببها، رأته بتينا برنتانو المفرمة بمعرفة عظماء الألمان في سنة ١٨١٢ لأول مرة، ولم تكن في حاجة إلى أكثر من مراه وسماع حديثه حتى سحرت به وقالت: «ليس في العالم ملك ولا إمبراطور له مثل هذا الشعور بقوته». ثم كتبت إلى جيتي تقول: «لمارأيته لأول مرة انحوى الوجود كله من أمامي، ولقد أنساني بتهوفن العالم وأنسانني إليك يا جيتي، وما أظنني مخطئة أن أؤكد أن هذا الرجل يسبق المدنية الحديثة بمراحل». وأراد جيتي أن يعرف بتهوفن فتقابلاً في حمامات بوهميا بتوبلتز في ذلك العام نفسه لكنهما لم يتفاهما، فخلقاً بتهوفن العنف الحر لا يتفق مع خلق جيتي الرقيق الوداع، ذكر بتهوفن نزهة لهما كان فيها قاسياً كل القسوة مع دوق فيمار، قال في خطاب بعث به إلى بتينافون أرنم:

يستطيع الملوك والأمراء أن يخلقوا الأساتذة والمستشارين وأن يغرقوهم في الرتب والألقاب، لكنهم لا يستطيعون أن يخلقوا الرجال والأذهان التي تسمى على المجتمع، فإذا اجتمع رجالاً مثلي أنا وجيتى وجب على هؤلاء السادة أن يحسوا بعظمتنا، ولقد تقابلنا أمس حين عودتنا في الطريق مع العائلة المالكة كلها، وكنا قد رأيناهم من بعيد فانتزع جيتي نفسه من ذراعي ليقف على حافة الطريق، وعيثاً قلت له كل ما أردت أن أقوله فلم يزحزحه ذلك خطوة واحدة عن موقفه، عند ذلك كبست قبعتي في رأسى وذررت ردنجوتي

وسرت وذراعي وراء ظهري وسط الجموع الكثيفة، وأفسح الأماء والشاشية لي طريقاً ورفع لي الدوق رودلف قبعته، وكانت الإمبراطورة أول من حيانى، فالعلماء يعرفوننى، أما جيتى فمر أمامه الجمع وهو في مكانه على حافة الطريق منحن أشد الانحناء وقبعته في يده، وقد لته أشد اللوم بعد ذلك، لم أغتر له قط تصرفه.

ولم ينس جيتى له هذه المسأة وظل بينه وبينه ما كان بين فولتير وروسو في آخر حياتهما، قال جيتى لزلتر: «بتهوفن شخصية لا سبيل مع الأسف إلى تألفها، وقد لا يكون مخططاً إذ يرى العالم كريهاً، لكن خلته في الحياة ليست هي الوسيلة التي تجعل العالم حلواً له ولغيره، على أن من الواجب أن نعذره وأن نشفق عليه، فهو أصم». على أن كراهية جيتى لم تمنعه من الإعجاب ببتهوفن ومن تقديسه وإن جاهد لإخفاء ذلك طاقته، ذكر مندلسن أن جيتى سمع أحد الحان بتلهوفن فحاول إخفاء إعجابه قائلاً: «هذا لا يمس القلب ولكنه يثير الدهشة». ثم لم تمض لحظات حتى غلبه اللحن وجماله، فلم يتمالك أن قال: «هذا بديع وعظيم وفوق العقل، إنني لأحس لأن البيت سينطبق عليّ». وبعد أن كان لا يريد أن يسمع اسم بتهوفن جعل يسأل عن أمره.

وكان الدوق رودلف الذي أشار إليه بتهوفن أحد التلاميذ القليلين من رضي هو أن يكون أستاذًا لهم، وبرغم إعفاء الدوق إياه من تكاليف البلاط ونظماته فقد كان يشكوا مما بقي مضطراً له بداعي المجاملة من هذه التكاليف، ومن طريق الدوق رودلف عرف كثيرين من الأماء وأعضاء البيت المالك الذين لم يكونوا يأبهون للعلماء، أمثال هايدن وموزار، وإن بقي لديهم شيء من العطف على البائس بتهوفن، وزادوا عليه عطفاً حين بدأ نجم نابليون يتأفل، فإن بتهوفن لم ينس خيانة هذا الجمهوري الذي اتخذ الشعب سلماً للإمبراطورية، فلما انتصر الإنجليز عليه في موقعة واترلو وضع بتهوفن لحناً لانتصار ولنجتون مجده فيه كما مجد حروب الاستقلال التي أقامتها أمم أوروبا ضد فرنسا، وفي أوائل سنة ١٨١٤ وضع لحناً حربياً عن «بعث المانيا» فلما انعقد مؤتمر فيينا على أثر هزائم نابليون كان بتهوفن في ذروة عظمته وقوته، فشارك في أعياد المؤتمر على أنه عنوان من عنانيين مجد أوروبا، ورأس في ٢٩ نوفمبر سنة ١٨١٤ الأوركسترا التي لعبت أمام ملوك العصر نشيده عن «ساعة المجد» فلما سقطت باريس في سنة ١٨١٥ وضع نشيداً جعل عنوانه «انتهى كل شيء»، وكذلك ظهرت قوته ومقدراته وظهر خلقه المثابر وبطشه وجبروته، هذا الجبروت الذي أباح له بعد موقعة

بيينا — إحدى مفاحير نابليون — أن يقول: «من سوء الحظ أني لا أعرف الحرب كما أعرف الموسيقى، إلّا لهزمته».

وكان حظ بتهوفن مذبذبًا، فما تقاد آونة طمأنينته تطول به زمنًا حتى تعقبها آونة شقاء أطول منها وتعدل مراتتها أضعاف حلاوة تلك الآونة، فكما تخلى عنه الحب مرتين تخلت عنه فيينا بعد هذا المجد والسلطان مجرد انتهاء أعياد النصر، وبلغ أن فكر في هجرتها برغم ما كان من اتفاق الدوق رودلف تلميذه والبرنس لوبيكرفتز والبرنس كنسكي منذ سنة ١٨٠٩ إذ رتبوا له معاشًا أربعة آلاف فلورين على أن يظل في النمسا ليظل فخرًا لها، وبرغم ما كان من عدم وفائهم كل الوفاء فإنه سُرّ بهذا الاعتراف بمجدده، فلما مرت أعياد النصر عكف من جديد على العمل، لكن الصمم كان يزداد حتى كان تاماً في سنة ١٨١٦، وبذلك أصبح بتهوفن لا يسمع موسيقى ولا يسمع لحنًا ولا نشيدًا إلّا في دخيلة قلبه.

وكم لاقى بسبب ذلك من عناءٍ وهمٍ، فقد أراد أن يدير أوبرا فدليو في سنة ١٨٢٢ وكان جليًا منذ الفصل الأول أنه عاجز عن هذه الإدارة كل العجز، فقد كانت عصاه بطيئة، فكانت الآلات الموسيقية بطيئة معها، لكن المغنين لم يكونوا يستطيعون اتباع هذه الموسيقى فكانوا يسرعون، وحصل اضطراب اضطراب معه مدير الجوق العامل إلى إيقاف التمثيل، ثم عاد بتهوفن إلى الإدارة وعاد التمثيل إلى الاضطراب، قال صديقه الدكتور شندرلر: «ولم يقو قلب أحد على أن يدفعه ليقول لبتهوفن: تتح أهيا البائس فأنت عاجز عن الإدارة، ووقف التمثيل للمرة الثانية فوقف بتهوفن ينظر في كل ناحية يريده أن يعرف سبب الاضطراب، ولما لم يفهم شيئاً ناداني إليه ومد إلّي كراسته لأكتب له، فكتبت: أرجوك ألا تستمر وسأفسر لك في البيت سبب ذلك، فما هو إلّا أن قفز صائحاً بي: فلنجل بالخروج، وجرى إلى بيته بكل ما مكنته قواه وهناك ارتمى على مقعد وسند بيديه وجهه وجلس حتى ساعة الطعام لا ينطق بكلمة، وساعة الطعام ظل صامتًا وعلى وجهه أثر الألم الفاجع والانحلال الأليم، فلما كان بعد العشاء وأردت أن أتركه رجاني أن أصحبه إلى طبيب كان معروفاً بأنه من خير أطباء الآذان ... وفي كل ما تلا ذلك من صلاتي ببتهوفن لم أر يوماً اليوم القاسي من أيام نوفمبر، وقد بقي هذا المشهد الأليم طعنة في قلبه حتى فاجأته ميتة».

وفي سنة ١٨٢٤ كان حاضرًا تمثيل رواية على موسيقاه، ولما انتهت الموسيقى صفق الناس أشد التصفيق فلم يسمع شيئاً ولم يعرف من أمر إجلال الناس لقطعته

إلا بعد ما أمسكت مغنية بيده وأدارت وجهه إلى ناحية الجمهور ليري الأيدي المصفقة والقبعات التي تهتز في الأيدي علامة الإعجاب والثناء.

وعاون بؤس الصمم وألم المرض ما وقع فيه من حاجة وإعوان، فهذا الذي كان يفرض أخوه أنثمان ألحانه على الناشرين فرضاً وصل في آخريات أيامه ليكتب هذه العبارة لأحد تلاميذه: «أكتب هذه (السونات) في ظروف شاقة، فمن المحزن أن يضطر الإنسان للكتابة كي يحصل على الخبر، وهذا هو حالى اليوم». وكتب في مذكراته الخاصة: «لقد صرت حتى أكاد أتكلف الناس». وقال عنه أحد معاصريه وأصحابه إنه كان لا يستطيع الخروج من بيته في بعض الأحيان بسبب ثقوب حذائه.

وفي هذه الأيام الأخيرة كان لا يأنس إلى الناس ولا يعرف غير الطبيعة، فكان يُرى هائماً في الغابات والأحراش، وليس له هم إلا تدوين الأنغام والألحان لا يحول بينه وبين ذلك حر ولا قر ولا مطر ولا ثلج، قالت تريزدي برنسويك: «كانت الطبيعة صديقه الوحيد». وكانت كل مذكراته تفيض هياماً بهذا الوجود المطلق الحر تمام الحرية، والذي تتجل في عظمة الخالق وقوته؛ ولذلك كانت موسيقاه تفيض بمعاني الطبيعة فيضاً حتى لكانما بلغ من شدة هيامه بها أن صار قوتها من قواها أو أنه «ملك روحها» على حد تعبير صديقه شندلر، كتب الموسيقى الكبير شومان يصف أثر أحد ألحان بتهوفن في نفسه: «مهما يتكرر سمع الإنسان لهذا اللحن فإنه مؤثر فينا بنفس القوة التي أثر بها من قبل، فهو كالظواهر الطبيعية التي تملئنا دائمًا خوفاً ودهشة مما تكرر حدوثها».

ولعل بتهوفن كان محبًا للطبيعة، لأنه من روحها لا لأنه ملك هذا الروح، ولذلك كانت حياته — ككل ما في الطبيعة — حياة نضال لا يعرف اليأس، وعمل لا يعرف الكلال، وتتجدد لا يعرف الجمود، فما كان المرض ولا الصمم ولا خيبة الحب ولا الفقر الذي بلغ الإعجاز بمانع له من أن يتم في عالم النغم رسالته، أوتدري ما هذه الرسالة التي كان يجاهد في سبيلها خلال ما أثقل حياته من كوارث وأحزان؟ كانت رسالته بعث المسرة على الأرض، فكأنما كان القيثارة العتيقة المحطم كثير من أجزائها والتي بالغ الصانع في إتقانها، فما تزال مبعث أحل الأنغام وأبدعها، ولقد كان بتهوفن يؤمن برسالته هذه كل الإيمان، ومنذ ظهرت بوادر نبوغه في الموسيقى فكر في تبليغها للناس عن طريق الألحان ففكر فيها وما يزال في يونيو سنة ١٧٩٣، وكانت نهاية أمله أن يتوج أحد أعماله الموسيقية الكبرى بلحن المسرة، وكان ذلك دأبه وهو في أشد حالات

العذاب والألم، لكنه كان يتردد دائمًا أن لم يكن شيء مما وضعه ليكفي مقنعاً لصورة المسرة عنده، وظل ذلك شأنه حتى السنوات الأخيرة من حياته حين وضع اللحن التاسع، حينئذٍ وفق لهذا النشيد الذي يرجوه، ولكن أي توفيق وأية ع神性!

قال أحد الكتاب يصف هذا النشيد البديع الذي يختتم اللحن التاسع: «ساعة تبدأ آية المسرة تبدو يقف الأوركسترا فجأةً ويسود المسرح سكون تام يخلع على مطلع النشيد معنى قدسيّاً رهيباً، وذلك حق، فهذا النشيد إلهٌ وحده، ثم تهبط المسرة من السماء تحيط بها طمائنة الخلد فتسكن الآلام برياحها الناعم تجري إلى القلب جريان البرء في فؤاد المريض، ثم تسمو بعد ذلك في صور من الجد المهيّب رويداً رويداً حتى تملك المسرة النفس وتغزوها وتعلن فيها حرّياً على الألم عواناً، ثم إذا الألحان تحرك في النفس جنود السرور تحسها فوق هذه الصحف المرتعشة فكأنما ترى نبض بتهوفن القوي وشدة تنفسه وصيحاته الملهمة حين كان يجب المزارع ويضع لحنه وكأنما ملكته قوة الشياطين، وتعقب مسيرة الحرب مسيرة الروح مسيرة بالإيمان، ثم تجيشه بالنفس مسيرة مقدسة هي مسيرة الحب، ثم ترى إنسانية مرتعشة تمد أذرعها للسماء صائحة صيحات قوية مندفعـة إلى المسرة تضمـها إلى قلبـها».

هذه القوة العجيبة التي تبدو في أكثر الألحان بتهوفن والتي بدت في لحن المسرة مضاعفة، جعلت كثيرين يذهبون إلى أن ملكه في الموسيقى يقف عند الضخم منها والأليم، قال هيبيوليت تين رِداً على هذا وتحليلاً لموسيقى بتهوفن عامـة: «نعم إنه صاحب هذا الملك من أراضٍ جرداء تهب فيها الأعاصير وتعصف فيها العواصف بأصواتها الصاخبة القوية، وهذه المملكة لم يُؤْخِ لغيره من الموسيقيين أن يدخلها، لكنه يعيش كذلك في ملك آخر، فأفخر ما في الريف الناضر وأكثره رواء وبهجة، وأعذب ما في الوديان الظليلـة وأكثره ابتساماً، وأشد ما في ضياء الفجر أول مطلعـه رقة وبكورة — هذا كله كذلك في ملكه، لكنه لا ينال من ذلك كله ما يناله مطهـن النفس، بل تهزـ المـسرة كل وجودـه كما يهزـ الألم! وشعورـه باللذـة بالـلغـةـ غالـيةـ القـوـةـ، فهو ليس سـعيـداـ، ولكـنهـ فيـ بـهـرـ، فـمـثـلـهـ مـثـلـ رـجـلـ قـضـىـ لـيـلـةـ نـابـغـيـةـ وـخـرـجـ مـنـهـ مـضـطـرـبـاـ كـلـيـمـاـ مـتـوقـعـاـ يـوـمـاـ شـرـاـ منـهـاـ، فـإـذـاـ بـهـ يـرـىـ فـجـأـةـ مـشـهـدـ صـبـاحـ سـعـيـدـ، إـذـ ذـاكـ تـضـطـرـبـ يـدـهـ وـيـتـنـفـسـ الصـدـاءـ منـأـعـاـقـ صـدـرـهـ وـتـعـودـ كـلـ قـوـاهـ الـجـسـمـيـةـ الـمنـحلـةـ فـتـسـتـرـدـ سـلـطـانـهـ، وـيـصـبـحـ فـيـ نـهـلـهـ مـنـ النـعـيمـ أـشـ اـنـدـفـاعـاـ مـاـ كـانـ حـينـ اـسـتـسـلـامـهـ لـلـيـأـسـ».

ولما اطمأن له نشيد المسرة واطمأن هو إلى نجاحـهـ فيهـ، هـانتـ عـلـيـهـ أحـزانـهـ وأـلـامـهـ وهـانـ عـلـيـهـ فـقـرـهـ وإنـ ظـلـ يـعـانـيـ مـنـ بـأـسـائـهـ شـرـ مـاـ يـعـانـيـ إـنـسـانـ، ولـعـلـ لـهـاـ الفـقـرـ

صلة بتلك الثروة التي كان أخواه يقتضيأنها من الناشرين، فقد مات أحدهما تاركاً من ورائه ولداً أحبه بتهوفن بهذه القوة التي كان يندفع بها إلى كل شيء، وسار الفتى سيرة سيئة لم يصلح منها حب عمه إياه ولا مداومته نصيحته، وكان هذا الفتى كثير الاستدانة، فكان بتهوفن في فرط حبه له يعمل جهد طاقته لسداد ديونه، وسافر بتهوفن في خريف سنة ١٨٢٦ يبحث عن وسيلة يوطد بها مستقبل ابن أخيه هذا، فلما عاد في أواخر نوفمبر سنة ١٨٢٦ أصابه برد أرضه، ولم يكن أحد من أصدقائه حاضراً ليعنى به، فكلف الفتى أن يبحث له عن طبيب، فensi مدّى يومين ثم جاء الطبيب وعالج بتهوفن علاجاً سليماً، وقد استطاع بقوّة بنبيته أن يقاوم المرض ثلاثة شهور تباعاً، لكنه ضعف بعدها ضعفاً أضعافاً الأمل في شفائه، ولو لا كرم بعض الإنجليز من أصدقائه لقضى آخر أيامه في بؤس وشقاوة ليس كمثلاً بؤس ولا شقاوة.

ثم جعل ينتظر في صبر وسكنينة «ختام المهزلة» حتى يوم ٢٦ مارس سنة ١٨٢٧، إذ عصفت عاصفة وهطلت ثلوج وأرعدت السماء وهاجت من الطبيعة أصوات موسيقاه المهوبة المخيفة، وعلى موج هذه الأصوات طارت روح بتهوفن إلى عالم الخلد، وكان عمر بتهوفن يومئذ ستّاً وخمسين سنة وثلاثة أشهر وتسعه أيام، فلما آن لجثمانه أن ينقل إلى مقره الأخير شيعه ثلاثون ألفاً ولبست فيينا عليه الحداد، ودفن في مقبرة وارنخ، وما يزال قبره إلى اليوم فيها وعليه هذا الكلمة الوحيدة الخالدة: بتهوفن.

وكذلك قضى من كان يرى الموسيقى إليهاً أسمى من الحكمة ومن الفلسفة ويتمثل أفكاره في عزف الآلات أكثر مما يتمثلها في ألفاظ الناس. وكذلك قضى «باكسوس» يستصفي للإنسانية الرحيق العذب ويجلي عليها أقدس ما في الروح من جلال»، قضى ونقل إلى قبره حيث خط اسمه، لكن روحه الماثل في ألحانه وأناشيده وعزفاته ما يزال باقياً ولن يزال، وهل الروح الخالد إلا العمل يترك به صاحب في العالم أثراً خالداً؟! وهل أثر أخلد من موسيقى بتهوفن؟! أو هل أكثر منها سحرًا وقداسة؟!

واليوم يحتفل العالم بمرور مائة عام إجلالاً لألحانه القدسية السامية، فيؤدي بعض دين الشكر الواجب على العالم لكل من زاد حياته جمالاً وفضلاً وقوّة.

(كتبت في ٢٦ مارس سنة ١٩٢٧ لمناسبة مرور مائة عام على وفاة بتهوفن).

هواشم

(١) البيان على نحت الأستاذ مصطفى صادق الرافعي.

هبوليت أدولف تين



احتفلت فرنسا منذ أيام بمرور مائة عام على مولد الفيلسوف الكاتب الفرنسي الكبير هبوليت أدولف تين، فقد ولد بفوزييه في الحادي والعشرين من أبريل سنة 1828 أي منذ مائة سنة مضت، وإذا لم يكن قد مضى على موته إلا خمس وثلاثون سنة — إذ مات بباريس في الخامس من مارس سنة 1893 — فإن الآثار التاريخية والأدبية والفلسفية التي خلفها تجعله حقيقةً منذ اليوم بأن يسجل في ثبت الخالدين، وتجعل حَّقاً له وواجبًا على وطنه فرنسا أن يشيد بذكره بين من يشيد بذكراهم من عظماء تلك البلاد، بل إن هذه الآثار لتجعله حقيقةً منذ اليوم بأن يذكره العالم كله بين الرجال الذين كانوا قوة عاملة ذات أثر خالد في العالم، نقله ونقل تفكيره خطوة جديدة وفتح

أماه من أسباب البحث سبلاً إن يكن غيره قد ترسمها من قبل فإن أحداً سواه لم يرسمها ولم يخططها بالقوة والدقة والمهارة التي رسمها وخططها بها تين، ويكتفي ليقدر القارئ مدى هذا الأثر العميق الذي تركه تين في تفكير العالم أن يسمع من كثير، حتى من الذين تناولوا تين وتفكيره بالنقد، أنه كان أكبر أثراً في نشر الفلسفة الواقعية (البوزتفزم) من صاحبها أو جست كومت نفسه، وإنه إلى جانب تثبيته قواعد هذه الفلسفة الوضعية في ذهن أهل عصره والعصور التي خلفته قد فتح لها ميادين جديدة في الفن وفي الأدب وفي الشعر وفي كل نشاط العقل الإنساني والنفس الإنسانية بما جعل للعلم الوضعية وللفلسفة الوضعية من متانة الأركان ما لا يزال حتى اليوم وظيفياً قوياً غاية القوة ب الرغم موجات الروحية والتبيزوافية وغيرها مما سبق الحرب وشجعته الحرب، ومما لا يستطيع أن يقاوم — حتى في ميادين الفلسفة البحثة — تيار العلم الجارف الذي يدل الناس كل يوم على أن العلم إذا أخطأ في تقرير نتائج معينة لأن الاستقراء أو الملاحظة أو التجارب لم تكن كاملة حين تقرير هذه النتائج، فالعلم وحده هو القدير على إصلاح هذا الخطأ من طريق الاستقراء والملاحظة والتجارب وما يترتب على هذه من تقويب ينتهي إلى استنباط القوانين العلمية الصحيحة التي يمكن أن تكون أساساً لارتكاز الفلسفة الواقعية الصحيحة.

رجل هذا أثره في التفكير الإنساني لا يمكن لوطنه إلا أن يعترف له بالمجد وأن يذكره لكل مناسبة، ولا يمكن للعالم أن ينسى له فضله على التفكير الإنساني وتوجيهه فلسنته في فترة خاصة من حياة هذا التفكير.

على أن لتين إلى جانب هذا الفضل العلمي العظيم فضلاً آخر لا يقل عنه، بل يزيد بعضهم أن يذهب إلى أنه يفوقه، ذلك هو فضله ككاتب، فهذا الرجل الذي حاول ونجح في محاولته هدم الفلسفة الكلامية التي كان الأستاذ فكتور كوزن عميداً في عصره، والذي حاول ونجح في أن يقر إلى جانب التفكير الواقعي Positive المذهب الجبرى "determinisme" وأن يطلق هذا المذهب على الإنسان ويخصمه له بمقدار ما تخضع له الأفلاك وال موجودات كلها، هذا الرجل كان صاحب أسلوب في الكتابة له من البهر ما يحرك كما تسحرك قطعة من الموسيقى أو لحن من الغناء، حتى ليدعوك إلى أن تعود إلى قراءة الصفحة مرات، وحتى ليترك في ذاكرتك صحفاً معينة تود الوقت بعد الوقت أن تعود إلى قراءتها وتريدها بصوت عالٍ لتسمع إلى ألحانها كما تسمع إلى ألحان أوركسترا بتهوفن، وإنني لأذكر الآن على ذكر اسم بتهوفن فصلاً له في كتابه (مذكرات

عن باريس Notes Sur Paris)، فصلًا عنوانه (خلوة Une tête à tête) وصف فيه إيقاع الحان بتهوفن وصفًا ما أزال ولن أزال أذن القراءة ولترديده الذي سماع الحان هذا الموسيقي في سمفونية الريف التي أحبها ولا أشبع من سماعها، وليس هذا الفصل الذي ذكرت إلا واحدًا من كثير من الفصول ومن الكتب ومن المطولات التي كتبها تين والتي لا تفتأ ترد إلى الخاطر وتتردد في خلايا الذاكرة كلما ذكر الإنسان النغم الحلو الساحر في تعبير الكتاب في أية لغة من اللغات.

ولعل أروع ما كتبه تين في هذه الناحية الأدبية هو ما كتبه في الوصف والسياحة، فكتابه الذي ذكرت لك عن باريس، وكتابه «مذكرات عن إنجلترا» وكتابه عن جبال البرانس، وكتابه عن رحلته في إيطاليا، هذه كلها كتب بلغت فيها براعة الوصف ملغاً قل أن يجاريه فيه كاتب، ولقد ذكرت لك هذه القطعة عن موسيقى بتهوفن، وأنت تعلم أن الكاتب إذ يكتب مثل هذه القطعة إنما يعتمد على ذاكرته، وذاكرة السمع هي التي كانت تحرك قلم تين حين وصف الموسيقى، مع ذلك فلم تكن ذاكرة السمع أقوى مذكرات تين، بل لقد ذكر لنا هو نفسه في كتابه De l'Intelligence أن أقوى ذاكراته ذاكرة الألوان، وأن المنظر الذي تقع عليه عينه تخزن ذاكرته أكثر مما تخزن أية صورة تتصل بإحدى الحواس الأخرى، فإذا كان ما ذكرت لك عن سونات بتهوفن هو بعض ما وعث ذاكرة السمع عند تين، فلك أن تقدر بعد ذلك كيف كان وصفه لما وعنه ذاكرة المرئيات وألوانها عنده، وكيف استطاع بأسلوبه المتوج الزاهي الشديد الحركة والحياة أن يثبت الألوان المختلفة التي اختزنتها ذاكرته في سياحاته الكثيرة.

وليس فضل تين مقصورًا على فلسفته وعلى أدبه، فهو إلى جانب ذلك مؤرخ من أكبر المؤرخين الفرنسيين، أقول المؤرخين الفرنسيين ولا أقول مؤرخي فرنسا؛ لأنه لم يقتصر على كتابة تاريخ بلاده، وإذا كان كتابه «أصول فرنسا الحديثة» الواقع في اثنى عشر جزءًا هو من أمهات كتب التاريخ الفرنسي، وكان يتناول عصر ما قبل الثورة كما يتناول عصر الثورة والعصور التي بعدها، فإنه قد تناول إلى جانب هذا التاريخ بحوثًا أخرى في التاريخ القديم وفي التاريخ الحديث، وتناولها كما تناول كل مباحثه على طريقته الخاصة التي سنعرض فيما بعدها لها، وتناولها بدقة في البحث وبدقة في العبارة وقوة في الأسلوب جعلت له كل هذه المكانة التي كانت له في عصره، وكل هذا المجد الذي يشهد له به اليوم حتى ألد خصوم نظرياته، ويكتفي أن يطلع الإنسان على كتابه «تاريخ الآداب الإنجليزية» ليقدّر مدى ما لهذا الكاتب من سعة اطلاع ودقة بحث

وعمق تفكير شهدت كلها له بأن قليلين من الإنجليز أنفسهم هم الذين تناولوا بحث آداب لغتهم بهذه السعة والدقة والعمق، فأماماً مباحثه التاريخية الأخرى، ومباحثه التي مزج فيها التاريخ بالأدب فتزيدك بهراً ودهشة، اقرأ «تيت ليف» وعصره من عصور التاريخ الروماني، اقرأ «لافونتين وأفاصيصه»، اقرأ كتبه الثلاثة «رسائل في النقد وفي التاريخ»، ثم سائل نفسك كيف كان يصنع هذا الرجل ليحيط بكل هذه الأشياء خبراً؟ وكيف كان يصنع ليمحصها كل هذا التمحيص؟ كان يصنع ليكتب، وكيف كان يصنع ليؤدي كل هذه الأعمال، وليرؤديها بهذا الجمال وبهذه الدقة وبهذه القوة؟!

ورسائله في النقد والتاريخ قد جعلت منه نقادة معترفاً بفضله وبسلطانه، وقد أقامت له مذهبًا في النقد يتسق مع مذهبـه في الأدب وفي التاريخ وفي الفلسفة وفي كل ما تناول من مباحثـ، وعندـي أن مذهبـه في النقد أقرب إلى الدقة من كل مذهبـ سواهـ، فهو أشد المذاهبـ إمعاناً في «الموضوعية»، هو إذا عرض لكتابـ أو مؤلفـ لم يعرض له من جهة تقديرـ الشخصـي لكتابـ أو لصاحـبهـ، ولكن بعد تحليلـ كل ما أحاطـ بالمؤلفـ ومـؤلفـ من ظروفـ، وبعد مقارنةـ هذا المؤلفـ بكلـ ما يستطيعـ مقارنتهـ بهـ منـ عاصـرـهـ ورمـيـ إلىـ مثلـ غرضـهـ، ولـستـ أدرـىـ إذـ أقولـ إنـ مذهبـهـ أقربـ إلىـ الدقةـ منـ كلـ مذهبـ سواهـ، لأنـاـ متـأثرـ بتـقديرـ ذاتـيـ أمـ بـذكريـاتـ خـاصـةـ، فـلـقدـ قـرـأتـ كـتبـهـ فيـ النـقـدـ وـالتـارـيخـ مـنـذـ أـكـثـرـ مـنـ اـثـنـيـ عـشـرـ سـنـةـ وـتـرـكـتـ فيـ نـفـسـيـ مـنـ الـأـثـرـ مـاـ لـمـ تـرـكـهـ كـتبـ أـنـاثـلـ فـرـانـسـ «ـالـحـيـاةـ الـأـدـبـيـةـ»ـ وـمـاـ لـمـ تـرـكـهـ كـتبـ أـسـتـاذـ الـنـقـدـ الـكـبـيرـ سـنـتـ بـيـفـ نـفـسـهـ،ـ وـلـستـ أـشـكـ فيـ أـنـ كـثـيـرـينـ قـدـ يـتـذـوقـونـ نـقـدـ جـوـلـ مـلـتـ أوـ فـاجـيـهـ أوـ بـورـجيـهـ أوـ بـولـ سـودـايـ أـكـثـرـ مـنـ تـنـوـقـهـمـ نـقـدـ تـيـنـ،ـ وـرـبـماـ كـانـ حـكـميـ أـنـاـ أـيـضاـ يـتـغـيـرـ لـوـ أـنـ الـظـرـوفـ الـتـيـ أـحـاطـتـ بـقـرـاءـتـيـ تـغـيـرـتـ،ـ لـكـنـيـ مـاـ أـزـالـ أـسـيـرـ حـتـىـ الـيـوـمـ حـيـنـ أـعـرـضـ لـقـرـاءـةـ كـتـابـ وـحـيـنـ أـفـكـرـ فيـ نـقـدـهــ وـلـوـ لـنـفـسـيـ وـمـنـ غـيرـ أـيـ فـكـرـةـ فيـ الـكـتـابـ عـنـهــ عـلـىـ الـطـرـيقـةـ الـتـيـ أـحـبـتـهاـ نـفـسـيـ مـنـذـ قـرـاءـةـ كـتبـ تـيـنـ.

لتـيـنـ إـلـىـ جـانـبـ هـذـهـ الـمـيـادـيـنـ الـكـثـيـرـ مـيـدانـ آخرـ لـمـ يـقتـصـرـ عـلـىـ التـأـلـيـفـ فـيـهـ،ـ بـلـ كـانـ فـيـهــ كـمـاـ كـانـ فـيـ بـعـضـ الـمـيـادـيـنـ الـأـخـرــ مـدـرـسـاـ أـيـضاـ،ـ ذـلـكـ مـيـدانـ الـفـنـ الـجـمـيلـ،ـ وـلـقـدـ كـانـ تـيـنـ مـوـسـيـقـيـاـ،ـ فـلـاـ عـجـبـ إـذـ هـوـ تـحدـثـ أـوـ كـتبـ عـنـ الـفـنـ الـجـمـيلـ،ـ لـكـنـ إـذـ تـقـرـأـ كـتـابـ «ـفـلـسـفـةـ الـفـنـ»ـ تـرـاهـ يـحـلـ الـفـنـ وـصـورـهـ وـتـمـاثـيـلـهـ بـالـطـرـيقـةـ عـيـنـهـاـ الـتـيـ يـحلـ بـهـ الـمـسـائـلـ الـنـفـسـيـةـ وـالـمـسـائـلـ الـمـادـيـةـ وـيـخـضـعـ الصـورـ وـالـأـنـغـامـ لـقـوـاعـدـ الـجـبـرـيـةـ الـتـيـ يـخـضـعـ لـهـاـ كـلـ مـاـ فـيـ الـوـجـودـ مـنـ سـمـاـوـاتـ وـأـفـلـاكـ وـكـائـنـاتـ،ـ أـلـيـسـ الـفـنـوـنـ بـعـضـ ثـمـراتـ

الإنسان، «والإنسان ثمرة وسطه» على ما يقرر تين غير مرة وفي غير موضع؟ والوسط الذي يعيش فيه الإنسان ليس خاضعاً له ولكنه خاضع لعوامل طبيعية وتاريخية لا قبل له بها ولا سلطان له عليها، إذاً فالفن ثمرة محتملة لهذه العوامل، ويمكنك أن تفسره وأن تفهمه بشرح هذه العوامل، كما يمكنك ببساطها أن تفسر وأن تفهم أي عمل من أعمال الإنسان.

ولكن ليس معنى أن «الماء ثمرة وسطه، أو بيئته إن شئت» أن الناس يتساون فيما بينهم كما يتساوى ثمر الشجرة الواحدة، بل إن ثمر الشجرة الواحدة لا يتساوى، فمنه الكبير والصغير ومنه الصالح والفاسد، والناس كذلك منهم الصغير والكبير والصالح والفاسد، وأنت تستطيع أن تعرف الفرق بين ثمر الشجرة بأن تشقه وأن تصل إلى دخليته، فكيف تستطيع أن تصل إلى دخلية الرجل لترى مبلغ ما يختلف أولئك المتشابهون من ثمر الوسط الواحد تشابه ثمرات الشجرة الواحدة واحتلافها؟ الأمر هين يدرك عليه تين في مختلف من مواضع كتابه، ويدرك عليه بنوع خاص في كتابه عن «الذكاء» ويفرد له مقدمة الطبعة الأخيرة من تاريخ الأدب الإنجليزي التي طبعت سنة ١٨٩١.

فكل مظاهر الرجل وكل أعماله وكل مطامعه ومشاعره هي المسالك إلى دخلية نفسه، فإذا أنت أردت على هذه الطريقة نفسها أن تعرف تين حق المعرفة فيجب أن تعرف كل مظاهره وكل أعماله، وكم كنا نود لو استطعنا القيام بهذا البحث في هذه العجالة القصيرة عن حياة ذلك الرجل العظيم، لكننا مع ذلك نكتفي بالقليل الذي أتاح لنا الظروف أن نعرف عنه عن الكثير الذي لا سبيل إلى معرفته غير الانقطاع لدراسة تين وحياته وكل كتابه دراسة ذاتية لا تتمنى إلا لأنستاذ في الفلسفة أو في الأدب الفرنسي، ولعلنا في هذا الاكتفاء بالقليل الذي نعرف لا نغمسن تين حقه، ثم لعلنا لا نعدو بعض مباحثه التاريخية في النقد، فأمامنا بعض الشيء عن حياته، وأمامنا مؤلفاته الكثيرة، وهي صورة نفسه وخلاصة حياته، وأمامنا إلى جانب هذا أسلوبه، والأسلوب — على ما قال تين — هو الإنسان.

ولد هبوليت تين إذاً بفوزييه بمقاطعة الأردن في فرنسا في ٢١ أبريل سنة ١٨٢٨ من عائلة رقيقة الحال، وكان لأبيه جان باتيسيت تين اتصال بالقضاء؛ لذلك استطاع تين أن يتلقى عليه تعاليمه إلى جانب دراساته بمدرسة مسيو بيرسن الصغيرة حتى بلغ

الحادية عشرة من عمره، وإذ ذاك مرض أبوه فأرسل به في سنة ١٨٣٩ إلى مدرسة دينية في (رتل) أقام بها ثمانية عشر شهراً توفي أبوه خلالها تاركاً ثروة بسيطة لأرمته وابنه وابنته، وبعد وفاة أبيه سافر إلى باريس فالتحق بمعهد ماتيه، وكان تلميذ هذا المعهد يدرسون بمدرسة بوربون College Borbon، وفيها ظهرت بوادر كفالياته النادرة كما اتصل فيها بأصدقاء كان لهم أبلغ الأثر في مستقبل أيامه من أمثال بروفوبارادول، وبلانا، وكرنوليis، وفت وغيرهم.

ولقد امتاز تين لأول دخوله المدرسة بمقدرة على العمل مدهشة وبإكباب عليه لا يقل إثارة للدهشة، فلقد كان يكتفي لرياضة نفسه بعشرين دقيقة يقضيها لعباً بعد العشاء وبساعة يلعب في أثناءها الموسيقى بعد الغداء، أما فيما سوى هذا وفيما سوى أوقات الطعام والنوم فكان لا يصرفه عن العمل صارف، وكان لذلك كثير التحصيل كثير التعليق على ما يحصل كثير التفكير فيه مما جعل له على أصدقائه جميعاً نفوذاً معتداً به منهم اعترافهم بفضله وبمقدراته في الكتابة نظماً ونثراً في اللغتين الفرنسية واللاتينية.

وبعد انتهاء دراساته الثانوية انتقل إلى مدرسة المعلمين L'Ecole Normale وفيها ازداد إكبابه على الدرس فقرأ أفلاطون وأرساطو وأباء الكنيسة كما استمر يدرس الإنجليزية التي أتقنها ليدرس آداب اللغة الإنجليزية، وإذا كان تين قد ظهر تفوقه في أثناء دراساته الثانوية وفي أثناء مقامه بمدرسة المعلمين حتى لقد كانت الجوائز الأولى كلها من نصيبه، فإن الروح العلمية المنطقية التي امتاز بها بعد ذلك والتي وضع على قواعدها مذهب في البحث، قد تبيّنت في أثناء وجوده في مدرسة المعلمين بنوع خاص، فقد لاحظ عليه أساسنته جميعاً مبالغته في دقة الحرص على المنطق والسلوك به مسلكاً رياضياً والوصول به دائماً إلى قاعدة على نحو ما يصل الرياضيون في مسائل الحساب والهندسة والجبر، أثبت أستاذاه فاشروا في مذكراته عن تين — وما يزال تين طالباً بمدرسة المعلمين — ما يأتي: «أكثر تلميذ عرفت في المدرسة جدًا ورقى نفس، علم مدهش بالنسبة لسنّه، تحمس وشره للعرفان لم أر له مثلاً، ذهن يلفت النظر بسرعة التصور والدقة والمرونة وقوّة التفكير، لكنه يدرك ويتصور ويحكم ويقرر بغایة السرعة، مولع بالقواعد والتعريف حتى لكثيراً ما يضحي بالحقيقة من أجلها، ومع ذلك لا يظن أنه يضحي بالحقيقة لأنّه كان مخلصاً لها أشد إخلاص، وسيكون تين أستاذًا ممتازًا، لكنه سيكون أكثر من ذلك وفوق ذلك عالماً من الطراز الأول إذا أتاحت

له صحته الاشتغال بالعلم زمناً طويلاً، ومع ما له من دماثة في الخلق عظيمة ومن طباع غاية في الطيبة؛ فلذنه قوة لا تلين حتى لن يستطيع أن يكون لأحد على تفكيره أي تأثير، وهو على كل حال ليس من أهله هذا العالم، فسيكون شعاره شعار سبنوزا (يعيش ليفكر) أما خلقه وأما طبيعته فيمتازان بمناعة لا يستهويه معهما إغراء».

على أن هذا التفوق الذي كان للطالب تين لم يكن ليعرف الناس به من غير أن يجني على صاحبه جنایته، ومتى كان تفوق رجل من الناس تفوقاً عقلياً لا يجني عليه في نظر السلطان والذين يمسكون بيدهم مصير الجماعات؟! صحيح أن هذا التفوق يقدر عند المخلصين والذين لا مصلحة لهم في سؤدد آراء ومبادئ معينة، وهذا التقدير هو الذي يكفل انتصار الحق ولو بعد حين، لكن تين الذي كان يقضي كل وقته قراءة وبحثاً، والذي أوتي هبة النقد والتمحيص منذ شبابه، والذي لا يستطيع أن يسلم بغير ما يعتقد الحق، تين هذا – وهو طالب – لم يكن ليقر كثيراً من المبادئ الفلسفية التي كانت تدرس يومئذ وغايتها إما تأييد ناحية دينية تجعل التفكير خاصعاً للمبادئ المسيحية التي تريد للكنيسة أن تسود، أو تأييد ناحية علمية خاصة هي ناحية المنطق المطلق، أو المنطق المجرد مما كان يدرسه كوزن وغير كوزن من فلاسفة ذلك العصر، وقد خرج تين – وما زال طالباً – على هاتين الطريقتين من طرائق التفكير، ورأى فيما وسائل غير صالحة للكشف عما في العالم من حقيقة، ووضع تين – وما زال طالباً – قواعد تفكيره هو، هذه القواعد التي سار عليها في مستقبل أيامه مجاهداً لإكمالها ما استطاع، ولكن من غير أن يرى في كل دراساته وبحوثه ما يطعن عليها أو ينقضها، وإنما فهو ثائر على التعاليم المقررة، وإنما فيجب لا ينجح في إجازة الفلسفة التي تقدم لها مع زميليه أوبيري وسووكو في سنة ١٨٥١، ول يكن عدم نجاحه هذا وهو المشهود له بالفضل والتفوق عزاء لغيره من الذين تقدموا للإجازة نفسها فرسبووا وهم دونه تفوقاً وفضلاً.

ولم يغير عدم نجاحه في إجازة الفلسفة من رأيه ولا من عزمه، واستمر في عمله وبحوثه وإن اشتغل بالتدريس في المدارس المختلفة أن عينه وزير المعارف مدرساً بمدرسة (نفير) في مفتتح عام ١٨٥١ الدراسي، لكنه لم يبق في هذه المدرسة إلا شهوراً نقل بعدها إلى مدرسة دونها في الدرجة، ذلك أن اضطراباً سياسياً وقع في فرنسا واتّهم المعلمون بأنهم سببه وطلب إليهم أن يعتذروا وأن يشكروا رئيس الجمهورية على التعديلات التي أدخلها على نظام الحكم، فكان تين هو الوحيد الذي رفض الاعتذار

والشكرا، وعلى ذلك أُنذر وُنقل إلى بواتييه ومنها نقل مساعد مدرس إلى بزانسون سبتمبر سنة ١٨٥٢.

ومع تنقلاته الكثيرة وعدم رضا السلطات عنه فإن نشاط تين لم يفتر ودراساته وتحصيله لم يَهِنَا وإنماه بمذهبة في البحث لم يضطرب، فقد وضع رسالة عن المشاعر أو رسالة لاتينية تقدم بها إلى السوربون لنيل إجازة الفلسفة، ولها *Les Sansations* كانت هذه الإجازة قد ألغيت فقد أراد أن ينال بهما إجازة الآداب - *Aggregation-es lettres* لكن طريقة في التفكير جنت عليه هذه المرة كذلك فلم تقبل رسالته، فوضع رسالة أخرى عن لافونتين هي التي نال بها دكتوراه الآداب في ٣٠ مايو سنة ١٨٥٣.

ومن بعد حصوله على الدكتوراه عرضت الأكاديمية الفرنسية موضوعاً لجائزة تمنح في سنة ١٨٥٥ رسالة تكتب عن تيت ليف الكاتب والمؤرخ الروماني الكبير، فتقدم لها تين وكتب فيها رسالة كانت هي الأولى بين كل الرسائل التي قدمت.

بعد هذه المجهودات المضنية سنت سنوات تباعاً شعر تين بالحاجة حاجة ماسة مطلقة إلى الراحة ونصح له بأن يذهب إلى جبال البرانس، وطلب إليه الناشر هاشت أن يكتب له دليلاً عنها فوضع كتابه «سياحة في البرانس» وصف فيه هذه الطبيعة الجميلة العجيبة وعادات أهلها وقصصهم وصفاً دقيقاً، نادى ما رأى موضعًا لنقده مازجاً ذلك كله بفلسفته، متبعاً حتى في هذا الكتاب طريقة الجديدة التي جنت عليه من قبل.

ما هي هذه الطريقة الجديدة؟ وكيف يمكن أن تجني على كاتب في عصر كالعصرين الذي عاش فيه تين والذي تقررت فيه حرية الرأي والنشر على أنها مكفولة مقدسة؟!

أما طريقة تين في رسائله التي تقدم بها للامتحانات وفي كتاب تيت ليف وفي غير ذلك من الكتب التي ظهرت والتي ستظهر حتى آخر أيام حياته، فتقوم على فكرة أساسية هي تطبيق الطريقة الواقعية – أو الوضعية – التي قررها أو جست كومت على الأحياء بنفس الدقة التي تطبق بها على غير الأحياء، وتطبيقاتها على الإنسان وعلى النفس والروح بنفس الدقة التي تطبق بها على الأحياء الأخرى غير الإنسان وعلى غير الأحياء، فكما أن طريقة البحث العلمي في شأن غير الأحياء هي الملاحظة والتجربة واستنباط القوانين على قواعد هذه الملاحظة والتجربة، فيجب اتباع هذه الطريقة بعينها في شأن الحيوان والإنسان على السواء.

وأنت لكي تدرس غير الأحياء فأنت تحل الشيء، وأنت ترجعه إلى نظائره وأشباهه، وأنت تلاحظ تأثيره بالبيئة المحيطة به وتأثيره فيها ثم تستنبط القوانين الخاصة به بعد

إذ تنظم ملاحظاتك وتجاربك وتربتها، ثم أنت تعمد لتقف على حياة الحيوان إلى تأثره عن طريق حواسه بالأشياء المحيطة به، كما أنك إذا أردت أن تعرف تاريخه عدت إلى ما قد يكون باقىاً في الأحجار من آثاره، هذا فضلاً عن التجائب في تجاربك عليه إلى كل الوسائل المختلفة التي يلجأ إليها الكيميائيون والأطباء وغيرهم في معاملتهم. ذلك كذلك يجب أن يكون شأنك مع الإنسان، يجب ألا ترى فيه عالماً مستقلّاً وسط هذا العالم الذي تعيش فيه، إنما هو جزء من هذا العالم خاضع لقوانينه وأحكامه متاثر به مؤثراً فيه تجري عليه السنن التي تجري على غيره من الخلائق، فإذا أردت أن تبحث في أي شأن من الشؤون يتعلق به وجّب عليك أن تلجاً إلى الطرائق العلمية التي تلجاً إليها في الظروف الأخرى، وأن ترى في أعماله ومشاعره وإحساسه وتصوراته وسائل الوصول إلى دخلة نفسه، هذه دون سواها هي الطريقة الأكيدة التي تصل بك إلى شيء يقرب من الحقيقة، وهذه يجب أن تكون أساس البسيكلولوجيا وأساس التاريخ وأساس الاجتماع وأساس العلوم المتصلة بالإنسان جميعاً، فأما الطريقة التي تقيم هذه العلوم على قواعد المنطق المجردة التي تجعل من استجمام الشخص في طوابي نفسه وسيلة رسمه للعالم ما يستلهمه من صورته، فليست من الطرائق العلمية في شيء ولا يمكن الاعتماد عليها إذا نحن أردنا أن نقيم عالماً إنسانياً أو فلسفة إنسانية على قواعد علمية صحيحة.

هذه هي الطريقة الجديدة التي امتاز بها تين والتي جنت عليه في كثير، وهي قد أصبحتاليوم قديمة وقد أصبح يرد عليها نقد كثير أساسه ما فيها من تطرف وغلو، ولكنها كانت جديدة يوم نادى بها تين، وكانت عماداً قوياً للمذهب المادي، فهي لا تقر للروح ولا للنفس ولا لأمثال هذه الألفاظ بمعنويات مستقلة قائمة بذاتها بعيدة عن مادة الجسم، بل هي ترى كل ما في الجسم بعض مادته كما أن ما في أي موجود من الموجودات بعض مادة هذا الموجود، وإذا كانت هذه المادة ذات إرادة وذات خلق وذات تصور وتفكير، فإن هذه الظاهر ليست إلا صور القوة الكمية في المادة، أو إن شئت التعبير الدقيق، فهي بعض صور المادة متحولة إلى قوة؛ لأن المادة والقوة شيء واحد بدليل تحول كل منها إلى الآخر حين تفاعله مع غيره من القوى أو المواد، وما دام ذلك هو الشأن وكانت القوة والمادة تخضعان لقوانين ثابتة لن تجد لها تبديلاً، فمن الخلط الذي لا يبرره ميره أن تختلف طريقة البحث في الإنسان عنها في غير الإنسان، ومن الخطأ المبني على العقائد الرائجة انتهاج سبيل في بحث شؤون النفس غير السبيل العلمية المقررة فيسائر الشؤون.

كانت هذه الطريقة جديدة يوم نادى بها تين، لكنه نادى بها منذ كتبه الأولى على صورة واضحة وبأسلوب قوى لفتا الأنظار له، وبخاصة أنظار مفكري ذلك العصر ومن كانت بيدهم مقاليد الجماعة في التفكير وفي الحكم، وإذا التفتت أنظار هؤلاء فلا تفك في حرية مكافولة ولا في حرية مقدسة، إنهم — إن كانوا مخلصين حقاً — يعتبرون أنفسهم حماة الجمعية ونظامها، ويررون في محاربة الأفكار التي تختلف أفكارهم محافظة على هذا النظام، وكثيرون منهم يشعرون — وإن لم يقولوا — بأن المحافظة على نظام الجماعة جديرة بأن تهدر من أجلها كل حرية؛ لأن الحرية لا توجد إلا حيث يوجد النظام.

ونشر كتابه «سياحة في البرانس»، وصف فيه هذه الجبال الفاصلة بين فرنسا وإسبانيا وأخلاق أهلها وطبق في وصفه وفي تحليله نظرياته التي أشرنا إليها، على أنه لم يكتفى من سياحته بالرياضية وبوضع هذا الكتاب، بل هو ظل يستمع لقارئ استصحبه في جولاته وظل يفكر فيما يسمع ويعمل عليه، أليس شعاره أنه يعيش ليذكر، فإذا هو كان في رياضة قضت بها صحته، أو هو كان في مكتبه، فليس أمامه ما يمنعه عن التفكير كما أنه ليس أمامه ما يمنعه عن التنفس، ولقد كان فكره بحاجة إلى العمل حاجة رئيسيه إلى الهواء، حتى لقد يخيل إلى من يقرأ تاريخ حياته أن هذه الحياة تتعرض للخطر إذا هو انقطع عن التفكير العلمي الجدي يوماً من الأيام.

ولقد أفاد من سياحاته في البرانس لصحته، وأفاد من قراءته وتفكيره وأفاد شيئاً جديداً لم يكن له من قبل به عهد، ذلك اتصاله بالحياة الخارجية ولو اتصالاً محدوداً، فلقد عاش منذ أيام تلمذته وليس يعرف غير كتبه ومكتبه وغير البيانو يوقع عليه الألحان التي يحبها والتي يجد فيها سلوة عن كل تعبه، وكان من أثر ذلك عليه أن جعله — على ما قال فاشرو — يدرك ويتصور ويحكم ويقرر بغاية السرعة، ويولع بالقواعد والتعاريف حتى لكثيراً ما يضحي بالحقيقة من أجلها، أليس ما في الكتب منطقاً مجرداً؟! أوليست كتب ذلك العصر — حتى كتب الفلسفه الواقعيين — قليلة التحليل للواقع الصغيرة؟! فلتمن عذره إذا هو سارع إلى تقرير النتائج ووضع التعاريف والقواعد ما دام يسير على الطريقة التي رسماها لنفسه على أنها سبيل الحقيقة، وما دام لم يتصل بالعالم الخارجي اتصالاً يجعله أكثر ميلاً لتحليل الحوادث الصغرى واستقرارها وترتيب النتائج عليها، فلما أتاحت له زيارة البرانس الاتصال بالحياة أتاحت له مع هذا الاتصال شيئاً من التؤدة في منطقه الرياضي السريع وجعلته

أكثر عنية باستيعاب أكثر ما يستطيع استيعابه من الواقع الصالحة لإقامة ما يريد أن يقيمه عليها من نظريات وقواعد.

وعاد من البرانس فعاش مع أمه في جزيرة (سان لوبي) ثم اخترط من جديد بأصدقائه بلانا وبريفو برادول وأبو وتعرّف إلى رينان، ومن طريقه عرف سانت بياف، وجدد علاقته مع مسيو هافيه الذي كان أستاذًا بمدرسة المعلمين مدى ثلاثة أشهر، وكما عاد إلى أصدقائه عاد إلى جده وإنتجه حتى لتعتبر السنستان ١٨٥٥ و ١٨٥٦ من أكثر حسني حياته نشاطاً وأغناها إنتاجاً، فلقد نشر عشرات المقالات في مجلة (L'Instruction Publique) كما نشر مقالاً في مجلة «العالمين»، وفي سنة ١٨٥٧ بدأ يكتب جريدة «الديبا» واستمر بعد ذلك على مكاتبتها طويلاً.

والذي يقرأ كتبه الثلاثة «رسائل في النقد وفي التاريخ» وكتابه «الفلاسفة الإنسائيون في القرن التاسع عشر» يرى اتجاه مجهوده العقلي في تلك السنوات الخصبة من حياته، ويرى مبلغ هذا المجهود الضخم الذي تناول بحث اليونانيين القدماء وكتاب فرنسا وفلسفتها وكتاب إنجلترا ومفكريها، وتناول ذلك في دقة وإحاطة قل نظيرهما، وماذا تريد أن تكون الدقة والإحاطة أكثر من أن يعرض تين أمام نظرك فكرة كل كاتب وفلسفته وأسلوبه، وأن يحلل ذلك وأن يرده للبيئة وللجنس اللذين نشأ الكاتب فيهما، وأن يدلك على ما يراه النقاد غيره وما يراه هو في الكاتب وفكرته من قوة وضعف وكمال ونقص ودقة في بلوغ الغاية التي قصد إليها الكاتب أو اضطراب في نهج السبيل إلى تلك الغاية، وهذه هي طرقته التي سار عليها منذ تلك الأيام في النقد، وهي الطريقة العلمية الصريحة التي لا تعرف المواربة ولا المداجاة، ولا تعرف مذاهب الشك والتردد، والتي تتفق من كل كاتب ومن كل موضوع على خلاصة الموضوع وعلى صورة واضحة من الكاتب على نحو ما رأه تين.

وقد طبع تين مباحثه عن الفلسفه الإنسائيون ونشرها في أوائل سنة ١٨٥٧، أي في التاسعة والعشرين من عمره، ومع أنه إلى ما قبل ذلك التاريخ قد لقي من رجال الجامعة ومن وزارة المعارف عنتاً، فإن رسائله المختلفة التي نشرت لم تثر من النقد إلا ما كتبه أصدقاؤه عن سياحة البرانس وما كتبه الأستاذ الكبير جيزو عن تيت ليف، لكنه ما لبث أن نشر «الفلاسفة الإنسائيون في القرن التاسع عشر» حتى تكلم عنه كثير من كبار نقاد عصره أمثال سانت بياف وشرر ويلانش وغيرهم مما زاد في ذيوع رفعته ككاتب وكمفكر وكفيلسوف مجدد في الطريقة وفي الأسلوب.

ولم يكن عجبًا أن ينال هذا الكتاب من كتب تين تلك المكانة، فهو قد قصد به إلى هدم الفلسفة الكلامية التي كان يدرسها ويقررها في ذلك الوقت لارميجه ومين دبیران والمسیو فکتور کوزان، وكان فکتور کوزان صاحب مقام كبير في ذلك الظرف، وكان القائم بتدريس الفلسفة في كلية فرنسا، وكان درسه مقصود المئات من المستمعين؛ لذلك كانت حملة تين عليه أشد من حملته على صاحبيه، فكان يقول عنه إنه بحاثة غير فیلسوف، وكان يرى في هذه الفلسفة الكلامية أو الإنسانية شذوذًا معيناً على قواعد العلم التي تقررت منذ أوائل ذلك القرن، وعودته إلى قواعد قديمة عقيمة تخلط بين طريقة دیکارت التي تبدأ بالشك، والنظريات الألمانية التجريدية الصرفة، وهو قد سلك في هدمه لتلك النظريات مسلكًا جمع بين المنطق الدقيق الذي امتاز به وبين التهمك بتلك الطرائق العتيقة البالية من طرق البحث عن الحقيقة تهكمًا ظهرت فيه مقدرة تين ككاتب إلى جانب تفوقه كمفکر وكفیلسوف، ثم هو قد أيد ما قررته مباحث عصره الحديثة مما جاء به أوجست کومت وداروین وغيرهما من الذين وضعوا قواعد العلم الواقعي وأسس نظريات التطور، ثم هو قد أضاف إلى ذلك نظريته الخاصة بتطبيقات هذه القواعد تطبيقاً لا هوادة فيه على الإنسان كتطبيقه على غير الإنسان وعلى الجماه، وإذا كانت هذه النظرية قد لقيت في بادئ الأمر شيئاً من معارضة الهيئات الجامعية، فإن المباحث العالية التي نشرها تين مشبعة بها والمقام الذي كان يرتفع إليه يوماً بعد يوم وعاماً بعد عام، جعل نجاح كتابه عن الفلسفة الإنسانية نجاحاً حاسماً ودعا الكثيرين إلى أن يعيدوا النظر فيما يقرره هؤلاء الفلسفه من قواعد، وجعل ما وجدهمكارو وغيره إلى تين وإلى رينان من نقد أساسه رميهم بالإلحاد، لا يلقى من المفكرين والعقلاة وذوي الرأي أي التفات له بأكثر من الإشراق على كاتبيه والرثاء لحالهم.

وكما جمع مقالاته عن الفلسفة في كتابه هذا فقد جمع رسائله في النقد وأظهر الجزء الأول من «رسائل في النقد وفي التاريخ» سنة ١٨٥٨، على أن كتابة هذه الرسائل وجمعها ونشرها لم يشغله عن متابعة بحوث تاريخية في الأدب الإنجليزي شغف بها منذ أيامه الأولى وشغل بها منذ مطالعاته بعد ترك مدرسة المعلمين، ولقد نشر الأجزاء الأولى حتى بيرون في سنة ١٨٦١ واستمر يكمل هذا الكتاب الذي يعتبر كتابه عن (الذكاء) وكتاب (أصول فرنسا الحديثة) أمّا من أمهات كتب تين وأثاراً باقياً من آثار تفكيره، وقد أتم هذا الكتاب ونشره كاملاً في سنة ١٨٦٣ ووضع له المقدمة التي أشرنا من قبل إليها، والتي حل فيها صلة الإنسان بالبيئة وبالجنس وبالعصر الذي يولد فيه

تحليلًا انتهى منه إلى أن المرء ثمرة هذه العوامل الثلاثة، وإنك إذا استطعت أن تعرف كل الدقائق الحية بهذه العوامل الثلاثة استطعت أن تضع للإنسانية من القوانين الثابتة ما لا سبيل إلى تبديله إلا أن يكون لتبديل سنن الكون العامة سبيلاً.

والحقيقة أن هذا الكتاب الذي وضعه تين عن آداب اللغة الإنجليزية قد أضاف إلى مجده كفياسوف وكمؤرخ مجده ككاتب، ولئن كانت رسالته عن «سياحة في جبال البرانس» قد دلت من ذلك على شيء كثير، فإن وصفه للعصور المختلفة التي مرت بها إنجلترا وأثرت في أدبها قد دل على خصب في الخيال لا يقل عما كان لتين من دقة في المنطق، وأدت تقرأ صحف هذا الكتاب المتالية فتنتقل من تحليل نفسياني دقيق لكاتب من الكتاب أو شاعر من الشعراء أو عصر من العصور، إلى وصف جمع بين الدقة المنطقية والخيال الشعري لحياة ذلك الكاتب أو الشاعر ولحياة جماعة أهل ذلك العصر، وهذا التداول بين دقة المنطق وخصب الخيال هو الذي طوع لكثيرين من نقاد تين أن يقولوا عنه إنه منطقي شاعر أو خيالي فيليسوف، وربما وجدت لهذا النقد في بعض كتب تين مسوغاً، لكنك تقع دائمًا على ما يدلك على أن تين كان يشعر تمام الشعور بهذا التداول، وكان يحرص على ألا يجني أحد جانبي نفسه على الجانب الآخر، فما يقع تحت قلمه عبارات تتردد آنًا بعد أن يذكر فيها أنه جاوز الحد مضطراً في استعمال المجاز وفي الالتجاء إلى الخيال ويعود بعدها إلى منطقه المحكم وتحليله الدقيق، فيشرح البيئة الطبيعية والعصر ومميزاته والجنس وخصائصه، ويطبق ما يستنتاج من ذلك كله على الكتاب والشعراء الذين يحللهم ويرسم بذلك صورة مضبوطة من هذا الأدب الإنجليزي الذي استغرق تاريخه أربعة أجزاء من كتب تين.

وكان تين قد رشح نفسه سنة ١٨٦٢ ليقوم بتدريس الأدب في مدرسة الهندسة، لكن مسيو دي لوني انتخب بدلاً منه، على أن وزير الحرب عينه في مارس في السنة التالية ممتحناً في التاريخ واللغة الألمانية بمدرسة سان سير العسكرية، وفي سنة ١٨٦٤ شغل مقعد تدريس تاريخ الفن والجمال في كلية الفنون الجميلة، فكان تعاقبه في وظائف الدولة سبباً لإثارة الخوف في نفس رجال الدين مما دفع المونسنيير لوبانلو ليكتب منشوراً يوجه به إلى الشبيبة وإلى الآباء يطعن فيه طعناً جارحاً على تين ورينان وليري ويشهر فيه بنزعاتهم الإلحادية مما كاد يودي بمركز تين لولا تدخل البرنسيس ماتيلدا لحمايته.

وفي سنة ١٨٦٤ وجه بكتبه إلى الأكاديمية ليحصل على جائزة بوردان، فانبرى له مونسنيير لوبانلو من جديد واشترك معه آخرون ليحولوا بينه وبين الجائزة، على أن

مسيو جيزو دافع عنه بكل إخلاص واستمرت المناقشة أمام الأكاديمية فيمين يستحق الجائزة ثلاثة أيام متتالية استقر الرأي بعدها على أن الجائزة لا تمنح لأحد ما دامت لا تمنح لتين، ومن ذلك التاريخ فتر اهتمام تين بالأكاديمية وتعضيدها أو عدم تعضيدها له.

على أن هذه الخصومات المتتابعة وهذا التجني على ذلك الكاتب الفيلسوف الكبير لم يحل دون حصوله على وسام اللحبيون دونير في سنة ١٨٦٦ وعلى شهادة E.C.L من جامعة أكسفورد بعد محاضرات ألقاها بها عن راسين وكورني في سنة ١٨٧١.

ومنذ عين تين أستاذًا لتاريخ الفن والجمال في كلية الفنون الجميلة اتسع له زمن البحث وميدانه ووجد من الوقت ما يسمح له بالسفر إلى بلاد مختلفة وبخاصة في إيطاليا مهد الفن ومنبت أجمل ما أبدع المثالون والمصورومن آثار.

على الطريقة التي كتب بها تاريخ آداب اللغة الإنجليزية كتب في سنة ١٨٦٥ كتابه فلسفة الفن وفي سنة ١٨٦٧ نشر رسائل عن المثل الأعلى في الفن أتبعها بمقالات عن فلسفة الفن الفلمنكي والفن اليوناني ضمت كلها بعد ذلك إلى كتاب فلسفة الفن.

كتب هذا الكتاب على طريقته في كتاب آداب اللغة الإنجليزية، فإلى جانب وصفه الممتع للأثار الفنية المختلفة ترى نظريته الثابتة التي تخضع الفن كما تخضع كل مظاهر الحياة الإنسانية — وكما تخضع الإنسان نفسه — إلى الطريقة العلمية في البحث، طريقة التحليل والمقارنة والاستنباط وإرجاع كل أثر من هذه الآثار إلى البيئة والجنس والعرض التي نشأ فيها صاحب الأثر، وهذا في نظره هو السبب الأساسي لاختلاف كل مدرسة من مدارس الفن عن سواها، فالفن الإيطالي غير الفن الفرنسي وغير الفن الفلمنكي وغير الفن الإنجليزي؛ لأن البيئة الإيطالية تختلف عن كل واحدة من هذه البيئات الأخرى، وإن أمكن أن يوجد شيء من الشبه بين منتجات هذه المدارس المختلفة إذا هي كانت معاصرة بعضها لبعض لما في هذه المعاصرة نفسها من داعٍ لوجود مشابهة قليلة أو كثيرة في التفكير والتصور والنظر بين الفنون المختلفة، وذلك هو سبب الاختلاف بين المذاهب المختلفة في الأمة الواحدة إذا هي اختلفت عصورها، وإن كان في اتفاق البيئة والجنس ما يبعث إليها شبيهًا قويًا يصل بينها في الروح والحياة.

وفي أوائل سنة ١٨٧٠ نشر كتاباً ثانياً من أمهات كتبه، ذلك كتابه «في الذكاء»، ولقد ذكر هو في مقدمة هذا الكتاب أنه ثمرة بحث وتفكير عشرين سنة كاملة، والواقع أن بين هذا الكتاب وبين رسالة «المشاعر» التي قدمها ليحوز بها جائزة الفلسفة في

سنة ١٨٥١ صلة كبرى، ذلك بأنه يرد الذكاء في الإنسان إلى إحساسه ومشاعره، وأن كل حس يؤثر بمحسوساته في مراكز الذكاء في الإنسان تأثيراً هو صاحب الأثر الأكبر في تكوين هذا الذكاء، وفي هذا الكتاب أيضاً شرح تين نظرياته، بل لعله في هذا الكتاب وحده قد قرر هذه النظريات على صورة كاملة ظهر فيها مذهبه الجبري بكل قوته ووضوحه.

ظهر لتين كثير غير الكتب التي ذكرنا منها كتابه (مذكرات عن إنجلترا) وكتابه الآخر (مذكرات عن باريس)، وإنما هو كان في الكتاب الأول كاتباً ومحللاً على طريقته فهو قد امتاز في الكتاب الثاني بالذكمة المقدعة وبرقة في العبارة مع دقة في الملاحظة ومرارة في التهمم بالناس وبالحياة جعلت كثيرين يقمنون لو أنه وجه نصيباً كبيراً من عنایته إلى هذا النوع من الكتابة.

وتزوج تين في سنة ١٨٦٨ فلم يغير زواجه شيئاً من حياة الجد والعمل التي كان يحيها، على أنه منذ سنة ١٨٧٠، وعلى أثر الحرب الفرنسية الألمانية، حز في نفسه ألم هزيمة بلاده وتوجه بكله يريد أن يقف على أسباب ضعفها، وكان هذا هو الدافع له إلى وضع كتابه الأكبر (أصول فرنسا الحديثة) الذي عمل فيه منذ سنة ١٨٧٠ إلى أن مات في ١٨٩٣ والذي اضطر من أجله أن يتخل عن مهنة التدريس منذ سنة ١٨٨٤ لينقطع له انتظاماً تماماً، ويبدأ هذا الكتاب بجزأين عن العصر القديم، أي العصر السابق لما قبل الثورة الفرنسية، أما تاريخ الثورة فيتناول ستة أجزاء، ويتناول التاريخ الحديث ثلاثة أجزاء يعقبها جزء واحد وضعه تين كفهروس لكتابه، ولقد كان في عزمه أن يضع – في الجزء الذي لم يمهله القدر ليتمه – الصورة الصالحة لنظام العائلة ونظام الجمعية في فرنسا كما يريد العلم لهذا النظام أن يكون، لكنه توفي في الخامس من شهر مارس سنة ١٨٩٣ وما يزال في الخامسة والستين من عمره.

وكتابه «أصول فرنسا الحديثة» هو عمله الخالد على التاريخ، ولقد سار فيه على نفس الطريقة التي سار عليها في سائر كتبه، وإن يكن الدافع الذي دفعه لكتابته، إلا وهو حب وطنه حباً أذكى هزيمة حرب السبعين وزادته ضراماً، قد جعله في كثير من الأحيان يناصر حزبياً على حزب وطائفه على طائفه من الأحزاب والطوائف المختلفة التي حكمت فرنسا منذ ذلك العصر القديم الذي كتب هو عنه.

وهو على كراهيته للاستبداد في كل مظاهره وعلى تقديسه للحرية في مختلف صورها، لم يكن يؤمن بالديمقراطية ولا بالمساواة المطلقة التي تترتب عليها، بل كان

يحسب فيها هي أيضًا لونًا من استبداد الجماهير الحمقاء بحكم البلد لا تقل سوءًا عن استبداد الملوك الظلمة الغاشمين، فكلا الاستبدادين قائم على الشهوة العميماء التي تتبعي المصالح الذاتية في شره وسفه والتي لا تفهم المعاني العليا التي يتطلع إليها العلم ولا السنن الثابتة والتي تستنبطها الفلسفة القائمة على هذا العلم.

ويذكر كثيرون أنه كان في هذا كما كان في فلسفته متأثرًا بالفلسفة الإنجليزية وبالحياة السياسية الإنجليزية، ولعله كان يميل إلى شيء من الإرستقراطية بطبيعة تفكيره، ولذلك كان كتاب عصره جميًعا إنما يذكروننه باسم (مسيو تين)، وذلك امتياز لم يعرف إلا له ولا ثالثين أو ثلاثة من كبار الكتاب معه، وربما كان صدقًا ما يقوله مسيو هرييو وزير معارف فرنسا في خطابه عن تين من أنه لو كان إنجليزياً وعاش في إنجلترا لكان حتمًا أن يلقب وأن يكون (السير هيبوليت)، وهذه النزعة هي التي أدت به ليكتب رسالة مطولة عن الانتخاب المباشر يطعن فيها من الطعن على هذا النظام، ويرى من السخرية أمر السخرية أن يتساوى في الرأي عن طريقة حكم البلد ماسح الأحنية وعميدو الكليات ومديرو الجامعات، كما يرى حماقة أن يحكم نصف الأمة زائدًا واحدًا نصفها الآخر ناقصًا واحدًا، أو أن يحكم سوادها الطائش المخدوع بترهات المغررين والمضللين صفوة أبنائها وخلاصة ذوي الرأي والعلم فيها حكمًا أقل أثره أن يبعث التقوز إلى نفوس الصفوة ويضعف من حب كثير منهم للعمل ويضيع بذلك جهودًا أقلها خير ألف مرة من جهود السواد وقادته.

عاش تين ومات ومنطقه منطقه ورأيه لم يتغير، وكأنما كان مصداقًا حيًّا لهذه الكلمة: «التبوغ فكرة في الصبا تنفذ في الرجولة»، فمنذ كان تين في مدرسة المعلمين إلى أن مات، كانت غايته في الحياة واحدة وطريقته إلى هذه الغاية واحدة، كانت غايته الحقيقة وكانت طريقه إلى الحقيقة العلم، حقيقة لا هوادة فيها وعلم كذلك لا هوادة فيه، ولهذا كان جديًّا حقًّا بالخلود، وإذا كان كثير من نظرياته قد نقض بعد حياته، فهو في ذلك ليس إلا إنسانًا عظيمًا، هو قد خطأ بالعالم في عصره الخطوة التي كان يجب أن يخطوها العالم، فكأنما كان رسولاً ل تمام هذه الخطوة، أما وقد أتم رسالته وأن للعالم أن يخطو خطوة أخرى، فإن ذلك لن يغضُّ من فضله ولن يغمسه شيئاً من حقه، بل هو على العكس من ذلك يزيدها قدرًا له وإعجابًا به، وكفى أن يسأل إنسان نفسه: ماذا يكون العلم وماذا تكون الفلسفة لو أن تين لم يوجد؟ ولن يستطيع إنسان أن يجيب

هيلويت أدولف تين

على هذا إلا بالاعتراف لتين بفضل عظيم، وهذا الفضل هو الذي جعل فرنسا تحتفل بعيدة، وجعل الفرنسيين يفكرون في إقامة تمثال له في باريس وتمثال آخر نصفي في مدرسة المعلمين.

وليم شكسبير



ما حاجة شكسبير إلى أحجار فوق أحجار يقيمها الناس مدى قرن كامل
لتؤوي إليها رفاته المجيدة؟ ما حاجة أن تدفن بقایاه المقدسة تحت هرم
يصعد حتى يصل إلى عنان السماء؟ يا ابن الذكرى العزيز ووارث المجد
العظيم، مازاً يعنيك من هذا الاعتراف الضئيل بفضل اسمك وقد أقمت لنفسك
من إعجابنا وعجبنا تمثلاً لا يبل؟!

ملتن

تمثلاً لشكسبير! ولماذا؟ إن التمثال الذي أقامه لنفسه على عماد هو إنجلترا
كلها لخير له من كل تمثال، ليس شكسبير بحاجة إلى هرم وله مؤلفاته،

وماذا يمكن أن يخلد الرخام منه؟ وماذا يستطيع البرنز أن يقيم حيث يقيم المجد؟ إن الأحجار كلها والفنانين الذين ينحتونها يضيّعون جهدهم عبّاً، فالعقلية هي العبرية من غير حاجة إليهم، ولو اجتمعت الأحجار كلها، أفتراها تكبر هذا الرجل إصبعاً؟ وأي قوس أبقى من هذا القوس: قصة الشتاء، العاصفة، زوجات وندسور المرحات، يوليوس قيصر، كريولان، وأي أثر أعظم من لير، وأشد تجهماً من تاجر البندقية، وأبهى من روميو وجولييت، وأبهى من ريكاردوس الثالث، وأي بدر يلقي على هذا البناء ضياءً أعجب من حلم ليلة الشتاء؟ وأي عاصمة ولو كانت لندرة تثير حوله ضجة هائلة كما تشير روح مكبث الهائلة الضجيج؟ وأي حلية من خشب الزان أو البلوط تبقى بقاءً أو تلوا؟ وأي نحاس أصلب من نحاس هملت؟ كلا،لن يوازي بناء من الحجر أو الصخر أو الحديد هذا الروح، روح العبرية العميق، روح الله يتجلّ به على لسان الإنسان، ورأس فيه فكرة هو القمة، أمّا أكdas الأحجار فجهود ضائعة، وأي بناء يساوي فكرة؟ إن بابل لدون إيزاس، وخوفو لأصغر من هوميروس، والكوليزيم لأقل من جوفنال، وقصر إشبيلية قرم إلى جانب سرفانتس، وكنيسة القديس بطرس في روما لا توازي كعب دانت، فكيف تستطرون — وإن جهّدتكم — أن تقيموا برجاً في رفعة هذا الاسم: شكسبير.

فكتور هوجو

وصدق ملتون، وصدق فكتور هوجو، فأنت لا تعني إذ تذكر شكسبير، أقيمت له تماثيل أم رفعت له نصب وأهرام، وأنت لا تذكر إلى جانب اسمه ما تذكره إلى جانب اسم نابليون من عmad فندوم أو قبر الأنفاليد، بل أنت إذ تذكر شكسبير تنسى كل ما في العالم غير ما خلَّف شكسبير، غير هذه التركة الخالدة من الشعر السامي فوق كل مراتب الشعر، والذي يزداد سمواً كلما ازدلت فيه إمعاناً، حتى لتنسى إلى جانبه كل شعر وكل موسيقى وكل فن؛ لأنك ترى فيه عالماً كاملاً من الأشياء والناس والألهة خلقه خيال يندمج فيه كل خيال، وفن يتلاشى أمامه كل فن، ولتنسى إلى جانبه الإعجاب في الحياة بأي شيء سواه، هذا وشكسبير لم يكن ملكاً ولم يكن غازياً ولم يكن عظيماً في قوله، بل كان ككل نابغة وكل عبقري رسولًا تؤذيه رسالته حتى لتحرق، ومن هذا الأذى ومن هذا الاحتراق تتعرّض الحياة بأريح تلك الرسالة وتزداد بهذا الأريح شعوراً كلما ازداد عطر الاحتراق والأذى ذيوعاً وانتشاراً.

نعم، لم يكن شكسبير ملّاً ولا غازياً ولا عظيماً في قومه، بل كان مؤلف روايات وكان مهرجاً، كان عمله في الحياة أن يبعث السرور والنشوة إلى نفس الجمهور ثم لا يناله أكثر الأحيان من هذا الجمهور الذي أضحكه غير السخط والإذراء، ومات شكسبير وانطوى دور المهرج فظل أهل عصره ينكرون عليه مقامه كمؤلف وينعثونه بأنه لم يحدث جديداً، وبأنه غراب اكتسى بريش الطيور الجميلة فلم يصنع أكثر من أن سرق ما كتب غيره، لكن الزمن الدائم الکر والذي يصهر تراث الماضي فيستخلاص جوهره من خبته، لم يجد في شكسبير إلا جوهراً يشع في المستقبل إلى قرون وقرون بعده، فلا تزداد إلا تطلعاً إليه وإعجاباً به، وهذا الزمن وجد في إلهام شكسبير الشعري علمًا وحكمة، فنفى عنه حسد أهل عصره وأقام له من المجد ما عبر عن بعضه ملتن شاعر إنجلترا الأول بعد شكسبير، وهو جو مقدم شعراء فرنسا ومتجم شكسبير إلى الفرنسية.

إذا لم يكن شكسبير عظيماً في قومه فليس في تاريخ حياته ما يقف النظر عنده إلا أن يكون خلقه التأثير ونفسه المتمردة على الخلق وعلى الفضيلة.

ولد في ستراتفورد-أون-أيفن في ۲۳ أبريل سنة ۱۵۶۴ أي في عصر الملكة إليزابات أحد عصور إنجلترا الزاهرة، وفي القرن السادس عشر عقب الانقلاب الديني العظيم الذي قام به مارتن لوثر وتأثرت به إنجلترا أكثر مما تأثرت به أية أمة غيرها، وكان أبوه جون شكسبير محترماً في قومه لأنّه كان يملك ثروة تغنىه عن غيره، جاءه ببعضها من كده وببعضها من زوجه، وقد اختلف الرواة في الصناعة التي كان يزاولها جون بين أنه كان تاجراً أو مزارعاً أو جزاراً، ويذهب كثيرون إلى أنه كان يزاول هذه المهن جميعاً كما كان يفعل الكثيرون من أهل القرى والبلاد الصغيرة، ولما كانته من قومه انتخب في مجلس بلدته القروي ونيطت به أعمال قاضي المصالحات، وفي سنة ۱۵۷۷ ساعات حال جون شكسبير المالية حين كان ابنه وليم ما يزال — وهو في الثالثة عشرة من عمره — في بدأة تعليمه، فاضطر للاستعنة به في كدح الحياة، وجعل الفتى — على قول بعض مترجميه — «يدبح العجول لأبيه ويلقي أثناء قيامه بعمله خطباً رائعة الأسلوب على ساميته»، وكذلك انقطع عن الدرس وشغل بهم الحياة حتى تزوج في الثامنة عشرة من عمره من أنا هثواي ورزق منها في ۲۶ مايو سنة ۱۵۸۲ فتاة أسمها سوزان وتوعمين غلامين في فبراير سنة ۱۵۸۵.

على أن هموم الحياة ومشاغل الأسرة لم تغير شيئاً من خلقه المضطرب التأثير، فقد أولع منذ صباح الشراب حتى كان فيه مفخرة قريته، كما أنه كان لا يتعرف عن

سرقة الصيد من أملاك كبار الملوك وبخاصة من أملاك السير توماس لويس كبير قضاة قضبته، وكم خضع من أجل ذلك لهوان الضرب ومذلة العقوبة، وفيما هو يوماً يجاري أهل قرية مجاورة في الشراب سكر حتى لم يستطع العود إلى أهله، فلما أصبح ذكر حاله وما آل إليه أبوه الذي أدخل السجن بسبب ديونه ففضل هجرة بلد أصبح لا احترام له بين أهله برغم ما كان يشعر به في نفسه من تفوق على أقرانه أن كان قد بدأ يتغنى بشعر ينظمها، فهجر ستراتفورد إلى لندن وهو لا يدري ما يستطيع أن يفعل فيها.

ودخل العاصمة العظيمة خالي الوفاض يضئي الضنك والعز فأسرع إلى حرفة من أحقر الحرف، ذلك أنه كان ينتظر بخيول المترفين على أبواب المسارح، فإذا انقضت ساعات التمثيل نفحوا هذا الخادم بما تجود به أنفسهم، ولعل لهذه الحرفة الوضيعة حظاً غير قليل فيما يدين به العالم اليوم لشكسبير من رواياته الخالدة، فمن سبيل هذه الحرفة استطاع شكسبير أن يعرف بعض الممثلين وأن يكسب عطفهم وأن يلتحق بعد ذلك بإحدى الفرق في أدوار تافهة، لكنها كانت سلماً إلى أدوار خير منها، ومع أنه لم يكن يوماً ممثلاً بارغاً ولم يصل إلى التبوغ في التمثيل إلا ما كان من نبوغه في دور طيف والد هملت، فإن خشبة المسرح هي التي دفعته إلى كتابة روايات تشهد الأجيال المتعاقبة تمثيلها معجبة مقدسةً.

وكما تدهشك أن تكون حرفة شكسبير الحقيقة سبب هذا المجد العالمي، فقد يدهشك كذلك أن تعلم أن ظرفاً آخر لا يد له فيه قد عاون الشاعر في عمله، ذلك أن اضطرابات العاصمة الإنجليزية أدت إلى إغفال مسارحها ما بين ١٥٩٢ و١٥٩٤، وإذا كان شكسبير قد بدأ يولع بالنظم والتأليف ووجد من معونة بعض ذوي النفوذ ما أغناه عن اتباع الفرق التمثيلية في تجولها، فقد ظل مدى هاتين السنين مكتباً على دراسة اللغات الفرنسية والإيطالية والإسبانية، مكتباً على النظم والتأليف، وخلالهما استشرف مظاهر نبوغه وعقريته وميوله التمثيلية، فكتب في أبريل سنة ١٥٩٣ قصيدة فينيس وأدونيس Venus and Adonis كما كتب في مايو سنة ١٥٩٤ رواية لوكريس وأهدأها إلى لورد سوزامبتون، ويقال إن اللورد شجعه على الاستمرار في عمله وأعانه بآلف جنيه دفعها له، فمكنته من زيارة شمال إيطاليا وإتقان لغتها التي كان قد بدأ يدرسها في لندن، وال الوقوف على كثير من الأساطير الإيطالية التي استعان بها في رواياته، وفي أثناء زيارة إيطاليا بدأ يكتب مقطوعاته التي نشرت بعد ذيوع اسمه، والتي أهدى أكثرها

إلى لورد سودامبتون كما جعل يؤلف للمسرح روايات أمل في تمثيلها بعد انقضاء الأضطرابات وعود الحياة الهدئة إلى عاصمة بلاده.

وفي صيف سنة ١٥٩٤ فتحت دار التمثيل أبوابها وعاد شكسبير إلى المسرح وببدأ يقدم رواياته للتمثيل، ولم تكن قوة هذه الروايات لتخفي على أحد خصوصاً أنها كانت تمثل حياة ذلك العصر وأخلاقه أدق تمثيل؛ لذلك لم يلبث شكسبير أن حاز من ذيوع الصوت ما خلع عليه اسم الممثل البارع، وإن كانت براعته الحقة في تواليفه، وكان من أثر ذلك أن شارك شكسبير بنصيب في أرباح مسرح (الجلوب) الذي كان يشتغل فيه، فاستطاع بذلك أن يشتري في بلدة ستراتفورد دوراً وضياعاً وأن يعيش في رغد ونعمة وأن يعيid أباه وأهله إلى حب الحياة، وكما يسرت شهرة شكسبير له سبل العيش فقد فتحت أمامه أبواب العظام وأنانته عطف الأسرة المالكة، ورفعت بذلك من مقام التمثيل والممثلين الذين كانوا قبل ذلك بمكان من الضعف والحقارة، يشعر الإنسان به حين يقرأ من مقطوعات شكسبير ما كتبه في أثناء مقامه بإيطاليا وما فيه من برم بالحياة وألم لازداء الناس مهنة لم يكن له كي يكسب العيش مفر من احترافها، وزاد المهنة رفعة أن مثل شكسبير في حضرة الملكة إليزابيث وأن نال من عطفها، وإن يك قد تنكر بذلك لها حتى لم تذرف عليها عينه دمعة عند موتها ولم تتحرك شاعريته بعبارة ألم لرثائها.

ويقي شكسبير يؤلف في السنة الواحدة الرواية والروايتين ويمثلها مع زملائه الذين كانوا وإياه على خير وفاق، وقد أثار تاريخ تأليفه كل رواية من رواياته مباحث شتى حتى وضع (أومندالوني) كتاباً سماه «محاولة لتحقيق الترتيب الذي كتبت به روايات شكسبير». (An attempt to ascertain the order in which the plays of Shakespeare were written.)

كذلك أنكر بعض النقاد نسبة بعض الروايات له كما أنكر بعضهم وجوده. وفي سنة ١٦١٠ اعتزل المسرح وترك لندن إلى ستراتفورد حيث عاش عيشاً هادئاً مكتفياً بما جمعه من مال مستمراً مع ذلك في كتابة رواياته، وينذهب بعض مؤرخيه إلى أنه كان مع ذلك يعود إلى لندن الحين بعد الحين ويشتغل في تمثيل بعض الروايات حتى احترق مسرح الجلوب في ٢٩ يونيو سنة ١٦١٣ في أثناء تمثيل رواية هنري الثامن، هنالك انسحب شكسبير إلى قريته ولم تبق له عناية بغير رفاهته، فعاش عيش ذوي اليسار وطلق التمثيل والتأليف جميماً، وجعل يقرض الناس بالفائدة مما أدهش

كثريين من كتبوا عنه، قال تين: «خاتمة غريبة تبدو لأول نظرة خاتمة تاجر لا خاتمة شاعر، أفنعوها إلى هذه الغريبة الإنجليزية التي ترى السعادة في حياة رجل الريف صاحب الملك حسن الإيراد كريم الأصل الحاصل على أسباب الرغد المطمئن بين الناس إلى مكانته واحترامه وإلى سلطته العائلية ومكانته من قومه؟ أم أن شكسبير كان كفولتير رجلاً موزوناً وإن يك خيالي الذهن يحتفظ بقوة حكمه خلال نشاط شاعريته، حذراً لتشككه مقتضياً حاجته إلى الاستقلال عن الناس، قديراً — بعد أن يحيط بكل ما مر بخاطر الإنسان — أن يرى مع كأنيد أن الخير كل الخير في أن يزرع حديقته؟ أما أنا فأميل لافتراض يدل عليه رأسه مليء المتن، ذلك أنه لكثره ما أنتج خياله المتموج قد نجا كما نجا جيتي من مخاطر الخيال المتموج، وأنه في تصويره الشهوات قد بلغ ما بلغه جيتي من تخفيف حكم الشهوات إيه، وإن الاندفاع لم يحدث في سلوكه انفجاراً لأنه كان يجد في الشعر مصرفًا لاندفاعه، وإن روایاته حفظت عليه حياته لأنه ألم من خلالها بكل ما في الحياة الإنسانية من هوس وتعس، فاستطاع أن يجلس بينها وعلى ثغره ابتسامة مطمئنة مكتبة، وأن يسمع ليسري عن نفسه هذه الموسيقى الأثيرية التي أبدعها في روایاته، وأريد أن أفترض أخيراً أنه كان في جسمه مثله في سائر تكوينه، أحد رجال جيله العظيم وعصره العظيم، وأن م坦ة العضل كانت عنده مثلها عند رابليه وتسيان وميكلنجل وروبنز توازي حساسية الأعصاب، وإن الماكينة الإنسانية كانت يومئذ أقوى بناء وأحسن بلاء، فكانت تستطيع أن تقاوم عصف الشهوات واندفاعات الهوى، وإن النفس والجسم كانا ما يزالان متوازنين، فكان النبوغ يومئذ زهراً وثمرة، ولم يكن مثلما هو اليوم مرضًا».

قد يكون هذا التصوير الذي فرضه تين لحياة شكسبير صحيحاً، لكنه لا يزيد على أنه فرض فيرأى تين نفسه، على أنه إذا أردت أن تقف على أسرار شعر شكسبير وروایاته فقد وجبت دراسة ذلك كله دراسة لا يتسع المقام هنا لأكثر من الإللام بشيء منها إلماً بسيطاً.

نشأ شكسبير — كما قدمنا — في العصر الذي عقب الانقلاب الديني الذي قام به مارتن لوثر، وتأثرت به إنجلترا أكثر مما تأثرت به أية أمة غيرها، وكان الذين أخذوا بالذهب الجديد ما يزالون متأثرين قبل كل شيء بأساسه وهو حرية التفكير، وكان انهيار قيود الكثلكة هو البادي أمام الأنظار، ولم تكن بعد قد ترکزت في النفوس

قواعد المذهب الجديد تركزاً ثبت الإيمان بها تثبيتاً يحول دون تحطمتها، كما لم تكن خلقت حول المذهب الجديد هذه الأوهام المحسنة التي تهون على الناس عبء الحياة فيخضعون لها طائعين؛ لذلك كله كانت جماعة ذلك العصر في إنجلترا تسخغ الإلحاد ولا تنزعج لإعلانه ولا تضطرب أمام ما يرتبه أصحابه عليه من تقشف أحياناً واستهتار وإباحة أخرى وشك ثالثة، واعتدال في الحياة وفي المتعة بها اعتدلاً يبقي عليها ويطيل. ولعل هذه الظاهرة كانت ذات أثر فيما رأينا من سلوك شكسبير ومن استباحتة سرقة الصيد، وهي لا ريب كانت قوية الأثر في روایاته، فأنثت ترى فيها من التجفيف ومن الغواية، مصبوبيين في أجمل قالب وأبهاه، ما لا يحتمله عصر غير عصره الذي كان مجاوراً للعصور الوسطى، والذي لم يتخلص من خرافاته، وإن أباح لنفسه هدم هذه الخرافات.

وكم أثر العصر في شكسبير من ناحية حرية تفكيره فقد أثرت فيه هذه الخرافات من إيمان بالسحر وبالجن حتى لنرى كثيراً منها في روایاته، ثم إن هذا العصر الطليق المجاور للعصور الوسطى كان عصر اضطرابات ومجازر، وكان القتل أمرًا شائعاً فيه حتى لترى الرجل تقطع عنقه لغير سبب إلا أنه أنكر على الملك سلطانه الديني أو أنه أغضب رجلًا ذا سلطان بإشارة أو بكلمة، أضف إلى ذلك ذيوع عادة المبارزة وانتهاءها في أحيان كثيرة إلى قتل أحد المبارزين، وهذا الاستهتار بالحياة الإنسانية هو سر ما نرى في أكثر روایات شكسبير من مجازر فظيعة تنتهي أغلب الأمر إلى موت أشخاص الرواية جميعاً.

ثم إن التمثيل على النحو الذي نعرفه اليوم كان في ذلك العصر ما يزال في دور نشائه حتى لم يكن معروفاً في كثير من البلاد ومن بينها فرنسا، فلم تكن قد تقررت له قواعد كالتي تقررت بعد ذلك من وحدة الزمن والمكان والحادث، ولذلك أنت ترى في شكسبير مناظر مختلفة في الفصل الواحد قد لا يكون بينها أية صلة، وقد يفصل بين المنظر والمنظر مئات الأميال، ثم إنك ترى كذلك في هذه الروایات خلطًا عجيباً من أحط ما تنزل إليه الجماعة في حياتها العادمة التافهة، ورفعة لا تدانيها رفعة في سمو الحيال وتصوير فعل الشهوات في النفوس.

وهذه الظواهر التي تجدها سائدة في دول أوروبا كلها في ذلك العصر، بانت أكثروضوحاً في إنجلترا، ومرجع ذلك أن الخلق الإنجليزي بطبيعته خلق ثائر طموح للحرية يفتديها بالدماء، وكان كذلك في تلك العصور الماضية أكثر مما هو اليوم، ولذلك كانت

إنجلترا أسرع من غيرها إلى الأخذ بالذهب الذهبي الجديد، ولذلك كانت مظاهر القسوة وما تلده من قتل وتعذيب أكثر تفشيًا بين هؤلاء السكسونيين، وكان من شأن السحرة عندهم ما لا تعجب بعده لطيف هملت ولا لساحرات مكبث، ثم كان من استهثار الناس بالحياة ما ترى آثاره في شعر شكسبير مما يجعل المتقشفة والمتصوفة أشد على الحياة حرصاً من أهل هذا الزمن، فليس عجيباً إذاً هذا الذي نرى في شعر شكسبير من مجازر وخرافات وإن خيل لبعضهم بادئ الأمر أن فيه شيئاً من العجب يدعوه إلى عدم تصديقه.

وإذ كان علم شكسبير راجعاً إلى ملاحظة الطبيعة أكثر من رجوعه إلى دراسة الكتب وكانت معلوماته التي استند إليها في تأليف رواياته لا تزيد على معارف سطحية في التاريخ والفلسفة والاجتماع، فإن كثيراً من رواياته لا تعتمد على أكثر من أساطير سمعها أو قرأها في الكتب التي يتناولها الناس جميعاً، وفي مقدمتها تاريخ العظاماء بلوتارك، فرواية هملت تعتمد على أسطورة دانمركيّة ينكرها أكثر المؤرخين، ورواية روميو وجولييت أحدوة إيطالية يغلب أن يكون شكسبير قد سمعها في أثناء سياحاته في شمال إيطاليا أو قرأها ولم يستتمها في بعض الكتب، ذلك أن هذه الأحداث تنتهي بأن روميو لما بلغه موته جولييت حضر إلى قبرها وبلغ من أنه أن طعن نفسه بالخنجر، ولما كانت جولييت لم تتناول السم بل تناولت مخدراً فقد استيقظت وروميو ما يزال في النزع، فبَث كل منها لصاحبه لاحٍ غرامه، وطعنت الفتاة نفسها بالخنجر الذي زج به محباً أعمق قلبه، ولم يشر شكسبير إلى هذه الواقعية الجديرة بأن تجري على أوتار ربة شعره بأرق أنغام الحب والألم، فدل بذلك على أنه لم يعرفها.

هذا التحليل للمحيطات التي وجد فيها شكسبير قد يفسر طريقة وضعه رواياته، وقد يهدى إلى أسرار ما ترى فيها اليوم مما نعتبره عند عدم وقوفنا على هذه المحيطات خرافات غير لائقة بعصرية فذة عبقرية شكسبير، لكنه مع ذلك لا يدلنا على شيء من سر عظمته ولا يهدينا إلى كثير من سر شعره، والحق أن البيئة والزمن وحدهما لا يفسران نبوغ النابغة ولا عبقرية الشاعر وإن بینا مراميه وكشفاً عن أغراضه، فاما العبرية فلازمة ذاتية وهبة قدسية تفتح بها الطبيعة شخصاً من الناس على حساب مواهب أخرى، وعصرية شكسبير كانت في ملاحظته وفي خياله وفي شاعريته، وكانت في ثاقب نظره إلى حدٍ يستطيع معه أن يرى دخلة النفس الإنسانية وأن يصفها وصفاً حسبه الناس بادئ الأمر غواية شاعر، ثم أثبت العلم أنه الحقيقة العلمية التي لا تقبل نزاعاً ولا جدلاً.

وكانت مظاهر الطبيعة في أرق صورها وأجملها أول ما فاجأ خيال شكسبير، فأنت لا تقرأ له رواية ولا مقطوعة إلا وجدت من وصف هذه المظاهر وصفاً وديعاً يدلك على مبلغ تأثيرها في أعصاب هذا الشاعر الدقيق الحس تأثيراً يجعله يندفع إلى الإعجاب بالجمال وتقديسه إلى أقصى حدود الإعجاب والتقديس، فيظهر أثر ذلك في شعره، ويظهر في رعشة موسيقية قوية رقيقة في قوتها، متجاوحة ثائرة في تجاوبها، تهز نفسك هزاً وتسحرك عما حولك وتصل بك حتى ترى أمام خيالك ما رسمه خيال شكسبير ماثلاً واضحاً، وقد بلغ من تأثير هذه الصور في نفس الشاعر العظيم أن حلت منه محل التفكير حتى في شأن الحياة الإنسانية، فالرجل الغاضب كالطبيعة الثائرة، وما يتربّ على ثورة الطبيعة من آثار هو بعينه عند شكسبير ما يتربّ على غضب الإنسان من آثار، والطبيعة في سيرتها العادمة تافهة حتى إذا ملكتها الثورة أبرقت وأرعدت وعصفت وأهلكت الحرج والنسل، كذلك الإنسان في سيرته العادمة تافه حتى إذا ملكته الشهوة أسرف في الحب أو في البغض أو في الإيثار أو في التشفى والانتقام، والطبيعة خاضعة لظروف لا سلطان لها عليها، والإنسان خاضع مثلها لظروف لا سلطان له عليها، وكما تسير الغرائز الطبيعية تسير غرائز الإنسان، فكل صورة للطبيعة لها مثيلها في الإنسان، ولذلك كان أسلوب شكسبير وكان خياله خيالاً تصويرياً في وصفه وفي إحساسه وفي شهواته وفي تفكيره، اقرأ مكبث حين يصف آثار جريمته وكيف لا تستطيع البحار أن تمحو ما خلفت من دم على يديه، واقرأ هملت في ثورته على أمه وفي سائر هذيناته الحكيمة، بل اقرأ قيسر واقرأ في قيصر خطاب أنطونني، اقرأ ما شئت من شكسبير ترَّ هذا التقديس لصور الطبيعة وهذا التفكير المصوغ في قالب تلك الصور.

وكما يندفع شكسبير إلى تقدير مظاهر الطبيعة ويتخذ من صورها صور تفكيره، فهو لا يرى في غرائز الحياة غير الاندفاع لا يقوم على أساس من رؤية ولا تفكير، وإنما يقوم على الغرائز الإنسانية البسيطة هي التي توجهه وتصرفه؛ فالحب عنده لا يحتاج إلى تحضير ولا سعي من جانب الرجل لكسب المرأة، بل هو اندفاع من جانب شابين كل منهما نحو صاحبه، اندفاع رقيق كل الرقة قوي كل القوة، اندفاع شعري عذب يتغنى فيه كل من المحبين بأهازيج الهوى على نغمة موسيقية حلوة كأنما كوبيدون إذ رمى عن قوسه فأوصد القلب رمي مع القوس الوتر، فأخرج هذا الوتر من أعصاب كل من المحبين أنات وأمالاً وأحلاماً لذيدة ويساساً فاجعاً لا يعرف الشعر في كل الأمم شيئاً منه مثل ما عرف على لسان شكسبير، استمع إلى أنغام أوفلية في حبها هملت وتوجعاتها

حين اليأس الذي أدى بها إلى الموت، واسمع هذا التجاوب الحلو بين روميو وجولييت يجعل من الحب جنة نعيم ليس بعدها جنة نعيم، ثم اقرأ ثوران الغيرة وضجيجها والتهابها في نفس أوتللو مما لا مثيل له في أقوى ما تصل إليه موسيقى فاجنر، وخيال شكسبير يصل من ذلك في بعض الأحيain إلى حدود يعجز أقوى خيال عن تصوّرها.

وكما تحرك الغرائز المحبين تحرك الناس جميعاً في كل تجارة الحياة، فليس الملك على خلاف الناس جميعاً لأنّه ملك، بل هو يحب أهله وأبنائه ويدلّهم ما دام بعيداً عن مباشرة شئون الدولة، وهو في هذه الشئون يتأثر بغرائز الإنسان وشهواته كما يتأثر أي إنسان سواه، والرجل السيء الذي خلقه شكسبير في شخص ياجو وفي شخص شيلوك تاجر البندقية ينقاد للغرائز الإنسانية انقياد الوحش أوتللو، والنائم هملت، وإن كانت صورة هذه الغرائز تختلف من شخص إلى شخص حسب مزاجه، وهذا الاختلاف هو الذي جعل من أبطال شكسبير أشخاصاً ذوي حياة إنسانية صحيحة تشعر وإياها إذ ترى تمثيل الروايات على المسرح، في حين أنك إذ ترى روايات راسين وكورني مثلاً – وهما من أكابر كتاب فرنسا في القرن السابع عشر – تحس المؤلف هو الذي يتكلّم وتري أفكاراً تروح وتجيء على المسرح، وكل وظيفة الممثل أن يقوم بإلقاء الألفاظ التي تؤديها من غير أن تظهر له شخصية حية تنسيك أنه ممثل وتنسيك أنه يقوم بدور تمثيلي.

ولقد أقر النقاد جميعاً لشكسبير بهذه الميزة وإن رأى بعضهم أنه يسرف في تصوير أشخاصه إسراً يجاوز المعقول، ناسيًا أن هؤلاء الأشخاص هم من عصر شكسبير، وأنهم من أبناء خياله الشعري المتوقّد، وكما اتهم بالإسراف ظلماً في هذا فقد اتهم بتهمة أخرى أثبت العلم خطأ اتهامه بها، فقد ذهب بعضهم في وقت من الأوقات إلى القول بأن شكسبير يخالف الطبيعة والمعقول فيما يقرره لبعض أشخاص من تصرفات، من ذلك مثلاً أنك ترى مكبث يرتكب جريمة القتل فتلتلوث يداه بالدماء، ثم هو مع ذلك يظهر في أماكن لا يأمن أن يراه الناس فيها ويصبح بأن مياه البحر لا تغسل جريمته، وعلى الرغم من إلحاح لادي مكبث فإنه يظل يتحدث عن جريمته ولا يداري شيئاً من آثارها، فهذا فيرأى النقاد الذين أشرنا إليهم تصرف غير معقول، أليس أول ما يصنع المجرم أن يعمل ليداري جريمته؟ لكن العلم الجنائي أثبت أن شكسبير على حق وأن الطبيعة الإنسانية تدفع بال مجرم إلى مكان جريمته و تُكرهه أكثر الأحيain على الاعتراف بها.

وليس مثل مكتب إلا واحداً من أمثال كثيرة في ثقوب نظر شكسبير واستشفافه
حقيقة الغريزة الإنسانية.

هذا بعض ما تأثر به شكسبير في شعره، وهو قليل من كثير يستحق العناية به وبحثه، والآن أخشى أن أكون أطلت في حديث لم أكن أقصد إلى الإطالة فيه، وإن يكن القول في شكسبير قصيراً وإن طال، فلنجزئ بما تقدم، وبأن شكسبير بعد أن أقام في ستراتفورد مكتفياً من العيش بطمأنينته ونعمته، ظل حتى سنة 1616 ثم مرض فكتب وصيته بما يملك إلى ابنته سوزان غير تارك لزوجه إلا قليلاً، وفي هذه السنة مات ودفن من غير كبير احتفال، إلى أن اضطر العالم بعد أجيال ليقيم له من المجد ما يبقى على الأجيال حتى آخر الزمان.

برسي بيش شلي



(١) نشأته الأولى

ظهر السادس عشر من شهر أغسطس سنة ١٨٢٢، في صحو جو جميل، كان لورد بيرون والشاعر لي هنت والبحار ترلوني وقوفاً فوق رمال الشاطئ الإيطالي على مقربة من ليفورنو يحيط بهم عدد من أهل تلك المنطقة، ويقف إلى جانبهم جماعة من الضباط والعساكر الإيطاليين، وكلهم محقق ببصره إلى نار تضطرم قد بوركت بالنبيذ صب عليها وباللح ألقى فيها ويفوح منها ريح اللحم الإنساني، وكلهم واجم مخلوع القلب

ذاهب في تيهاء الهلع والذهول، وظل هذا المنظر المروع أمامهم ثلاث ساعات تباغاً يهز نفوسهم هزاً فلا يزدادون إزاءه إلا وجوماً وذهولاً، وتندى عين بعضهم بالدموع ثم تنرفه لا تستطيع حبسه، ويبلغ الهلع والروع في أثناء ذلك من لورد بيرون مبلغهما فيلقي بملابسه على الرمل وبنفسه في الموج يصبح خاله حتى يصل إلى زورقه «البوليفار»، ويحدق ترلوني بالعقل تحرق وباللحم تذيبة النار، ثم يرى القلب مع ذلك كبيراً كبيراً، فما يزال منه قلب كامل لم يدب ولم يحرق، فيجذب هذه البقايا المقدسة بيده، وتبدأ النار بعد ذلك تخبو رويداً رويداً تاركة وراءها حفنة من تراب هي كل ما بقي من رفات قيثارة الشعر الإنجليزي شلي، ويحمل ترلوني الحفنة إلى الأرمدة البائسة ماري شلي لتنولى ويتولى هو ولي هنت معها حملها إلى مقابر البروتستانت في روما كي تستقر هناك في أرض غريبة عن ثرى الوطن، ولكن لتسعد مع ذلك باستقرارها إلى جانب رفات عزيزة محبوبة هي رفات وليم شلي ابن الشاعر البكر من زوجه ماري، ويقع هذا المنظر المروع وتنقل تلك الرفات القدسية إلى روما، ولم يكن شلي قد بلغ إلى يوم وفاته في الثامن من أغسطس تمام الثلاثين من عمره، وإن كان قد خلف من شعره على الحياة ما لا يزال فخر الشعر الإنجليزي عذوبة وموسيقى يأخذان بالنفس ويملاكان على المرء حسه ولبه، ويبعثان إلى كل ما ينشدanhه ويترنمان به الحياة والخلد، سواء أكان ما ينشدanhه ويترنمان به إنساناً أم طيراً أم حيواناً أم جماداً أم مجرد خيال لا وجود في الحياة له، ذلك بأن الحياة كانت تسري في كل ما لامس نفس شلي لتبقى قائمة به قروناً ودهوراً بعد موت باعثها، وكذلك كانت فجيعة الشعر في هذا الشاب الذي خلف الحياة مذ كان على اعتاب الحياة مما يزيد ذكراه قوة وجلاً، وإن كانت هذه الذكري في غير حاجة إلى مزيد من قوة أو جلال، فلقد كتب لكل بيت من شعر برسى بيش شلي منذ ترنم هو به الخلود وكتب له الجلال.

ولم يكن لورد بيرون لينسى ساعة فراره أمام المنظر المروع ما كان عليه زميله وصديقه من خلق عظيم ونفس بلغت من السمو أرقى سماواته، فهذا الشاعر الشاب، الذي ولد في الرابع من أغسطس سنة ١٧٩٢ وتوفي في الثامن من أغسطس سنة ١٨٢٢، قد حلق به جمال الخلق في سماء الشعر إلى ما لم يرتفع إليه معاصر له، وإلى ما لم يسبق إليه أحد في رأي كثيرين، وما لم يسبق إليه غير شكسبير في رأي آخرين، وكان ارتفاعه هذا ليس قائماً على خياله الملتهب وشاعريته الفياضة وكفى، بل كان قائماً، فوق ذلك وقبل ذلك، على قوة في النفس قل أن يكون لها نظير، قوة بدأت مظاهرها منذ

الطفولة وتجلت في أثناء الصبا وازدادت وضوحاً في صدر الشباب الذي كان - وهو صدر شباب الشاعر - خاتمة حياته، وكانت أجيال مظاهر هذه القوة واضحة في إيمان الرجل برأيه وصراحته فيه وإعلانه إياه وسلوكه سبيل الحياة على موجبه، وإن أدى لذلك ثمناً فاحشاً أن عده الناس مجنوناً، وأن نفرت منه الجمعية الإنجليزية أشد النفور حتى اضطرته ليهجرها منذ أول شبابه، ولعيش السنوات الخمس الأخيرة من حياته تحت سماء إيطاليا الدائمة الصفو والابتسام، والتي تظل من صور الجمال وبدائع الفن ما يزيد في إلهام الشاعر، هذه الشجاعة وهذا الإيمان اللذان اعتبرا جنوناً مما أساس شاعرية شلي وهما مصدر إلهامه، لكنهما لم يكونا كذلك عند لورد بيرتون الأبيقوري المستسلم لسلطان الزهرة الناهل من ورد بناتها جميعاً، الحائز لذلك غاية الإعجاب من أهل عصره وأكبر تقديرهم إياه؛ لذلك كان طبيعياً أن يرى فضائل زميله وأن يقدرها، وكان طبيعياً أن يفر من منظر النار تحرق مثوى هذه الفضائل وتذره رماداً.

وكثيرون من عرفوا شلي كانت تأخذهم الدهشة لفضائله، ومن كانت تزيد دهشتهم لشجاعته وصراحته، ذلك أن صورته وتكوينه لم يكونا ينما عن هذه الفضائل فيه، وإن كانوا ينبعان بشاعريته وقوه خياله، فقد كانت في نظره وفي تقاطيع وجهه وفي جمال شعر رأسه أنوثة عذبة تحدث عن رقة ولين لا عن صلابة وشدة، وكان يضوئ منه شذا المحبة والعطف بما لا يلتئم مع القوة على النضال والقسوة فيه، وكان جسمه الطويل النحيل كأنه قصبة هذه القيثارة التي شدت بأجمل الأنغام وتغنت بأحلى الأهازيج، كذلك لم يكن مولده ولا كانت مكانة أهله في الجمعية مما يزيد دهشة من بلغت الدهشة منهم بشجاعه شلي وصراحته في إعلان إيمانه حتى حكموا عليه بالجنون، فقد ولد في أسرة نبيلة جمعت إلى النبل المال، وكانت بطبيعة هذين العاملين محافظة، لتظل من طريق محافظتها ناعمة بمالها وبناتها، كان جده السير بيتش شلي باروناً وكان غنياً، وكان لا يفتأ يبدأ لزيادة ثروته، وكان أبوه تيموزي شلي قاضياً وعضوًا في البرلمان، وكان قصرهم بفييلد بليس على مقربة من هورشام أحد أعمال سسكس محاطاً بحدائق وأحراش تدعى إلى المتع بها والطمأنينة لها، وكان جده السير بيتش قد جعله بالوصية وارثه مما يدر عليه إيراداً سنوياً ستة آلاف جنيه في ذلك الزمان، سبحانه من يدرى كم ألف تعادلها في زماننااليوم! وتلك كلها أسباب دعة وبلهية ولديست أسباب نضال صلب وصراع للجمعية وللحياة فيها لا يعرف الهدوء إليه سبيلاً، لو أن صاحبها أوتي من هبة الشعر ما أوتيه شلي لكان طبيعياً أن يسلك الطريق التي سلكها بيرتون

من الإنجليز وعمر بن أبي ربيعة من العرب، لكن شلي ضرب بالمال والجاه والدعة عُرض الأفق وترك بيت أبيه وترك أهله جميًعاً ولم يقتض من وصية جده إلا بمقدار ما يكفيه حاجة العيش، وانطلق في الحياة هائماً يجيء بهاء الفضيلة ويؤدي رسالة الجمال، ولم يكن له من أدائها بد، في أنغام قدسية من موسيقى السماء، ويؤديها ذاهلاً مما أحاط بحياته من أحزان ومتاعب متجلهاً بكله إلى هذا الوجود المحيط به، مفنياً نفسه فيه كي يفني الوجود كله في نفسه فترده إلى العالم وحيًا سماوياً يختلط بالنفوس جميًعاً، ويتنقل على الأجيال إلى ما شاء الخلد أن تكون للإنسانية أجيال تتعاقب.

وكان لجماله ولرقته أثر بالغ في حياته وفي تفكيره وفي شعره، جعله هذا الجمال المزدان بخواتم شعره وعيونه العميقه الزرقة ولونه الناصع النظيف ويديه ورجليه الجميلة التكونين، وما اتصل بذلك من حسن تحسد عليه كل فتاة في مثل سن الطفولة التي كان فيها يوم ذهب به أبواه إلى مدرسة (سيون هوس) في برنتفورد، بالغاً في رقته وظرفه وحلو طبعه، ونبأت هذه الصفات إلى جانب جماله عن نفس حية حساسة تأنف القسوة وتتنزه عنها، وترى في عدم النظام وسوء الاتساق ما يؤذيها ويثيرها.

على أن هذه الصفات جعلت منه في المدرسة سخرية زملائه وموضع عبثم ولوهم، مما بعث إلى نفسه غضاضة ومضضًا، فلما انتقل به أهله إلى مدرسة «أيتون» حيث يتعلم أبناء النبلاء وذوي المكانة لم يزدد لنظامها إلا بغضًا ولمعاملة زملائه التلاميذ فيها إلا مقتاً، فقد كان وما يزال من نظام التربية في هذه المدرسة أن يخدم الصغار فيها من هم أكبر منهم سنًا وأقدم في المدرسة عهداً، وكان الصغير الخادم عرضة لكل أنواع الأذى والإهانة من كباره، كان يمسح له أحذيته ويتأمر بأمره في كل حاجة يحلو له أن يأمره بها، ثم كان هذا النظام يقتضي مع ذلك ألا يصبر أحد على إهانة زميل له إياه وأن يدفع القوة بالقوة والعدوان بالعدوان، ولذلك كانوا جميًعاً يتقنون لعبة (البوكس) ليدفعوا عن أنفسهم وليردوا اعتداء المعذبي عليهم.

لكن هذا كله لم يرق الصبي شلي فلم يذعن له، لم يرض أن يكون خادماً ولم يرض أن يجعل حق القوة أساس خلقه، ليكن هو نظام المدرسة الذي تابعته وتابعه منذ أجيال، فهو لا يؤمن بصلاحه ولا باتفاقه مع الخلق الفاضل والكرامة الإنسانية، فلا يمكن أن يرضى عنه وأن يخضع له، لا يمكن أن يكون خادماً ولا أن يخالط أولئك الذين يقضون سحابة نهارهم في ملاكمه ومصارعة تقوى بها عضلاتهم وأبدانهم على حساب عقولهم وأرواحهم؛ لذلك اعتزلهم ولجاً إلى وحدة لم تزدهم له إلا احتقاراً، ولم تنجه من سخريتهم وأذاهم ولطمهم ولكمهم.

لكن رقته لم تؤد به إلى ضعف إبائه وأنفته ولم تجعل منه ذلك الطفل المستذل الذي يخضع لسلطان الأقوى ويتأمر بأمره، بل كان يقارضهم سخرية بسخرية واحتقاراً باحتقار، وكان يدفع عدوان أيديهم عليه بعدوان مثله، وإن يك عدواً متافقاً مع هذه الأنوثة في تكوينه، عدوان عض بالأسنان وهبس بالأظافر بدل اللكم بقبضة اليد مما كان يتورم له وجهه أحياناً، وهو لذلك لم يكن يباديه العدوان ولا يتحك بهم، بل كان يتركهم في العابهم ورياضتهم العنيفة ليأخذ هو كتاباً محبة إليه مما وضع كتاب الثورة في فرنسا وأنصارهم في إنجلترا وما وضع جماعة اليونان الأقدمين، ثم ينطلق بها بين الأحراش والغياض حتى يصل إلى حافة النهر حيث يجلس فينسى نفسه في الماء بما في كتبه وبمشهد هذه الطبيعة الساحرة حوله وبتأمله إليها والتفكير فيها، ولعل أشد ما تأثر به من قراءاته كتاب وليم جُدوين (العدل السياسي).

وكان وليم جُدوين من أشد كتاب ذلك العصر تأثراً بمبادئ الثورة الفرنسية ودعوتها إلى الحرية المطلقة في التفكير، وما ترتب على هذه الدعوة من خروج على طائفة رجال الدين وتعاليهم ومن المبالغة في ذلك إلى إنكار الدين نفسه، على أن جُدوين يختلف مع كتاب الثورة الفرنسية ورجالها أشد الاختلاف فيما يتعلق بوسائل تحقيق الإصلاح الذي يريد إدخاله على النظم وعلى قواعد الجمعية، فكان يرى العقل والمنطق وحدهما وسيلة الإصلاح، وكان ينفر أشد النفور ويطعن من الطعن على الاتجاه للعنف ولوسائل القوة وضروب القسوة، ودفعه تفكيره الحر هذا إلى إنكار أكثر القواعد التي تقوم عليها جمعية عصره، دفعه إلى إنكار الملك الخاص إلا بمقدار حاجة الشخص له والطعن لذلك على التروات الواسعة، ودفعه إلى إنكار الزواج على أنه نظام، لأنه مناط فكرة الملك الخاص، وانتهى من تفكيره إلى وجوب إقامة الجمعية على أساس من العقل وحده، وإلى القول بأن هذه الأساس لو وضعت على صورة صحيحة زال ما يشكوه منه الناس من بؤس وشقاء وجريمة، وأوضحت العقوبة وصمة في جبين الإنسانية، ولذلك كان لا يكفيه أن يطلب إلغاء عقوبة الإعدام، بل كان يطلب إلغاء العقوبات جميعاً.

في هذه المبادئ التي وضعها جُدوين كثير سبقه إليه روسو وتأثر به أهل فرنسا ورجال الثورة فيها، على أن المبالغة هي التي أدت بهم لينكرروا حتى الدين الطبيعي الذي دعا روسو إليه وليجعلوا للإلهاد وسيلتهم إلى حرية الفكر، ولعلك إن التمست تفسيراً لهذا وجدته في تشبيث رجال الدين يومئذ بسلطائهم تشبيثاً كان يزداد كلما شعروا بسلطتهم معرضة للنقص ثم الأضمحلال، على أن واحداً من هؤلاء الذين دفعهم

تعصب رجال الدين للمجاهرة بالإلحاد لم يلبث أن عاد إلى نوع من الإيمان فيه جمال وله جلال، ودعا إليه عن يقين واقتناع لم يكن لرجال الدين حظ منهم، ولقد تأثر شلي في الأيام الأولى من شبابه إلى أبعد مدى بكتاب جُذُّوين ورأى في نظم الجمعية السياسية والاجتماعية والدينية ما لا يتفق مع حكم العقل، واقتنع بأن مرجع هذا كله إلى تشbeth رجال الدين بأن يخلعوا على كل دقة وجليلة من نظام الجمعية ثواباً من القداة يحول دون التفكير في معالجته أو إدخال أي إصلاح عليه، أليس نظام الزواج قد طبع بميسم الدين؟ أليس عروش الملوك قد أحياطت بسياج من القداة الدينية؟ أليس التملك والتوارث وكل ما هو من شأنه هذا العالم الدائم التغير والتطور قد سبب في قوالب الدين التي يقولون إنها لا تقبل التغيير ولا التطور؟ لذلك مال شلي إلى ناحية الإنكار على أنه الوسيلة لكل إصلاح ما دام الإنكار هو الوسيلة الوحيدة للحرية في التفكير والشعور والإلهام والإيمان.

إلى جانب هاته المطالعات التي كانت تثير سخرية أبناء أيتون من شلي كانت طبيعته الحساسة الفيضاة بالشعر وبما يلهم الشعر من تعلق بما وراء الطبيعة تدفعه إلى دراسات أخرى جعلت زملاءه في المدرسة يطلقون عليه لقب (المجنون شلي)، فقد كان يُعنِي بالسحر والسيميماء ويعتقد في الجن والأطيف ويرى في الهواء والماء شياطين وألهة كانت تحيا في خياله وتتصبح ذات كيان ووجود؛ لكثرة مطالعاته في أساطير اليونان وتاريخهم، واتجه عقله متأثراً بهذه الناحية من نواحي طبيعته يتمسّ أسرار العلم ويريد أن يكشف عن مخبوء قوى الكهرباء والضوء، ولذلك كان شديد الولع بأن يكون لديه معمل كيميائي صغير يرضي طلعته العلمية والحسامية، على أنه كان كلما ازدادت في هذا الباب بحوثه ثبت لدى زملائه جنونه، فلم يستمع له أحد قولًا ولم يرض أحد عن نظرياته الجريئة في الحياة وفي الحب وفي الإصلاح الذي أولع هو به بعد الذي أفاد من مطالعاته، بل كانت كل محاولة من جانبه لإقناعهم برأيه مثار احتكاك بينهم وبينه وسبباً للكمه ولطمته.

وزاده تحديهم إيماناً بضرورة إصلاح الجماعة وتغيير أسس نظامها ومقومات حياتها، لكنهم لم يكونوا يسمعون لما يريد أن يقوله لهم في هذا برغم أنه لم يفكر في كراهيتهم بسبب ما يصل إليه من آذاهم، وإن كان دائم التفكير في إصلاحهم برأًّا بالإنسانية وعطفاً عليها، فلما لم يجد منهم سميكاً جعل من أخواته البنات ومن ابنته عمه هارييت جروف تلميذاته في إجازاته المدرسية يلقي عليهن تعاليمه ويطالعهن

برسالته، ولقد كن بطبيعة الحال ألين من زملاء المدرسة عريكة وأسلس قياداً، وكانت إليزابيث كبرى أخواته أشدهن إيماناً به وتقديساً له وإعجاً بكل ما يقوله. هو يرى الشر في الملوك والأغنياء والقسّس، ويرى الخير عند البؤساء والفلسفه، إذا فالخير عند هؤلاء والشر في أولئك، وهو يرى الزواج نظاماً تعسّاً، وإنما يجب أن تقوم صلات الرجل والمرأة على أساس من الحب المقدس، فالزواج إذاً نظام تعسٌ، وكم كانت شاعريته الوليدة تخلع على صور الحب التي يقصها أمام الفتاتين من باهر الألوان ما يسرّهم عن كل ما سوى الحب مما يقوله ويجعلهما تؤمنان به من غير بحث فيه، أليستا يافعتين تتقدمان إلى الصبا ويبداً في دمها مسرى رغباته؟ والحب عنوان هذه الرغبات وطليعتها، وشلي شاب جميل حلو الحديث عذب النفس، له من نوازع الصبا ما لها ويطير على أجنة الحب مطارهم.

ولئن كانت ابنة عمه هاريت ترى في حديثه عن الزواج واعتراضه عليه تجديفاً لا تميل إليه نفس الأنثى الحرية على أن تجد من الجمعية كل حماية وعناء، فلعل الحب الوليد الذي ينشأ بينها وبين شلي يكفل من بعد اعتداله ويدفعه ليعدل عن أوهام الإصلاح في نظام الأسرة المقدس على الزمان، وإن هو لم يعدل من بعد فهي ما تزال بعيدة عن التفكير في الزواج وفي الارتباط به أو بغيره، يكيفها اليوم أن تخرج معه ومع أخيه وأن تسمع لعبد حديثه وحلو ترنه، وأن ترى في نظراته وابتساماته لها ما يسلّيها عن نظريات يجمل بها أن تعتقد أنها لتربيتها ولها اتّلاعاً ولها ابتساماً، وكانت إليزابيث تشعر في بعض الأحيان أن قد طال بها المقام وأن قد سمعت من نظريات أخيها واستمتعت من عطفه بما يكيفها بقية يومها فتذره وابنة عمها وحيدين يتبدلان نجوى الهوى وحلو حديث الغرام، ثم يعودان متخاصرين يسري إلى جسم كل منها دفء جسم صاحبه.

وكانت أيام إجازته المدرسية تنقضي في هذه السعادة الكاملة، فهو يدعوه إلى مذهبة فتاتين بديعيتي التكوين، والفتاتان تؤمنان به وتبادلانه حباً خالصاً: حب أخت ترى في أخيها ثبوغاً تفخر به ويزيدها حباً له، وحب فتاة تصبو إلى ما يدفع الحب إليه كل فتاة وفتى من تخليد الحياة في أجیال وأجيال، على أن يكون تخلیداً ترضاه الجماعة وترعاه، فإذا انقضت الإجازة عاد إلى أبيتون متراجعاً عن الساخرين منه مكتباً على قراءاته وبحوثه العلمية والسيمية منتظرًا يوماً يعود فيه إلى تلميذته يحدثهما من جديد عن مذهب جُدوين، ويتحدث إليهما بما نكب به رجال الدين الجماعة من أسس فاسدة.

وأتم دراساته بأيتون وذهب به أبوه في أكتوبر سنة ١٨١٠ فألحقه بأكسفورد، وفيها تعرف إلى شاب من أمثاله اسمه جفرسون هوج دهش بعد قليل من تعارفهم لكثرة مطالعات صاحبه ولعنایته عناية خاصة بالعلوم والهندسة، وقد زادته هذه العناية دهشة حين رأى في غرفة شلي من الأنابيب والزجاجات ومولدات الكهرباء ما جعلها عملاً عجياً. لكن هذه العناية لم تكن لتصرفه عن مراجعة هيوم ولوك وفولتير وهولباخ وعن مداومة الدراسة في كتاب جُدُوين. وكان من دواعي عجب هوج أن يكون لهؤلاء المتشكّكة كل ما كان لهم من سلطان على ذهن صاحبه المتّجه بطبيعته إلى ناحية التأمّلات الروحية، لكن عجبه هذا لم يمنع إعجابه بشلي الذي كان يخرج معه كل صباح يجوبان الأحراش فينطلق شلي مرحاً يجري وينظر ويلاقى بنفسه مقتحماً الماء إذا هو صادفته بحيرة من البحيرات ليعود بعد رياضته هذه إلى علمه وإلى تأمّلاته، ويعود كذلك إلى كتابة القصص والنشرات، فلقد بدأ مع ابنته عمه ومع أخيه قصة زاستروزي، وهذا هو يكتب قصة أخرى يجعل عنواناً لها (القديسة أرفيني) يروي فيها شيئاً من تفكيراته، ثم هذا هو كذلك يضع نشرة يجعل عنوانها (الحاجة إلى الإلحاد) ويوقعها باسم جروميا ستكمي ويعمل لنشرها في كل مكان ليتنهي بسبب ذلك إلى طرده من أكسفورد وإلى هجرة بيت أبيه وإلى ما كان بعد ذلك من حياته المشردة.

وكان في وسعه أن يتوقع ما ترتّب على هذه النشرة من نتائج، بل لعله توقعها ولم يحفل بها، أو لعل الدافع الذي أدى به لكتابة هذه النشرة لم يكن مما يمكن دفعه أو مقاومته، فقد بعث الناشر ستكميل إلى مسّتر تمودي شلي خطاباً يخبره فيه بأن ابنه بعث له بقصة القديسة أرفيني وأن فيها من الآراء ما لا يسيغه الجمهور وما يبعث الناس على القيامة ضده، فكتب مسّتر تمودي للناشر بأنه غير مستعد أن يدفع له شيئاً من نفقات الطبع والنشر، وانتظر حضور ابنه في إجازة عيد الميلاد، فلما حضر ألفي الجو حوله متوجهًا وألفي الناس من أهل هذه البلاد يتهمسون بإلحاده ويرجرون عنه وينأون بجانبهم، وتحدث إليه أبوه ساعيًّا أن يقنعه من طريق المناقشة، فإذا برسى أقوى منه حجة وأسطع برهاناً، وإذا الأب يقنع آخر الأمر بأن يقول له في غضب: إنني أؤمن لأنني أؤمن، على أن غضب مسّتر تمودي وتهامس الناس وانصرافهم عن شلي لم يؤثر في نفسه ولا دعاه إلى التفكير في أمرهم، لكنما أثر في نفسه وبلغ منها وأثار حزنها ما كان من ابنة عمه هاريت، فهو لم يكن يشك في عمق ما بينهما من حب عميقاً وصل إلى شغاف القلب، فليس يستطيع أحد من أمور الحياة أن يغير أحدهما على صاحبه

أو أن يعدل بهما عما تفاهمت نظراتهما عليه من تقاسم الحياة والاشتراك في ورد ما فيها من جمال وسعادة، لكنه ما لبث بعد عودته أن تحدث إلى أخته إليزابيث التي ظلت وحدها صادقة الود له، وسألها عن هارييت وشأنها حتى تولاه الجزء حين سمع منها أنها انصرف عنه كما انصرف عنه غيرها، وأن حبها تطايرت جذوته حين علمت أن أهلها والمحيطين بها لا يرون زواجها من هذا الذي **جُنّت** من قبل به وجّنّ بها، وعبيًا ذهب شلي وقابل هارييت وحاول إقناعها، فقد ألفاها أشد حرصًا على المتعة بنعيم الجمعية من ملبس وحلي ورقص منها على الأفكار التي يسبح هو في سماواتها متوهّمًا أنه يسعد العالم بإقناعه بها، وألفاها أشد حرصًا على علاقاتها بأبويها علاقة اطمأنة لها منذ مولدها منها على صلتها بشاب لا تدرى ما عسى أن يكون المستقبل معه.

تولى شلي الجزء، فكتب باكيًا ثائراً إلى صديقه هوج خطاباً يذكر له فيه أنها لم تبق له وأنها انقلبت تكرهه لأنه متشكّك بعد أن كانت هي من قبل متأثرة بتعاليمه، ويعلن ثورته على التعصب ويقسم أنه لن يغفو عنه، ويعلن أنه، وإن لم يكن يقر الانتقام فهو يرى الانتقام من التعصب عدلاً بل واجباً، وأنه سيكسر كل لحظة من حياته لماريتي، لأن التعصب هو الذي يهدم الجمعية ويشجع العقائد الفاسدة التي تحطم أقدس الصلات وأرقها وأعزها، وله عن ثورته هذه العذر أنه لم يكن يتوقع أن تحطم تعاليم الدين أشرف عاطفة وأسماءها، وأن تستل من بين الجوانح حباً قائماً على التفاهم وحسن إدراك الحياة والتوجه إلى ما فيها من جمال لعبادته والتسبيح بحمده، وكيف كان له أن يتوقع هذا، وقد كان يرى في الحب عاطفة قدسية تسمو بالنفس إلى ما فوق منافع الحياة ومطامعها، وتحلق بها في أجواء أثيرية تشهد منها بدائع هذا الخلق جميئاً متجلّياً فيما يقع عليه الحس من صور جماله، والحق أن الحب عند شلي كان له معنى أسمى بكثير من معناه عند غيره، هو لم يكن يرى فيه مجرد رابطة نفعية وشركة للتعاون على حمل عبء الحياة، بل كان يريده امتزاجاً روحيّاً لاستشفاف ما حولنا من جمال هو مصدر الحياة، وشركة في حب هذا الجمال في متبادر صوره ومختلف ألوانه، ولعل أجمل ما يستطيع إنسان أن يعبر به عن هذا المعنى ما عبر هو به في قصidته (أببسيشديون) حيث يقول ما ترجمته: «لم أتصل قط يوماً بهذه الطائفة الكبيرة التي يجب مذهبها على الفرد أن يختار من بين الجماعة كلها رفيقة أو صديقة وأن يلقي بالباقيين، وإن يك لهم ما لهم من جمال وحكمة، في جمود النسيان ... فالحب الصادق يختلف عن الذهب والتراب في أنك كلما شاطرتهما أخذت منها وأنقصتهما،

على حين هو يشتراك مع الفهم الذي يزداد بريئاً كلما ازدادت الحقائق التي ينبع منها نظره إليها، وهو كالخيال يستمد نوره من الأرض والسماء ومن أعماق أهواء الإنسان ومن ألف مرأة وألف ضلع، ثم يملأ الوجود بالأشعة الباهرة يقتل بها جرثومة الخطأ بما يسلط عليها ضياؤه من سهام كأنها أشعة الشمس، ويما ضيق قلب ينحصر حبه، وعقل يقف تفكيره، وحياة تنتهي غايتها، وذهن يقف خلقه عند شيء واحد، وصورة واحدة، يبني لذلك بها قبر خلده.»

إذا فالدين والعقيدة الاجتماعية والنظام الذي يحصرنا في دائرة هذا الحب الواحد والتفكير الواحد والغاية الواحدة والخلق الواحد، يعني لنا قبر خلدنـا، وهو لذلك يفسد أمر الجماعة ويقضـي على خير ما فيها من عواطف وأسمى ما فيها من إلهام، فعلى الذين أوتوا ما أوتـي شـلي من هـبة أن يـقوموا في وجه هذا الضيق في القلب والعقل والذهن وأن يصلوـها من حرـبـهم نـارـا حـاميـة.

وعاد شـلي إلى أكسفورد كـثـيـبـ النفس حـزـينـ الفـؤـادـ ثـائـرـ القـلـبـ وـالـعـقـلـ مـعـتـزـمـاـ أـنـ يـشنـ الغـارـةـ عـلـىـ التـعـصـبـ وـأـنـ يـفـسـحـ الطـرـيقـ لـالتـسـامـحـ وـالـحـبـ وـالـمـغـفـرـةـ وـالـجـمـالـ، وـكـانـ أـوـلـ مـاـ صـنـعـ مـنـ هـذـاـ أـذـاعـ نـشـرـتـهـ (ـالـحـاجـةـ إـلـىـ إـلـاحـادـ)ـ مـوـقـعـاـ إـيـاهـاـ باـسـمـ غـيرـ اسمـهـ وـمـوـزـعـاـ لـهـاـ عـلـىـ كـلـ مـنـ ضـيـقـ التـعـصـبـ دـائـرـةـ قـلـبـ وـعـقـلـ، وـفـقـدـ بـعـثـ بـهـاـ إـلـىـ رـجـالـ الـدـيـنـ وـإـلـىـ الـمـعـلـمـينـ وـإـلـىـ الـمـشـتـغـلـيـنـ بـالـسـيـاسـةـ، وـثـمـ عـرـضـهـاـ فـيـ مـكـتبـةـ بـأـكـسـفـورـدـ لـمـ تـلـبـثـ أـنـ اعتـذرـتـ عـنـ عـرـضـهـاـ لـأـوـلـ مـاـ اـحـتـجـ أـحـدـ رـجـالـ الـدـيـنـ عـلـيـهـاـ، وـقـدـ اـفـتـحـ هـذـهـ الرـسـالـةـ بـقـوـلـهـ (ـالـحـسـ أـسـاسـ كـلـ مـعـرـفـةـ)ـ، وـسـارـ فـيـهـاـ بـلـهـجـةـ مـلـتـهـبـةـ يـطـعنـ كـلـ قـيـودـ الـدـيـنـ وـيـحـطـمـهـاـ، وـأـبـلـغـتـ الـجـامـعـةـ أـنـ شـليـ هوـ نـاـشـرـهـ، فـسـأـلـتـهـ فـأـبـىـ أـنـ يـجـبـ فـقـرـتـ فـصـلـهـ، وـاحـتـجـ صـدـيقـهـ هـوـجـ عـلـىـ هـذـاـ التـصـرـفـ مـنـ إـدـارـةـ أـكـسـفـورـدـ، فـتـقـرـرـ فـصـلـهـ هـوـ أـيـضاـ، وـتـرـكـ الصـدـيقـانـ الـجـامـعـةـ عـائـدـيـنـ إـلـىـ لـنـدـنـ مـنـتـظـرـيـنـ فـيـهـاـ طـوـرـ الـحـوـادـثـ وـتـصـارـيفـ الـزـمـنـ، مـكـتـفـيـنـ فـيـهـاـ بـغـرـفـةـ اـعـتـبـرـهـاـ شـليـ مـأـوـاهـمـ الـأـخـيـرـ.

ولـاـ عـلـمـ مـسـتـرـ تـمـونـيـ شـليـ بـفـصـلـ اـبـنـهـ مـنـ أـكـسـفـورـدـ ثـارـ ثـائـرـهـ وـاستـشـاطـ غـيـظـاـ وـبـعـثـ لـهـ بـرـسـالـةـ يـخـبـرـهـ فـيـهـاـ أـنـ لـنـ يـمـدـ بـمـعـونـةـ أـوـ مـدـ إـلـاـ إـذـاـ هوـ رـجـعـ إـلـىـ فـيـلـدـبـلـيـسـ وـتـلـقـيـ فـيـهـاـ الـدـرـوـسـ عـلـىـ مـنـ يـخـتـارـهـمـ هوـ لـهـ مـنـ الـأـسـتـاذـةـ، فـرـدـ شـليـ عـلـىـ أـبـيـهـ يـرـفـضـ فـيـ أـدـبـ شـروـطـهـ، وـلـمـ يـقـنـعـ أـلـبـ بـهـاـ الـرـفـضـ فـذـهـبـ إـلـىـ لـنـدـنـ وـقـابـلـ بـرـسـيـ وـصـاحـبـهـ هـوـجـ وـحاـوـلـ إـقـنـاعـهـمـاـ بـالـحـجـةـ لـيـعـدـلـ شـليـ عـمـاـ كـتـبـ فـيـ رـسـالـتـهـ عـنـ إـلـاحـادـ، وـمـعـ مـاـ سـلـكـهـ مـنـ طـرـقـ التـلـطـفـ وـالـمـجاـلـمـةـ فـقـدـ لـقـيـ مـنـ اـبـنـهـ صـخـرـةـ لـاـ تـتـزـحـزـحـ وـأـلـفـيـهـ إـباءـ وـقـوـةـ

عزيمة لم يستطع التغلب عليهما، فتركه عائداً إلى فيلدبليس من غير أن يعطيه درهماً، ولعله كان يرجو أن تضطر الحاجة الابن إلى أبيه فينتهي إلى الإذعان، أو لعله كان أشد حرصاً على سمعته منه على فتاه، وعلى أي الحالين فقد ظل شلي مصرّاً على رأيه مرتقاً عن أن ينزل عنه مستحفاً بما يتهدده من ضيق ذات اليد، فما كان المال ليوازي عنده يوماً شيئاً إذا هو تعارض مع إيمانه برأيه، وبقي معه هوج أياماً في لندن ثم غادرها إطاعة لأبيه الذي ألحقه بمكتب محامي يتعلم الحقوق فيه، وأقام شلي من بعده في العاصمة الإنجليزية وحيداً ليواجه الحياة وزعزعها وليستعد لنضال الجمعية التي اضطرته إلى عزلته، مؤمناً بأنه سينتهي إلى الظفر بها والتغلب عليها.

(٢) هاريت وستبروك

أقام شلي في العاصمة الإنجليزية وهو أقل تألاً لاختلافه مع أبيه ولغادرته الجامعة وانقطاعه عن الدراسة المنتظمة منه لتنكر ابنة عمه هاريت جروف له وازدرائها حبه وانفصالها عنه؛ لذلك كان أكثر تفكيراً في هذا الحب المحموم منه فيما يقيم به أود حياته، وفيما يفكر من شؤون العيش وقد كان قانعاً بما دون الكفاف حتى لتكفيه بضعة بنسات طعام يومه؟! فأما هاته التي عقت الحب وعقت آراء جدويين وعقت المبادئ السامية جميعاً، فهي اللغز الذي يوجب العناية، وهي الداء الذي يتطلب للراء منه علاجاً حاسماً.

وأكب يقبل هذه المسألة على مختلف وجوهها حتى خيل إليه يوماً أنه عثر في حجة منطقية على الدواء الناجع لها والحل الصريح للغزها، هو لم يكن يحب من هاريت جسمها ولا كان يقف إعجابه عند جمالها، بل لئن أعجب بحسنها على أنه بعض صور الجمال الذي زينت به الطبيعة الوجود، فإنما كان حبه منصبًا كله على سمو ذهنها لإدراك نظرياته ونظريات جدويين في الحياة ونظمها والتسامح وضرورته والحرية وتقديسها والجمال وعبادته، وهذا هو ذهنها قد فتر عن إدراك ذلك كله وهبط إلى مستوى الأذهان العامة وأصبح شيئاً آخر غير جدير بأي حب أو تقدير.

فماذا بقي بعد ذلك منها جديراً بالحب أو دافعاً للتثبت بها والحرص عليها؟ أو لو عشق إنسان في فتاة جمالها تراه عاشقاً الدود الذي يحول إليه جسمها بعد انتقالها إلى قبرها! وقد دفن من هاريت ذلك الذهن الوضاء المرتفع إلى مراقي نروة التفكير والذي اتصل من قبل بذهن شلي وروحه، وقد اندرست إلى قبره ديدان الأوهام

والأباطيل، فلينس شلي هذه العلاقة إذاً، وليس لها في سلك الбаيسات الحقائق بعطفه ورحمة، لكن، لكن هذه الحجة القاطعة التي أرضت عقل شلي لم تطفئ في قلبه جذوة زادها حقوق البايسة ضرامةً، ولعل مرجع السبب في هذا إلى غدر هاريت لما كان يرجو في صحبتها من تعاون على محاربة الأوهام المفسدة المندسة إلى نفس الجماعة أكثر مما يرجع إلى شيء آخر، فالصحيح أنه لم تكن بيته وبينها صلة حب على نحو ما يفهم هو الحب؛ ولذلك لم يطأ في قلبه لاجع الهم ولا ظلت جذوته مستعرة إلا ريثما وجد في هاريت أخرى، لا تقل عن الأولى جمالاً ولا ذكاء، ذلك الاستعداد للسمو معه في سماوات الجمال والإلحاد والتسامح وكل ما دعا كتاب الثورة الفرنسية وتابعهم جُذُّوين في الدعوة إليه.

فلقد كانت أخواته البنات يتعلمون في مدرسة البنات بحي كلابهام، وكانت رشيدتهن هلن شلي تتناول من أختها الكبرى إليزابيث رسائل تبعث فيها بما لديها من نقد كي تعطيه هلن لبرسي لتعوضه بعض الشيء عن إهمال أبيه إيه، وكان برسبي يذهب إلى مدرسة البنات هذه يحمل بعض الهدايا لأخواته لأنه كان يأبى أن يستثير بما تبعث به إليه أخته، وما لبث أن تعرف إلى بنات المدرسة حتى بدأ يفكر في إقناعهن برأيه وحملهن على اعتناق نظرياته ومبادئه، وكانت هاريت وستبروك من أكثر أولئك الفتيات رقة وأحلاهن ابتسامة وأغردهن صوتاً، وكان جمالها يضيء مزدانًا بشعرها الذهبي وحدودها المتوردة وشبابها الضاحك إلى ورود ربيعه، وكانت — على أنها في السادسة عشرة من عمرها — صغيرة القد طفلاً النظرية يفيض المرح من وجودها كله ويوضوع منها سرور طرب يجعل كل ما حولها طروبياً ضحويًّا، وقد أقتنت القراءة والإلقاء فزادت عذوبة صوتها وتغريده حياةً وروحًا، وعني أبوها مستر وليم وستبروك بأن يجعل منها ضريبة لبنات النبلاء ليجزي الحظ بذلك عما كان هو مفتتح حياته حين كان يعمل في الفنادق؛ لذلك كانت شديدة الحرث على الاتصال بينات النبلاء زميلاتها في المدرسة، وكانت أشد بأخوات شلي اتصالاً، فلما رأت الشاب التبلي الجميل برسبي يتردد على أخواته وقع من نفسها وتودّدت إليه وأظهرت أنهاها للحاده وحاولت أن تصده عنه وأن تقنعه بمثل إيمانها وإيمان الجمعية كلها، لكنها ما لبثت أن اتصلت به حتى تأثرت بروحه وحتى رأت فيما يدعو إليه بهاء وجمالاً لا شيء مเทهما أو يقاربهما في تعاليم الكنيسة ورجال الدين، فالحرية الأنثوية الأجنحة الطائرة في فضاء طلق تسحب منه في جمال الوجود ناهلة ورد كل ما فيه من صور هذا الجمال الذي يحمل إليها

شذى الحب وعقبه، فيملاً بهما قلب المستمع بتعييمها من غير أن يثقله بقييد من زواج أو من تملك أو توارث، ومن غير أن يرهقه بالقوانين أو التكاليف، هذه صورة جذابة ليس لها فيما حفظت من تعاليم الدين نظير، إلا أن يكون ذلك في العالم الآخر وبعد انتقالنا من هاته الحياة التي نحسها ونلمسها، ولو أنها تابعنا شلي لاستطعنا أن ننعم بها في الحياة نعيم المؤمنين بها بعد الموت، فما لهذا العصفور الجميل هاريت والتفكير في الموت، وما لها وإكراه خيالها على اقتحام صورة الموت المرعبة إلى ما بعدها لترى ما يخيلون لها من نعيم وهناء وجمال؟! ما لهذا العصفور وهذا الإجهاد ما دام رسول الجمال والحب شلي يضع له الجنة في يديه، جنة لا تقف حدودها عندما يزین من تعاليم ويصقل من صور وأراء، بل تبدو حقيقة ملموسة في جمال صورته، وفي نبله وثرؤته الواسعة وعدوبة نفسه وطيبة قلبه وحبه الإنسانية كلها حبًّا جمًّا؟ أوليس خيراً لها أن ترفعها هذه الأيدي الرقيقة الحنون – أبيدي شلي – إلى جنات النعيم؛ لذلك ما لبشت أن آمنت بكل ما يقول وأن أصبحت مثله تميزة لجُدُّوين ولمن أخذ عنهم جُدُّوين حتى أفلاطون، وأصبحت لا تجد سعادة في لحظة أكثر من تلك التي ترى فيها شلي في المدرسة أو التي تذهب له فيها بيبيت في شارع بولونيا تحمل إليه ما تعطيها أخته هلن من مال، فقد كانت هلن تبيت بالمدرسة ولا تستطيع الخروج منها في حين كانت هاريت تذهب كل يوم إلى بيت أبيها فتجد الفرصة للمرور بصديقها ووليها وأستاذها ومحبوبها.

وكان لهاريت أخت متقدمة في السن إلى ما فوق الثلاثين اسمها إليزا تقوم منها مقام أنها المتوفاة، وقد سرها ما عرفت من صلة هاريت بشلي، كما سر بذلك أبوها واعتبره خطوة أولى يرقى بها إلى مصاف النساء؛ لذلك لم يسوء يوماً مرضت فيه هاريت أن دعت إليزا بشلي إلى مخدع نوم أختها وأن جلس عند أقدامها إلى ما بعد منتصف الليل، وكان من أثر جلوسه إليها أن برئت من مرضها وأن عادتاليوم التالي إلى صحتها وإلى تغريدها، وأن تزايد من بعد ذلك وجدها به حتى صار هياماً وتدللها، لكن شلي لم يكن ينظر إليها نظرتها إليه، بل كان يرى فيها حياة الروح وسمو الذهن إلى الاقتناع برأيه ومبادئه مما يعزيه عن روح ابنته عمه هاريت جروف التي دفنت في قبر الأباطيل ونخر فيها سوس الأوهام، كان يرى فيها ضياءً جديداً غير هذا النور الذي خبا، وشريكة فيما يسميه هو الإلحاد في حين هو الإيمان بالعدل والحق والجمال، وإذا هي لم تكن من طائفة النساء فلعل في تحررها من قيود هذه الطائفة ما يكفل بقاءها

على عقيدتها الجديدة وثباتها في إيمانها الذي أوحاه هو إليها، وما أحمله إيماناً يتحلى به رأس جميل كله الحياة وكله المحبة وكله العواطف المتأججة.

واطمأنت نفس شلي إلى تلميذته وإلى الحياة وعاوده الرجاء في صلاح الإنسانية كلها، وإن كانت هذه الصلة قد أدت إلى فصلها من المدرسة كما فعل هو من أكسفورد من قبل، وزادته طمأنينته هذه شوقاً إلى اخته إليزابيث أشد من عرف من تلاميذه إيماناً به وحباً له، وفيما كان يفكر في الطريقة التي يعود بها إلى فيلد بليس من خاله الكبن بلفولد بلندن وتقابل وإياه، وكان الكبن رجلاً كثير التجوال في مختلف أنحاء العالم، فكان لذلك واسع الصدر متسامحاً لا يطيق أن يفهم كيف يؤدي اختلاف أب وابنه في الرأي إلى تعصب الأب وتصميمه على أن يميت ابنه جوعاً، فأخذ شلي معه إلى داره بكفلد ليعيده الصلة المقطوعة وليكفل للابن عيشه، وكانت في كفلد مربية هي مس هتشنر رومانية الجمال تتخطى في طمأنينة إلى الثلاثين من عمرها وتدين بالمبادئ الحرة ولكنها تؤمن بالله، فأخذ الشاب نفسه بأن يشفيفها مما سماه «هذا المرض» وقبلت هي أن تتلمذ له، مدفوعة أغلب الأمر بسحر جماله وعدوبه روحه أكثر من افتاعها بآرائه ومبادئه، واستعلن الكبن بلفولد الدوق نورفالك على التوفيق بين شلي وأبيه، فلم يحتاج المستر تموني لأكثر من كلمة الدوق كي يعود برسي إلى أهله وكى يرى اخته إليزابيث، وارتضى الأب أن يرتب لابنه مائتي جنيه سنوياً لا يقيدها شرط ولا يؤثر ترتيبها في حرية شلي بأية صورة من الصور.

ولقد فاضت السعادة بشلي في أثناء سيره من بيت خاله لبيت أبيه لغير شيء إلا إطفاء شوقه لإليزابيث، لكنه لم يلبث إلا قليلاً بعدما رأها حتى بدت عليه الذهول، هل هذه هي إليزابيث التي يعرفها؟ لقد كانت تؤمن بإيمانه وتدين بمبادئه، وكانت عونه على هاريتس جروف حين تنكرت له وعقت مبادئه وعادت إلى مثل أوهام العامة وعقائدها، فكيف بها هي الأخرى تفعل فعلة هاريتس وتنثور به وبمبادئه وتجعل كل هماها أن تجيئ الطرف فيمن حولها من الشبان وأكبر رجالها أن تجد منهم زوجاً صالحًا؟ أفترى أولئك الفتيات وبنات جنسهن جميعاً ضعيفات غاية الضعف متى تحركت الأمة في أحشائهن حتى ينزلن خاضعات لسلطانها عن كل شخصياتهن، ويتجهن بوجودهن كله تلبية لرغبات هذه الغريرة فيهن باحثات في أقرب ما يجاورهن عن مستقبل وادع مطمئن للنسل الذي تحمل أرحامهن؟ وهل ينسين ساعة بحثهن هذا كل ما يسمى إليه الحب من معانٍ وما يطمئن المحب إليه راضياً من تصحيات في سبيل

تحقيق هذه المعاني؟ ألا تعسّا لنظام الجمعية الزائف القائم على الكذب والوهم المدعم بالقسوة والدماء! فهو الذي يقضي على أذهان بنات حواء هذا القضاء القاسي.

وعبّتاً حاول شلي أن يعيد إليزابيث إلى حظيرته العليا وأن يردها كي تفسر النفس على صور من السمو لا يطيقها إلا المهووبون الذين أرسلتهم الأقدار للرقي بالإنسانية درجات جديدة في سبيل الكمال، وجعلت من جهادهم في سبيل رسالتهم لذة عيشهم وسعادة حياتهم، لقد ذاقت الفتاة ما تقدمه الجمعية من صنوف المتعة وما تقتضي ثمنه إذعان بناتها للنطاق الذي ترى فيه الحفيظ على كيانها، لقد ذاقت هذا المتعة المادي القريب إلى متناول اليد، وهذا هي ذي ترى في الأمومة صوراً أخرى من المتعة لا سبيل لها إلى نيلها إلا بالاندماج في قطبي الجماعة وتقديس أوهامه وتُرَهاته، أفتأنى بجانبها عن هذا المتعة لتفق من الجماعة موقف أخيها وتنتظر إليها العيون شرزاً وليسمي القانون متابعتها عواطف قلبها عهراً؟ كلا، ولئن كان شلي أخاً صادق الأخوة، فأول واجبه أن يبحث لأخته عن زوج نبيل غني جميل تستكمل به كل ما في مادة الحياة من متعة وتوئي به للأمومة واجبها.

ويئس شلي من أخته كما يئس من ابنة عمه، فلم تبق له لذة في مقامه بين أهله، وجاءته دعوة من هوج كي يذهب إليه في يورك، وأخرى من فتاتي وستبروك وثالثة من خاله الكبتن بلفولد، ولكنه تردد في قبولها جميعاً ثم فضل عليها دعوة أحد أقاربه إلى بلاد الغال على شاطئ البحر أملاً أن يجد من جمال طبيعة تلك البلاد ومن تلاظم الموج والصغر ما يُسْكِن ثورة نفسه وما يبعث إلى قلبه السلوان عن مصابه في ذهن أخته، وفي مقره الجديد نصب نفسه رسولًا يدعو إلى الحرية والحق والتسامح في رسائل كانت تستند أكثر وقته يكتبه إلى هاريت وستبروك وإلى مس هتشتر وإلى هوج وإلى غير هؤلاء من يأنس فيهم ميلاً إلى الرقي نحو الكمال، ولم يطل به المقام في عزلته الجميلة حتى تسلم رسالة من هاريت تذكر له فيها أن أباها يريد أن يعود بها إلى المدرسة التي فصلت منها، ويطلب إليها أن تنكر تعاليم شلي كي ترضي ناظرة المدرسة عن رجوعها، وأنها اعتزمت أن تنتحر كي لا تلبي ما يريدونها عليه، فرد شلي عليها يسكن من روعها وبعث إلى أبيها يلومه لما يحاول من إكراه الفتاة عليه، وغضب أبوها لتصرف هذا الشاب الذي كان راضياً من قبل عنه مغضياً عن تعاليمه حين كان يحسب أنه سيتزوج ابنته، ثم إذا به كغيره من أبناء النبلاء يغرون الجميلات من بنات الطبقات الأخرى ثم ينأون عنهن ازدراه لنبتها، ولم تطاوع هاريت أباها على أن يكون

هنا وجم شلي، وزاده وجوماً اللهجة الصادقة القوية الملتيبة التي اعترفت الفتاة
فيها بحبها إيه، لكنه هو لم يُحِبْ منها عذوبة صوتها ولا جمال تكوينها وإنما أحب
منها سمو ذهنها وجمال روحها! على أنه اهتز مع هذا لاعترافها، وشعر معه بسموها
على ابنة عمده وعلى أخيه، إنها تحبه وتريد الفرار معه مزدرية أوهام الجماعة وعقائدها
مستعدة للاشتراك معه في نضالها لهدايتها وإصلاحها، فلم يستطع في تداول نفسه بين
اهتزازها إعجاباً بها الاعتراف وشعورها بأن ليس يشغلها هذا الحب الذي تريد الفتاة
أن يبادلها مثله، إلا أن يملس على شعرها وأن يسكن من روتها وأن يعدها بصدق
إخلاصه لها وأنه سيكون إلى جوارها عند أول نداء يصله منها، وكفى الفتاة أن تسمع
منه هذه الكلمة ليزول عن وجهها شحوب جاءته به أيمان أقسامها أبوها بأن شلي ضلل
بها وأنه لا يحبها، وليعود إلى لونها تورده وإلى وجودها شبابه وفرجه.

وكتب شلي يقص على هوج ما حدث، فأجابه صديقه ناصحاً إيه ألا يفر بالفتاة إلا أن يتزوجها، فإذا كان لا يؤمن بالزواج ويرى فيه نظاماً تعسّاً، فليس من حقه لذلك أن يشقي فتاة تحبه، فلن تصيبه هو من هذا الفرار خسارة ولن يناله منه أذى، أما هي فستكون إن لم تتزوجه منظوراً إليها بعين الازدراء حيث سارت، مغضوبًا عليها من أبيها، محرومة من عطفه ومعونته، شاعرة لذلك بألم قد يجني في نفسها الطفلة على حبها إيه، فإذا كان شلي لينفذ مبادئه وتعاليمه ولينفصل حين ذلك عنها، فماذا يكون أمرها وأيام يكون مصيرها؟ أفلًا يكون بهذا مسلماً إياها للتعس والشقاء، وتكون التعاليم التي يريد بها سعادة الإنسانية مؤدية بالفتاة إلى البؤس والسقوط لغير ذنب إلا أنها أحنته؟

وصدمت شلي قوة حجج صاحبه فتراجع أمامها وتردد في وعده الفتاة أن يكون إلى جانبها لأول ما تدعوه إليها، لكن الفتاة لم تمهله في تردد بل بعثت إليه بعد أسبوع من تركه إياها تدعوه إليها، ولم تطل في نفسة المعركة بين المبدأ والواجب، فذهب إليها

مذعنًا للواجب معتزًماً أن يفر بها وأن يتزوجها تاركًا بين يدي القدر ما يقول إليه أمرهما من بعد.

وغادرها عاصمة إنجلترا قاصدين عاصمة إيقوسيا وقضيا في سياحتهما أيامًا شعر شلي خلالها بحياة جديدة تسري إلى قلبه وعاطفة حلوة تتحرك بين جوانحه، لقد فر عصفوره معه طائراً عن العش الأبوي حباً له وغراماً به، فلم يك حديثها معه عن الحب هذا الحديث القديم يسمونه فيه إلى التفكير في المعانى التي يريد هو أن يحيط الحب بها، بل أصبح حديث غرامها هي وتدهنها، وأصبح حديثاً دلالة الألفاظ فيه دون دلالة النظرات والبسمات والقبلات، ها هي ذي تستيقظ إلى جانبها فإذا عيونها إليه معاولة ندية النظرة كلها الشوق والهوى، وإذا أذرعها تطوق عنقه وأصابعها تبعث بشعره وقدها الصغير يجتمع كل ما فيه من حياة صاعداً إلى قلبها كي يبعث بها إلى فمهها فتطبعها على فمه قبلة فيها كل قلبها وكل حياتها وكل حبها،وها هي ذي النهار كله تتشدّو إليه بأغاريد حبها وஹاها، ثم ها هي ذي الليل تطوق ثغرها ابتسامة السعادة وييهفو إلى أدنه تردادها لاسمها حين أحالمها بهنائها ونعمتها؛ لذلك لم يكادا يصلان إلى إندية ويختاران فيها مسكنًا حتى أتم زواجه منها وملكه إليها، وكذلك قضيا أيامًا نسي فيها شلي نفسه ورسالته واستسلم فيها بكله إلى المتع بحب هارييت حباً بعث إلى كل ما يحيط بهما من بحر وشجر وجبل وزهر شذى جعلها تتضوء بريح الحب هي الأخرى وتزداد على جمالها جمالاً وسحرًا.

ثم آن لشلي أن يعود إلى تأملاته وتفكيره، فإذا هارييت في شغل عنها بحبها له وعبادتها إليها، فإن هي شاركت فيها كانت صدى له يرد إليه تأملاته هو في صوت عذب وحديث حلو؛ لذلك ود شلي — مع اطمئنانه لعزلتهما وسعادته بحبهما — لو أن صديقه هوج كان معهما، وكأنما كانت الأقدار في هذا طوع رجائه، فلم تك إلا أسبابيع بعد عودته إلى التأمل والتفكير حتى جاء هوج في إجازة له يقضيها عند صديقه، وقد بهرته روعة جمال هارييت إلى حد كاد معه يمل حديث شلي وبحوته ونظرياته، وسرّ شلي بأن أتاحت له ضيافة هوج خروج هارييت معه للنزهة وتركه هو لقراءته وتأملاته، فلما آن لهوج أن يعود إلى يورك اقترح عليهما أن يذهبا وإياباً لها، وسافر ثلاثة فلم يجد شلي في يورك جمالاً يغذى روحه الدائمة الظماء للجمال، وزاده همًّا أن لم يصله من أبيه المال الذي اتفق على أن يبعث له به فسافر إلى ككفلد ليرى حاله الكبتين بلفولد وترك زوجه في حماية صديقه إلى أن يبعث إليها بأختها، ولم يملك هوج نفسه من

أن يذكر لهارييت أنه يحبها، فصدته الفتاة عنها وقاومت هجوم هواه يوماً واحداً أن حضرت أختها في اليوم الثاني فحالت بينهما، ولما جاء شلي وأخبرته بخبر هوج لم يزد على أن لام صديقه على سوء صنيعه، ثم غادر المنزل مسافراً ومعه زوجه وأختها اللتان رأتا في صنيع هوج ما لا يمكن معه احتمال مرآه، وعاد هوج من مكتب المحامي الذي يشغله في رعايته فالفي المنزل خلاء وإن لم يخبره بالسفر أحد.

واختار شلي الذهاب إلى منطقة البحيرات إذ كان يقطنها الشاعران الكبيران سوزي وكولارج، وكان شلي قد بدأ يقرض الشعر، فهو يطبع في مثل عظمتهم ويرجو أن يكون من شعراء منطقتهم، ولما كان دوق نورفلك يقيم كذلك في هذه المنطقة، وعلم بمجيء شلي إليها، فقد كتب يدعوه وزوجته إلى قصره، وهناك عرف صديقاً لسوзи ذهب به إلى بيت الشاعر الذي كان يحل من نفس شلي أسمى مكانة وأرفعها، لكن شلي لم يلبث أن تولته الدهشة حين ألفى زوجة سوزي أبعد ما تكون عن إلهام الشعر وإن كانت ربة دار مضربياً للمثل، ولما دار بيته وبين سوزي الحديث بهت مما سمع، فسوзи، هذا الشاعر الفحل، يقول إنه متدين وإنه مسيحي! وهو يحب المال ويطبع في كسبه! وهو يعيش كما يعيش الناس ويفكر تفكيرهم! أليس هذا عجباً؟ ثم ماذا؟ ثم عشر في مجلة على مقال لسوзи يصف فيه ملك إنجلترا بأنه خير ملك جلس على عرش، وعلم أن سوزي يقصد من هذا إلى أن يخلع عليه الملك ألقابه، إذاً فهو رجل يسرخ ضمبه لمطامعه ولا يرجو من الحياة إلا ما يطفئ ظمأه لنعيم الماده، إذاً هو لا يستحق احتراماً ولا تقديرًا، ليكن له من ملكة الشعر ماله، فلن توحى ملكة أياً تكون باحترام صاحبها إذا نزل بأخلاقه وبعمله في الحياة إلى المستوى الوضيع الذي لا يطبع الناس منه إلا في كاذب الجاه وفي اكتناز المال.

أما سوزي فعجب لأمر شلي وصلباته في رأيه وإن لم ير في ثورته بالدين إلا مرحلة من مراحل التفكير يمر بها الشباب الذي جميئاً ثم يعودون إلى نوع من الإيمان له روعته وجلاله، بل لقد كان شديد الاقتناع بأن سيكون ذلك شأن شلي؛ لأن نفسه نفس شاعر، ونفس الشاعر لا تطيق الإلحاد وما يصور الإلحاد من عدم، ولأن نفس الشاعر تخلق فلا تستطيع أن تذكر الخلق، ولأنها جميلة فلا معدى لها عن الإيمان بالجمال، ومن يدرى أي مصير كان قد أعده القدر لإيمان شلي لو أن منيته لم تعاجله فامتد به العمر حتى رأى من عبث الأقدار بالناس والحياة أكثر مما رأى !!

وكان من حظ شلي ألا يفجعه القدر حتى يسرع إلى أن يعوض عليه فجيئته، فكما عوضه عن هارييت جروف بهارييت وستبروك، كذلك عوضه عن سوزي بمن

يؤمن به ألف مرة أكثر من إيمانه بسوزي، فقد عرف إذ ذاك أن وليم جُدوين حي يرزق وأنه يقيم بلندن، وأنه يستطيع أن يراه؛ لذلك سارع فكتب إلى مؤلف (العدل السياسي) رسالة كلها الإعجاب به والرجاء في الاستماع له، على أن شلي كان يومئذ في شغل بمشروع كبير لم يدع له الفرصة كي يسرع إلى لندن للحاق بأستاذه الروحي العظيم، ذلك أن الكاثوليك من أهل أرلندا كانوا يعاملون معاملة شاذة، سببها أنهم على غير البروتستانية دين المملكة ودين الغالبية، فكانوا محرومين من مناصب الدولة غير معترف لهم بكثير من الحقوق المدنية المقررة للإنسان.

وقد رأى شلي في هذا فرصة سانحة ليعلن حربه على الظلم ولينادي بالمساواة بين الناس جميعاً لا يفرق الدين بين أحد منهم ولا يجعل له فضلاً على غيره، وليشن الغارة على رجال الدين وما يدعون إليه من تعصب، وعلى الملوك وما يحيطون به رجال الدين من رعاية يردهما رجال الدين إليهم بدعة الناس إلى تقدير عروشهم والإذعان لظلمهم واعتباره بعض ما أراد الله لخريم، وهذه الغاية وضع نداء مطولاً دعا فيه إلى مبادئه، وفي مقدمتها التسامح، وإلى هذه الأفكار التي خلفتها الثورة الفرنسية وراءها.

لكن الثورة كانت قد أخلفت في نظر الناس من أهل ذلك العصر؛ لأنها بعدما قامت فداء للحرية والمساواة، وبعدما قدمت من تضحيات، وبعدما قضت عليه من رعوس أطاحتها وثروات عصفت بها؛ لم تبلغ من غايتها أكثر من أن قدمت أبناء فرنسا كلهم طعاماً لشهوات نابليون الحربية وأن أجلسه إمبراطوراً على عرش الجمهورية، وسر إخفاقها في نظر شلي وجُدوين وكثيرين من كتاب العصر ومفكريه أنها اعتمدت لتحقيق غaiياتها على القسوة والعنف، فمهدت السبيل لنفور الناس منها وتنفسهم الصعداء لانقضاض عهدهما، ولو أنها جعلت الرحمة والتسامح وبر الإنسان بالإنسان وتفاهم الأخ مع أخيه أساساً لها، لحققت على الأرض كل غaiياتها وإن احتاجت إلى زمن أطول مما كان يقدر رجالها لنجاحها.

ولهذا دعا شلي إلى مساواة الكاثوليك بسائر الإنجليز في الحقوق والتکاليف طالباً إلى الكاثوليك أن يتمسكوا بحقهم في هذا من غير أن يلجموا إلى عنف أو دماء، واتخذ مقراً لدعوته في دبلن بيته أقام فيه مع هارييت وإليزا، وجعل يوزع على الناس نداءه الحار الملتهب لهذه المبادئ السامية، وقد خيل إلى بعض أصحابه أن البوليس لا بد أن سيقبض عليه وأن أهل أرلندا سيلتفون حوله، لكن هؤلاء خسروا من رسول حريرتهم الذي لم يبلغ بعد العشرين من عمره، ووجدوا فيه وفي زوجه الطفلة الرقيقة موضع دعابة وعطف مما جعل البوليس لا يهتم لهما ولا يعبأ بهما.

والحق أن شلي كان مخطئاً كالذين رأوا معه أن إخفاق مبادئ الثورة الفرنسية يرجع إلى التجائها للعنف والقسوة، فالثورة الفرنسية — ككل ثورة غيرها في العالم — لم تبدأ لتحقيق المبادئ التي أعلن أهلها أنهم يريدون تحقيقها، بل هي بدأت أول أمرها لأسباب اقتصادية بحثة، وكان الذين سبقوها من أمثال روسو وفولتير وديدرو قد نادوا بأن سعادة الناس تتم إذا تحقق المبادئ التي أعلنوها، فلما دكت قوائم عرش فرنسا وأزيح كابوس الجوع وبدأ الذين ألقوا إليهم ظروف ذلك العصر مقاليد الأمر يفكرون في الطريقة التي يسعد الناس بها؛ تناولوا المبادئ التي كان الناس من قبل يقرءونها فتلذهم قراءتها من غير أن يؤمنوا بها.

وكان كثير من حكام المصادفة أولئك أقل الناس إيماناً بفائدة المبادئ التي أعلنوا أنهم يريدون تطبيقها ويحاربون من يقف في سبيلها، لكنهم كانوا يفعلون ما يفعلون من ذلك استبقاء للسلطة في أيديهم وتخلصاً منمن قد ينزعهم إياها، فهم إذاً متعصبون لصالحهم كرجال الدين من يحاربهم شلي سواء بسواء، لكنهم وحدهم هم الذين يوصلون هذه المبادئ السامية إلى ذهن الجماهير؛ لأن الجماهير لا تفهم إلا اللغة الدموية الوضيعة، لغة القسوة والإرهاب والبطش، ولو أن شلي استطاع أن ينزل من سمائه العليا إلى هذه المرتبة لأحاط الجمهور به ولهتف له ولتابعه ولولع وإيابه في الدم ولا يتجه لهذا المنظر الذي يحرك فيه حيوانيته الأولى، ثم لثبت قليل أو كثير من هذه المبادئ في ذاكرته يستظهرها بعد رجوعه إلى وعيه، أما وشلي يخاطبه بلغة السماء ويتحدث له عن حب الإنسان للإنسان وتسامح الإنسان مع الإنسان، فلا مطعم له في أكثر من سخرية الجمهور به سخرية شابها العطف على شبابه وعلى جمال زوجته.

و عبر شلي وصاحبته البحر من جديد إلى بلاد الغال يائساً من أولئك الكاثوليك الذين لا يفهمون، وظل يتنقل في مختلف بلاد الشواطئ البحريية زمناً لم يهتد فيه إلى مسكن يسر به، فغادرها متوجولاً في نواحٍ مختلفة حتى اهتدى في لنemoth إلى منزل أعجبه فأقام به؛ أعجبه لما يحيط به من مناظر شعرية جميلة يزيفها عنده جمالاً عزلتها وقلة اختلاف الناس إليها، وفي هذا المنزل قبلت مس هتشنر دعوته فجاءت لتقيم معه، والحق أنه كان بحاجة إلى صديق روحي يبادله الرأي ويدرك وإياب صور الحياة، فلقد ظلت هارييت طفلة، ولم تزد على ما كانت عليه تلميذة، وكان هو يومئذ في بدء نشاطه الشعري يضع أولى قصائده الكبرى المعروفة في ديوانه (بالمملكة ماب) أودعها ما وصل إليه من فلسفة، وكان يريد من يردد شعوره ويقدر آرائه، فلما حاول، يريد أن يجد

من هاريت ذلك الشخص؛ تبدى له أنها لا تتدوّق الشعر ولا تفهم الفلسفة؛ لذلك طار سروراً من مجيء مس هتشنر وطلب إليها أن تزيد في تهذيب زوجته، ولعل هذه كانت طلائع التباهي فيما بينهما تبايناً ينتهي إلى الانحراف وإلى انتحار هاريت غرقاً ويدس إلى حياة شلي هماً ناصباً يظهر أثره من بعد في كثير من شعره.

(٣) بعض نثره وشعره

أقام شلي بالمنزل الذي اختاره في لنمورث ومعه زوجه هاريت وستبروك وأختها إليزا ومس هتشنر حتى أوائل خريف سنة ١٨١٢، ومن لنمورث وجه شلي إلى القاضي لورد اللنبرا خطاباً كان أعظم أثراً وأشد وقعاً من كل ما حاوله في أرلندا، وكان وما يزال ينبيء عن قوة شلي في النثر بما لا يقل عن قوته في الشعر، فقد حكم هذا القاضي على مستر إيتون بالسجن والتعذيب، لأنه نشر كتاباً يطعن على المسيحية وينكر فيه العجذات والبعث، ويرى في التثليث نظرية لا يقبلها العقل، ولم يدر بخلد أحد أن يجعل من هذا الحكم موضع طعن أن كانت للأحكام في كل أمم قداستها، على أن كُتاباً في فرنسا وفي غير فرنسا من يعجب بهم شلي لم يتربدوا حين رأوا في الحكم ظلماً عن أن يكرسوا الكثير من جهودهم لرفع الظلم بالعمل لإعادة النظر في الدعوى، وهذا فولتير جعل من قضية كالا الذي حُكم عليه بالإعدام وبتجريد ابنائه من ثروتهم موضعًا لحملة انتهت بإعادة النظر في الحكم، وبإعادة شرف كالا إليه بعد إعدامه، وإزالة ما ترتب على الحكم الأول من نتائج بالنسبة لأبنائه ووارثيه، والحكم على مستر إيتون أجل في نظر شلي خطراً، فهو لا يقتصر على إدانة إنسان من الناس بل يدين حرية الفكر والتعبير عنه، ويقييد العقل بقيود تضطرر حر الرأي إلى النفاق للجماعة مخافة ما ينزل به من عقاب، وتحول بين الجماعة والاستفادة من تفكير ذوي المواهب الذين تبعثهم الأقدار ليداوموا السير بالإنسانية إلى ناحية الكمال؛ لذلك وجه إلى اللورد اللنبرا خطابه القوي مفتاحاً إياه بقوله: «مولاي، أما وللمركز الذي دعتك بلادك لتقوم فيه ما له من أهمية، فالتبعة المترتبة عليه هي لذلك أعظم خطراً، ويجب لذلك عليك مداومة النظر في أنك لم تحكم خطأ بالعقاب على فاضل أو بالكافأة لناقص، وصحيح أن القوانين القائمة تحميك من محاسبة أية سلطة دستورية إياك بسبب الحكم الذي أصدرته على مستر إيتون، لكن ليس ثمة أي قانون يستطيع حمايتك من سخط الأمة عليك وعدم موافقتها على حكمك، وليس ثمة قانون يحول بينك وبين حكم الإععقاب عليك إذا كان للإععقاب

أن تعنى بذكر شأنك». ثم ينطلق شلي مندفعاً: «لكن بأي حق تتعاقب مسأله إيتون؟! ليس هناك إلا سوابق عتيبة من أيام تحكم الكهنوت وظلمهم هي التي يمكن التذرع بها لإهانة الإنسانية والعدالة هذه الإهانة المزرية».

فأي رجل أضر به مسأله إيتون؟ وأي جريمة ارتكب؟ ولم لا يسير حيث يشاء كما يفعل سائر الناس، ثم لم لا يعيش كما اعتاد أن يعيش؟ وأية غاية ترجى من حبس هذا الرجل الذي اتهم بأنه لم يرتكب ما يشين شرف إنسان؟ ويسوق شلي الحجج بعد ذلك يأخذ بعضها برقباب بعض يدلل بها على أن التسامح ملاك سعادة العالم وإخاء الإنسان للإنسان والوسيلة الوحيدة لاستلاء الحق والفضل، وأن التعصب والاضطهاد لم يَجُرَا على الإنسانية إلا ويلات كانت أداتها أمثال لورد اللنبة، ويسوق هذه الحجج في لهجة قوية تظهر في مثل قوله:

إن نظام الاضطهاد لا يضارع عجزه ولؤمه إلا اضطراب المنطق فيه، فالمطابع متقللة بما يسمى (تهكمًا فيما أظن) الأدلة المثبتة للمسيحية، وهي كتب حافلة بالطاعون والأكاذيب على منكريها، وقوامها أن كل من يرفض المسيحية مجرد من الإدراك والشعور، وسبيلها أن تقرر ما لا دليل عليه، وأن تتخذ من الأباطيل الشائعة المنفرة، مبادئ أولية صحيحة، ومن النتائج المستخلصة من هذه المقدمات المفترضة، بِنَى شاهقة المنطق، ولكن إذا كان الأساس واهيًّا فما الحاجة إلى مهندس يبنينا بتدعى البناء؟ وإذا كانت حقيقة المسيحية لا نزاع فيها فلماذا توضع هذه الكتب؟ وإذا كان الموجود من الكتب كافيًّا لإثباتها بما وجه الحاجة إلى جدل جديد؟ وإذا كان الله قد تكلم فلماذا لم يقتنع العالم؟ وإذا كانت المسيحية ينقصها علم أعمق وباحث أشق لإثبات حقيقتها ففيما اللجوء إلى القهر فيما لا يسع سوى العقل الإنساني أن يؤديه على وجه يرضيه؟

وهو يعود بمثل هذه اللهجة، ناعيًّا على التعصب داعيًّا إلى التسامح، محاولاً التدليل على أن الاضطهاد لن يخفت صوت الحق ولن يكون من أثره إلا دفع الجماعة لتقديس ذكرى من حل الاضطهاد به، على نحو تقديس المسيحيين لعيسي لغير شيء إلا تعذيب اليهود إياه، وذلك حين يقول:

من الحقائق التي لا سبيل إلى نقضها أنه لو لم يكن اليهود هجّماً متعصبين، أو لو أن عزيمة بونتياس بيليت كانت كمراحته، لما استطاع الدين المسيحي أن يستفيض، بل لما أمكن أن يوجد، فيا من أعزّ آرائه عليه رهنٌ بمثل هذا الخيط الضعيف، وأعلق عواطفه بقلبه مصدرها يعتوره الشك، تعلم على الأقل التواضع، واعترف بأن من الجائز أن تكون تربيبتك وظروفك قد سولت لك التسليم بقواعد لا ينهض عليها دليل ولم تثبت صحتها على وجه مقنع مرضٍ، واعترف كذلك على الأقل بأن فساد رأي أخيك ليس بالسبب الكافي الذي يجعله أهلاً لكرهك، أمن أجل أن إنساناً مثلك ينكر أن عقيدتك معقوله، يكون حقيقة بعقاب التعذيب والسجن؟ وإذا سلمنا بجواز الاضطهاد الدينى فما أوسع الباب الذى يفتح ويقتحم منه المتعصبون من كل لون على سلم المجتمع وسلمه! وأى وحشية وفظيعة دموية لا تتنقل مباحة؟ ولكنني أسأل: أليس ذلك الرجل الذى ينكر صحة عقيدة شائعة أحق بتعظيم المجتمع منه بسخطه وغضبه؟ لأنه إما أن يثبت زيفها وعمقها (وبذلك يقضى على ما هو زائف ولا طائل تحته) وإما أن يتاح لأنصارها الفرصة لإثبات صدقها وجمالها، وهذا – على التحقيق – لا يمكن أن يكون جريمة، فإن من يهب وقته للبحث الحر والتحقيق الجريء في كبرى المسائل التي ترجع في مرد أمرها إلى طبيعتنا الأخلاقية، يكون أجدر بتشجيع المشرعين المتنورين منه لأن يتحقق به انتقامهم، وأحب أن تعلم يا سيدي اللورد أن أغلال الحديد لا تقييد ولا تخضع روح الفضيلة، وأنها تسمو فوق وحشية المحابس وقوستها، وترتفع حرفة جريئة إلى حيث لا تقدر روحك أن تحلق وراءها من مقعدك الفخم في القضاء، ولست أدعوك لتحذر أن تنسيك مسيحيتك أنك إنسان، ولكنني أعظمك أن تستجعل ذلك العصر الذي يقبل علينا مسرعاً في ظل نظام الدهر الحاضر، والذي تكون فيه مجالس القضاء حقيرة مأجورة، وتكون السجون منازل لكل ما هو شريف وصادق.

ويصل إلى القمة من حجه حين يستشهد التاريخ على أن الظلم لم يخفت صوت الحق بل قضى على الظالمين، وذلك في عبارة باللغة غاية الإبداع، حين يقول:

ُسقي سقراط السم لأنه اجترأ أن يكافح الخرافات التي كان مواطنوه يلقنونها وينشأون عليها، ثم ما عتمت أثينا بعد موته بقليل أن تبين لها ما في حكمها

عليه من الظلم فانتصفت له من متهمه « مليتاس» ورفعت سقراط إلى قريب من مراتب الأرباب.

وصلب المسيح لأنه حاول أن يهذب طقوس موسى ويستبدل بها ما هو أدنى إلى الإنسانية وأشبه بالخير، ولقد أعلن قاضيه على الملأ اعترافه ببراءة ساحته، لكن الشعب الجاهل المتعصب أبي إلا الفعلة الشنعة، فسرح برباس القاتل الخائن وقدم المسيح الوديع المصلح قرباناً لإله اليهود الدموي، ثم مضى الزمن وتبدل الأحوال وتغيرت معها آراء الناس وراح الغوغاء على عادتهم من التطرف يرون في صلب المسيح خارقة، ولم تعوزهم شواهد العجذات وأياتها — وما أكثرها في عصور الجهالة! — ليثبتوا بها أنه كان من الله، ودارت هذه العقيدة في النفوس مع العصور والتقت بأحلام أفلاطون ومنطق أرسسططاليس، واكتسبت القوة والسرعة والامتداد حتى تقررت الوهية المسيح وصارت المنازعة فيها مجبلة للموت، والشك في صحتها جريمة وعاراً. والمسيحية الآن هي الديانة المقررة، فمن أراد أن ينازع في ذلك فعلية أن يوطن نفسه على أن يرى السفاكين والخونة يتقدموه في اعتبار الرأي العام، إلا إذا كانت عبقريته كفاء شجاعته وأزره من ظروف الأحوال ما يكفل له أن ترفعه الأجيال المقبلة إلى مصاف الآلهة، وأن تضطهد الناس باسمه وفي سبيله كما اضطهد هو باسم من كانوا أسبق منه إلى الفوز بعبادة العالم.

ثم يختتم خطابه بقوله:

إن الزمن ليقترب مسرعاً حين يعيش المسلم والمسيحي والمؤمن والملحد معًا في جمعية واحدة يتقاسمون متساوين ما ينشأ عن اجتماعهم من فوائد ويتخدون مرتبطين بروابط الإحسان والحب الأخوي، وأرجو لولي اللورد أن يرى ذلك اليوم.

ولما أتم شلي خطابه هذا حاول العود لإتمام قصidته « الملكة ماب »، لكن حياة لنموث بدأت تتشكله وتدفع الملال إلى نفسه، ذلك أن الغيرة دبت إلى نفس زوجته من مس هتشنر فرأته فيها منافساً لها دس لهم إلى حياتها، وربما وجده شلي الوسيلة إلى الدفاع عن ضيفه لو أنه وجد منها ما كان يرجو من مشاركته في تفكيره وإلهامه بما يزيده تحليقاً في سماء الشعر ينهل فيها كل ما يريد من صور ومعانٍ وألوان، وزاد في همه

أن رأى هاريت لا تتبعه في جولات خياله وذهنه بما يزيده قوة على قوته وسمواً على سموه، بل وقفت تتلفت إلى ما حولها تتبعي من متع الحياة مثل ما ابتغت من قبلها أخته وابنة عمه، حينذاك أيقن شلي أن لا سبيل للبقاء في وحدة الريف واعتنم العود إلى لندن عليه يجد في الجماعة مسلياً عن هذه العواطف الوضيعة التي بدأ المحيطون به يشغلون بها ذهنه، وفي مقابلة جُدوين منشطاً لروحه في توثبها للعمل على سعادةبني الإنسان إخوته، واختار في العاصمة فندقاً صغيراً أقام وصحبه فيه، ثم ذهب مع زوجته في يوم من أكتوبر يزور أستاذه في موعد حده، وكان جُدوين يقيم بمنزل صغير يتصل بمكتبة يطبع هو فيها كتاباً للأطفال وبيعها، ذلك أن مكانته التي بلغها بعد نشره كتاب (العدل السياسي) والتي دعا فيها إلى هدم نظم الزواج والأسرة والتزوج إلى صورة مخففة من الشيوعية كانت قد ضعفت بمقدار عظيم، فلقد كان يوم كتب هذا الكتاب قسيساً خرج على زمرته وأطلق العنان لفكرة، لكنه ما لبث بعد ذلك أن تزوج من ماري ولستنكرافت التي ماتت تاركة له ابنة دعتها باسمها ماري وابنة أخرى من زواجهما الأول هي فاني أملاي، ولم يمض على موتها حينٌ حتى تزوج مرة أخرى من جارة له كانت تبدي إعجابها به، وكانت ذات ابنة من زواج أول هي جين كليرمون، وقد اجتمعت الأسرة في انتظار زيارة شلي وزوجته لم يختلف منها إلا ماري التي تزوجها شلي من بعد، لأنها كانت على سفر في إيكوسيا، وقد ربطت هذه المقابلة الأولى بين شلي وزوجته وجُدوين وأسرته بأقوى الروابط، على أن فاني وجين – وكانتا فتاتين ذواتي جمال وعلم – ما لبثتا أن رأتا شلي واستمعتا إليه حتى أظهرتا غاية الإعجاب بجمال نفسه وسموه ذهنه ومتყد خياله، وحتى شعرت كل واحدة منهما في أعماق نفسها بميل نحوه دفعها إلى التقرب منه والعمل لاجتنابه، وشعر هو من ناحيته بأنهما أكثر من هاريت معرفة وأقدر على تتبع البحوث الفلسفية وتدوين جمال الشعر.

ومن طريق أسرة جُدوين تعرف إلى نيوبوري، وكانت أسرة متأثرة بتعاليم الثورة الفرنسية وبالثقافة الفرنسية إلى حد ملك لب شلي، وكيف لا تملك له ولم تقف عند التهذيب تأخذ منه بأعظم نصيب، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك فطبقت في كثير من نظم حياتها مبادئ الإنسانية التي أعلنتها الثورة، لم يكن أحد من أفرادها يأكل اللحم وكانوا جمياً يميلون إلى ناحية الحياة الطبيعية التي دعا روسو إليها بقدر ما تسمح به ظروف الحياة، ومن ذلك أن كانوا يتربكون أطفالهم عراة ما داموا في الدار، وقد قارضوا شلي إعجاباً بإعجاب وتقديرًا بتقدير، وشاركتهم في ذلك أخت لسرز نيوبوري تدعى مدام

د بواسفيل، تربت هي وابنتها في فرنسا ونشأت على تعاليمها، وكذلك استطاع أن يجد في المدينة منحة من تلك الوحدة التي أثقلت كاهله في لنموث والتي اضطرته إلى هجر تلك البقاع الجميلة المحبوبة التي ألهمنه خطابه إلى لورد اللنبرا والتي كان يتمنى لو أتم فيها قصيده (الملكة ماب).

وزاده أنساً إلى المدينة وحياتها أن استطاعت زوجته — أو اختها إليزا على وجه أصح — أن تجعل عيش مسر هتشنر معهم محلاً حتى لتطلب هي مغادرتهم شاكية ما أصابها بسبب دعوة شلي إياها من انقطاعها عن المدرسة التي كانت تعمل فيها ومن سوء سمعة زعمت أنها علقت بها لاتصالها برجل هو من الجمعية موضع الريبة.

ولقد اقتطع لها شلي من أربعينيات الجنين التي كان يعيش عليها مائة كاملة ورتبها لها لتعيش منها بِرًا بها وتقديرًا لتبنته في دعوتها، وعلى أثر سفرها عاد إلى جو الأسرة طمأنينته وعاودت هاريت ابتسامتها وعادت هي إلى تغريدتها، ومع ما كانت تلمع إليه بعض فتيات جُدوين من ميلها إلى التجمل بما لا يتفق مع بساطة الحياة الطبيعية، ومع ما كان يتهامسن به مشفقات على شلي من أنه لم يتزوج الشابة التي تسعده وتلهمه، فقد ابتهج هو بعودها إليه وفتح لها من جديد كل قلبه، ثم زاده بها شغفًا أنها حملت، فود أن يستعيد وإياها ألوان متعاهما السابق؛ لذلك هجر العاصمة ومعهما إليزا وسافرا إلى إيرلندا وإلى الغال لا يتغييان من رحلتهما هداية أحد ولا الدعوة إلى جديد، وإنما يرجوان أن تحدثهما أماكن شهدت غرامهما بأهازيج هذا الغرام لتربيد في أنغامه التأيرة من حنايا جوانحهما ما يزيدهما صباية وهوى، وكانا سعيدين طوال رحيلهما مطمئنين إلى حبهما، على أن ما دعا في الحقيقة إلى هذه السفرة ثورة قامت بنفس شلي جعلته يحس في أعماق نفسه من غير أن يستظر أمام بصيرته أن شيئاً قد اندس بينه وبين هاريت يوشك أن يفصل بين قلبيهما وأن يبتز صلة حبهما، وكان رجاؤه أن يعود إلى ملك عصفوره إذا أزال من نفس عصفوره الوهم أن أحداً ينazuه فيه، وكان رجاء هاريت أن تعود إلى ملك صاحبها وأن تنزل به إلى مستوى الناس الذين يعرفون للحياة المادية قيمتها ويعملون على الاستمتاع بكل مظاهرها على نحو ما يستمتع غيرهم بها.

وتقدم بهاريت الحمل، فلم يك بد من عودهم إلى العاصمة مرة أخرى، ووضعت بنتاً أسموها (يانت) جعلت أمها أشد حرصاً على صلاتها بالجمعية وعلى محاكماتها إياها، وفيما كان زواجهما من حفيد البارون شلي صاحب الثروة الضخمة والضياع

الواسعة إذا كانت لا تطمع في حياة ضريباتها النبيلات، بل في حياة العامة من الناس؟ ولعلها كانت لا تغلو في هذا الميل لو أن اختها إليزا لم تكن دائمة التحدث لها عنه العود بها إلى أن ذاك كان كل رجائها ورجاء أبيها من صلتها بشلي.

لكن أسرة نيوتن كانت — برغم حريتها في التفكير وتطبيقاتها صور تفكيرها في طعامها وفي حدود المنزل — أسرة أرستقراطية النزاعات في علاقتها المدنية، فلم يرقها هذا التفكير من جانب شلي في مخالطة كورثليا، وأدرك هو هذا فاكتفى بسعادته بين أولئك السيدات الرشيقات البالغات من عذوبة النفس وسمو الإدراك ما لم يكن يجده إلا في جماعة جُدوين، على أنه أدرك وجوب الانقطاع ولو إلى حد عن تكرار زياراته لهؤلاء وأولئك، وأكب حتى فرغ من (المملكة ماب) وقد أودعها كل ما دار في نفسه عن الحياة من خواطر وما وقع عليه في أثناء مطالعاته من معارف وأفكار وجعلها كأنها كتاب الرسالة التي ظن أن القدر ألقى عليه إبلاغها للناس، وكم كان غضبه لتدھور عقلية الجماعة شديداً حين قابلت (المملكة ماب) بفتور لم تتخلص من أثره بعد أن علا في الشعر نجم شلي، بل لقد ظلت حتى اليوم منظوراً إليها على أنها دون ما أبدع بعد ذلك من محاجزات الشعر بكثير.

ولقد كان واجداً عن فتور الجمهور بإزاره قصيده عزاء لو أنه وجد في هارييت أو غيرها عطفاً عليه يقوى عزمه ويشد قلبه، لكن هارييت كانت على العكس من ذلك

قد أمعنت في إهماله حتى لم تأب الظهور في الجمعية مستندة إلى ذراع الضابط ريان الذي جعل يتردد عليها بحجة أن له بأختها إليزا معرفة قديمة، وقد حاول شلي أن يسترد قلبها وأن يحول بينها وبين الانحدار إلى أعمق مما انحدرت إليه، لكنه ألفي هذا القلب تحجر فلم تعد تهزم بـإزاره عاطفة ولا يحركه نحوه ذكر للماضي ولا رجاء في المستقبل.

وإنه لفي يأسه من هذه الناحية إذ أقبل عليه جُدُّوين يستعينه في متابع مالية أعاده شلي من قبل في مثلها، وطار شلي إلى داره راجياً أن يجد في صحبة جين وفاني بعض السلوى عن عقوق هاريت وجحودها قداسة حبها، ولم يخنه القدر ولا نبا به حظه هذه المرة، فقد طالما تحدث إليه جُدُّوين عن ابنته ماري وذكائهما ونشاطها وحبها المعرفة ومثابرتها على النهل من موارد العلم، ولطالما وصفتها له جين وفاني على أن ذكاءها يعدل جمالها، وما كانت أشد حاجة شلي ليجد الملك الذي يجمع إلى الجمال الذكاء وإلى عذوبة الروح سمو النفس وإلى طهارة الضمير عظمة القلب، والذي يضيء جمال وجهه بما في الوجود من قوى الفضل والخير الكمينة مبعثرة في ثناياه! ما كان أشد حاجته إلى أن يهب كل ما في قلبه من حب للوجود لتلك الجميلة التي تضيء وجهها بكل جمال الوجود! وألفي ماري ساعة وصل إلى بيت أبيها قد عادت من إيقوسيا وجلست بين جين وفاني اللتين قدمتاها إليها وذكرتاها بحديثهما عنها كما ذكرتا له أنهما حدثتا أختهما عنه، ولم تك إلا سوية تحدثت ماري إليه فيها حتى سحرته عن نفسه، فجعلته يرى في جمالها وشبابها ورقتها تلك الرشاشة النسوية مجتمعة إلى النشاط والطلعة الذهنية التي تميز الشبان اجتماعاً كان يراها دائمًا صورة الكمال الإنساني في خير ما يستطيع الفن أن يكون، والحق أن ماري كانت ذكية الجمال تنطق قسمات وجهها الرقيقة غاية الرقة بما تنطوي عليه جوانحها من أنفة، وتتنم عيونها الكستنائية اللون عن شيء من الألم لم يعرف شلي مصدره إلا بعدما علم أنها تزور كل يوم قبر أمها تقرأ عنده كتبها وتسودعه همها وشجنها، وقد أجبت طلبته أن يصحبها كل يوم إلى هذا القدس تنطوي صفاتيه على أقدس حب امتلاً قلبها به منذ طفولتها، وأمام هذا القدس ارتبط القلبان اللذان جعلا كل يوم دأبهما الصلاة له، ارتبطا وتعاهدا على أن يكون كل منهما لصاحبها حتى آخر دهر.

ولما علم جُدُّوين بما بين ابنته وشلي حال بينهما ومنعه عن بيته، فأجج بذلك نيران قلبه وجعله يعتزم اصطحابها والفار وإياها، وأيقن أن لن يؤنبه ضميره من ناحية

هاريت بعدها ظهر منها أنها لا تعني بغير ماله، فدعا بها من الريف إلى لندن وأخبرها بعزمها وبأنه جعل لها راتبًا يكفيها عيشها، لكن العصفور رقيق التكوين فلم يتحمل الصدمة فمرض، ثم حاول أن يسترد صاحبه إليه فلم يفلح أن كان قلب صاحبه قد أصبح في ملك غرير.

(۴) ماری چڈوین

كانت أبواب أوربا قد فتحت أمام الإنجليز بعد ذهاب نابليون إلى إلبا، فلما أُبلت هاريت من مرضها اتفق شلي وماري وصحبتهما جين، أن كانت تشعر بميل نحو شلي، فسافروا إلى سويسرا وجاسوا خلالها حتى لوسرن، على أن مقامهم بين جبالها وعلى شواطئ بحيراتها لم يطل أكثر من ستة أسابيع عادوا بعدها إلى بيت صغير على شواطئ التمس أقام ثلاثة فيه، ولقد أدى هذا الفرار ومعاشرة شلي ماري من غير زواج بينهما لمقاطعة جُدوين إيه وحريمه بيته وعلى اللتين فرتا معه، وذلك برغم ما كان لشلي على جُدوين من فضل إمداده بالمال في ظروف كان هو وزوجه هاريت في أشد الحاجة إليه، بل لعل هذا الإسراف من جانب شلي كان أهم ما غير قلب عصفوره عليه ودفعها إلى الحرث على أن تتمتع من الحياة بما يمتع به غيرها من مثيلاتها مما كان يدرأه زوجها سخفاً غير لائق بالنقوس السامية، ولم يكن جُدوين وحده هو الذي قاطعه، بل قاطعته كذلك أسرة نيوتن ومدام دبوانفييل، وانقطع عليه كل سبيل لرؤية كورنيليا ترنر، ولم يبق له من أصدقاء يزورونه غير صديقه القديم هوج وصديق استحدثه في الزمن الأخير يدعى بيكوك.

على أن عزلة شلي مع خليلته وجين لم تحل دون التهاب قلبين بحبه التهاياً دفعهما إلى ما يشبه الجنون، فقد شعرت زوجته هاريت وستبروك من يوم أعلن إليها عزمه على الاتصال بماري جُدوين أن ضرامة الحب الذي كان قد خبأ في قلبه حتى صارت لا ترى عليها من بأس في التحبيب إلى أمثال الضابط رايان، تلهي الغيرة من جديد، وأي شيء أفتک بقلب امرأة من رؤيتها امرأة أخرى تسليها رجالها وتسلبها معه هناءها ومجدها؟ إنها لترى حَقّاً لها أن تعذب من تحب وأن تصد عنه وأن تلطف غيره، ولترى واجباً على محبها أن يرى في صدتها من علائم الدلال ما يقتضيه مضاعفة التودد لها والإذعان لكل أمرها والتماس الصفحة عما دعا إلى هجرها، وإن لم يك شيء قد حدث يوجب التماس الصفحة عنه، بل لترى واحجاً كذلك عليه ألا يقتضيها إسعاده أو تهوين الحياة

عليه، فإن فعل فهو أثر لا قلب له والأنانية ملء نفسه، أما إن رأى في امرأة أخرى ملاك سعادته فأحبها فتلك الجريمة والطامة الكبرى، وتلك المرأة الغادره هي أحياناً من حملت أرض أو أظللت سماء، وكذلك كانت ماري في رأي هاريت، وقد ازدادت لها بغضاً وعن شلي إعراضاً حين بعث إليها يستضيفها عنده في بيت ماري، أَفْ لها من منافقين! وأَفْ لهذه اللعينة ماري التي لا تراها هاريت تعدها رشاقة ولا جمالاً ولا عذوبة صوت ولا حلاوة روح، بل التي لم تؤت أي حظ من الجمال، بل التي تستحق أن تسحق وأن تعص بالأسنان وتقطع بالأظافر، ولئن كان شلي قد ضعف أمامها كل هذا الضعف فلتنتقم منه هاريت شر انتقام.

كان ذلك شأن هاريت، أما فاني أملاي فقد جعلت تحس في بيت جُدوين وحدة ممضة مؤذية، وتشعر بنفسها غريبة ليس لها في البيت أم ولا أب ولا صديق، ويذاعها قلبها بذكر ما كان يفيض به إزاء شلي من حب وإخلاص، فها هو ذا شلي قد اختار ماري عليها، وهذه جين قد وجدت في نفسها الجرأة لتصبحهما، أما هي فلم يبق لها في الحياة إلا أن تنظر إلى أشباح اليأس يحيط بها، وأن تتمنى لشلي في نفس الوقت الهناء والسعادة، وكيف تراها تحمل له أي ضغف ولم يكن تفضيله ماري جُدوين عليها إلا حلقة من سلسلة سوء الحظ الذي أحاط بها منذ مولدها حتى لجعلها تؤمن بأنها ولدت تحت طالع من النحس لا سبيل لمحابتها، ألم يمت أبوها فتزوجت أنها من جُدوين ثم ماتت هي الأخرى تاركة إياها يتيمة الأبوين لا معين لها في الحياة إلا بر هذا الرجل الذي استبقها عنده رأفة بها وإشفاقاً عليها؟! فإذا فضل عليها شلي أختها لأمها فليس ذلك أقسى ما أصابها به القر، وبحسبها أن تظل على إخلاصها له ورثائها لما وصل إليه من فقر اضطره ليعيش وامرأتين معه عيش كفاف ودون الكفاف، بل لقد أتقنته الديون حتى اضطر دائنوه إلى أن يلجأوا للقضاء فجعل رجاله يتquinون شلي يريدون إلقاء القبض عليه كي يفي بديونه أو يسجن، ولو لا يقطنة فاني وإخطارها شلي بالأمر وفراره من متعقيبه لذهبوا به إلى السجن، ثم لما تحرك قلب أبيه لاستخلاصه بعد الذي كان بينهما من قطيعة وجفاء.

وناء شلي بهذه الوحدة وثقل عليه حملها وأنهكه إلى جانبها هذا العيش الضنك الذي لم يتعود في نعومة أطفاله، فانهدت قواه واندس المرض إلى صدره وأظلمت الدنيا في عينيه ورأى شبح الموت مقبلًا يبتلعه، كم كان من قبل سعيدًا مع هاريت! وكم كان سعيدًا بحديث صديقاته والمعجبات بنبله وجماله وذكائه وسمو روحه! ثم كم كانت

السعادة تفيض عنه منبعثة إليه من قلب الرفيقة الجميلة العطوف ماري! وهذا هو يرى نفسه معها منفرداً يتحاشاه الناس ويفرون منه فراراً ثم لا يكون له عنهم من بديل إلا مرض قاتل. يا لليلأس! أيتها الآلهة، آلهة الخير والنعمة والسعادة، أحق أنك جميعاً قد تخليت عن هذا الرجل لغير شيء إلا أنه صديق الفضيلة المخلص ونصير الحرية الصادق! أحق أنك حكمت عليه بالموت لأن جمعية النفاق والوهن والباطل قد ابتعدت عنه، خشية أن يفضح نوره ما في ظلماتها من رجس وشقاء وجريمة؟! ليكن، بهذه ماري ما تزال تحنو عليه وتبعث إليه من دفع قلبها الملوء حباً ما يستبني خيط الرجاء معلقاً فوق هاوية اليأس.

لكن خيط الرجاء هذا لم يمنعه من أن يرى الهاوية وكل ما حوله، بل لم يمنعه من أن يتحقق فيها ببصره ويستمد من مناظرها المؤسية إلهاماً سامياً أوحى إليه أولى قصائده الوجدانية الكبرى: «الاستور أو روح الوحدة»، وبطل هذه القصيدة شاعر شاب طوف في الآفاق وجاب أقطار العالم أن رأى الوسط الذي يعيش فيه والجو المحيط به لا مهبط فيه لوحى الهدى ولا مبعث لسمو الإلهام، «وأدلت به خطاه طائعة مسبح أفكاره السامية إلى زيارة ما خلفت الأيام الخالية من خراب الآثار، فزار أثينا وصور وبعلبك والبطيح الذي كان مقاماً لبيت المقدس وأبراج بابل المهدمة والأهرام الخالدة ومنفيس وطيبة، وكل ما تخفيه تلال الحبشة السوداء الصحراوية من عجائب النقوش على المسلاط والمقابر وأباء الهول المحطمة، وهناك خلال المعابد الخربة حيث تقوم العمدة والصور العجيبة لما هو أعظم من الإنسان، وحيث ترقب شياطين الرخام أسرار نيران الزوال، وحيث يعلق السلف أنفكارهم الصامتة على صمت الجدران المشتملة إياه هناك، أمهل الخطأ مستذكرة العالم في صباح محدقاً طوال النهار المحرق بهذه الصور الصامتة، وما كان القمر إذ يملأ الصالات العجيبة بظلاته المتموجة ليقفه دون متابعة استذكاره، بل ظل يتحقق ويتحقق حتى أضاء خلاء عقله نوراً كأنما هو الإلهام القوي جعله يرى من خفايا الزمن يوم ولد ما يهز النفس»، وهناك جاءت له صبية من بنات العرب بطعمه فكبلها غراماً، لكنه ما لبث أن عاود تسيّاره خلال بلاد العرب والعجم والهند، جواباً برابع الأرض وأقطارها باحثاً عن الحقيقة، حتى إذا كان يوماً مستاقياً خلال غابة تظله رأى في أثناء نومه «صبية مبرقة تجلس إلى جانبها وتحديث في أنغام مهوبية خفيفة بصوت كأنه صوت روحه حين يستمع إليها في هدأة تفكيره، وكانت المعرفة والحق والفضيلة مدار حديثها، كذلك كانت الآمال الكبرى في الحرية المقدسة

وما إلى هذه الآمال من أفكار هي أعز الأفكار عليه، ثم كان الشعر أن كان هو شاعرًا»، وتجلت الصبية له في خلال هذه الآمال والأفكار والمنى فإذا جمال شخصها عدل جمال نفسها، واندفع محاولاً ضمها إليه والإمساك بها، لكنها تراجعت ثم ابتلتها ظلم النوم، ولم تجده محاولته إعادةتها إلا أن أيقظته الهزة فإذا القمر ينحدر إلى المغيث وتبشير الضياء ترتفع خلال سجوف الليل، «إذا ضاعت هذه الصورة الجميلة، وضاعت إلى الأبد في تلك الصحراء الواسعة لا طرق فيها، صحراء النوم الكالح! أفيؤدي باب الموت الأسود إلى جنتك العجيبة أيها النوم؟» وينطلق الشاعر مفكراً في أثناء تطوانه مستذكرة صورة النوم الجميلة ملفياً جمالها في كل ما تخلع الطبيعة على الوجود من جمال، وفيما كان عند اليونان بصراً بزورق لا مالك له فألقى بنفسه فيه ودفعه إلى لج الموج يتقاذفه رجاء أن يجد إلى الموت سبيلاً، وتدافع الموج والزورق حتى دفع به إلى جبال القوقاز في نهر تحيط به أحراش وغابات، وهو خلال ذلك كله ما يكاد ينجو من خطر حتى يفجأه خطر جديد يقرب له الأمل في النجاة بالموت والعود إلى صورته الجميلة التي أراده النوم إليها، وفي هذه السياحة يشدو شلي متغنىًّا ببهاء الطبيعة وحلو حديثها العذب إلى نفس بطله الشاعر المشوق للموت حتى يصل ببطله إلى غايته، وفي سياحة الزورق هذه بين موج البحر وفوق لجة النهر يصف شلي في النهر الذي أبدعه خياله ما نقل بصره إلى حسه من آثار حين عوده من سويسرا راكباً نهير الميز ونهر الرين وما على شواطئهما من بدائع الجمال، ويصف منابع التمس التي زارها بعد عوده إلى إنجلترا وحين هدَّ المرض، ويصف تلك المناظر الساحرة التي تهز القلب والfovad، مناظر شواطئ التمس كانت وما تزال مثال جمال قل في الجمال نظيره.

قال شلي مقدماً قصيده هذه لقرائه: «والصورة ليست خالية من العظة لأبناء الحياة الحقيقيين، ذلك أن الشاعر في عزلته وانحصار خواطره في نفسه تتأثر منه شياطين عاطفة قاهرة ما تزال تطارده وتخب به لتبلغ وإياده إلى الدمار السريع، على أن الذين لا يخدعهم خطأ سخي ولا يدفعهم ظمآن قدسي إلى شك المعرفة، ولا تصللهم خرافية باهرة، ولا يحبون شيئاً على هذه الأرض ولا يتعلقون بأمل وراءها، ويقفون بمنأى عن التعاطف مع أبناء جنسهم، لا يسررون بأفراح الإنسان ولا يأسون لأحزانه؛ هؤلاء وأمثالهم يبوعون بلعنة عادلة، يذوون لأنه ما من أحد يشاطرهم الإحساس بطبيعتهم، فهم أموات الأحياء لا هم أصدقاء ولا عشاق ولا آباء ولا هم من أبناء الدنيا ولا المحسنين إلى بلادهم، وأخلق بالذين لا يحبونبني جنسهم أن تكون حياتهم عقيمة وأن يهياً لأرواحهم في كهولتهم قبراً موحشاً».

وإنك لترى كل تلك المعاني التي أوردتتها المقدمة متجلية في أبهى صورها وأعظمها جللاً وروعة في هذه القصيدة التي لا تزيد على سبعمائة وعشرين بيتاً، والتي تمثل حياة النفس لعباد الوحدة عشاق الطبيعة، مصورة في الحان سماوية الموسيقى إلى حد يحملك معه على موج أنغامها حتى لينسيك فيها جمال الأنغام بديع الصور، وللينسيك إبداع الصور روائع التفكير، ولتنسيك روعة الفكرة جمال النغم، ثم تتزاوج الأنغام والصور والأفكار فيلد تزواجها صورة الشاعر الشاب شلي في وحدته المنقطعة وأمله المتهدّم في الحياة ومواجهته الموت في رعدة تتغلب عليها قوة نفسه، وانتصاره بعد ذلك على الألم وعلى المرض وعلى الوحدة وعلى الموت بهذه القطعة الخالدة من موسيقى شعر الآلهة.

وفيما كان شلي في هذه الحال توفي جده السير بيش وآل إليه بالوصية إيراد سنوي يبلغ ستة آلاف من الجنينات، ولو أنه لم يكن في شغل بتفكيره وبشعره، ولم يكن ينظر إلى مزيد المال على أنه جريمة تدفع إلى النقص وتزري بالفضيلة؛ لذا ناصب أبوه الخصومة حتى يصل إلى كل ما أوصى به جده، لكنه لم يرد الانقطاع لعرض الدنيا إذا وجد ما يسد حاجته ويكتفي شر دائنيه؛ لذلك قبل أن يرتب له أبوه من ذلك الميراث كله ألف جنيه في السنة تكتفيه وتكتفي ماري، وتكتفي من يلوذون به من صحبه، ورددت إليه هذه الطمأنينة المادية شيئاً من سكينة النفس كان في أشد الحاجة إليه ليتغلب على مرضه، وتغلب بالفعل عليه، وبدأ في سماء المجد يتألق له نجم إن لم يكن ساطعاً سطوع نجم بيرون، فقد كان موضع التقدير من بيرون نفسه، على أن الأقدار لم تكتب لنفسه طول سكينة يوماً من الأيام، فقد بدأت ماري على جمال حكمتها ورجاحة عقلها تحس الغيرة لوجود جين معهما في البيت، وزاد لهيب هذه الغيرة ضراماً حين حملت فلياضة القلب بما يبعثه شلي إلى كل ما يتصل به ومن يتصل به من جمال الوجود، وما عسى أن يصنع شلي بإزاء غيرة ماري إلا أن يطأطئ لإرادتها ويخضع لمشيّتها، وبخاصة أن جعلها الحمل في حال عصبية تثير معها كل مناقشة إياها لمشيئة تعلنها دموغاً تذرف وأنات ألم تقطع النياط الحساسة لقلب محبها الصادق للإخلاص، والذي لا يرى مع ذلك في الحب معنى الأثرة الذي يذكي الغيرة، بل معنى التسامح التام والاشتراك مع كل من في الوجود في الإحساس والعاطفة، واضطررت جين لمغادرة المنزل وفي نفسها من الحب لشلي ما بغض ماري إليها ودفعها للتفكير في الانتقام لأنفتها

الجريدة، ولم يعوزها طول بحث لتدبير الانتقام، فإذا كانت ماري تعترض بخلياتها شلي وما له من نبل ومجد ومال فلتتخد هي خليلاً لها أعرق من شلي نبلًا وأعظم مجدًا وأكثر مالاً، ول يكن هذا الخليل لورد بيرون نفسه، ولم تلق في تحقيق غايتها عنـتاً؛ فلم يكن بيرون ينظر للحب نظرة شلي ولا كان يعبأ بالعفة ولا بطهر القلب، على أن ماري استراحت حين علمت بنجاح صاحبتها ولم يبق بعد عنـها موضع للغيرة منها.

وطلت ماري في سكينتها حتى وضعت طفلًا لثمانية أشهر من الحمل فلم تقدر له الحياة، ولم يطل بها الحزن عليه أن حملت مرة أخرى وأن وضعت غلامًا أسمته باسم أبيها وليم، ولكنها برغم سعادتها بهذا الطفل الثاني وبرغم شعورها بكل ما في الأمة من مزيد في الحياة، جعلت تحس وحدتها وسط الجمعية الإنجليزية تزداد وطأتها ثقلًا عليها وعلى برسى، وأكثر من الشعور بالوحدة كان شعور آخر يهيج غيرتها بمقدار ما يهيج آلام زوجها ويبعث إلى نفسه نوعًا من لذع الضمير طلما حاول إخفاء صوته، ثم ظل مع ذلك دائمًا على تعذيبه، فقد أصبح هجره هاريت موضع حديث الناس وموضع لغو أصدقائه، وكان إجماعهم منعقدًا على أن البائسة لم تأتِ إنما ولم تجن ذنبًا، وإنما الذنب والإثم على شلي الذي هجرها وتبدل بها غيرها، وظن أن لم تبق له جريدة عنـها ما دام قد ضمن لها ولبنائها منه رزقها، وألح بالزوجين هذا الشعور فانتهيا إلى استحالة المقام بإنجلترا وضرورة هجرها إلى حيث لا يعلم قصتها أحد، وإذا كانت هواجس ماري قد هدأت من ناحية جين وكانت هذه وحدها هي شريكة حبها وصلتها منـذ نشأتها، فقد سمعا إليها حين اقتربت عليهما السفر إلى سويسرا للمقام عند ضفاف الليمان على مقربة من جنيف، وزاد ماري اطمئناناً إلى اقتراح صاحبة سرها أن علمت أنها حملها عليه اعتزام بيرون أن يسافر إلى تلك الناحية فراراً من اتهام الجمعية الإنجليزية إياه بمعاشرة أخته أو جستا، فلن تعود بين جين وشلي إذاً أية صلة ما دام بيرون سيقوم منها مقام شلي من ماري، وإذا فليسافر ثلاثة إلى ضاحية جنيف ولينتظروا هناك مقدم النبيل العظيم.

ووصل الجوار ثم وصلت الصداقة ما بين بيرون وشلي، وزادت الصلة بينهما أن ظلت جين مقيمة عند شلي متـدة آناء الليل وأطراف النهار على بيرون، على أن أمنـت ما قوى صلتها كان الوسط الذي يعيشان فيه، وسط سويسرا الشعري البديع الذي يوحـي إلى النفس والقلب والفؤاد ما يملؤها شعراً ويزيدـها للجمال قدرًا، وكان هذا الوسط، أول تعارفهمـا، في أجمل فصوله، فقد نزلـا جنيـف إبان بشائر الربيع في مختـتم

أبريل ومفتاح مايو حين تبدأ حياة الطبيعة يقظتها من سنة الشتاء، وحين تبدو أوراق الشجر في خضرتها الجديدة ما يزال لها كل صباها وكل ما للصبا من بهاء وروعة، وحين الثلوج ما تزال تغطي قمم الجبال وتكتسو عوالي سفوحها كسامي يتباين ضياؤه في أثناء النهار ويكتسوه شفق المغيب كما يكتسوه مطلع الشمس، من الأحمر القاني إلى الأحمر المتورد، بما يملأ خيال الشاعر بأجمل الصور، وحين تتعكس سفوح الجبال وقمها الرفيعة على سطح مياه البحيرات حين يكون هذا السطح هادئاً، فإذا دفعت الريح الموج متلاطمًا فوقه رأيت السفوح وأشجارها والقمم وثلوجها تموح متلاطمة هي الأخرى، قوى هذا الوسط صلة الشاعرين أن وجدًا فيه خير مسرح لخيالهما المتقد، وإن شعرا في شغاف قلبهما بحب له يزداد استعاراً كلما ازدادا من هذا الجمال الساحر نهلاً، وذلك فرق ما بين حب الطبيعة وحب المرأة، بل هو فرق ما بين حب المرأة وحب كل جمال غيرها في العالم، حب المرأة أثراً غايتها الحيازة والملك والمذلة والاستراق، فكل شركة فيه تنتهي إلى الجريمة، عهراً كانت الجريمة أو غيرة، وتنتهي إلى القتل وما هو شر منه، أما حب الجمال في غير المرأة فهو الحب الذي يفهمه شلي وينادي به ويدعو إلى الشركة فيه، هو تقدير الجمال في كل مظاهره والاشتراك في هذا التقديس ليزداد بالاشتراك سمواً وجلاً، وكم كان لجمال سويسرا واشتراك شلي وبيرون في تقديره من أثر في شعرهما، على أنه مع ذلك لم يقرب بين روحيهما؛ لأن كل واحد منها كان مختلف عن الآخر في نظرته إلى الحياة تمام الاختلاف، فقد كان عقل شلي وقلبه وشخصه وكل وجوده شعراً خالصاً، كان لا يعرف شهوات الإنسانية، ولا يخالط نفسه وضيع عواطفها، وكان لذلك يرى جمال الكمال ملماً محسوساً، وكان يصور كل ما يقع عليه حسه وكل ما يجيش بقلبه في أنقام من الشعر والنشر لا أثر لغير روح الجمال وعبادته فيها.

وإنك لتعجب حين رجوعك إلى ديوان شعره وإلى رسائله وكتبه إذ ترى كل سانحة من السوانح وكل منظر من المناظر وكل ما اتصل بشلي في يقظته وفي نومه، قد اكتسى ثوب الجمال، وإذ ترى هذا الجمال مصوراً أنغاماً قدسية يختلط عليك حين تقرؤها أشعار هي أم موسيقى أم رسم وتصوير! أما بيرون فكان شاعراً، ولكنه كان إنساناً له كل شهوات الإنسان قوية غالبة عليه متحكمة فيه، وكان يرى الجمال من خلال هذه الشهوات فيشدو به في شعره ساميًّا بهذه الشهوات نفسها إلى سماء الشعر مُلِسِّناً إياها شفوف الجمال، وكان بيرون مشغوفاً بالجد تتسلط عليه شهوته إلى حد أشفق معه

عليه شلي كما أشفق عليه لضعف روحه ونزوله إلى مراتب الإنسانية الوضيعة برغم ما أنعمت به آلهة الشعر عليه من جمال في النفس وسمو في الفكر، وكم حاول أن ينزع به إلى غير ما تدفعه إليه شهواته، وأن يجذبه إلى ناحيته، ناسيًا أن ليس في مقدور إنسان تحويل طبعه، ولم يتغير عليه بعدهما افتراق، بل جعل يراسله طمعًا في إنقاذه من برااثن شهواته التي كانت في نفس الوقت مصدر كل وحيه وإلهامه.

وبرغم ما امتلاه قلب شلي من جمال سويسرا فقد كان دائم الحنين إلى بلدته، وكان حنينه قويًا منذ أول مغادرته شواطئها وإن كانت هي التي أجالته إلى هجرها والفرار منها، قال في خطاب بعث به إلى صديقه بيكون يعبر عن تحنانه: «إنكم لتعيشون على شواطئ نهر مطمئن بين تلال خفيفة تغطي الغابات سفوحها، ثم إنكم لتعيشون في بلد حر لا يحول بينكم وبين ما تعملون قهر، وتطمئنون فيه إلى ما يقع في ملككم، وما بقيت هنالك ممالك وما بقيت اعتبارات الأثرة التي تنطوي فكرة المملكة عليها، فأنا واثق من أن إنجلترا أكثر الممالك حرية وتهدىءاً، ولعلك كنت حكيمًا في اختيار طريق حياتك، على أنني إن عدت واحتذيت مثالك فلن آسف على مارأيت من ممالك أخرى، فلدينا — لا ريب — كثير من الخبيث والطيب، وكثير يُزدرى وكثير يمكن السمو به نحو الكمال، لكن ذلك كله لا يعرفه ولا يحس به من لم يربح حدود وطنه، وما دام الإنسان على ما هو عليه فإن التجربة التي جربها لن تدعوه لاحتقار الأمة التي ولد فيها، بل على العكس من ذلك، هو لن يقدر ما يربطه بوطنه من حب حتى يجعله الغياب عنه أشد شعورًا بجماله، فشعراؤنا وفلسفتنا وجبالنا وبحيراتنا، وقرانا ومزارعنا التي لا شبيه لها عند غيرنا؛ كل هذه روابط لن تنتَ ولن تتحطم أو أصبح ولا إدراك عندي ولا حس لي».

وربما فات شلي أن يذكر شيئاً آخر يربطه بإنجلترا ولا يقل عن كل ما ذكر قوة، ذلك عصفوره هارييت وابنته يانت وابن هارييت المنسوب إليه وإن أنكر هو أبوته، فلقد كان كثير التفكير في أثناء وجوده على شواطئ ليمان في هاته التي ترك وإن كان يعلم أنها في طمأنينة مادية بما أجراه عليها من رزق وما يجريه أبوها عليها من رزق مثله، وكان يعلم من أخبارها أنها ساء سلوكها وانحدرت إلى مستوى يقرب من الدعاارة، فكان يحس على نفسه في ذلك بعض التبعة، ويحاول إقناع نفسه بما يزحزح التبعة عنه، ولئن كانت هارييت قد أساءت إليه أفاليسست يانت ابنته ويجري في عروقها الدم الذي يجري في عروقه؟ لكنه لم يكن يستطيع الإسراع إلى مغادرة سويسرا وماري متعلقة

بها جريحة القلب من سوء صنيع مواطنها بصاحبها وبها؛ لذلك اقتنى — بالاشتراك مع بيرون — زورقاً جعلًا من رياضتها عليه فوق لج الليمان مستوحى لإلهامهما، وكثيراً ما كانت تصحبهما ماري وجين، فتتغنى هذه الأخيرة بصوتها الحلو الرقيق توقع أنغامه على موجات هواء الجبال العذب الصافي ما يزيد الهواء والبحيرة والجبال جمالاً وما يزيد إلهام الشاعرين روعة وقوه.

على أن جين كانت قد حملت من بيرون منذ كانوا في إنجلترا وأن لها وهم في سويسرا أن تضع طفلة دعتها كلارا اللجراء، من يومئذ بغضت إلى نفس بيرون، وازداد لها بغضاً حين تحدث إليه شلي فيما يريد أن يصنع بالطفلة وبأمها، وكان بيرون في هذا الظرف غليظ القلب مغالياً في التبرج باحتقار خليلته واحتقار النساء جميعاً واعتبارهن متاعاً لشهوة الرجال إلى حد لم تطقه الذكية الأنوف ماري، ولم تطق معه البقاء على مقربة من هذا الذي يدعوه الناس نبيلاً فإذا نبله قحة، ويحسبونه شاعر الحب فإذا حبه شهوة وإذا شعره غلظة كبد حتى على ابنته، واقترن هذا الشعور عندها بعاطفة البر بأبيها، وذكرت تعاليمه السامية وأراءه في المودة والتسامح والحب، وشاركت شلي في فكرة العود إلى الوطن، فكتب إلى بيكوك يطلب إليه أن يستأجر له داراً (فيلا) على شواطئ النهر وبين الأحراس والغياض.

وعادوا إلى لندن وفي عزم شلي أن يستقر بوطنه طول حياته، غير ذاكر أن لا سلطان لأحد من الناس على مصيره، جاهلاً ما خباته الأقدار له من فواجع تُقْضي مضجهه وتضطره إلى المقام بقية أيامه بعيداً عن إنجلترا، فقد كانت فاني أملأى تراسلهم حين كانوا بسويسرا، وكانت رسائلهم لها تبعث إلى حياتها البائسة خيطاً من نور الأمل في روئيthem يوماً من الأيام، فلما عادوا إلى لندن وعاشوا فيها عيش يسار استمتعت به جين مع وجود أمها في بيت جُدوين ترهق فاني وتعذبها في حين كانت فاني أحق بهذا اليسار إلى جانب أختها ماري، ولما كانت لا تستطيع الالتجاء إلى بيت شلي لتعلق قلبها به تعلقاً يجعلها لا تطيق المقام إلى جنب ماري؛ بعثت إليهم صباح يوم من سنة ١٨١٧ بخطاب من برستول تقول فيه: «إنني ذاهبة إلى مكان أرجو لا أعود منه أبداً». فسارع شلي بالسفر إلى برستول ومنها عرف إلى أين سافرت الفتاة، وذهب إلى الفندق الذي نزلت به فألفاها انتحرت بالسم وتركت خطاباً تذكر فيه أن بؤسها كان سبب اختلالها أيامها وقضائها على حياتها.

وهز هذا الحادث قلب شلي وأعصابه، وزاده اهتزازاً ما ذكرته ممز جُدوين من أن فاني انتحرت لفروط حبها إيه حباً ضاع كل أمل في أن يجد ما يحييه، وعن هزة

قلبه يعبر في أبيات ستة يقول فيها: «أصابت الرعشة صوتها ساعة رحلنا وما كنت أدرى أن القلب الكسير مبعثها، فرحلت ولم أعن بما ألقت من كلمات، إيه أيها المؤس! إن هذه الدنيا الفسيحة كلها ميدانك». على أن قلبه بلغ غاية الاضطراب لحدث آخر ليس دون هذا الحادث شناعة ولا قسوة، ذلك أن هاريت بلغ من انحرافها في اللهو أن حملت من أحد عشاقها وأن تقدم بها الحمل وأن شعرت إذ ذاك بما يتهددها من عار يسقطها أمام شلي، ويرفع ماري في نظر الجمهور عليها، ويوقع على رأسها ما كانت تزعم أنها تدبره من أسباب الانتقام، فذهبت إلى نهر ألتقت بنفسها فيه، فماتت متصرحة هي الأخرى، ولم يكن بين انتشارها وانتثار فاني إلا أيام، وذكرت التيمس خبر انتثارها وسببه من غير أن تذكر اسمها، وكان هذا الخبر أقسى مما يستطيع شلي أن يطيق: دعارة، فحمل، فانتحار، يا للعار! ويا بؤس أبنائه بأم تلك خاتمتها! ويا بؤسه هو بحياة تسير مسرعة بالذبول إلى أوراق الربيع منها فتهجره ابنة عمه هاريت جروف وتعقه أخته إليزابيث ويفغط للخلاص من مس هتشنر وتجاهف كرنيلياتنر وتتحضر بسببيه فاني أملاي وهاريت وستبروك! ترى ألم يأن لهذا المؤس أن ينتهي وللقرآن تهدأ عليه ثائرته؟

لكن لا! فقد طلب حضانة أبنائه من هاريت فخالفه في ذلك أبوها وتقاضيا فأنصف القضاء الجد، بحجة أن عقيدة شلي فاسدة ويخشى أن ينشئ أبناءه عليها، وإنما خف من هذا الحكم أن عهد القضاء بالحضانة إلى من اختاره شلي مطمئناً على إقامته في تربية أبنائه.

وأتاح له انتثار هاريت أن يعقد على ماري وأن تعود لذلك صلته بجماعة جُدوين، وكان العوز قد ألح بممؤلف (العدل السياسي) حتى صار عالة على شلي هو أيضاً وحتى جعله يعود إلى الاستدانة من جديد، ولم يكن جُدوين وزوجه وحدهما هما اللذان كفل شلي في ذلك الظرف، بل أغان صديقه لي هنت وكان له خمسة أولاد من زوجه ماريان، وأغان صديقه بيكوك كي يتتابع كتابة روايات رأى شلي في كتابتها خيراً وإصلاحاً للجماعة، مع ذلك كله، مع الاضطراب المالي ومع انتثار فاني وهاريت في أيام، ومع منازعة وستبروك إيه في حضانة أبنائه، فقد تحصن شلي بإرادته الصلبة وحاول أن يقهر كل هذه الآلام ويتبغلب على كل المتابع.

وشلي — على رقته وإيثاره وعبادته الجمال وتعلقه بأنغام الشعر — كان ذا عزيمة لا تعرف المستحيل ولا تقف في سبيلها عقبة من العقبات، تحصن بهذه الإرادة

وحاول أن يظهر أمام الجمعية وكان لم تفجعه فاجعة ولم تغير الحوادث التي مرت من نفسه، فابتاع بيته ظريفاً في مارلو أقام فيه مع ماري وابنه وابنته منها ومع جين وابنتها من بيرون، على أن الإرادة الصلبة والعزم القوية تستطيعان مغالبة الوجود وقهـر المستحيل ما دامت الروح التي تحركهما وتصدران عنها مطمئنة قوية لم يندسـ إلـيـها ما يضعفـها ويـزعـزـ رـكـنـها.

فـأـمـاـ إنـ ضـعـفـتـ الرـوـحـ وـاهـتـزـتـ قـوـتهاـ المـعـنـوـيـةـ فـقـلـ عـلـىـ الإـرـادـةـ وـعـلـىـ العـزـيمـةـ وـعـلـىـ كـلـ قـوـةـ مـنـ قـوـىـ النـفـسـ السـلـامـ، وـقـدـ هـتـتـ الحـوـادـثـ التـيـ مـرـتـ بـشـلـيـ مـنـ روـحـهـ فـتـضـعـضـتـ وـضـعـفـتـ، وـشـعـرـ بـهـذـاـ الـضـعـفـ فـانـطـلـقـ مـلـتـمـسـاـ الـوـحـدـةـ كـيـ يـخـفـيـ عـنـ النـاسـ ضـعـفـهـ، وـالـأـنـوـفـ الـمـعـتـزـ بـقـوـةـ نـفـسـهـ لـاـ يـشـعـرـ بـجـرـحـ يـنـالـ مـنـهـ مـبـلـغـ شـعـورـهـ بـأـنـ يـرـاهـ النـاسـ ضـعـيفـاـ مـثـلـهـ خـاصـعـاـ لـتـصـارـيفـ الـقـدـرـ خـضـوعـهـ، فـيـ هـذـهـ السـاعـاتـ التـيـ يـنـالـ المـرـضـ فـيـهـاـ مـنـ جـسـمـ ذـكـرـ الـأـنـوـفـ أوـ تـنـالـ الـحـوـادـثـ مـنـ نـفـسـهـ، يـوـدـ لـوـ أـنـ الإـنـسـانـيـةـ كـلـهـاـ وـلـوـ أـنـ أـقـرـبـ النـاسـ إـلـيـهـ مـنـ ذـوـيـهـ وـأـهـلـهـ لـمـ يـكـنـ حـوـلـهـ مـنـهـ أـحـدـ لـيـطـلـعـ عـلـىـ ضـعـفـهـ أـوـ يـشـاهـدـ هـبـوـطـ نـفـسـهـ.

وـجـعـلـ شـلـيـ يـنـهـبـ إـلـىـ جـزـرـ التـمـسـ المـنـقـطـعـ يـقـضـيـ فـيـهـاـ نـهـارـهـ وـشـطـرـاـ مـنـ لـيـلـهـ، يـشـاهـدـ الطـيـورـ السـابـحةـ فـيـ المـاءـ وـالـمـلـحـقـةـ فـيـ الجـوـ، وـيـحـاـولـ اـسـتـعـادـةـ سـكـينـتـهـ بـالـتـحلـيقـ فـيـ عـالـمـ الـشـعـرـ وـاسـتـمـادـ الـقـوـةـ الـرـوـحـيـةـ مـنـ وـحـيـهـ، وـلـمـ يـكـنـ يـرـجـوـ فـيـ اـسـتـمـادـهـ هـذـهـ الـقـوـةـ غـيرـ مـاـ كـانـ يـطـمـعـ فـيـهـ أـوـلـ صـبـاهـ مـنـ تـحـقـيقـ سـعـادـةـ بـنـيـ الإـنـسـانـ، فـقـدـ زـادـتـهـ الـحـوـادـثـ التـيـ كـرـتـ عـلـيـهـ إـيمـانـاـ بـأـنـ نـظـامـ الـجـمـاعـةـ الـفـاسـدـ هوـ الـذـيـ دـفـعـ إـلـىـ هـذـهـ الـكـوارـثـ الـمـتـوـالـيـةـ وـتـلـكـ الـمـلـأـيـ الـفـاجـعـةـ التـيـ تـنـهـبـ الـلـبـ وـتـصـدـعـ الـقـلـبـ، وـكـانـتـ قـصـيـدـتـهـ الـكـبـرـىـ الـثـانـيـةـ – ثـورـةـ الإـسـلامـ – وـالـتـيـ كـانـ يـصـقلـ فـيـهـاـ مـنـ قـبـلـ أـنـ تـفـجـأـهـ الـحـوـادـثـ تـبـاعـاـ، قـدـ فـرـغـ مـنـهـ أـوـ كـادـ، فـوـضـعـ قـصـيـدـةـ أـخـرىـ أـسـمـاـهـاـ «ـلـاـونـ وـسـتـنـ»ـ ضـمـنـهـ مـسـارـحـ أـفـكـارـهـ فـيـ ذـلـكـ الـظـرـفـ الـعـصـيـبـ مـنـ حـيـاتـهـ، وـضـعـهـاـ فـيـ أـثـنـاءـ تـلـكـ الـجـوـلـاتـ فـيـ أـحـضـانـ الـوـحـدـةـ مـقـتضـيـاـ نـفـسـهـ أـنـ يـكـونـ فـيـهـاـ مـثـالـ سـمـوـ فـوـقـ الـمـرـضـ وـالـأـلـمـ وـكـلـ أـسـبـابـ الـضـعـفـ الـإـنـسـانـيـ الـذـيـ لـاـ يـلـيقـ بـأـمـثالـهـ مـنـ يـؤـمـنـوـنـ بـأـنـهـمـ يـقـضـونـ بـيـدـهـمـ عـلـىـ نـاصـيـةـ الـوـجـودـ.

وـلـمـ تـكـنـ جـوـلـاتـهـ وـلـاـ كـانـ شـعـرهـ لـيـدـ إـلـيـهـ طـمـأنـيـنـةـ نـفـسـهـ أـوـ لـيـدـفـعـ عـنـهـ غـائـلـةـ هـمـومـهـاـ، بـلـ لـقـدـ جـنـتـ هـذـهـ الـهـمـومـ عـلـىـ صـحـتـهـ وـرـدـتـ إـلـيـهـ مـرـضـ صـدـرـهـ وـجـعـلـتـهـ يـفـكـرـ جـادـاـ فـيـ وـسـيـلـةـ الـبـرـءـ مـنـ عـلـتـهـ، كـتـبـ إـلـىـ جـدـوـينـ فـيـ ٧ـ دـيـسـمـبـرـ خـطاـبـاـ يـصـفـ لـهـ فـيـ حـالـهـ، جـاءـ فـيـهـ: «ـوـكـانـتـ صـحـتـيـ أـسـوـأـ بـالـفـعـلـ، فـإـنـ مـشـاعـرـيـ لـتـهـبـطـ أـحـيـاـنـاـ إـلـىـ حـدـ الـذـهـولـ

والموت، ويبلغ بها التوتر أحياناً أخرى إلى حد غير طبيعي من التهيج، ولماقتصر على مثل مما يعذبني خاصاً بيصري، فإن أوراق الحشيش وغضون الأشجار البعيدة لتبدو لนาكري بدقّة مكرسكونية، فإذا أقبل المساء غرفت في بحار من الهبوط وضعف الحياة وبقيت مستلقياً – في كثير من الأحيان – ساعات على المضجع وأنا بين النوم واليقظة فريسة تهيج ذهني مؤلم أشد الألم، ذلك أمري إلا في قليل، أما الساعات التي خصت للبحث فقد اختتها بعناية من بين الساعات التي استطاع المقاومة فيها، على أن ذلك كله ليس هو سبب تفكيري في السفر إلى إيطاليا طمعاً في أن تنقذني منه، كلا، بل لقد عاودتني نوبة صدرية، ولئن كانت قد انتهت الآن غير تاركة وراءها أثراً لوجودها إلا أن هذا العرض دلني على حقيقة المرض الذي يؤويه صدري، ومن مصلحتي أن يكون هذا المرض بطبيعة بطيئاً، وإن الإنسان إذا عُني بتتبع تقدمه استطاع التغلب عليه والبرء منه في جو دافئ، فإذا عاد هذا المرض على صورة واضحة أصبح وجباً على أن أسارع بالذهاب إلى إيطاليا، على أنّا إنما نسافر حين يصبح السفر وجباً محتملاً، لخالفة هذا السفر لمقادتنا أنا وماري متأثرين بعواطفنا نحوك، وأحسبني في غنى عن أن أذكرك، فضلاً عن آلام الذين يعيشون بعد موت عزيز عليهم، بسلسلة النتائج السيئة التي تترتب على موتي، وإنما يحملني على هذه الصراحة القاسية ما بدا لي من أنك لم تدرك حقيقة مقصدك، فليست الصحة وإنما هي الحياة التي أبحث عنها في إيطاليا، ولست أبحث عنها من أجلي، فأناأشعر بالقدرة على نفسي إزاء مثل هذا الضعف، وإنما أبحث عنها من أجل أولئك الذين تفيض عليهم حياتي سعادة ومنفعة وأمناً وكراهة، ومن بينهم من ينقلب عليه أمر هذا كله إلى النقيض إذا أنا مت».

وما يشير إليه شلي من سوء فهم جُدُوين إياه هو تأويل جُدُوين سفر صهره إلى إيطاليا بأنه الفرار من معونته المالية، على أن ماري لم تبرح إنجلترا حتى كفلت لأبيها عن طريق شلي رزقاً يقيه فيشيخوخته، كما كانت طوال إقامتهم في إيطاليا لا تنفك تعينه بتخصيص ما يقع لها ثمناً للروايات التي تكتبها لمعونته، ويدفع شلي ليزيد في هذه المعونة جده، ولعل إحساسها بحاجة شلي إلى السفر كانت أشد من إحساسه هو، فقد أنقلتها جين وابنتها وطمعت حين وجودهما على مقربة من بيرون أن يضمها إليه، على أنهم ظلوا ينظمون شؤونهم ويبיעون دارهم في مارلو ويقتضون الناس فيها ما يستطيعون اقتضاه منهم حتى استطاعوا إعداد أهبتهم للسفر، وسافروا في منتصف مارس سنة ١٨١٨ قاصدين ميلانو ليذهبوا بعد منها إلى البحيرات الإيطالية آملين أن

يجد شلي في شمسها وهواء الجبال عندها ورقة الطبيعة المحيطة بها ما يشفي صدره
ويرد إليه سكينة نفسه.

(٥) سُنُو حياته الأخيرة بإيطاليا

غادر شلي إنجلترا قاصداً إيطاليا في مارس سنة ١٨١٨، غادرها مستصحباً زوجه ماري وابنيهما وليم وكلارا، ومستصحباً كذلك جين كليمون التي كانت تطمع في أن ترى ابنتها من بيرون فتروي غلة قلبها الظمى شوقاً لها، ومرروا بليون فجبال الألب حتى نزلوا ميلانو، ومن هناك قصدوا البحيرات الإيطالية التي كانت منذ القدم مغنى الشعراً وملهمة الموسيقيين والمصورين ورجال الفن جميعاً، وأعجب شاعرنا بهذه البحيرات «بكومو» منها بنوع خاص، حتى رأى أن ليس يعدلها أو يزيد عليها جمالاً غير بحيرات كلارني الأرلندية، على أنهم لم يجدوا في منطقة البحيرات الدار التي تعجبهم فعادوا إلى ميلانو حيث وجد شلي في كنيستها ملحاً تطمئن له روحه التي كانت ثائرة من قبل على كل كنيسة وعلى كل دين، وكنيسة ميلانو جديدة بأن تطمئن النفس لجمال ظاهرها وهيبة داخلاً هيبة تبعث إلى النفس طمأنينة الإسلام للحياة ولما بعد الحياة، لكن أمر شلي لم يقف عند حد الإعجاب بجمال كنيسة ميلانو وهيبتها، بل إن نفسه التي كانت جموداً ثائرة على كل شيء قد وجدت في آلام الحياة وصدماتها المتواتلة ما هد من ثورتها وما أراها ضعف الإنسان عجزه التام أمام الوجود، فعاد إلى نوع من الإيمان بعظمة الوجود ممثلاً في الكنائس والبيع وبيوت الله جميعاً، وجعل يرى فيه ملحاً يحتمني به الإنسان من ضعفه، بل يستريح فيه إلى هذا الضعف ويطمئن له.

ومن ميلانو كتب شلي إلى بيرون في شأن اللجرا منبئاً إياه بوجود أمها معهم، ورد عليه بيرون معلناً – في صراحة وقحة – أنه لن يرى لجين وجهاً ولن يسمح أن تعرف إليه طريقاً، ورأى شلي أن لا وسيلة للتخفيف ولو بعض الشيء من حدة صاحبه إلا أن يذهب إليه في البندقية، وغادر ماري وابنيهما وذهب مستصحباً جين التي أحلت في السفر رجاء أن ترى ابنتها ولو خلسة من غير أن يعلم بيرون بوجودها، وتقابل الشاعران وتحادثاً في الأمر حديثاً انتهى بيرون معه إلى السماح بأن تقيم الطفلة مع أمها وشلي في دار بناحية «إست» شهرين كاملين على ألا يكون لجين بعدهما مطلب عنده أو رجاء فيه، وأعجب شلي بالمدينة السابحة غرقى في لجة الإدرياتيك وبجزرها وكنائسها وبهواها العطر بأريح الحب المتعنّى والهَا فترات من الليل بأناشيده، الذاهب

في المتع بـه إلى حدود الاستغفار عنه بإقامة الكنائس الكثيرة عـلـها تـسـع ذنوب أـهـلـالمـديـنة جـمـيـعاً، وـعـلـأـ إـحـدـاهـاـ تكون أـقـرـبـ منـ الآخـرـ إـلـىـ دـعـاءـ مـسـتـجـابـ.

ورـأـيـ بـعـدـ الذـيـ عـرـضـهـ بـيـرونـ وـبـعـدـ ذـهـابـهـ وجـينـ وـابـنـتهاـ إـلـىـ إـسـتـ أـنـ المـكـاتـبـةـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ مـارـيـ أـصـبـحـتـ لـاـ تـكـفـيـ فـدـعـاهـاـ لـتـقـيمـ مـعـهـماـ، وـمـنـ هـنـاكـ عـرـفـتـ مـارـيـ الـبـنـدقـيـةـ وـتـعـلـقـتـ بـهـاـ وـبـرـمـالـ الـلـيـدـوـ وـمـصـيـفـهـاـ، عـلـىـ آنـهـاـ اـزـدـادـتـ مـنـ بـعـدـ بـهـذـهـ الرـمـالـ تـعـلـقـاـ أـنـ خـلـفـتـ فـيـهـاـ ذـكـرـيـ فـاجـعـةـ هـيـ الـأـوـلـيـ فـيـ حـيـاتـهـاـ، فـإـنـ شـهـرـيـ «ـإـسـتـ»ـ ماـ كـادـاـ يـقـارـبـانـ التـكـامـ لـيـعـودـ شـلـيـ وـرـهـطـهـ إـلـىـ مـيـلـانـوـ حـتـىـ كـانـتـ اـبـنـتـهـ كـلـاـ قـدـ مـرـضـتـ، وـبـرـغمـ مـاـ بـذـلتـ أـمـهـاـ مـنـ عـنـيـةـ بـهـاـ ظـلـ الـمـرـضـ مـتـابـعـاـ سـيرـهـ حـتـىـ رـأـواـ ضـرـورـةـ الـذـهـابـ إـلـىـ الـبـنـدقـيـةـ لـاستـشـارـةـ طـبـبـ رـجـواـ أـنـ يـكـونـ أـكـثـرـ مـنـ طـبـبـ «ـإـسـتـ»ـ حـذـقاـ وـمـهـارـةـ، لـكـنـهـمـ مـاـ بـلـثـواـ أـنـ وـصـلـوـاـ هـنـاكـ حـتـىـ كـانـتـ الـفـتـاةـ فـيـ آخـرـ لـحظـاتـهـاـ وـحـتـىـ أـسـلـمـتـ رـوـحـهـاـ الـبـرـيـئـةـ الـطـفـلـةـ قـبـلـ أـنـ يـحـاـولـ طـبـبـهـاـ الـحـيـلـوـلـةـ بـيـنـهـاـ وـبـيـنـ بـارـئـهـاـ، وـذـهـبـ شـلـيـ وـذـهـبـتـ مـارـيـ يـحـمـلـانـ الـجـسـمـ الصـغـيرـ إـلـىـ الـلـيـدـوـ فـدـفـنـاهـ فـيـ رـمـالـهـ الـمـخـتـلـطـةـ صـفـرـتـهـاـ الـبـهـيـجـةـ بـزـرـقـةـ الـمـوـجـ الـمـحـيـطـ بـهـاـ وـالـدـائـمـةـ الصـفـوـ بـرـغمـ مـاـ تـحـويـ مـاـ أـجـادـثـ وـرـمـوسـ يـخـلـعـ عـلـيـهـاـ جـلـالـهـ جـمـالـاـ.

وـجـرـحـتـ أـمـوـمـةـ مـارـيـ جـرـحـهـاـ الـأـوـلـ وـعـرـفـ الـحـزـنـ إـلـىـ قـلـبـهـاـ السـبـيلـ، لـكـنـهـاـ سـرـعـانـ مـاـ تـعـزـتـ وـظـهـرـتـ بـمـظـهـرـ القـوـيـ الذـيـ لـاـ يـتـزـعـزـعـ حـتـىـ تـمـرـ بـهـ أـعـاصـيرـ الـقـدـرـ، وـكـانـ مـظـهـرـهـاـ هـذـاـ بـعـضـ تـعـالـيمـ أـبـيهـاـ، فـنـحنـ فـيـ الـحـيـاتـ نـؤـدـيـ لـلـحـيـاتـ وـاجـبـهـاـ بـالـبـرـ بـالـإـنـسـانـ وـالـعـطـفـ عـلـيـهـ، وـبـتـخـلـيـدـ النـوـعـ وـالـقـيـامـ عـلـىـ تـرـبـيـتـهـ، وـبـنـشـرـ الـعـرـفـانـ وـالـنـورـ وـالـعـمـلـ لـتـمـتـلـئـ بـهـاـ الـقـلـوبـ جـمـيـعاـ، وـبـالـجـهـادـ فـيـ سـبـيلـ الـحـرـيـةـ كـيـ تـتـمـتـعـ بـهـاـ الـبـشـرـيـةـ كـلـهـاـ، وـمـاـ أـحـسـنـاـ أـدـاءـ هـذـاـ الـوـاجـبـ فـمـنـ حـقـنـاـ أـنـ نـكـونـ سـعـداـ أـيـّـاـ كـانـتـ النـتـيـجـةـ الـتـيـ يـسـفـرـ عـنـهـاـ عـمـلـاـ، وـكـلـ شـرـ لـاـ سـلـطـانـ لـنـاـ عـلـيـهـ وـلـاـ قـوـةـ لـنـاـ فـيـ دـفـعـهـ لـاـ مـوـضـعـ لـلـأـسـيـ منـ أـجـلـهـ، وـثـكـلـ الـوـالـدـ وـلـدـهـ بـعـضـ مـاـ لـاـ سـلـطـانـ لـنـاـ عـلـيـهـ مـنـ أـعـاصـيرـ الـقـدـرـ، فـلـيـكـنـ مـوقـفـنـاـ مـنـهـ مـوقـفـ إـبـاءـ وـكـرـامـةـ لـاـ مـوقـفـ ضـعـفـ وـحـزـنـ، لـيـكـنـ مـوقـفـنـاـ مـنـهـ مـوقـفـنـاـ مـنـ خـصـمـ يـنـاوـئـنـاـ لـيـبـتـرـ مـالـنـاـ، أـفـتـرـانـاـ إـذـاـ اـبـتـزـهـ فـأـتـلـفـهـ خـاطـعـينـ لـهـ مـتـخـالـلـينـ أـمـامـهـ؟ـ أـمـ أـنـاـ عـلـىـ الـعـكـسـ مـنـ ذـلـكـ نـزـدادـ أـمـامـهـ كـبـرـاـ وـأـنـفـةـ؟ـ كـذـلـكـ ظـهـرـتـ مـارـيـ أـنـوـفـاـ لـمـ يـعـرـفـ الـهـمـ وـلـاـ عـرـفـ الدـمـوعـ إـلـىـ عـيـنـهـاـ وـلـاـ إـلـىـ قـلـبـهـ سـبـيلـاـ، وـلـعـلـ هـذـهـ التـعـالـيمـ لـمـ تـكـنـ وـحـدـهـاـ مـصـدـرـ شـجـاعـتـهـاـ وـمـبـعـثـ قـوـتـهـاـ، فـهـذـاـ وـلـدـهـاـ وـلـيمـ مـاـ يـزـالـ فـيـ أـحـضـانـهـاـ فـلـهـاـ فـيـ عـزـاءـ، وـهـاـ هـيـ ذـيـ مـاـ تـزـالــ كـمـاـ لـاـ يـزـالـ شـلـيــ فـيـ مـقـتـلـ الـعـمـرـ وـقـوـةـ الـشـبـابـ، فـمـاـ يـزـالـ لـهـمـاـ فـيـ الـمـسـتـقـبـلـ وـأـبـنـائـهـ وـبـنـاتـهـ

وسعادته رجاء، وكلارا التي فقدت كانت ما تزال بعد طفلة يُعُد عمرها بالشهور، فلا موضع للأسى عليها حتى عند أشد الناس تخاذلاً أمام الحزن إلا بمقدار.

فأما شلي فقد احتمل موت طفله في سكينة، ثم احتمل نفسه وأهله وسافر وإياهم من البندقية، وكان يشعر بأن المقام في شمال إيطاليا – وبخاصة عند مقدم الشتاء – ليس مما يبعث إلى نفسه السكينة وإلى صدره دوام ما يرجو له من عافية وبرء، فساروا منحدرين جنوباً حتى وصلوا إلى روما حيث زار شلي من آثار المدينة الخالدة ما زاده قدراً لشعر فرجيل ولشعر دانتي، وبعد إقامة قصيرة بها قصدوا إلى نابولي، وهناك على شاطئ خليجها الساحر البديع ألقى شلي عصا تَسْيَارَه أملأً أن يجد فيها الطمأنينة التي تيسّر له الانخراط في خيالاته وتأملاته وتتيح له أن يتم قصidته (بروموتية الطليق) ينادي فيها كما نادى في قصيدة (الملكة ماب) بمبادئ الحرية والفضيلة، ويضع فيها الإنسان بإزاء قوى الطبيعة وما وراء الطبيعة، وقد قيده كلها بقيودها، فإذا هو يحاول من طريق إرادته ومن طريق حرية فكره أن يحطم هذه القيود، وأن يتغلب على هذه القوى، وأن يقف منها جميعاً موقف المتحكم فيها المسير لها، ثم إذا محاولته تنتهي به إلى الفوز على القوى جميعاً بفضيلة صدق العزمية والإيمان بالحرية وتقديس الحياة والجمال فيها وبالحب الظاهر الذي لا يعرف الأثرة، وإنما يشترك فيه الإنسان وسائل ما في الكون إجلالاً وتقديساً لما أبدعت الحياة في الكون من جمال وجلال، وهو يضع قصidته هذه في صورة الرواية التمثيلية جاعلاً أشخاصها آلهة الأولب وعلى رأسهم جوبتر، ومن حولهم الأرض والمحيط وعذاراه والكون وأرواحه والكواكب وأفلاكها والوقت وانسيابه، و(بروموتية) بإزاء ذلك كله يجاهده وينتصر عليه، وهو هنا يخالف الأسطورة القديمة التي تجعل هذا البطل وقد كبلته الآلهة وألزمته قيده بسبب محاولته مناجزتها والتغلب عليها بالعقل والحيلة، وإن كثريين من النقاد ليذهبون إلى تفضيل هذه القصيدة من قصائد شلي على كل ما سواها ويعتبرونها الدرة من شعره، فاما آخرون فيذهبون إلى تفضيل رواية (سنسي) إذ يرتفعون بها إلى مقام روايات شكسبير، على أن (بروموتية) قد نسجت على غير طراز (سنسي)، فبینا هذه الأخيرة – على ما سترى – تعبّر عن حب آثم يقع في الحياة بين أب وابنته إذا بتلك تتخذ من الكائنات كلها ومن الوجود وما فيه بعض مسرحها، وهي في هذا قد سارت على طراز قصيدة ملتون (الفردوس المفقود) وإن اختفت عنها قوة بأن ارتفعت عليها في بعض الموضع ولم تصل إلى رفعتها في مواضع أخرى.

ولم يطل بشلي المقام في نابولي، وكأنما كانت يد القدر التي قست به حين مقامه على أرض وطنه، فجعلته لا يطيل المكث فوقها إلا ليعود إلى الارتحال عنها محملاً هموماً وألماً ما تزال لم يهدأ ثائرها عليه برغم ما كان يبدع في الشعر من آيات ليست القصائد الكبرى إلا بعضها، فلقد مرض ولده وليم أثناء كانوا في طريقهم عائدين إلى روما، وخيل إلى ماري أن الأمر يسير وأن القدر لن يفجعها فجيعتين متواлиتين ولن يسلبها هناء الأمومة، وهي — بعد حب الصبا — كل ما للمرأة في الحياة من عزاء، وعاد الطبيب الطفل فنصح إليهم أن ينتقلوا به شمالاً، لكنهم لم يكادوا يتهيأون للرحيل حتى أصابت الطفل نوبة من الدوسنطاريا ألمتهم المكث إلى جانبه، وبقي شلي ستين ساعة ممسكاً بيد طفله خائفاً أن يفر الطفل منه إلى غيابات الأبد، ذلك بأنه كان طفلاً ذكيّاً عطوفاً رقيقاً، وكان جميل الصورة إلى حد سحر النسوة الإيطاليات بزرقة العينين زرقة جذابة وبشعره الذهبي المتوج تموج الحرير الناعم نعومته، ثم إنه كان قد أصبح وحيد ماري بعد موت أخيه كلارا، فالفجيعة فيه تحبي من قلبها الفجيعة الأولى وتسدل على وجهها الضحوك وعلى ثغرها العذب الابتسام سحابة كابة وهم يصيب شلي منها حظ غير قليل، وكان لشلي في القدر رجاء التصرف بحكمته إزاء طفل لم يقترب ذنبًا يجزى من أخيه بالموت به المرض والألام وتباريحة، لكن المرض والموت وكل ما يصيبنا في هذا العالم من خير وشر ليس في نظر القدر جزاء عمل من أعمالنا، ولكنه لوح كتابنا لا مفر لنا من الإذعان له والسيّر في خطواته؛ لذلك لم يعبأ بما كان مرجواً عند شلي ومات الطفل ودفن في مقابر الإنجليز بروما، هذه المقابر التي أعجب بها شلي وتنوى لو يدفن فيها، ولم يكن يومئذ يعلم أن ما بقي من رفاته سيُرقد هناك إلى جانب جثمان طفله.

مات وليم فانهارت عند ماري كل تعاليم أبيها وأسلمت للألم نفسها ولم تطق للوجود جلداً، سكب الهم ظلمته في قلبها واتسح الوجود كله بالسوداء أمام بصرها ورسم الحزن على ثغرها وفي نظرتها صورة اليأس والبؤس وشرد لها إلى قفار الانتحار، وصورت لنفسها خاتمة أختها فاني أملاي، وعيثاً حاول شلي تعزيتها بالتزوّيج عنها بأن انتقل بها إلى الريف من روما وأسكنها قصرًا جميلاً يحيط به الزهر والشجر، وما بهجة الزهر وخضررة الشجر أمام قلب كسيّر وبصر حزين؟! إنها كلها تتنقلب سواداً وتزيده على همه هما وأسى، بل تصبح ضحكات الزهر بعض سخرية القدر، وابتسمامة الخضراء شماتة بنا في مصابينا، وعيثاً حاول أبوها لما علم عمق حزنها أن يردها إلى

صوابها وإلى تعاليمه، فالصواب والتعاليم والمنطق والعقل أوهام وصور ما تثبت أن تطير وتتلاشى إذا هي ارتطمت بقسوة الواقع، وأي واقع أشد قسوة من الموت، بل من الكل، ثكل الأم لوحيدها وأمومتها؟ وشلي وحبه وحنانه أصبح هو الآخر مملولاً، ثم نسي كما نسي غيره أن لم يبق من الوجود أمام ماري إلا حزنها مجسماً في ذلك القبر الذي أوت إليه رفات وليم، فإذا ناداها شلي قائلاً: «أين ذهبت يا عزيزتي ماري تاركة إياي وحيداً في هذا العالم القفر؟ إن صورتك الساحرة ما تزال هنا إلى جانبي، لكنك أنت قد فررت عن طريق الوحدة المؤدي إلى صوامع الحزن المظلم». إذا ناداها شلي هذا النداء لم تزد على أن تمعن في التماس صوامع الحزن تاركة إياه يبحث عن عزائه في خير دواء لكل ألم وخير بلسم لأبلغ جرح، في العمل المتصل لأداء ما ألقته عليه الأقدار رسالته كي يشدو بها إلى العالم أنغاماً سماوية، وأعانته سماء إيطالية الصفو على متابعة تفكيراته وشدوه، على أن القدر الذي قسا كل هذه القسوة بماري لم يلبث أن دس إليها من عنده بلسم عزاء، فقد حملت وأحسست في أحشائتها روح الأمومة من جديد، لكنها كانت في خشية من معايضة القدر فظلت على عبوسها وإن زالت سحابة الهم التي كانت تظللها مما جعلها تنظر للحياة مرة أخرى نظرة رجاء، ولما اقترب موعد وضعها ارتحل بها شلي إلى فلورنسا لتكون في رعاية طبيب صالح، ثم إن في جو فلورنسا الجميل ما يضاعف الرجاء لمن لديه ولو قبس من رجاء، فيها أجمل ما في إيطاليا من الآثار، ويضيق ريحها بأسماء دانتي، وسافانارولا، وجيوتو، ودوناتلو؛ لذلك كانت للزوجين خير موئل، فيها وجد شلي خير ما يلهم شاعريته التواقة للجمال تلتمسه في كل مظاهر الفن والطبيعة، وفيها وجدت ماري مزيداً من رجائها، حتى إذا وضع وألفت نفسها أمّاً من جديد في ذراعيها طفل حملته أحشاؤها عاودت ثغرها أول ابتسامة من يوم مات وليم، ودعت الوليد برسى فلورنس شلي، اعترافاً بفضل زوجها في تقويتها على اختيار محنتها، وبفضل فلورنسا التي عادت إليها فيها أمومتها وحياتها ورجاؤها.

ولما جاء الشتاء وقرس البرد في المدينة «الجميلة» نصح الطبيب إلى شلي بالسفر إلى بيزا، فذهب بأهله إليها وأقاموا بها، وهنا تألفت حول شلي جماعة يعيش كل منهم عيش العزلة، فلما وجدوا هذا الدائم الترحال استقر بينهم أحاطوا به، وانضم إليهم قسيس لقبه أهل البلد بشيطان بيزا واسمها الأستاذ المجل باكشيانى، وكان قسيساً قليلاً الدين وأستاذًا لا يعلم الناس شيئاً وزير نساء ومحباً خدمة معارفه، وكل من يمر ببيزا كان يصبح من معارفه، وقد قص هذا الشيطان على شلي قصة استدعت كل التفاته، ذلك أن

للكونت فيفياني — أحد كبار أعيان بيزا — فتاتين من زواج أول، وأنه لما تزوج ثانية بعد وفاة زوجه الأولى ذهب بفتاتيه إلى الدير أن كانت زوجة شديدة الغيرة منهم لفطر جمالهما، وكان جمال كبراهما (إميليا) رائعاً روعة جمال الملائكة، كما كان ذكاؤها حاداً وخاليها متوقداً بما يبعث إلى كل نفس أشد الإعجاب بها والإشراق عليها، وكان قصد أبيها من الذهاب بها وبأختها الدير أن يقيما فيه حتى يتزوجهما من شاء من غير أن يمهره الأب عنهما شيئاً، فلما سمع شلي بالقصة هاجت في نفسه كل عواطفه القديمة، أليس هو يريد الكمال مجسماً في أنثى لها جمال المرأة وعقل الرجل؟ وهذا هو قد ضل تقديره الكمال في هاريت جروف وهارييت وستيروك،وها هي ماري جُدوين وإن كانت ما تزال من خير النسوة اللواتي عرف إلا أنها أصبحت أمامة جسماً محسوساًذا حدود وأبعاد وذكاء متجلياً له كل ما فيه من حكمة وشعر، فلم يبق إذا فيها المجهول الذي يبحث هو دائمًا في الكشف عنه والوصول إليه، فلنر إذاً ما عسى أن تكون إميليا فيفياني هذه من صور الكمال وما عسى أن تلهمه من رائع الشعر والحكمة.

ولح القسيس الشيطان هذه النوازع في نفس شلي فعرض عليه أن يصحبه إلى الدير، وما لبست الفتاة أن دخلت عليهما المنظرة حتى سحر شلي وذهب به قوام رخص في لدونة واعتدال تخلع عليه ثياب الدير البسيط زينة وانسجاماً وتزيد بهاء ما فيه من جمال في كل انتقاء وتنوء، ومشيهـ هي للعين أنغام تموج في النفس والخيال فتهزهما وتثيرهما، وشعر فاحم السواد ملقي على أكتافها ليزيد وجهها البديع القسمات وضوحاً وبهراً، وعيون دع جاء تفريض نظراتها حباً شهرياً فيه قوة تلتهم من تقع عليه التهاماً، وجبين مصقول، وأنف أقنى، وثغر عذب، وشفاه تحدث عن فيض الرغبة، وإلى هذه الأنوثة القوية الجذابة بريق ذكاء يبدو بصيده من حدق عيونها السوداء قويأً ملتهباً، وألفت الفتاة ساعة دخولها المنظرة عصفوراً في قفص، فتوجهت إليه بهذه الكلمات: «أيها الصغير المسكين، إنك لتموت أكتئاباً، فما أشد إشفافي عليك! ألا كم تتالم حين تسمع أسراب أمثالك تناديك ثم تطير مع الرياح من غيرك إلى بلاد مجهلة! أنت مثل ي محظوم عليك أن تقضي هنا في سواد حظك، أوه لو كنت أستطيع إنقاذه!» وانطلقت مرتجلة مثل هذه العبارات بصوت عذب ساحر تزيده اللغة الإيطالية بموسيقاها سحراً وعدوة، وزادت أنشودتها للطائر الحبيس بهر شلي فاستأندناها أن يعود إليها وأن يستصحب زوجته وأختها، فرضيت طيبة النفس.

وتزاوروا وتكتابوا وأبدت ماري إعجابها بجمال إميليا وتقدير شلي إياه على أنه الجمال الأسمى، أما شلي فانطلق من فوره يضع قصيده (إبسشيديون) يصف فيها

الجمال والحب ويدعو فيها إميليا لتنذهب وإيابا إلى قصر قديم في جزيرة أبدعها خياله بين جزر الإدرياتيك ليعيشَا هناك وليس بها بين جمال تلك الجزيرة وأشجارها وأنهارها في عزلة لا ينفعها عليهم أحد من الإنس، وإنك لتقرأ القصيدة وتبلغ أبياتها أربعة وستمائة بيت فلا ترى فيها أكثر من هذا الذي ذكرنا، لكنك تراه أثيرياً يطير بك في عالم الجمال وينسيك نفسك بموسيقاه وحلوه صوره وبديع خياله ويناسب إلى روحك عذباً سلسلياً، فلا تزداد إلا تعلقاً به وتقديرها إيه، وفي ختام القصيدة يقول: «اذبهي أيتها الأبيات الضعيفة فاسجدي عند قدمي سيدتك وقولي: إنني سيدة عبده فمري أمرك فيما وفيه، ثم تنادين مع أخواتك من سائر شعري واسجعن متغيريات: «عذب في الحب حتى ألمه، لكن جزاءه في هذا العالم قدسي لأنه إن لم يتلنا في الحياة تبعنا إلى ما وراء قبرنا»، وأنت لا رب ستحيين في حين أكون أنا قد أويت إلى هناك، فأسرعى فوق قلوب العباد حتى تقابل ماريتا وفانا وبريموس وسائر صواحبك، ثم أهيبى بهن أن يحب بعضهن بعضاً وأن يبارك بعضهن بعضاً، ودعى فيما وراءك قطيع الخاطئين الطاعنين على غيرهم بخطاياهم وتعالي فكوني ضيفي، فإنما أنا ضيف الحب.»

و قبل أن يتم قصيده، تزوجت إميليا من غني اسمه بيوندي قبل أن يعقد عليها من غير أن يمهرها أبوها، فلما علم الشاعر بأمرها أسقط في يده ولم يطق إتمام قصيده، فها هي ذي رمز الحب في طهارته قد فعلت فعلة ابنة عمه هاريت جروف وفعلة النساء جميعاً من عرف، ها هي ذي سقطت إلى مستوى القطع تاركة إيه بعض البنان ندماً على خطئه في أمرها ويصب عليها اللعنة أن أضاعت عليه وحيه وإلهامه.

وفيمما كان شلي في هيامه بإميليا كان بيرون يتخطى خليلة إلى خليلة حتى انتهى إلى أجمل نسوة البندقية وتدعى جيوكشولا، وكانت من عائلة نبيلة ومتزوجة رجلاً نبيلاً، لكن صلة المرأة بخليل لم تكن في البندقية يومئذ أمراً إداً، حتى في نظر زوجها، على أن هذه السيدة اضطرت للسفر مع هذا الزوج إلى رافنا ومن هناك دعت بيرون ليترك البندقية ويقيم عندها، فلما تلّأ بعثت إليه تخبره بأنها مريضة فطار إليها وأقام إلى جانبها، وكما انتقل هو من البندقية فقد نقل ابنته اللgra إلى بولونيا، فلما علمت جين كليرمون بأمر ابنتها بعثت إلى بيرون تستعطفه أن يبعث بها إليها، فرد عليها رداً غليظاً يقول لها فيه إن التربية في بيت شلي على أساس النباتية في الحياة المادية والإلحاد في الحياة الروحية مما لا تطمئن له نفسه، ورفض أن يسلم البنت لها، فجن

جنونها وبعثت إليها بخطابات قاسية اعتذر له عنها شلي في خطاب بعث به إليه يقول فيه إن جين أم، وإنه وإن لم يطلع على ما تكتب لوالد ابنتها إلا أنه يرجو أن ينظر إليها بعين الرحمة والمغفرة، لكن بيرون رأى في هذا كله ما أغضبه، فأراد أن ينتقم لنفسه من شلي، وكان قد وصله خطاب من قنصل إنجلترا في البندقية، يقول له فيه إن الناس يتهمون شلي بمعاشرة جين، وإن مربية كانت في خدمة شلي تذيع أن جين حملت منه فأجهضها في نابولي حين كانت زوجه في روما، وتنفيذاً لانتقامه بعث بيرون يستدعي شلي إلى رافنا «لأمور خطيرة»، فلما كان عنده أطلعله على خطاب القنصل مما هاج ثائرة شلي وجعله يكتب إلى زوجه يطلب إليها أن تكذب ما تذيع خادمهن الخؤون، وأظهر بيرون افتئاعه بما كتبت ماري وإن لم يقم بأي مجهد لدى القنصل في البندقية بيد به ما علق بذهنه من أكاذيب.

وزار شلي اللجرا في الدير الذي بعث بها إليه أبوها، في بانيو كافالو، فألفاها كبرت ولكن النحول بدا عليها، ومع نحولها بدأ وسط الأطفال قريباتها في جمال جذاب يدل على أنها أرق منه وأرقى منبتاً، غير أن حياة الدير كانت بحيث تعرض صحتها بل تعرض حياتها للخطر.

وكانت خليلة بيرون معتمدة السفر إلى سويسرا، فطلب بيرون إلى صديقه أن يكتب إليها، ولو لم تسبق له بها معرفة، ليقنعها بالعدول عن فكرتها والذهاب إلى فلورنسا أو إلى بيزا، وفاضت السعادة بشلي حين علم أنها قبلت الذهاب إلى بيزا للمقام على مقربة منهم، ولم يُبَدِّلْ بيرون اعترافاً أن كانت جين قد تركت تلك المدينة إلى فلورنسا حيث قامت بأمر التعليم في إحدى مدارسها، ولم يلبث اللورد أن نزل المدينة الصغيرة التي يقيم فيها شلي حتى أبدت جمعيتها كل الإعجاب به، فصار قصره مقصد المتألقين في حين بقي شلي الرسول الروحي لأهل المدينة جميعاً، وكانت حياة بيرون حياة ترف لم يطقه شلي، فقد كان يسهر الليل كله ثم ينام في الصباح إلى ما بعد الظهر ويدهب من بعد ذلك للصيد ويعود إلى سهره ثم إلى مكتبه ليديبح قصائده التي استوقفت أنظار إنجلترا كلها فكانت تتهمها التهاماً، وكان حقاً على شلي أن يتحمل هذه الحياة زمناً كان يعتبر صاحبه فيه ضيفاً عليه في بيزا، لكنه ما لبث أن رأى ماري تريد الانخراط في سلك هذه الجماعة المترفة حتى صدف عنها وعاد إلى حياته البسيطة الأولى، ووجد في أسرة إنجليزية مقيمة ببيزا ما يسر له الابتعاد عن بيرون وجماعته، تلك أسرة وليمز زوجة جين، وكانت جين وليمز رشيقة هادئة النفس موسيقية الصوت يريح وجودها

أعصاب من يتصل بها، وكان صوتها حلو الغناء مما أتاح لشلي أن يذهب وهو معها في أحالمه الشعرية وكأنه يسير وسط حديقة غناء، وزاده إعجاباً بجين وليمز ما دأبت عليه ماري من الشكوى من أنها لا تجد من أسباب المسرة في الحياة ما يجد غيرها.

وكان لأسرة وليمز صديق بحار من الأشقياء يدعى ترلوني، وقد دعوه إلى بيزا، فاشترط أن يكونوا سبب تعارف بينه وبين شلي، وبينه وبين بيرون بنوع خاص، فوعده وليمز بهذا ولم يكن عليه عسيراً، وجاء ترلوني فانضم إلى عصبتهم، ولما ربطت المعرفة بينه وبين شلي برباطوثيق طلب إليه أن يبني له ولوليمز يختاً يشتراكان فيه، واختار لنفسه ولوليمز بيتاً على الشاطئ قريباً من بيزا فأقاما فيه ومعهما ماري وجين، وجعل شلي من يخته مركباً لرياضته ولخيالاته وأحلامه، وشعر بالسعادة تقىض عنه وباللهة الشعر تواتيه بإلهامها من كل جانب.

والحق أن آلة الشعر لم تَصِنَّ على شلي بإلهامها يوماً من الأيام، لكنها كانت في هذه الفترة وخلال الأربع السنوات والنصف التي أقامها في إيطاليا أشد بإلهامها فيضًا، حتى ليدهش الإنسان حين يرجع إلى ديوانه متى استطاع أن يكتب هذا الشعر الملائكي كله، ثم ليزداد دهشة إذا رجع إلى رسائله وإلى نثره فرأها لا تقل عن إلهامه الشعري غزارة فيض ولا قوة عبارة ولا ملگاً لعالم الجمال وكل ما حوى، ولو أردت أن تحصي ما كتب من شعر في هذه الآونة وحدها لبلغ عشرات الألوف من الأبيات بل مئات الألوف! وليس يقف ما كتب من هذا عند قصائد الكبارى كقصيدة (بروموتىه) و(سنسي) و(ساحرة الأطلس) و(إبسشديون) و(قناع الفوضى) و(أدونايس) و(هلاس) وغيرها وغيرها، بل إن له لقطوعات يقر مترجموه جمیعاً بأنها أبقى الشعر الإنساني كله على الدهر، وهذه المقطوعات التي يتحدث بها مرة إلى قبرة، وأخرى عن سحابة، وغيرها عن شجرة حساسة، وأخرى إلى النيل وعشرات ومئات غيرها — هي لا ريب خير ما تغنى به شلي معبراً به عن صلته بملكة الجمال في الوجود، ولقد تغنى في هذه المقطوعات كما تغنى في مواضع كثيرة من قصائد الكبارى، فخلع على كل ما تغنى به حياة لم تكن لتحسبها له، فإذا بك وقد قرأت شلي محسساً بها لامساً إليها معتراً بأنك أنت الذي كنت عاجزاً عن رؤيتها بحسك واكتناها بقلبك، وليس شعره وحده هو الخالق حياة جديدة في الوجود، بل إن لثره من هذه القوة ما لشعره، وإن كانت موسيقى شعر شلي مما يزيد في قوة خلقه حياة وقوه.

ولشعر شلي جوانب شتى لمح القارئ بعضها فيما قدمنا له من ترجمته، فثم جانب من حياته هو وتغنيه بما كان يرجوه فيها، و(روح الوحدة) و(إبسشديون)

وكثر من مقطوعاته تعبّر عن هذا الجانب خير تعبير، تترنّم القصيدة الأولى ببيان الشاعر وألامه وركوبه زورق الحياة على لجة الوجود ملتمساً في العدم راحة من آلامه، واجداً في خيالات الحب لهذه الأعرابية التي مرت به ثم تبعه طيفها عزاء نفسه عن بعض هذه الآلام حتى تسكن إلى الموت سكونها الأخير، وقصيدته الثانية هي قصيدة الجمال والحب مجسمين في إميليا فيفياني، أما الكثير من مقطوعاته فيتضمن بشذا الحب والجمال ويترنّم بموسيقاهم على صورة لم تعرف في شعر شلي، فلقد كان من عباد جمال المرأة والذين يجدون فيه تمثال الكمال الإنساني مجسماً، وكأنما كان جسمه يصبو إلى هذه الأجسام التي تتمثل فيها الروح الإنسانية بكل نوازعها معنى الجمال الإنساني، لكنه كان يسبح من عبادته هذا الجمال في خيال قسرته عليه فضيلته وأزمنته إياه آراؤه ومبادئه؛ لذلك لم يكن يدع لصبة جسمه أن تنزلق مع تيار الغريزة باحثة عن الاتصال بمن صبا إليه، بل كان يدع هذا الاتصال لعقله ولخياله ولشعره يصوغ من الاتصال آي الحكم وأهازيج الجمال، وهو هنا يختلف عن بيرون وعن كثيرين من الشعراء الذين يجدون في صبة الجسم إلى الجسم - شفاء لغريزة تخليد النوع - كل ما يسعى إليه الحب، بل كل ما يحرك في النفس هذه العاطفة، وهذا المعنى الذي تراه صريحاً جلياً في شعر شلي هو الذي كان ينتهي باليأس إلى نفوس كل من أحببته من النسوة، وبما يشبه اليأس إلى نفس ماري أكثرهن ذكاء وأسماهن حكمة، فالمرأة التي ترى في فضيلة شلي معنى من معاني الرواقية والزهد في الحياة والرغبة عنها تشعر بنقص في الحياة على حين خلقتها الطبيعة لتزيد فيها وتسرزد منها.

على أن جمال المرأة وإن زان كل جمال في الوجود وتوجه فليس ما في الوجود سواه من جمال أقل إلهاماً لنفس الشاعر وتحدثاً إلى قلبه، بل إن كثيراً من جمال الوجود ليخلع على المرأة جمالاً وزينة بمقدار ما تزينه هي وتحمله، ولئن كنت ترى هذين اللونين من الجمال مقتربتين أكثر الأحبابين في نفس أكثر الشعراء، إلا أن لجمال الوجود مكانة خاصة من نفس شلي تقاد تجعل الجمال لذاته آية إيمانه في الحياة، وهو في هذا أصدق من كثيرين غيره نظرة وأدق حسّاً، وهو لهذا كان يريد أن يفصل المرأة كمثال للجمال والمرأة كمخلدة للنوع، وكان يبحث فيها عن الجمال في مثله الأعلى، وكان لذلك لا يرى لجمال الجسد قيمة ما لم يصحبه روح جميل هو الآخر.

وفيما سوى هذا الجانب من جوانب شعر شلي كانت المدينة الفاضلة غاية قصده من أكثر قصائد، المدينة الفاضلة بما فيها من إخاء وتسامح وحرية وتبادل محبة،

المدينة الفاضلة المنزهة عن دنيا الشهوات، السامية إلى مكانة هي وحدها الجديرة بالإنسانية المذهبة، و(الملكة ماب) و(بروموتيف) و(سنسي) نفسها اندفاعات صادقة في الدعوة إلى هذه الغاية العليا، وحرب شعواء على الجمود وعلى التعصب، وعلى ما يؤدي إلى الجمود والتعصب من تحكم الشهوات الدنيا في الروح الإنسانية تحكمًا ينتهي بها إلى فسادها وذلها، ولعل هذه الصورة التي صورها الشاعر من آثار الجمود والتحكم أشد ما تكون وضوحاً في (سنسي) منها في أية قصيدة أو رواية أخرى، فقصة هذه الرواية التي وضعها الكثيرون من النقاد والكتاب في صف روایات شکسپیر، أن الكونت سنسي بلغ من كراهية ابنته وابنه من زوجة متوفاة أن حدثته نفسه بالفتوك بعفاف ابنته بيتريس، وشعرت الفتاة بالكريهة التي يريدها أبوها عليها فدبّرت مع أخيها وزوج أمها مؤامرة للتخلص من حياة ظالمهم جميعاً، وإنما لجأوا إلى الائتمار بحياته بعد أن لجأوا إلى البابا وإلى كبراء روما فلم يجدوا منهم منصراً، وكشف الأب المؤامرة فشكاهم إلى قداسة الباب فأمر بإعدامهم وفقاً لإرادة الكونت الذي اشتري من القداسة العليا العفو عن كثير من جرائمه بثمن زاد على مائة ألف من الجنيهات، ولو أن العدل أخذ مجراه في هذه المؤامرة لكان (سنسي) هو الخليق بأن يُجزى أشد الجزاء، لكن في إعدامه إعداماً للأموال الطائلة التي كان يغدقها على الخزانة البابوية، فليعدم الفقراء، وإن كانوا أنصار الفضيلة، ولتبقى الجماعة على حياة الرذيلة ما دامت تفيد منها، ثم لთر الفضيلة على لسان شلي فيأشعار هذه الرواية الخالدة ثورة تدك عرش الظلم وتهز قوائم الظالمين.

وهو هذا الدفاع عن الحرية وعن الفضيلة ومحاولة الارتفاع بجمال المرأة ليكون مثالاً لهما هو الذي كان يفرق بين شلي وبيريون، ويجعل من كل واحد ند صاحبه، وظبيعي أن كان إقبال الجمهوري يومئذ على شعر بيريون، فالجمهوري أسير الشهوات يلتمسها في الواقع الحياة، ولئن صح إن كانت ألسنة الخلق أقلام الحق، فلبيريون أن يزهي على صاحبه وأن ينظر إليه مشفقاً عليه، لكنه كان في الخيال كما كان في الواقع يستشعر الغيرة منه، وكذلكما كان يجري به خياله إلى لحج المستقبل يلتمسها فييتبن خلالها ما أعده لشلي من عظمة وخلد ينافسان خلده وعظمته ويدعوا الكثيرين لتفضيله عليه.

وكان حب شلي للجمال ودفاعه عن الحرية أثراً من آثار طيبة قلبه وحبه الناس وبره بأصدقائه، وقد عرف في أثناء مقامه بكازاماني بالقرب من بيزا أن صديقه لي

هنت في عوز فدعاه إلى إيطاليا، واتفق ولوارد بيرون أن يصدر هنت جريدة في إيطاليا يكون لها امتياز السبق إلى نشر قصائد بيرون، وفيما كان هنت في طريقه إلى بلاد الشمس والضياء، كان شلي سعيداً بيخته سعيداً بزورق صغير صنع له كي ينقله وصاحبه وليمز من اليخت إلى بيته أن كانت مياه البحر لا تسمح برسو اليخت على الشاطئ، وكان كثيراً ما يستلقي في أثناء رحلاته على الماء تاركاً السفين يلعب به الموج ذاهباً هو في تيهاء تأملاته وأحلامه، فإذا عاد إلى داره التمس في مجاوراته مكاناً منعزلأً بين الغياض والشجر وقضى نهاره يقرض من شعره الموسيقي الساحر ما يهبه للحياة وللحريّة تارة ولزوجه ماري طوراً ولجين وليمز التي أصبحت ربة شعره في هذه الفترة الأخيرة أكثر الأحابين، وكثيراً ما كان ينقضي النهار وهو في عمله عند جذع شجرة اتخذها وسط الغابة مكتباً، ناسيًا في أثناء ذلك طعامه وشرابه، مكتباً على خياله وشعره، حتى لكان زوجه وكان صاحبه ترلوني يذهبان إليه ينتقلانه من عالمه الجميل السعيد ويرداه إلى الحياة التي يعيش فيها على طريقته من التقشف والزهد.

ووصل لي هنت، فذهب شلي وقابله في ليفورنو، ومن هناك ذهب به إلى بيرون في بيزا ليتموا الاتفاق في شأن الجريدة التي تحدث شلي لصاحب الشاعر الكبير عنها، ومع ما بعث به فقر هنت وسوء حال أولاده من التف月下 إلى نفس بيرون، فقد ظل به شلي حتى انتهى بإلزامه أن يقوم بعمل من أعمال البر لرجل أخلص للأدب والشعر حياته، فلما آن له أن يرتحل عائداً إلى بيته فوق سفينته عصفت ريح جعلت السفرة مخوفة، حتى لقد تردد ترلوني الذي قضى فوق لج البحر حياته في أن ينصح لها بالسفر، لكن شلي كان إذا اعترض فعل، فاصطحب صديقه وليمز وغلاماً معهما وأقلعوا يوم الاثنين الثامن من أغسطس سنة ١٨٢٢ وانتظرتهمما زوجاهما في ذلك اليوم الذي انقضى من غير أن تقفا لهما على خبر، وانقضى الثلاثاء والأربعاء بعده فجن جنونهما وطاش صوابهما وذهبتا إلى ليفورنو باحثتين عنهم، وعلم ترلوني بحال الزوجتين فأيقن أن صاحبيه هلكا في زورقهما، وأخذ نفسه بالبحث على شاطئ البحر ما بين ليفورنو وكازاماني حتى إذا كان الرابع عشر من أغسطس عشر الغائصون بجنة عبشت الأسماك بوجهها وإن لم تُخفِ معالله، وألفى ترلوني في جيب الجاكتة كتاب إسكيلوس فلم تبق لديه ريبة في أنها جثة شلي، ثم لم يطل بالغائصين البحث حتى عثروا بجنة وليمز، ودفنوهما ترلوني في الرمل ثم ذهب مكتينا حزينًا إلى كازاماني، وحاول أن يدخل فخاته قواه فجعل يدور حول المنزل حتى لحته خادم، أخبرت سيدتها بالأمر، فما لبثتا

أن رأته حتى تبدد كل وهم من رجاء بقي عندهما وحتى انهلت إلى الأرض صعقتين
فهي عليهم التمل والهم.

ولما أفاقنا ذكرت ماري ما كان يرجو زوجها أن يدفن في مقابر الإنجليز بروما،
لكن نقل الجثة من بيزا إلى روما غير جائز بحكم قانون البلد إلا أن تحرق الجثة
وتنقل بقية التراب منها، ففي ظهر السادس عشر من شهر أغسطس سنة ١٨٢٢
وقف لورد بيرون والشاعر لي هنت والبحار ترلوني فوق رمال الشاطئ الإيطالي على
مقربة من ليفورنو يحيط بهم عدد من أهل تلك المنطقة، ويقف إلى جانبهم جماعة من
الضباط والعساكر الإيطاليين، وكلهم مصدق ببصره إلى نار تضطرم قد بوركت بالنبيذ
صب عليها وباللح أُقى فيها ويفوح منها ريح اللحم الإنساني، وكلهم واجم مخلوع
القلب ذاهب في تيهاء الهراء والذهول، وظل هذا المنظر المروع أمامهم ثلاثة ساعات تباغعاً
يهز نفوسهم هزاً فلا يزدادون إزاءه إلا وجوماً وذهولاً، وتندى عين بعضهم بالدم ثم
تذرفه أن لا تستطيع حبسه، ويتحقق ترلوني بالعظام تحرق واللحم تنبيه النار، ثم
تبأ النار بعد ذلك تخبو رويداً رويداً تاركة وراءها حفنة من تراب هي كل ما بقي من
رفات قيثارة الشعر الإنجليزي شلي، ويحمل ترلوني الحفنة إلى الأرمدة البائسة ماري
شلي لتتولى ويتولى هو ملي هنت معها حملها إلى مقابر البروتستانت في روما كي تستقر
هناك في أرض غريبة عن ثرى الوطن، ولكن لتسعد مع ذلك باستقرارها إلى جانب
رفات عزيزة محبوبة هي رفات ابنه وليم، ويقع هذا المنظر المروع وتنقل تلك الرفات
القدسية إلى روما، ولم يكن شلي قد بلغ إلى يوم وفاته في الثامن من أغسطس تمام
الثلاثين من عمره، وإن كان قد خلف من شعره على الحياة ما لا يزال فخر الشعر
الإنجليزي عذوبة وموسيقى تأخذان بالنفس وتملكان على المرء حسه ولبه، وتبعثان إلى
كل ما تنشدانه وترنمان به الحياة والخلد، سواء أكان ما تنشدانه وترنمان به إنساناً
أو طيراً أو حيواناً أو جماداً أو مجرد خيال لا وجود في الحياة له، ذلك بأن الحياة
كانت تسري في كل ما لامس نفس شلي لتبقى قائمة به قروناً ودهوراً بعد موت باعثها.

